الرسائل النافعة لسالكي طريق الآخرة

تأليف

عبد الهادي بن حسن وهبي

شركة بيت المقدس

الدار الأثرية

الرسائل النافعة لسالكي طريق الآخرة

تأليف

عبد الهادي بن حسن وهبي

شركة بيت المقدس — الدار الأثرية

بسم الله الرحمن الرحيم

الرسائل النافعة
لسالكي طريق الآخرة

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

شركة بيت المقدس
للنشر والتوزيع

الإدارة: حولي- دوار الصادق - مجمع الطخيم - الميزانين - مكتب رقم ١١
هاتف: ٠٠٩٦٥٢٦١٠٢٧٠ فاكس: ٠٠٩٦٥٢٦٣٧١٢٠
المعرض: حولي - ش تونس- مجمع المكتبات الإسلامية - هاتف: ٢٦٣٦٤٨٣
ص ب: ٤٣٧١ - الرمز البريدي: ٣٢٠٧٤ الكويت حولي
E -mail : muqdes@hotmail.com

الدار الأثرية
للطباعة والنشر والتوزيع

عمان - الأردن - تلفاكس: ٠٠٩٦٢ / ٦٥٦٥٨٠٤٥
خلوي: ٠٠٩٦٢/ ٧٩٥٩٤٣٤٥٦ - ص.ب: ٩٢٥٥٩٥ - الرمز البريدي: ١١١٩٠
الرمز الإلكتروني: alatharya1423@yahoo.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الناشر

إن الحمد للّه نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١].

أما بعد؛ فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، وبعد:

فبين يديك ـ أخي الكريم ـ مجموعة من الرسائل النافعة للشيخ الفاضل عبد الهادي بن حسن وهبي ـ حفظه الله تعالى ونفع به ـ جمعناها في سفر واحد تعميمًا للنفع وإتمامًا للفائدة.

وهي رسائل قيمة تحتوي على الإرشاد والنصح، والوعظ والزهد، وتذكر القلوب بالعودة الصادقة إلى علّام الغيوب، وبالعمل الصالح الدؤوب للظفر بالسعادة والهناء والفوز والنجاة في الدنيا والآخرة.

نسأل الله تعالى بمنه ورحمته أن ينفع بها النفع العميم، ويكتب لها القبول في الأرض وهو الرحمن الرحيم، ويغفر لمؤلفها وناشرها ومن قرأها وانتفع بها وجميع المسلمين، إنه جواد كريم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلّم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

الناشـر

الوسيلة الكافية
في
تحصيل العافية

تأليف
عبد الهادي بن حسن وهبي

تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إنَّ الحمدَ لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذُ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده اللهُ فلا مضلَّ له، ومن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أن لا إلهَ إلَّا اللهُ، وحده لا شريكَ له، وأشهد أنَّ محمدًا عبدُه ورسولُه.

أمَّا بعدُ: فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ الله، وأحسنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، وشرَّ الأُمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّار.

أمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ الدُّعاءَ نِعْمَةٌ كُبْرَى، وَمِنْحَةٌ جُلَّى، جَادَ بِهَا المولى تَبَارَكَ وَتَعَالى، وَامْتَنَّ بها على عِبَادِهِ، حَيثُ أَمَرَهُم بِالدُّعَاءِ، وَوَعَدَهُم بِالإِجَابَةِ وَالإِثَابَةِ. ووعدُهُ الحقُّ، وما يبدَّلُ القولُ لديهِ، ولا يخلِفُ الميعادَ.

فَشَأْنُ الدُّعَاءِ عَظِيمٌ، وَنَفْعُهُ عَمِيمٌ، وَمَكَانَتُهُ عَالِيَةٌ في الدِّينِ، ولهُ فَضَائِلُ عَظِيمَةٌ، وَثَمَرَاتٌ جَلِيلَةٌ، وَأَسْرَارٌ بَدِيعَةٌ، منها:

أولاً: الدعاء طاعة وامتثال لأمر الله تعالى:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠].

فَجَعَلَ الدُّعَاءَ لَهُ في حَوَائِجِ العَبْدِ عِبَادَةً، وَجَعَلَ تَارِكَ الدُّعَاءِ مُسْتَكْبِرًا عَنْ عِبَادَتِهِ. سيدخُلُ جهنَّمَ ذليلًا حقيرًا، يجتَمِعُ عليهِ العذابُ والإهانَةُ، جزاءً على استكبارِهِ.

وهذا وعيدٌ شديدٌ لمَنِ استكبَرَ عن دعاءِ الله، وفيه لطْفٌ بعبادِهِ عظيمٌ، وإحسانٌ إليهم جليلٌ حيثُ توعَّدَ مَنْ تَرَكَ طَلَبَ الخيرِ منهُ، واستدفاعَ الشرِّ بهِ، بهذا الوعيدِ البالغِ، وعاقَبَهُ بهذِهِ العقوبَةِ العظيمَةِ.

فَسُبْحَانَ الله العَظِيم ذي الكَرَم الفَيَّاض، وَالجُودِ المُتَتَابِع. فَشُكْرًا لَكَ يا ربِّ عَلى هَذهِ النِّعْمَةِ شُكْرًا يَلِيقُ بِكَ، لا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيكَ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيتَ على نَفْسِكَ.

ثانيًا: الدعاء عبادة:

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الدُّعَاءُ هُوَ الْعِبَادَةُ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: ٦٠][1].

وَلَمْ يَرِدْ هَذَا اللَّفْظُ في أَيِّ مِنْ أَنْوَاعِ العِبَادَةِ الأُخْرىٰ، وَهُوَ نَظِيرُ قَوْلِهِ ﷺ: «الحَجُّ عَرَفَةُ»[2].

وما هذهِ المَرْتَبَةُ السَّامِيَةُ، وَالمَنْزِلَةُ العَالِيَةُ ـ وَاللهُ أَعْلَمُ ـ إِلَّا لعدَّة أمورٍ:

منها: أنَّ الدعاءَ فيه التضرُّعُ إلى اللهِ وإظهارُ الضَّعفِ والحاجَةِ إلى اللهِ.

ومنها: أنَّ العبادةَ كلَّما كانَ القلبُ فيها أخشَعَ والفِكرُ فيها حاضرٌ؛ فهيَ أفضلُ وأكملُ، والدُّعاءُ أقربُ العباداتِ إلى حصولِ هذا المقصودِ؛ فإنَّ حاجةَ العبدِ تدفعُهُ إلى الخشوعِ وحضورِ القلبِ.

ومنها: أنَّ الدُّعاءَ ملازمٌ للتَّوكُّلِ والاستعانةِ باللهِ؛ فإنَّ التَّوكُّلَ هوَ الاعتمادُ بالقلبِ على اللهِ والثِّقَةِ بهِ في حصولِ المحبوباتِ واندفاعِ المكروهاتِ، والدُّعاءُ يقوِّيهِ، بل يعبِّرُ عنهُ ويصرِّحُ به؛ فإنَّ الدَّاعيَ يعلَمُ ضرورتَهُ التَّامَّةَ إلى اللهِ، وأنَّها بيدِ اللهِ، ويطلُبُهَا من ربِّهِ راجيًا لهُ واثقًا به، وهذا هو روحُ العبادَةِ[3].

ومنها: أنَّ الدَّاعيَ يقصِدُ بدعائِهِ التقرُّبَ إلى الله بالدُّعاء وعبادتَهُ التي هيَ أعلى الغاياتِ؛ فيكونُ على يقينٍ من نفعِ دعائِهِ، ومَنْ كانَ هذا قصدُهُ في دعائِهِ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٩٦٩)، وصححه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٣٧٠).
(٢) أخرجه الترمذي (٨٨٩ و٨٩٠) من حديث عبد الرَّحْمَنِ بن يَعْمُر ﷺ، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٧٠٥ و٧٠٦).
(٣) مجموع الفوائد (ص٤٦).

التَّقرُّبَ إلى اللهِ بالدُّعاءِ وحصولِ مطلوبِهِ، فهو أكمَلُ بكثيرٍ ممَّن لا يقصِدُ إلَّا حصولَ مطلوبِهِ فقَطْ؛ كحالِ أكثرِ النَّاسِ؛ فإنَّ هذا نقصٌ وحرمانٌ لهذا الفضلِ العظيمِ، ولمثلِ هذا فليتنافَسِ المتنافسونَ، وهذا من ثمراتِ العلمِ النَّافعِ؛ فإنَّ الجهلَ منعَ الخلقَ الكثيرَ من مقاصدَ جليلةٍ ووسائلَ جميلةٍ، لو عَرفُوها لقصَدُوها، ولو شَعَرُوا بها؛ لتوسَّلُوا إليها[1].

ثالثًا: الدعاء أفضل العبادة:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ الدُّعَاءُ»[2].

فَدَلَّ ذلكَ على عِظَمِ شَأْنِ الدُّعاءِ، وَجَلالَةِ أَمْرِهِ، وأَنَّهُ أَرْفَعُ أَنْوَاعِ العِبَادَةِ وَأَفْضَلُهَا.

وإذا كان الدعاءُ أفضلَ العبادةِ، فمنْ أظلمُ ممَّن صرفَها لغيرِ اللهِ، فاستغاثَ بنبيٍّ أو وليٍّ، وطلبَ أمورًا لا يقدرُ عليها إلَّا اللهُ، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾﴾ [يونس: ١٠٦].

رابعًا: الدعاء أكرم شيء على الله تعالى:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَيْسَ شَيْءٌ أَكْرَمَ عَلَى اللهِ تَعَالَى مِنَ الدُّعَاءِ»[3].

أَي: أَكْثَرُ كَرَامَةً، وَأَعْلى قَدْرًا، وَأَرْفَعُ دَرَجَةً، فَهُوَ أَحْرى بالاستِجَابةِ وَالقَبولِ.

فَقَد دَلَّ هذا الحديثُ على كَرَمِ الدُّعَاءِ وعِظَمِ مَكَانَتِهِ عِنْدَ اللهِ؛ وذلك أَنَّ الدُّعاءَ هو العبادةُ، وهو لُبُّها وَرُوحُها، وَالعِبَادَةُ هيَ الغَايَةُ الَّتي خُلِقَ الخَلْقُ لأَجْلِها، وأُوجِدُوا لِتَحْقِيقِها، وهيَ الموصِلَةُ إلى كلِّ خيرٍ وفلاحٍ وصلاحٍ، وسعادةٍ دنيويَّةٍ وأُخرويَّةٍ. وهي أشرفُ عطايا الكريمِ لعبادِهِ. وهي أشرفُ اللَّذَّاتِ على الإطلاقِ. وهي إن فاتَتْ، فاتَ كلُّ خيرٍ، وحَضَرَ كلُّ شرٍّ. وَأَكْرَمُهَا عندَ اللهِ هوَ الدُّعاءُ.

---

(١) مجموع الفوائد (ص٨٤).

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٤٩١)، وحسنه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (١٥٧٩).

(٣) أخرجه الترمذي (٣٣٧٠)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢٦٤٨).

خامسًا: الدعاء سبب لدفع غضب الله:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّهُ مَنْ لَمْ يَسْأَلِ الله يَغْضَبْ عَلَيْهِ»(١).

وهذا يَدُلُّ على أَنَّ رِضَاهُ في سُؤَالِهِ وَطَاعَتِهِ. وإذا رَضيَ الرَّبُّ تبارك وتعالى، فَكُلُّ خيرٍ في رِضَاهُ، كما أَنَّ كُلَّ بَلاءٍ وَمُصِيبَةٍ في غَضَبِهِ.

فَشَتَّانَ بينَ مَنْ يَغْضَبُ إِنْ سَأَلتَهُ، وبينَ مَنْ يَغْضَبُ إِنْ لم تَسْأَلْهُ.

وَلَقَد أَحْسَنَ مَنْ قَالَ:

لا تسألنَّ بُنَيَّ آدمَ حاجةً ... وسَلِ الذي أبوابُهُ لا تحجَبُ

الله يغضبُ إن تركتَ سؤالَهُ ... وبُنيَّ آدمَ حينَ يُسألُ يغضبُ

فاجعلْ سؤالكَ للإلهِ فإنَّما ... في فضلِ نعمةِ ربِّنا نتقلَّبُ

سادسًا: الدعاء سلامة من العجز:

عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رَسُولُ الله ﷺ: «أَعْجَزُ النَّاسِ مَنْ عَجِزَ في الدُّعَاءِ، وَأَبْخَلُ النَّاسِ مَنْ بَخِلَ بِالسَّلامِ»(٢).

فَالدُّعاءُ أَمْرُهُ يسيرٌ جِدًّا على كُلِّ أَحَدٍ، فَهُوَ لا يَتَطَلَّبُ جُهْدًا عِنْدَ القِيامِ بِهِ، وَلا يَلْحَقُ الدَّاعي بِسَبَبِهِ تَعَبٌ وَلا مَشَقَّةٌ، ولهذا فَإِنَّ العَجْزَ عَنْهُ وَالتَّوَاني في أَدائِهِ هُوَ أَشَدُّ العَجْزِ، والعجزُ هوَ أصلُ الخيبةِ والفَشَلِ. وَحَرِيٌّ بِمَنْ عَجَزَ عَنِ الدعاء مَعَ يُسْرِهِ وَسُهُولَتِهِ أَنْ يَعْجَزَ عَنْ غَيرِهِ، وَلا يَعْجَزُ عَنِ الدُّعَاء إِلَّا دَنِيُّ الهِمَّةِ ضَعيفُ الإيمانِ، فهو لا يدرِكُ خيرًا، ولا ينالُ مَكرُمةً، ولا يحظَى بدينٍ، ولا دُنيًا.

فَأَضْعَفُ النَّاسِ رَأْيًا، وَأَدْنَاهُم هِمَّةً، وَأَعْمَاهُم بَصِيرَةً مَنْ عَجَزَ عَنِ الدُّعَاءِ.

سابعًا: الدعاء سبب لدفع البلاء:

عَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الدُّعَاءَ يَنْفَعُ مِمَّا نَزَلَ، وَمِمَّا

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧٣)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٢٦٨٦).

(٢) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٥٥٩١)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الجامع» (١٠٤٤).

لَمْ يَنْزِلْ، فَعَلَيْكُمْ عِبَادَ الله بِالدُّعَاءِ»[1].

يا لَهُ منْ حديثٍ نافعٍ، وكلامٍ شافٍ وافٍ، إذا أخذَ بهِ العبدُ: تمَّتْ أُمورُهُ وأفلَحَ.

فقد دلَّ هذا الحديثُ العظيمُ القدْرِ الجليلُ النَّفعِ الكبيرُ الشأنِ على مكانَةِ الدُّعاءِ العاليةِ، ومنزلتِهِ الرَّفيعَةِ، فنفعُهُ عظيمٌ، وأثرُهُ عميمٌ، فقد يُدفَعُ عن الدَّاعي مِنَ البلاءِ ما لا يعلَمُهُ بسببِ دعائِهِ. فينبَغي للإنسانِ أن يكثِرَ من الدُّعاءِ لِعِظَمِ فوائِدِهِ.

وعن سلمان ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يردُّ القضاءَ إلَّا الدعاءُ»[2].

فالمريضُ قد يدعو ربَّهُ فيُشفى بسبب دعائِهِ، وعندَ النَّظرِ والتأمُّلِ نجدُ أنَّ الأمرَ يعودُ لقضاءِ الله وقدرِهِ، فهو الذي قدَّرَ أنَّ فلانًا من النَّاسِ يمرضُ، ثمَّ ألهمهُ ووفَّقهُ وقدَّرَ أنَّهُ يدعوه لرفعِ البلاءِ والضُّرِّ عنهُ، ثمَّ شَفَاهُ. فعادَ الأمرُ لقضاءِ الله وقدرِهِ أولاً وآخرًا، وكانت صورتُهُ ظاهرًا أنَّ الدعاءَ ردَّ القضاءَ.

ثامنًا: الدعاء خير كله:

عَنْ أبي سعيد ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا من مسلم يَدْعُو بدَعْوَةٍ، ليسَ فيها إثمٌ، ولا قطيعةُ رحمٍ، إلَّا أعطاهُ اللهُ بها إحدى ثلاثٍ: إمَّا أن تعجَّلَ له دعوتُهُ، وإمَّا أن يدَّخرَها لهُ فيِ الآخرةِ، وإمَّا أن يصرِفَ عنه من السُّوءِ مثلَها»، قالوا: إذًا نُكْثِرُ، قَالَ: «اللهُ أَكْثَرُ»[3].

أي: فضل الله أكثرُ، أي: ما يعطيه منْ فضله وسِعَةِ كرمِهِ أكثرُ ممَّا يعطيكم في مقابلةِ دعائكم.

وهذا غايةٌ في التَّرغيبِ في الدُّعاءِ، ونهايةٌ في استعطافِ قُلوبِ الخلائقِ في الرَّغبةِ إليهِ، واستدرَارِ ما في خزائنِهِ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٤٨)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢٨١٣).
(٢) أخرجه الترمذي (٢١٣٩)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (١٧٣٨).
(٣) أخرجه أحمد (٣/١٨)، وقال الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦٣٣): حسن صحيح.

فالدُّعاءُ لا بدَّ من فائدةٍ فيه تعودُ على الدَّاعي إذا كان مخلصًا، إمَّا باستجابةِ دعائِهِ، وإمَّا بصَرفِ السُّوءِ عنهُ، وإمَّا أن يدَّخرَهُ لهُ في الآخرَةِ: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات: ٨].

وعَنْ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الله حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ[1] يَدَيْهِ: أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا[2] خائبتين»[3].

وهذا فضلٌ عظيمٌ، وثوابٌ جليلٌ، يقتضي من كلِّ راغبٍ في الثَّوابِ، وطامعٍ فيما عندَ الكريمِ الوهَّاب مِنَ الخيرِ: أن يتضرَّعَ إلى الله تعالى ويلُحَّ بالدُّعاءِ ليفوزَ بالأجرِ العظيمِ، ويظفَرَ بالخيرِ العميم. وما دامَ العبدُ يُلِحُّ في الدُّعاءِ، ويطمَعُ في الإجابةِ من غيرِ قطعِ الرَّجاءِ، فهوَ قريبٌ من الإجابةِ، ومَنْ أدمَنَ قرعَ البابِ، يوشِكْ أن يُفتَحَ لهُ.

تاسعًا: الدعاء سببٌ للفوز بمعية الله تعالى:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا دَعَانِي»[4].

وفي بيانِ معية الله من الداعي من التحريض على الدعاء واستدعائه من النفوس وترغيبها فيه، غايةُ حظٍّ لها، وأشرفُهُ، وأجلُّهُ على الإطلاق. وهو أفضلُ إعطاءٍ أعطيَهُ العبدُ، وهو معية الله تبارك وتعالى من عبده التي هي غاية الأماني، ونهاية الآمال، وقرَّةُ العيون، وحياةُ القلوب، وسعادةُ العبدِ كلُّها.

ولمَّا كانَ الدعاءُ بهذهِ المنزلة العظيمة، حثَّ النبي ﷺ أمَّته على الاجتهاد في هذه العبادةِ الجليلةِ النَّفعِ العظيمةِ القدرِ، بقوله: «صَلُّوا عَلَيَّ واجْتَهِدُوا فِي الدُّعَاءِ،

---

(١) أي: إلى الله تعالى لأنَّ الله تعالى مستوٍ على العرش الذي هو فوق السَّماوات. والقول بأنَّ السماءَ قبلة الدعاء، قولٌ محدَثٌ مبتدَعٌ مخالف لإجماع المسلمين، فيكون من أبطل الباطل.

(٢) قوله: «صفرًا»: بكسر الصاد وسكون الفاء، الشيء الخالي الفارغ.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٥٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢٨١٩).

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٧٥).

وَقُولُوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ»[1].

وعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَت: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِذَا سَأَلَ أَحَدُكم فَلْيُكْثِر، فإنَّمَا يَسْأَلُ رَبَّهُ»[2].

ومن تدبَّر هذا الحديثَ حقَّ التدبُّرِ استكثرَ من هذا الخيرِ العظيمِ والأجرِ الجسيمِ، والعطاءِ الجليلِ، والجودِ الجميلِ، فشكرًا لك يا واهبَ الجزلِ ومعطيَ الفضل.

ومنْ أعظمِ المطالبِ، وأرفعِ المراتبِ، التي ينبغي لطالبِ الخيرِ ملازمتُهُ، والاستكثارُ منه، سؤالُ الله العافيةَ وهذا يتبين مِنَ الأحاديث التالية:

١ ـ عن رفاعةَ بنِ رافعٍ قالَ: قامَ أبو بكرٍ الصديقُ على المنبرِ، ثم بكى، فقالَ: قامَ رسولُ الله ﷺ عامَ الأولِ على المنبرِ، ثم بكى، فقالَ: «سلُوا الله العفوَ والعافيةَ، فإنَّ أحدًا لم يُعطَ بعدَ اليقينِ خيرًا منَ العافيةِ»[3].

سألَ النبيُّ ﷺ ربَّه أن يرزقَه العفوَ الذي هو العمدةُ في الفوزِ بدارِ المعادِ، ثمَّ سألَهُ أنْ يرزقَهُ العافيةَ التي هيَ العمدةُ في صلاحِ أمورِ الدُّنيا والسلامةِ من شرورها ومحنها، فكانَ هذا الدعاءُ من الكلمِ الجوامعِ والفوائدِ النوافعِ، فعلى العبدِ أن يستكثرَ من الدعاءِ بالعافيةِ؛ وقد أغنى عن التطويلِ في ذكرِ فوائدِها ومنافِعها ما ذكرَهُ رسول الله ﷺ في هذا الحديثِ، فإنَّها إذا كانت بحيثُ أنَّه لم يعطَ أحدٌ بعدَ اليقينِ خيرًا منها، فقد فاقت كلَّ الخصالِ وارتفعت درجتُها على كلِّ خيرٍ[4].

قال ابن القيم تعليقًا على الحديث المذكور: فجمعَ بين عافيتي الدين والدنيا، ولا يتمُّ صلاحُ العبدِ في الدارينِ إلَّا باليقينِ والعافيةِ، فاليقينُ يدفعُ عنهُ عقوباتِ الآخرة، والعافيةُ تدفعُ عنهُ أمراضَ الدنيا في قلبِهِ وبدنه[5].

---

(١) أخرجه النسائي (١٢٩٢)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن النسائي» (١٢٢٥).
(٢) أخرجه ابن حبان (٨٨٩)، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (١٣٢٥).
(٣) أخرجه الترمذي (٣٥٥٨)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢٨٢١).
(٤) تحفة الذاكرين (ص٣٠٥).
(٥) زاد المعاد (٤/ ٢١٦).

فجمع أمر الآخرة كلَّهُ في كلمةٍ، وأمرَ الدنيا كلَّهُ في كلمة[1].

٢ ـ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من دعوةٍ يدعو بها العبدُ أفضلَ من: اللهمَّ إني أسألكَ المعافاةَ في الدُّنيا والآخرةِ»[2].

أخبرَ النبي ﷺ بهذا القولِ العامِّ والكلامِ الشاملِ بأنَّهُ ما سألَ العبادُ ربَّهم من المسائلِ المتعلِّقةِ بأمورِ الدُّنيا والآخرةِ أفضلَ من أن يسألوه أن يعافيَهم، لأنَّ العمدةَ الكبرى، والمنحةَ العظمى في نيلِ السعادةِ الدنيويةِ والأخرويةِ؛ هيَ العافيةُ، وهذه الكلمةُ ـ كما ترى ـ فيها ما يبعثُ رغباتِ الراغبينَ إلى إدامةِ الطلبِ من ربِّ العالمين أن يعافيَ، فمن رُزِقَ الاستكثارَ من هذا السؤالِ، وحظيَ بتكريرِ هذا الدعاءِ، فقد لاحَ لهُ عنوانُ السعادةِ، وفُتحَ لهُ بابُ الفوزِ والنجاةِ[3].

٣ ـ عن أنس ﷺ: أنَّ النبي ﷺ مرَّ بقومٍ مبتلينَ، فقال: «أمَا كانَ هؤلاءِ يسألونَ الله العافيةَ؟!»[4].

العافيةُ: هيَ دفاعُ الله عن العبدِ، وهذا الدفاعُ المضافُ إلى الاسمِ الشريفِ يشملُ كلَّ نوعٍ من أنواعِ البلايا والمحن، فكلُّ ما دفعهُ الله عن العبدِ منها فهوَ عافيةٌ[5].

وفي الحديثِ دليلٌ على أنَّ سؤالَ الله العافيةَ يدفعُ كلَّ بليةٍ ويرفعُ كلَّ محنةٍ، ولهذا جاءَ ﷺ بهذا الاستفهامِ بمعنى الاستنكارِ، فكأنَّه قالَ لهم: كيفَ تتركونَ أنفسَكم في هذهِ المحنةِ والابتلاءِ؟ وأنتم تجدونَ الدواءَ الحاسمَ لها والمرهمَ الشافي لما أصابَكُم منها، وهو الدعاءُ بالعافيةِ، واستدفاعُ هذهِ المحنةِ النازلةِ بكم بهذهِ الدعوةِ الكافيةِ، وفي هذا ما يزيدُ النفوسَ نشاطًا والقلوبَ بصيرةً باستعمالِ هذا الدواءِ عندَ

---

(١) الفتح الرباني (١٤/ ٢٩١).
(٢) أخرجه ابن ماجة (٣٨٥١)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجة» (٣١٠٦).
(٣) تحفة الذاكرين (ص٣٠٦).
(٤) أخرجه البزار في «كشف الأستار» (٣١٣٤)، وصححه العلامة الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٢١٩٧).
(٥) تحفة الذاكرين (ص٣٠٥).

عُروضِ كلِّ داءٍ، ومِساسِ كلِّ محنةٍ، ونزولِ كلِّ بليَّةٍ[1].

قال أحد الصالحين: أكثروا من سؤالِ العافيةِ، فإنَّ المبتلى - وإن اشتدَّ بلاؤهُ - لا يأمنُ ما هو أشدُّ منه. وإنَّ المبتلى - وإن اشتدَّ بلاؤهُ - ليسَ بأحقَّ بالدعاءِ من المعافى الذي لا يأمنُ البلاء. وما المبتلَون اليوم إلَّا مِنْ أهل العافية بالأمس، وما المبتلَون بعد اليوم إلَّا مِنْ أهل العافية اليوم.

٤ - عن ابن عباس رضي الله عنهما: أنَّ النبي ﷺ قال لعمِّه: «أكثرِ الدعاءَ بالعافيةِ»[2].

فلينظُر العاقلُ مقدارَ هذهِ الكلمةِ التي اختارَها رسولُ الله ﷺ لعمِّهِ من دونِ الكلم، وليؤمن بأنه ﷺ أُعطيَ جوامعَ الكلم، واختُصرَت له الحكمُ؛ فإن من أعطيَ العافية فازَ بما يرجوه ويحبُّه قلبًا وقالبًا ودينًا ودنيًا، ووُقيَ ما يخافُه في الدارين علمًا يقينًا[3].

فهذا هو نيلُ الهَنَا، وبلوغُ المُنَى، والله ذو الفضلِ والإحسانِ، وهو أعلمُ بالصَّوابِ، وإليه المنتهى والمآبُ، وعليهِ قصدُ السَّبيل، وهو حسبنا ونعمَ الوكيلُ.

٥ - عن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله علِّمني شيئًا أسألهُ الله ؟ قال: «سلِ الله العافية». فمكثتُ أيامًا ثمَّ جئتُ فقلتُ: يا رسولَ الله علِّمني شيئًا أسألهُ الله؟ فقال لي: «يا عباسُ، يا عمَّ رسولِ الله: سلِ الله العافيةَ في الدُّنيا والآخرة»[4].

وفي أمرهِ ﷺ للعباسِ بالدعاءِ بالعافيةِ - بعد تكريرِ العباسِ سؤالَه بأن يعلِّمَه شيئًا يسألُ الله به - دليلٌ جليٌّ بأن الدعاءَ بالعافية لا يساويه شيءٌ من الأدعيةِ، ولا يقومُ مقامَهُ شيءٌ من الكلامِ الذي يُدعا به ذو الجلال والإكرام؛ وقد تقدَّم تحقيقُ معنى العافيةِ أنها دفاعُ الله عنِ العبدِ، فالداعي بها قد سألَ ربَّهُ دفاعَه عنه كلَّ ما ينوبُهُ، وقد كان رسول الله ﷺ يُنْزِلُ عمَّهُ العباسَ منزلةَ أبيه ويرى له من الحقِّ ما

---

(١) تحفة الذاكرين (ص٣٠٦).
(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٥٢٩) وصححه، ووافقه الذهبي.
(٣) تحفة الذاكرين (ص٣٠٧).
(٤) أخرجه الترمذي (٣٥١٤)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٩٠).

يراه الولدُ لوالدِهِ، ففي تخصيصِهِ بهذا الدعاءِ وقصرِهِ على مجرَّدِ الدعاءِ بالعافيةِ تحريكٌ لهممِ الراغبينَ على ملازمتِهِ، وأن يجعلوه من أعظمِ ما يتوسلونَ به إلى ربِّهم، ويستدفعونَ به في كلِّ ما يُهِمُّهُم؛ ثمَّ كلَّمه ﷺ بقوله: «سلِ الله العافيةَ في الدُّنيا والآخرة»، فكان هذا الدعاءُ من هذهِ الحيثيةِ قد صارَ عدةً لدفعِ كلِّ ضُرٍّ وجلبِ كلِّ خيرٍ[1].

نسألُ الله لنا ولكم العافية في الدنيا والآخرة، وما ذلك على الله بعزيز، ويختصُّ برحمته من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

٦ ـ عن أنسٍ ﷺ قال: أتى النبيَّ ﷺ رجلٌ فقال: يا رسول الله، أيُّ الدعاءِ أفضلُ؟ قال: «سل الله العفو والعافية في الدُّنيا والآخرة». ثم أتاه الغد فقال: يا نبي الله! أي الدعاء أفضل؟ قال: «سل الله العفو والعافية في الدُّنيا والآخرة...»[2].

العافية في الدنيا هي: دفاعُ الله عنِ العبدِ جميعَ الأسقامِ والبلايا، وجميعَ ما يكرهه ويُشينهُ، والعافيةُ في الآخرة هي: دفاعُ الله عنهُ جميعَ أهوالِ الآخرةِ وأفزاعها، ولا يخرجُ مطلوبُ العبدِ من هذينِ القسمين، والله أعلم[3].

فقد أفاد هذا الحديثُ أنَّ الدعاءَ بالعافية أفضلُ من غيره من الأدعية. فمن منَّ الله عليه بالعافية فقد أفلحَ وفازَ وربحَ أعظمَ الربح. ومن أُوتيَ العافيةَ في الدُّنيا والآخرة فقد أوتيَ الخيرَ بحذافيره، والعافيةُ لا يعدلها شيء.

٧ ـ عن عبد الله بن أبي أوفى ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «..وسلوا الله العافيةَ..»[4].

هذا حديثٌ عظيمٌ مشتملٌ على مطلبٍ جليلٍ، ومقصدٍ عظيمٍ، ففيه الحثُّ على سؤال الله العافية. وهي «من أجلِّ نعمِ الله على عبده، وأجزلِ عطاياه، وأوفرِ

---

(١) تحفة الذاكرين (ص٣٠٧).

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٦٣٧)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٤٩٦). وللحديث تتمة ضعفها العلامة الألباني.

(٣) العلم الهيِّب (ص٢٤٨)، بتصرف يسير.

(٤) أخرجه البخاري (٣٠٢٥)، ومسلم (١٧٤٢).

مِنَحِهِ، بل العافيةُ المطلقةُ أجلُّ النِّعمِ على الإطلاقِ»[1]. لأنَّها لتحصيلِ المقاصدِ وافيةٌ، ولدفعِ البلايا كافيةٌ.

والعافيةُ المطلقةُ هي العافيةُ منَ الكفرِ والفسوقِ والعصيانِ والغفلةِ والأمراضِ والأسقامِ والفتنِ، وفعلِ ما لا يحبه وترك ما يحبه، فهذه حقيقةُ العافيةِ، ولهذا ما سئل الربُّ شيئًا أفضل من العافية، لأنَّها دعوةٌ جامعةٌ وشاملةٌ للوقايةِ من الشرور كلِّها في الدنيا والآخرة.

ومما يدل على هذا ما قاله شَكَل بن حُمَيد ﷺ: قلتُ: يا رسولَ الله! علِّمني دعاءً أنتفعُ به. قال: «قل: اللهمَّ! عافني من شرِّ سمعي، وبصري، ولساني، وقلبي، وشرِّ منِيِّي»[2].

(اللهمَّ عافني من شرِّ سمعي): كي لا أسمعَ ما لا ترضاهُ؛ كالشركِ والكفر والغيبة والنميمة والزورِ والبهتان والمعازف، ونحو ذلك.

(وبصري): كي لا أنظرَ إلى محرَّم، ومنهُ النظرُ على وجهِ الاحتقارِ لأحدٍ من العبادِ، أو أهمِلَ النظر والاعتبار في مخلوقاتِ الله تعالى.

(ولساني): فلا أنطقُ إلَّا خيرًا، ولا أقولُ إلَّا حقًا، ولا أخوضُ فيه بالباطل.

(وقلبي): حتى لا أعتقدَ اعتقادًا فاسدًا فيه، ولا يكونَ فيه أدنى حقدٍ أو حسدٍ ولا تصميم على فعلٍ مذمومٍ أبدًا، ولا أشغلَهُ بغير الله ولا بغير أمره.

(وشرِّ منِيِّي): بأن أوقعَهُ في غير محلِّهِ، أو يوقعَني في مقدِّمات الزنا؛ من النظرِ واللمسِ والمشي والعزمِ وأمثال ذلك.

وفي الحديثِ الالتجاءُ إلى الله تعالى بالمعافاةِ من شرِّ السمعِ والبصرِ واللسانِ والقلبِ والمني، لأنَّ هذه الحواس والأشياء قد خُلقت للطاعاتِ[3].

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٢١٤).

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٦٦٣) واللفظ له، وأبو داود (١٥٥١)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الأدب المفرد» (٥١٦).

(٣) شرح صحيح الأدب المفرد (٢/ ٣١٩ ـ ٣٢٠).

٨ ـ عن أبيٍّ بنِ كعبٍ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «أسألُ الله معافاتَهُ ومغفرتَهُ... أسألُ الله معافاتَهُ ومغفرتَهُ... أسألُ الله معافاتَهُ ومغفرتَهُ»[١].

المعافاة: المرادُ بها المعافاةُ في الدين والدُّنيا، فتشملُ الأمرين: أن يعافيَك من أسقامِ الدِّينِ، وهي أمراضُ القلوبِ التي مدارُها على الشهواتِ والشُّبُهاتِ، ويعافيَك من أمراضِ الأبدان، وهي اعتلالُ صحَّةِ البدنِ.

والإنسانُ مُحتاجٌ إلى هذا وإلى هذا، وحاجتُهُ إلى المعافاةِ من مرضِ القلبِ أعظمُ من حاجتِهِ إلى المعافاةِ من مرض البدنِ. ولهذا يجبُ علينا أن نلاحظَ دائمًا قلوبَنا، وننظُرَ: هل هي مريضةٌ أو صحيحةٌ؟ وهل صَدِئتْ أو هي نظيفةٌ؟ فإذا كنتَ تنظِّفُ قلبَكَ دائمًا في معاملتِكَ معَ الله، وفي معاملتِكَ مع الخلقِ؛ حَصَّلتَ خيرًا كثيرًا، وإلَّا سوفَ تغفَلُ، وتَفقِدُ الصِّلةَ بالله.

فحافظ على أن تفتِّشَ قلبكَ دائمًا، فقد يكونُ فيهِ مرضُ شبهةٍ أو مرضُ شهوةٍ، وكلُّ شيءٍ ولله الحمدُ لهُ دواءٌ، فالقرآنُ دواءٌ للشُّبُهاتِ والشَّهواتِ[٢].

قال ابن القيم ـ في معنى العفو والعافية والمعافاة ـ: وهذه الثلاثةُ تتضمنُ إزالةَ الشرورِ الماضية بالعفو، والحاضرة بالعافية، والمستقبلة بالمعافاة، فإنَّها تتضمنُ المداومةَ والاستمرارَ على العافيةِ[٣].

٩ ـ عن عبد الله بن عمر ﷺ قال: كان من دعاء رسول الله ﷺ: «اللهم إنِّي أعوذ بك من زوالِ نعمتك، وتحوُّلِ عافيتكَ، وفجاءةِ نِقمَتِكَ، وجميعِ سخَطِك»[٤].

استعاذ رسول الله ﷺ من زوالِ نعمتهِ، لأنَّ ذلكَ لا يكونُ إلَّا عندَ عدمِ شكرِها، لأنَّ شكرَ النِّعمةِ يوجبُ مزيدها واستمرارها على العبدِ فلا تنزَعُ منه.

---

(١) أخرجه النسائي (٩٣٩)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن النسائي» (٩٠٠).
(٢) الشرح الممتع (٤/ ٢٢).
(٣) زاد المعاد (٤/ ٢١٦).
(٤) أخرجه مسلم (٢٧٣٩).

ولله دَرُّ القائل:

إذَا كـنـتَ فـي نِـعـمَـةٍ فـارعَـهَـا فـإنَّ الـمـعَـاصِـي تُـزيـلُ الـنِّـعَـمْ
وحـافِـظ عَـلَـيـهـا بـشُـكـرِ الإلـهِ فَـشـكـرُ الإلـهِ يُـزِيـلُ الـنِّـقَـمْ

واستعاذَ أيضًا ﷺ من تحوُّلِ عافيتهِ سبحانه؛ لأنَّهُ إذا كان قد اختصَّه الله سبحانه بعافيته: فقد ظفرَ بخيرِ الدارين؛ فإن تحوَّلَت عنه فقد أصيبَ بشرِّ الدارين. فإنَّ العافيةَ يكونُ بها صلاحُ أمورِ الدُّنيا والآخرة.

واستعاذ ﷺ من فجاءَةِ نِقمةِ الله سبحانه؛ لأنَّهُ إذا انتقم من العبد فقد أحلَّ به من البلاءِ ما لا يقدرُ على دفعه ولا يستدفعُ بسائر المخلوقين ـ وإن اجتمعوا جميعًا ـ كما جاء في الحديث الصحيح: «واعلم أنَّ الأمَّةَ؛ لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ؛ لم ينفعوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتبهُ الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضُرُّوكَ بشيءٍ؛ لم يَضُرُّوكَ إلَّا بشيءٍ قد كتبهُ الله عليكَ»[1].

والفُجَاءَةُ: بضم الفاء وفتح الجيم ممدودةٌ، مشتقةٌ من فاجأهُ مفاجأةً، إذا جاءهُ بغتةً من غير أن يعلم بذلك.

واستعاذ ﷺ من جميع سخطه: لأنَّهُ سبحانهُ إذا سخطَ على العبدِ فقد هلكَ وخابَ وخسرَ، ولو كانَ السخطُ في أدنى شيءٍ وبأيسرِ سببٍ، ولهذا قالَ الصادقُ المصدوقُ ﷺ: «وجميعِ سخطك»، وجاءَ بهذهِ العبارةِ شاملةً لكلِّ سخطٍ[2].

○ سل الله العافية عند السجود:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: فقدتُ رسول الله ﷺ ليلةً من الفراشِ فالتمستُهُ، فوقعت يدي على بطنِ قدمه وهو في المسجدِ، وهما منصوبتانِ وهو يقولُ: «اللهمَّ إني أعوذُ برضاكَ من سَخَطِك، وبمعافاتِكَ من عقوبتِكَ، وأعوذُ بكَ منكَ، لا أحصي ثناءً عليكَ، أنتَ كما أثنيتَ على نفسِك»[3].

والمعافاة، هيَ: أن يعافيَك الله من كلِّ بليَّةٍ في الدِّينِ، أو في الدُّنيا، وضدُّ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٦١٠).
(٢) تحفة الذاكرين (ص٢٨٠ ـ ٢٨١).
(٣) أخرجه مسلم (٤٨٦).

المعافاة: العقوبةُ، والعقوبةُ لا تكونُ إلَّا بذنبٍ، وإذا استعذتَ بمعافاةِ الله من عقوبتِهِ، فإنَّكَ تستعيذُ من ذنوبك حتى يعفوَ الله عنكَ، إمَّا بمجرَّدِ فضله، وإمَّا بالهدايةِ إلى أسبابِ التوبة[1].

وإذا تأمَّلَ العاقلُ الفطنُ اللَّبيبُ هذا الدعاءَ وتدبَّرهُ، يعلمُ قدرَه وشدَّةَ حاجتهِ إليه، وانتفاعَهُ به.

○ سل الله العافية عند النوم:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: أنَّه أمر رجلًا، إذا أخذ مضجعه، قال: «اللهمَّ! خلقتَ نفسي وأنت تتوفَّاها، لك مماتُها ومحياها. إن أحييتَها فاحفظْها، وإن أمَتَّها فاغفِرْ لها. اللهمَّ! إني أسألُكَ العافية» فقال له رجلٌ: أسمعتَ هذا من عمرَ؟ فقال: من خيرٍ من عمرَ، من رسول الله ﷺ[2].

(نفسي): أي: روحي.

(لك مماتها ومحياها): أي: بيدكَ قدرة إماتتها وإحيائها، ولا يقدرُ على ذلكَ غيرك، لك ذلك، أنتَ المحيي، وأنتَ المميت، وأنتَ على كلِّ شيءٍ قدير.

(إن أحييتها): يعني: إن أبقيتها على حياتها.

(فاحفظها): يعني: من كلِّ ما يُضرُّه ويُشينه.

(وإن أَمَتَّها): أي: فارقتها عن بدني، لأنَّ إماتةَ الروح عبارةٌ عن مفارقتهِ البدنَ.

(أسألك العافية): قد فسرنا العافية بأنَّها دفاعُ الله عن العبد الأسقامَ والبلايا[3].

---

(١) الشرح الممتع (٤/ ٣٧).
(٢) أخرجه مسلم (٢٧١٢).
(٣) العلم الهيِّب (ص١٧٧).

○ سل الله العافية عند زيارة القبور:

عن بريدةَ ﷺ قال: كان رسول الله ﷺ يعلِّمهم إذا خرجوا إلى المقابر، فكان قائلهم يقول: «السَّلامُ عليكم أهلَ الدِّيارِ من المؤمنينَ والمسلمينَ، وإنَّا إن شاءَ اللهُ للاحقونَ، أسألُ اللهَ لنا ولكمُ العافيةَ»[1].

أما وجهُ السؤالِ العافيةَ للأحياءِ فظاهرٌ، وأمَّا وجهُ السؤالِ للموتى فالمرادُ بها أن يدفعَ الله عنهم العذابَ، ويخففَ عليهمُ الحساب[2].

فاحرص ـ بارك الله فيك ـ على زيارة القبورِ، وأحسنْ إلى المزورِ بالدعاءِ لهُ، والترحُّمِ عليه، والاستغفارِ لهُ، وسؤالِ العافيةِ لهُ؛ فتكونَ محسنًا إلى نفسكَ، وإلى الميِّت.

○ سل الله العافية عند الصباح والمساء:

١ ـ عن ابن عمر ﷺ، قال: لم يكن رسولُ الله ﷺ يدَعُ هؤلاءِ الدعواتِ حينَ يُمسي وحينَ يصبحُ: «اللهمَّ إني أسألكَ العافيةَ في الدُّنيا والآخرة، اللهمَّ إني أسألك العفو والعافية في ديني، ودنياي، وأهلي، ومالي؛ اللهمَّ استُرْ عوراتي، وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يديَّ، ومن خلفي، وعن يميني، وعن شمالي، ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أُغتالَ من تحتي»[3].

العافية في الدين: السلامةُ من المعاصي والابتداعِ، ومن تركِ ما يجبُ، ومن التساهلِ في الطاعات.

وفي الدُّنيا: السلامةُ من شرورها ومصائبها.

وفي الأهلِ: السلامةُ من سوء العشرة والأمراضِ والأسقامِ، وشُغْلِهم بطلبِ التوسُّع في الحطام.

وفي المال: السلامةُ من الآفاتِ التي تحدث فيه.

---

(١) أخرجه مسلم (٩٧٥).
(٢) العلم الهيِّب (ص٤٠١).
(٣) أخرجه أبو داود (٥٠٧٤)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٣/٢٤٨).

وستر العورات: عامٌّ لعورةِ البدنِ والدينِ والأهل والدُّنيا والآخرة.

وتأمينُ الروعاتِ كذلك، والروعاتُ: جمعُ روعةٍ: وهي الفزعُ.

وسأل الله الحفظَ لهُ من جميعِ الجهاتِ، لأنَّ العبدَ بين أعدائه من شياطين الإنس والجن كالشاة بين الذئاب، إذا لم يكن له حافظ من الله فما له من قوة.

وخصَّ الاستعاذة بالعظمة عن الاغتيال من تحته، لأنَّ الاغتيالَ أخذُ الشيءِ خفيةً، وهو أنْ يخسفَ به الأرضَ كما صنعَ الله تعالى بقارونَ أو بالغرقِ كما صنع بفرعونَ، فالكلُّ اغتيال من التحت[1].

وهذا الحديثُ من جوامعِ الأدعيةِ، إذ أجمل السؤال من كلِّ خير والاستعاذة من كلِّ شرٍّ[2].

٢ ـ وعن عبد الرحمن بن أبي بكرةَ، أنَّهُ قال لأبيه: يا أبتِ! إني أسمعكَ تدعو كلَّ غداةٍ: «اللهمَّ عافني في بدني، اللهمَّ عافني في سمعي، اللهمَّ عافني في بصري، لا إله إلَّا أنت»، تعيدها ثلاثًا حين تمسي، وحين تصبح ثلاثًا، وتقول: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر، اللهمَّ إني أعوذ بك من عذاب القبر، لا إله إلَّا أنت» تعيدها ثلاثًا حين تمسي، وحين تصبح ثلاثًا؟ فقال: نعم؛ يا بني! سمعت رسول الله ﷺ يقول بهنَّ، وأنا أحبُّ أن أستنَّ بسنَّته[3].

(اللهمَّ عافني في بدني): أي: لأقوى على طاعتكَ وعبادتكَ، والجهادِ في سبيلكَ ونصرةِ دينكَ.

(اللهمَّ عافني في سمعي، اللهمَّ عافني في بصري): لأستخدمَهما في طاعتك.

وفي تقديم السمع إيماءٌ إلى أفضليته، ومنه قوله ﷺ: «ومتِّعنا بأسماعنا

---

(١) سبل السلام (٤/ ٢٢١).
(٢) شرح صحيح الأدب المفرد (٣/ ٣١٤ ـ ٣١٥).
(٣) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٧٠١)، وأبو داود (٥٠٩٠) بسند حسن.

وأبصارنا وقوَّتِنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منَّا»[1]؛ أي: أدم لنا الانتفاعَ بهذه الأمور ما دمنا في الحياةِ الدنيا، فإنَّهُ لا حياةَ لمن لم يكن متمتعًا بها، ولا عيشَ لمن فقدها، ثمَّ أكَّدَ ما أفادهُ هذا الكلام بقوله: «واجعله الوارث منَّا» أي: اجعلهُ باقيًا نافعًا حتى تتوفَّانا، فمعنى الوراثة لزومها له عند موته لزوم الوارث له فكأنها ـ لمَّا لم تذهب إلا بذهابه ولم تفقد إلَّا بموته ـ باقية، والنَّفعُ بها مستمر.

(لا إله إلا أنت): لا معبود بحق إلَّا أنت.

(وأنا أحبُّ أن أستنَّ بسنَّته): فيه حرصهم على العملِ، والاستنان بسنَّة النبي ﷺ والاهتداء بهديه.

فاعلم ـ يرحمني الله وإيَّاك ـ أنَّ هذا من جوامع الأدعية، وقد تضمَّنَ الخير العظيم لمن تأمَّلهُ، فاحرص على الاستنانِ بسنَّةِ النبي ﷺ كما حرصَ عليها ذلك الصحابي الجليل رضي الله عنه، وبادر إلى حفظهِ والعملِ بهِ ما استطعتَ إلى ذلك سبيلاً[2].

وإذا رأيتَ مبتلًى فاذكر منَّةَ الله ونعمته وفضله عليك، واحمد الله على العافية.

٣ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «منْ رأى مبتلىً، فقال: الحمدُ لله الذي عافاني ممَّا ابتلاكَ به، وفضَّلني على كثيرٍ ممَّنْ خلقَ تفضيلاً؛ لم يُصِبْهُ ذلكَ البلاءُ»[3].

(مبتلًى): أي: مبتلًى بنوعٍ من الأمراضِ والأسقام.

(وفضَّلني على كثيرٍ ممَّنْ خلقَ): يجوزُ أن يكونَ المرادَ به الجماعةُ المبتلَون، وتفضيل الله إيَّاه عليهم، بحيثُ إنَّهُ سلَّمهُ من هذا البلاء الذي ابتلاهم به، ويجوز أن يكون المرادُ سائرَ المخلوقاتِ سوى بني آدم، لكنَّ بني آدم كرَّمهم الله تعالى

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٠٢)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٤٤٢).
(٢) شرح صحيح الأدب المفرد (٢/ ٣٧١)، للشيخ حسين العوايشة حفظه الله تعالى.
(٣) أخرجه الترمذي (٣٤٣٢)، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٢٧٣٧).

على سائر المخلوقات، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

وينبغي أن يقولَ هذا الذكر سرًّا، بحيثُ يُسمعُ نفسه، ولا يُسمعه المبتلَى، لئلا يتألمَ قلبهُ بذلك، إلَّا أن تكون بليته معصيةً، فلا بأس أن يُسمعَهُ ذلك، إن لم يخف من ذلك مفسدةً[١].

وإن زرتَ مريضًا، فادع لهُ بالدعاء المأثور سبعًا، عسى الله أن يستجيبَ دعاءك ويمنَّ على المريض بالعافية.

٤ ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما: عن النبي ﷺ قال: «من عادَ مريضًا لم يحضُرْ أجَلُهُ، فقال عندهُ سبعَ مِرارٍ: أسألُ الله العظيمَ، ربَّ العرشِ العظيمِ، أنْ يشفيَكَ؛ إلَّا عافاهُ الله منْ ذلكَ المرضِ»[٢].

فإن قلت: من أين يعرِفُ العائدُ أنَّ المريضَ يحضُرُ أجلُهُ أم لا يحضُرُ؟ قلت: المعنى أنَّ الرجلَ إذا عاد مريضًا، وقرأ عنده هذا الدعاءَ سبعَ مرات، وكانَ هذا المريضُ في علم الله لم يحضُر أجلُه، يعافَى لهُ ببركةِ هذا الدُّعاء، وإلَّا إذا كان الأجلُ حاضرًا لم ينفع الدعاء إلَّا في ثوابِ القراءة خاصَّةً، والله أعلمُ[٣].

وإن استيقظت من النوم فاحمد الله على العافية.

٥ ـ عن أبي هريرة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «إذا استيقظ أحدكم فليقل: الحمدُ لله الذي ردَّ عليَّ روحي، وعافاني في جسدي، وأذنَ لي بذكره»[٤].

(الحمد لله الذي ردَّ عليَّ روحي): إنَّما أمرَ بالحمد بعد الاستيقاظِ لأنَّ قيامهُ منْ نومهِ، وردَّ روحهِ إلى بدنه من أعظم النِّعمِ، فالحمد على النِّعمةِ واجبٌ.

(وعافاني في جسدي): من المعافاةِ، وهيَ دفاعُ الله عَنِ العبدِ الأسقامَ

---

(١) العلم الهيِّب (ص٥٣١ ـ ٥٣٢).
(٢) أخرجه أبو داود (٣١٠٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٦٣٨٨).
(٣) العلم الهيِّب (ص٣٩٩).
(٤) أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» (٨٦٦)، وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٩) واللفظ له. وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٣٢٩).

والبلايا، أمر بحمده حيثُ أقامهُ من نومهِ على عافيةٍ، وحَفِظَهُ في فراشهِ من لسعِ حيةٍ، ولدغِ عقربٍ، ونحوِهِ مِنَ المهلكاتِ، والأشياءِ الغائبةِ عنه[1].

(وأذنَ لي بذكره): أي: يسَّر لي، وسهَّلَ لي ذكرَهُ، وهو أيضًا نعمةٌ عظيمةٌ[2].

وإن أصبحت معافًى في جسدك فاذكر منَّة الله عليك.

٦ ـ عن عبيدِ الله بنِ مِحْصَنٍ الخَطْمِيِّ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من أصبحَ منكم آمنًا في سربهِ، معافًى في جسده، عندهُ قوتُ يومهِ؛ فكأنَّما حِيزَتْ له الدنيا»[3].

(آمنًا في سربه): آمنًا على نفسه وأهله وعياله وماله.

(معافًى في جسده): أي: من الأمراض، أي: صحيحًا سالمًا من العلل والأسقام.

(عنده قوت يومه): أي: كفاية قوتهِ وحاجته؛ منْ وجهٍ حلالٍ.

(فكأنما حيزت له الدنيا): أي: ضُمَّت وجُمِعت.

«فمن جمع الله لهُ بينَ عافيةِ بدنهِ وأمنِ قلبه؛ حيثُ توجَّه، وكفاف عيشه بقوتِ يومه وسلامة أهله؛ فقد جمعَ الله له جميعَ النِّعم التي من ملكَ الدنيا لم يحصل على غيرها، فينبغي أن لا يستقبل يومه ذلك إلَّا بشكرها، بأن يصرفها في طاعة المُنْعِم لا في معصيتِهِ، ولا يفترَ عنْ ذكره»[4].

فلا بدَّ للإنسانِ أن يستشعرَ ما هو فيه من الصحةِ والأمنِ والعافيةِ من كلِّ داءٍ وبلاء.

---

(١) العلم الهيِّب (ص٢١٨).
(٢) العلم الهيِّب (ص١٦٨).
(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٤٦)، وابن ماجه (٤٢١٦)، وحسنه الألباني رحمه الله بطرقه في «الصحيحة» (٢٣١٨).
(٤) فيض القدير (١١/ ٥٦٦٢).

أيها القارىء الكريم: هل تعلم بأننا نعيشُ في عصرٍ كثرت فيه الفتنُ، وعظمت فيهِ الخطوبُ والمحنُ. فأين أنت من سؤال الله العافية؟!

هل تعلم بأننا نستقبلُ أحوالاً صعبةً، وأهوالاً شديدةً، وكرباتٍ عظيمةً، من الموتِ والقبرِ وأهوالِ القيامةِ، ولا نجاةَ منها إلَّا برحمة الله وعنايته. فحريٌّ بك أن تتضرَّعَ إلى الله تعالى وتسألَهُ العافيةَ في الدنيا والآخرة. وليكنْ ذلكَ بإلحاحٍ دائمًا، ما تعاقبَ الليلُ والنَّهار، وأنتَ على قيدِ الحياةِ وقبلَ المماتِ.

نسأل الله الحي القيوم ذا الجلال والإكرام أن يكتبَ العافية في الدُّنيا والآخرة، لمن جمعَ هذه الكلمات، وقرأها وبثَّها ونشرها في أنحاء البلاد، طمعًا بالأجر والثواب من الكريم الوهاب. وما ذلك على فضلِ الله وكرمهِ بعزيزٍ ولا جليلٍ.

ونسألهُ سبحانه أن يوفقنا وإيَّاكم لمراضيه، ويجعل مستقبلَ حالنا وحالكم خيرًا من ماضيه.

وآخر دعوانا أن الحمدُ لله ربِّ العالمين.

الخصال المنجِيَة
في
الدُّنيا والآخرة

تأليف
عبد الهادي بن حسن وهبي

تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إِنَّ الحَمدَ للهِ نَحمَدُهُ وَنَستَعِينُهُ وَنَستَغفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِن شُرُورِ أَنفُسِنَا وَمِن سَيِّئَاتِ أَعمَالِنَا، مَنْ يَهدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضلِل فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشهَدُ أَنْ لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيرَ الكَلَامِ كَلَامُ اللهِ، وَخَيرَ الهَدِي هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحدَثَاتُهَا؛ وَكُلَّ مُحدَثَةٍ بِدعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ كُلَّ إِنْسَانٍ يُحِبُّ أَنْ يَنْجُوَ مِنَ العَذَابِ في الدُّنيَا وَالآخِرَةِ.

وَالنَّجَاةُ في فَهْمِ الكَثِيرِينَ في هَذِهِ الأَيَّامِ ـ مَعَ الأَسَفِ الشَّدِيدِ ـ: أَنْ يُحَافِظُوا عَلَىٰ الوَظِيفَةِ، وَيَظْفَرُوا بِالدِّرْهَمِ وَالدِّينَارِ.

«النَّجَاةُ في فَهْمِ مُعْظَمِ النَّاسِ: أَنْ يَنَالُوا رِضْوَانَ المَسْؤُولِينَ.

النَّجَاةُ في فَهْمِ سَوَادِ النَّاسِ: أَنْ يَفِرُّوا مِنْ عِتَابِ العَاتِبِينَ وَغَضَبِ الغَاضِبِينَ.

النَّجَاةُ في فَهْمِ الغَالِبِيَّةِ: أَنْ يَحْظَوْا بِعَيْشٍ طَيِّبٍ في الدُّنْيَا بِأَيِّ وَسِيلَةٍ تَيَسَّرَتْ.

هَا هُوَ الانهِيَارُ يَدُبُّ في مُجْتَمَعَاتِنَا؛ بِفُشُوِّ الْكَذِبِ وَالدَّجَلِ وَالنِّفاقِ؛ لِتَرَدِّي فَهْمِنَا لِمَدْلُولِ النَّجَاةِ.

لَقَدْ أَصْبَحَ مَفْهُومُ النَّجَاةِ عِنْدَنَا هَلاكًا، وَمَفْهُومُ الهَلاكِ نَجَاةً!

فَلْيَكُنْ فَهْمُنَا لِلنَّجَاةِ: أَنْ نُزَحْزَحَ عَنِ النَّارِ وَنُدْخَلَ الجَنَّةَ»[1].

---

(١) كعب بن مالك (ص٨٦).

قَالَ تَعَالَىٰ : ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

وِللهِ دَرُّ القَائِلِ:

لَيسَ السَّعِيدُ الَّذِي دُنْيَاهُ تُسْعِدُهُ إنَّ السَّعِيدَ الَّذِي يَنْجُو مِنَ النَّارِ

مَا هِيَ الخِصَالُ المُنْجِيَةُ مِنَ العَذَابِ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ؟ هَذَا أَوَانُ الحَدِيثِ عَنْهَا فَأَلْقِ سَمْعَكَ وَأَحْضِرْ قَلْبَكَ، وَكُنْ مِنَ الذينَ يَسْتَمِعُونَ القَولَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ.

الراجي عفو ربّه
عبد الهادي بن حسن وهبي

الخصال المنجية
في الدنيا والآخرة

أولاً: تحقيقُ التوحيدِ:

عَنْ مُعَاذٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ رِدْفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَىٰ حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ: عُفَيرٌ، فَقَالَ: «يَا مُعَاذُ، هَلْ تَدْرِي ما حَقُّ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ العِبَادِ عَلَىٰ اللهِ؟» قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّ حَقَّ اللهِ عَلَىٰ العِبَادِ: أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلا يُشرِكُوا بِهِ شَيئًا، وَحَقُّ العِبَادِ عَلَىٰ اللهِ: أَنْ لا يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشرِكُ بِهِ شَيئًا»(١).

قَولُهُ: «حَقُّ اللهِ عَلَىٰ العِبَادِ أَنْ يَعبُدُوهُ وَلا يُشْرِكُوا بِهِ شَيئًا» هَذَا هُوَ حَقُّ اللهِ عَلَىٰ عِبَادِهِ، مِنْ أَوَّلِهِم إِلى آخِرِهِم كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، وَلا يَكْفِي هَذَا، أَنْ يَعْبُدُوهُ، بَلْ وَلا يُشْرِكُونَ بِهِ شَيئًا، لأَنَّ العِبَادَةَ لا تَكُونُ عِبَادَةً إِلَّا إِذا خَلَصَتْ مِنَ الشِّرْكِ، أَمَّا إِذَا خَالَطَهَا شِرْكٌ فَإِنَّهَا لا تَكُونُ عِبَادَةً للهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، لأَنَّ الشِّرْكَ يُبْطِلُ العِبَادَةَ، وَيُبْطِلُ سَائِرَ الأَعمَالِ، وَلا يَصِحُّ مَعَهُ عَمَلٌ. قَالَ جَلَّ وَعَلا: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وَقَولُهُ: «أَنْ يَعْبُدُوهُ» وَالعِبَادَةُ ـ أَيضًا ـ كَمَا أَنَّهَا لا تَكُونُ عِبَادَةً إِلَّا مَعَ التَّوحِيدِ، كَذَلِكَ لا تَكُونُ عِبَادَةً إِلَّا إِذَا كَانَتْ مُوَافِقَةً لِمَا شَرَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ، فَالعِبَادَةُ وَسَائِرُ الأَعْمَالِ لا تَصِحُّ إِلَّا بِشَرْطَينِ:

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٥٦)، ومسلم (٣٠).

الشَّرْطُ الأَوَّلُ: الإِخْلاصُ للهِ عَزَّ وَجَلَّ.

الشَّرْطُ الثَّاني: المُتَابَعَةُ لِلرَّسُولِ ﷺ.

وَقَولُهُ: «وَحَقُّ العِبَادِ عَلَىٰ اللهِ: أَنْ لا يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشرِكُ بِهِ شيئًا»، هَذَا الحَقُّ لِلْعِبَادِ عَلَىٰ اللهِ لَيسَ بِحَقٍّ وَاجِبٍ عَلَىٰ اللهِ، وَإِنَّمَا هُوَ تَفَضُّلٌ مِنْهُ ، لأَنَّ اللهَ لا يَجِبُ عَلَيهِ حَقٌّ لأَحَدٍ، وَلا أَحَدَ يُوجِبُ عَلَىٰ اللهِ شَيئًا، وَإِنَّما هُوَ شَيءٌ تَفَضَّلَ بِهِ سُبْحَانَهُ وَتَكَرَّمَ بِهِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧]، هَذَا حَقٌّ تَفَضَّلَ بِهِ، وَنَظَمَ ذَلِكَ الشَّاعِرُ بِقَولِهِ:

مَا لِلعِبَادِ عَلَيهِ حَقٌّ وَاجِبٌ ... كَلاَّ وَلا سَعيٌ لَدَيهِ ضَائِعُ

إِن عُذِّبُوا فَبِعَدلِهِ أَوْ نُعِّمُوا ... فَبِفَضلِهِ وَهُوَ الكَرِيمُ الوَاسِعُ[1]

فَمَعْنَى «حَقُّ العِبَادِ عَلَىٰ اللهِ» يَعْنِي: الحَقُّ الذي تَفَضَّلَ اللهُ تَعَالَى بِهِ، وَأَوجَبَهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ، مِنْ دُونِ أَنْ يُوجِبَهُ عَلَيهِ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ، بَلْ هُوَ الذي أَوْجَبَهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ، تَكَرُّمًا مِنْهُ بِمُوجِبِ وَعْدِهِ الكَرِيمِ الذي لا يُخلِفُهُ سُبْحَانَهُ ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾ [الروم: ٦][2].

وَقَوْلُهُ: «أَنْ لا يُعَذِّبَ مَنْ لا يُشْرِكُ بِهِ شَيئًا» أَيْ: مَنْ «مَاتَ عَلَىٰ التَّوحِيدِ فَدُخُولُهُ الجَنَّةَ مَقْطُوعٌ بِهِ، فَإِنْ كَانَ صَاحِبَ كَبِيرَةٍ وَمَاتَ مُصِرًّا عَلَيْهَا فَهُوَ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللهِ، فَإِنْ عَفَا اللهُ عَنْهُ دَخَلَهَا أَوَّلاً، وَإِلَّا عُذِّبَ في النَّارِ، ثُمَّ أُخْرِجَ مِنْهَا وَأُدْخِلَ الجَنَّةَ.

وَمَنْ مَاتَ عَلَىٰ الشِّرْكِ الأَكْبَرِ لَا يَدْخُلُ الجَنَّةَ، وَلَا يَنَالُهُ مِنَ اللهِ رَحمَةٌ، وَيُخَلَّدُ فِي النَّارِ، وَإِنْ كَانَ شِرْكًا أَصْغَرَ دَخَلَ النَّارَ ـ إِنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ حَسَنَاتٌ رَاجِحَةٌ ـ لَكِنْ لَا يخَلَّدُ فِيهَا»[3]. إِنَّهَا وَاللهِ لَنِعْمَةٌ عَظِيمَةٌ، وَمِنَّةٌ جَسِيمَةٌ، أَنْ يُحَقِّقَ العَبْدُ التَّوحِيدَ الخَالِصَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا.

فَالشِّرْكُ أَمْرُهُ صَعْبٌ جِدًّا لَيْسَ بِالهَيِّنِ[4]، وَلَا يَسْلَمُ مِنْهُ إِلَّا مَنْ وُفِّقَ لِلصَّبْرِ

---

(١) شرح الطحاوية (٢/ ١/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦).

(٢) انظر: إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد (١/ ٤٤ ـ ٤٧).

(٣) الملخص في شرح كتاب التوحيد (ص٤٩ ـ ٥٠)، للعلامة صالح الفوزان حفظه الله.

(٤) القول المفيد على كتاب التوحيد (١/ ١١٩).

وَالتَّأييدِ، وَالفِعْلِ الحَمِيدِ، وَالقَوْلِ السَّدِيدِ، وَخَالَطَ قَلْبَهُ[1] التَّوحِيْدُ.

فَحَقِيْقٌ لِمَنْ نَصَحَ نَفْسَهُ، وَأَحَبَّ سَعَادَتَها، وَنَجَاتَهَا: أَنْ يَتَيَقَّظَ لهَذِهِ المسْأَلَةِ، وَتَكُونَ أَهَمَّ الأَشْيَاءِ عِنْدَهُ، وَأَجَلَّ عُلُومِهِ وَأَعْمَالِهِ، فَإِنَّ الشَّأْنَ كُلَّهُ فِيْهَا، وَالمَدَارَ عَلَيْهَا، وَالسُّؤَالَ عَنْهَا يَوْمَ القِيَامَةِ.

وَأَمْرٌ هَذَا شَأْنُهُ، حَقِيقٌ أَنْ يُعَضَّ عَلَيْهِ بِالنَّوَاجِذِ، وَيُجعَلَ هُوَ المَطْلُوبُ الأَعْظَمُ، وَاللهُ المَسْؤُولُ أَنْ يَمُنَّ عَلَيْنَا بِتَحْقِيقِ ذَلِكَ، عِلْمًا وَعَمَلاً وَحَالاً، وَنَعُوذُ بِاللهِ أَنْ يَكُوْنَ حَظُّنَا مِنْ ذَلِكَ، مُجَرَّدَ حِكَايَتِهِ[2].

ثانيًا: لزومُ الجماعةِ:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمرٍو رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تَفْتَرِقُ أُمَّتي عَلَىٰ ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُم في النَّارِ، إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً»، قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟! قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»[3].

يَعْنِي: مَا كَانَ عَلَيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ مِنَ الهَدْيِ، دُونَ مَا حَدَثَ بَعْدَهُم، فَالهَرَبَ الهَرَبَ، وَالنَّجَاةَ النَّجَاةَ، وَالتَّمَسُّكَ بِالطَّرِيقِ المُستَقِيمِ وَالسَّنَنِ القَوِيمِ، وَهُوَ الذي كَانَ عَلَيهِ السَّلَفُ الصَّالِحُ، وَفِيهِ المَتْجَرُ الرَّابِحُ.

وَلْيَتَأَمَّلِ المُؤمِنُ النَّاصِحُ لِنَفْسِهِ كَلامَ الرَّسُولِ ﷺ، الصَّادِقُ فِيمَا أَخْبَرَ بِهِ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٣ ـ ٤]، الصَّدُوقُ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى وَعِنْدَ خَلْقِهِ، وَأَنَّ مَا قَالَهُ عَلَيهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ مِنْ أَمْرِ الافْتِرَاقِ لا بُدَّ أَنْ يَحدُثَ، وَلا نَجَاةَ مِنْهُ إِلَّا بِمَا كَانَ عَلَيهِ الرَّسُولُ ﷺ وَأَصْحَابُهُ في العَقِيْدَةِ وَالعَمَلِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «قَدْ تَرَكْتُكُم عَلَىٰ البَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ»[4].

---

(١) الدرر السنية (٢/ ٢٧٥).

(٢) الدرر السنية (٢/ ٣٢٣).

(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢١٢٩).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٣) من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٤١).

فَهُمْ «لا يَنْحَرِفُونَ عَنِ السُّنَّةِ ولا يَعْدِلُونَ، بَلْ إِيَّاهَا يَقْتَفُونَ، وَبِهَا يَتَمَسَّكُونَ، وَعَلَيهَا يُوالُونَ وَيُعَادُونَ، وَعِنْدَهَا يَقِفُونَ، وَعَنْهَا يَذُبُّونَ، وَيُنَاضِلُونَ»[1].

فَالذينَ كَانُوا عَلَىٰ مَا كَانَ عَلَيهِ الرَّسُولُ ﷺ وَأَصْحَابُهُ هُمُ الجَمَاعَةُ الَّذِينَ اجْتَمَعُوا عَلَىٰ شَرِيعَتِهِ، وَهُمُ الَّذِينَ امْتَثَلُوا مَا وَصَّىٰ اللهُ بِهِ: ﴿أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشُّورىٰ: ١٣]، فَهُمْ لَمْ يَتَفَرَّقُوا، بَلْ كَانُوا جمَاعَةً وَاحِدَةً. وَلَوْ كَانُوا قَلِيلًا بِالنِّسْبَةِ إِلَىٰ غَيرِهِم، وَلَوْ كَثُرَ أَعْدَاؤُهُم وَمُخَالِفُوهُم وَخُصُومُهُم، فَلا يَضُرُّهُم. فَقَد يُوجَدُ مَنْ يخَالِفُهُم فِي كَثِيرٍ مِنَ الأَزْمِنَةِ، وَلَكِنْ لَا عِبْرَةَ بِهِم.

عَنْ مُعَاوِيَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ قَامَ فَقَالَ: أَلا إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَامَ فِينَا فَقَالَ: «أَلا إِنَّ مَنْ قَبْلَكُم مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ افْتَرَقُوا عَلَىٰ ثِنْتَينِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَإِنَّ هَذِهِ المِلَّةَ سَتَفْتَرِقُ عَلَىٰ ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ: ثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الجَنَّةِ، وَهِيَ الجَمَاعَةُ»[2].

فَفِي هَذَا الحَدِيثِ: فِرْقَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ ثَلاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً سَمَّاهَا النَّبِيُّ ﷺ الجَمَاعَةَ، فَدَلَّ عَلَىٰ أَنَّ تِلْكَ الفِرَقَ - وَإِنْ كَانَتْ أَكْثَرَ - فَلَيسُوا جمَاعَةً، بَلْ هُمْ أَهْلُ فِرْقَةٍ. وَقَدْ ذَكَرَ اللهُ تَعَالىٰ أَنَّ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام كَانَ أُمَّةً، فَقَالَ تَعَالىٰ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا﴾ [النحل: ١٢٠]؛ فَأَطْلَقَ عَلَيهِ أُمَّةً، حَيثُ إِنَّهُ كَانَ فِي زَمَنٍ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مُسْلِمٌ غَيرُهُ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرُّهَيطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلانِ، وَالنَّبِيُّ لَيسَ مَعَهُ أَحَدٌ...»[3].

نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللهِ لَيسَ مَعَهُ إِلَّا دُونَ عَشَرَةٍ، وَنَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللهِ لَيسَ مَعَهُ إِلَّا رَجُلٌ أَو رَجُلانِ، وَنَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَاءِ اللهِ لَيسَ مَعَهُ أَحَدٌ. وَفِي ذَلِكَ «دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَىٰ أَنَّ كَثْرَةَ الأَتْبَاعِ وَقِلَّتَهُم، لَيْسَتْ مِعْيَارًا لِمَعْرِفَةِ كَونِ الدَّاعِيَةِ عَلَىٰ حَقٍّ أَو بَاطِلٍ»[4].

---

(١) أعلام السنة المنشورة (ص٢٦).
(٢) أخرجه أبو داود (٤٥٩٧)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٣٨٤٣).
(٣) أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢٢٠) واللفظ له.
(٤) السلسلة الصحيحة (١/ ٦٨٤).

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُود ﷺ : «الجَمَاعَةُ مَا وَافَقَ الحَقَّ وَإِنْ كُنْتَ وَحْدَكَ»[1].

وَقَالَ أَبُو شَامَةَ: «وَحَيْثُ جَاءَ الأَمْرُ بِلُزُومِ الجمَاعَةِ؛ فَالمُرَادُ بِهِ لُزُومُ الحَقِّ وَاتِّبَاعُهُ، وَإِنْ كَانَ المتَمَسِّكُ بِهِ قَلِيلاً، وَالمُخَالِفُ كَثِيرًا؛ لِأَنَّ الحَقَّ الذي كَانَتْ عَلَيهِ الجَمَاعَةُ الأُولىٰ مِنْ عَهْدِ النَّبيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ ﷺ، وَلَا نَظَرَ إِلَىٰ كَثْرَةِ أَهْلِ البِدَعِ بَعْدَهُم»[2].

وَقَدْ شَذَّ النَّاسُ كُلُّهُم زَمَنَ الإِمَامِ أحمدَ بنِ حَنْبَلَ إِلَّا نَفَرًا يَسِيرًا، فَكَانُوا هُمُ الجَمَاعَةَ، وَكَانَ الفُقَهَاءُ وَالمُفْتُونَ وَالخَلِيفَةُ وَأَتْبَاعُهُ هُمُ الشَّاذِّينَ، وَكَانَ الإِمَامُ أحمَدُ وَحْدَهُ هُوَ الجَمَاعَةَ. وَلَمَّا لَمْ يَتَحَمَّل هَذَا عُقُولُ النَّاسِ، قَالُوا لِلْخَلِيفَةِ: يَا أَمِيرَ الْمؤمِنِينَ، تَكُونُ أَنْتَ وَقُضَاتُكَ وَوُلاتُكَ، وَالْفُقَهَاءُ وَالمُفْتُونَ كُلُّهُمْ عَلَىٰ البَاطِلِ، وَأَحمَدُ وَحْدَهُ عَلَىٰ الحَقِّ، فَلَمْ يَتَّسِعْ عِلْمُهُ لِذَلِكَ، فَأَخَذَهُ بِالسِّيَاطِ وَالعُقُوبَةِ بَعْدَ الحبْسِ الطَّوِيلِ[3].

وَاعْلَمُوا بِأَنَّكُم إِذَا أَرَدْتُم أَنْ تَسْلُكُوا الصِّرَاطَ المسْتَقِيمَ، الذي كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ، عِلْمًا وَعَمَلاً ـ وَهُوَ مَعْرِفَةُ الحَقِّ وَتَقْدِيمُهُ، وَإِيثَارُهُ عَلَىٰ غيرِهِ ـ فَلْتُوَطِّنُوا أَنْفُسَكُم عَلَىٰ الصَّبرِ.

عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يأتِي عَلَىٰ النَّاسِ زَمَانٌ؛ الصَّابرُ فيهم عَلَىٰ دِينِهِ كَالقَابِضِ عَلَىٰ الجَمْرِ»[4].

وعَنْ عُتْبَةَ بنِ غَزْوَانَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ وَرائِكُمْ أَيَّامَ الصَّبْرِ، للمُتَمَسِّكِ فيهنَّ يَوْمَئِذٍ بِما أَنْتُمْ عَلَيْهِ أَجْرُ خَمْسِينَ مِنْكُمْ». قالوا: يا نَبِيَّ الله! أَوَ مِنْهُمْ؟ قال: «بلْ مِنْكُمْ»[5].

---

(١) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (١٦٠)، وصحح إسناده المحدّث الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «مشكاة المصابيح» (١/ ٦١).
(٢) الباعث عَلَى إنكار البدع والحوادث (ص١٩ ـ ٢٠).
(٣) إعلام الموقعين (٣/ ٤٩٥)، بتصرف يسير.
(٤) أخرجه الترمذي (٢٢٦٠)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٥٠٥).
(٥) أخرجه ابن نصر في «السنة» (ص٩)، والطبراني في «الكبير» (١٧/ ١١٧ رقم ٢٨٩). وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «الصحيحة» (٤٩٤).

يَعْنِي: أَنَّ مِنْ بَعْدِكُم أَيَّامًا يَكُونُ المُتَمَسِّكُ بِالدِّينِ مِنَ النَّاسِ أَقَلَّ القَلِيلِ، وَهَذَا القَلِيلُ في حَالَةِ شِدَّةٍ وَمَشَقَّةٍ عَظِيمَةٍ، كَحَالَةِ القَابِضِ عَلَىٰ الجَمْرِ، مِنْ قُوَّةِ المُعَارِضِينَ، وَكَثْرَةِ الفِتَنِ المُضِلَّةِ، وَالشَّهَوَاتِ المُرْدِيَةِ، وَضَعْفِ الإِيمَانِ، وَشِدَّةِ التَّفَرُّدِ لِقِلَّةِ المُعِينِ وَالمُسَاعِدِ.

وَلَكِنَّ المُتَمَسِّكَ بِدِينِهِ، مِنْ أَفْضَلِ الخَلْقِ، وَأَرْفَعِهِم عِنْدَ اللهِ دَرَجَةً، وَأَعْظَمِهِم عِنْدَهُ قَدْرًا. وَأَجْرُهُ مُضَاعَفٌ: يُضَاعَفُ بِأَجْرِ خَمْسِينَ عَمَلًا مِنْ أَعْمَالِ الصَّحَابَةِ ﷺ، التي تَقَعُ مُمَاثِلَةً لِعَمَلِ هَذَا، وَأَمَّا فَضْلُ الصَّحَابَةِ ﷺ، وَمَا عَمِلُوهُ في الإِسْلامِ فَهَذَا شَيءٌ آخَرُ، لا يُوَازِيهِم غَيرُهُم في الفَضْلِ، وَالصُّحْبَةِ وَالجِهَادِ وَالهِجْرَةِ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَهُوَ أَفْضَلُ مِنْهُم في خَصْلَةٍ، وَهُمْ أَفْضَلُ مِنْهُ في خِصَالٍ.

عَنْ أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّكُمْ في زَمَانٍ؛ مَنْ تَرَكَ مِنكُم عُشْرَ ما أُمِرَ بِهِ هَلَكَ، ثُمَّ يأتي زمانٌ، مَنْ عَمِلَ مِنكُم بِعُشْرِ ما أُمِرَ بِهِ نَجا»[1].

فَرَحِمَ «اللهُ عَبْدًا حَذِرَ الفِرَقَ وَجَانَبَ البِدَعَ، وَاتَّبَعَ وَلَمْ يَبْتَدِعْ، وَلَزِمَ الأَثَرَ، فَطَلَبَ الطَّرِيقَ المُسْتَقِيمَ، وَاسْتَعَانَ بِمَولاهُ الكَرِيمِ»[2].

فائدةٌ مهمةٌ: قَوْلُهُ ﷺ: «كُلُّهَا فِي النَّارِ» لَيسَ مَعنَىٰ هَذَا أَنَّهَا مِن أَصحَابِ النَّارِ لَكِن مَا خَرَجتَ بِهِ عَنِ السُّنَّةِ فَهُوَ مِن عَمَلِ أَهلِ النَّارِ؛ لِأَنَّ أَهلَ النَّارِ مُخَالِفُونَ لِأَهلِ الجَنَّةِ، وَكُلُّ مَن خَرَجَ عَن عَمَلِ أَهلِ الجَنَّةِ فَقَد دَخَلَ فِي عَمَلِ أَهلِ النَّارِ، وَلاَ يَلزَمُ أَن يَكُونَ مِن أَصحَابِ النَّارِ، وفَرقٌ بَينَ قَولِهِ: (فِي النَّارِ) وَقَوْلِهِ: (مِنْ أَصحَابِ النَّارِ) لِأَنَّ أَصحَابَ النَّارِ هُم أَصحَابُها الَّذِينَ هُم أَهلُهَا وَأَمَّا (فِي النَّارِ) فَقَد يَكُونُ المُرَادُ أَنَّهُ يُعَذَّبُ بِحَسَبِ مَا خَرَجَ بِهِ عَن أَهلِ الحَقِّ، وَلَكِنْ لاَ يُخَلَّدُ فِيهَا[3].

ثالثًا: الإيمانُ:

قالَ اللهُ تعالى: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٢٦٧)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٥٠٨).
(٢) الشَّريعة (١/ ٣١٥).
(٣) شرح العقيدة السفارينية (ص٩١ ـ ٩٢).

مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧ ـ ٨٨]. وَهَذَا وَعْدٌ وَبِشَارَةٌ، لِكُلِّ مُؤمِنٍ وَقَعَ في شِدَّةٍ وَغَمٍّ، أَنَّ اللهَ تَعَالَى سَيُنَجِّيهِ مِنْهَا، وَيَكْشِفُ عَنْهُ وَيُخَفِّفُ، لإِيمَانِهِ كَمَا فَعَلَ بِـ «يُونُسَ» عليه السلام[1].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [النمل: ٥٣]. وَقَالَ سُبحَانَهُ: ﴿وَنَجَّيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿١٨﴾﴾ [فصلت: ١٨]. وَفِي هَذَا مَدْحٌ لِلْمُؤمِنِينَ، وَرَفْعٌ مِنْ شَأنِهِم، وَدِلالةٌ عَلَىٰ أَنَّهُ لا يَنْجُو عِنْدَ اللهِ إِلَّا المُؤمِنُونَ المُتَّقُونَ.

وَالإِيمَانُ أُسُّ الفَضَائِلِ وَأَعْلاهَا، وَأَكْمَلُ الخِصَالِ الحَمِيدَةِ وَأَجَلُّهَا وَأَزْكَاهَا، بِهِ تَزْكُو الأَحْوَالُ، وَبِهِ تُدْرَكُ الآمَالُ. فَتَحَقَّقُوا بِحُقُوقِ الإِيمَانِ، وَقُومُوا بِلَوَازِمِهِ التي أَمَرَكُمْ بِهَا الرَّحْمَنُ، فَإِنَّ لِلإِيمَانِ عَقَائِدَ لا بُدَّ أَنْ تَعْتَقِدُوهَا، وَلَهُ أَعْمَالاً ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً، لا يَتِمُّ لَكُمُ الإِيمَانُ حَتَّى تَسْلُكُوهَا.

رابعًا: التَّقوى:

قَالَ اللهُ جَلَّ وَعَلا: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الزمر: ٦١]. أي: بِنَجَاتِهِمْ، وَذَلِكَ لِأَنَّ مَعَهُم آلَةَ النَّجَاةِ، وَهِيَ تَقْوَى اللهِ تَعَالى، التي هِيَ العُدَّةُ، عِنْدَ كُلِّ هَولٍ وَشِدَّةٍ[2].

وَالتَّقْوَىٰ «كَلِمَةٌ جَامِعَةٌ مِنْ أَجمَعِ الْكَلِمَاتِ الشَّرْعِيَّةِ، وَمَعْنَاهَا: اتخَاذُ وِقَايَةٍ مِنْ عَذَابِ اللهِ، أَنْ يَتَّخِذَ الإِنْسَانُ وِقَايَةً مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَلَا يَكُونُ هَذَا إِلَّا بِفِعْلِ الأَوَامِرِ وَاجْتِنَابِ النَّوَاهِي، وَلَا يَكُونُ فِعْلُ الأَوَامِرِ وَاجْتِنَابُ النَّوَاهِي إِلَّا بِعِلْمِ الأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي. إِذًا فَلا بُدَّ مِنْ عِلْمٍ، وَلَا بُدَّ مِنْ عَمَلٍ، فَإِذا اجْتَمَعَ لِلإِنْسَانِ الْعِلْمُ وَالْعَمَلُ، نَالَ بِذَلِكَ خَشْيَةَ اللهِ، وَحَصَلَتْ لَهُ التَّقْوَىٰ»[3].

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾ [مريم: ٧١ ـ ٧٢].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (ص٧٣٢).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص١٠٢٢).
(٣) شرح رياض الصّالحين (٣/ ٣٣١).

هَذَا خِطَابٌ لِسَائِرِ الخَلائِقِ، بَرِّهِم وَفَاجِرِهِم، مُؤمِنِهِم وَكَافِرِهِم، أَنَّهُ مَا مِنْهُم مِنْ أَحَدٍ، إِلَّا سَيَرِدُ النَّارَ، حُكْمًا حَتَّمَهُ اللهُ عَلَىٰ نَفْسِهِ، وَأَوْعَدَ بِهِ عِبَادَهُ، فَلا بُدَّ مِنْ نُفُوذِهِ، وَلَا مَحِيدَ عَنْ وُقُوعِهِ.

وَالوُرُودُ: هُوَ المُرُورُ عَلَىٰ الصِّراطِ، الذي هُوَ عَلَىٰ مَتْنِ جَهَنَّمَ، فَيَمُرُّ النَّاسُ عَلَىٰ قَدْرِ أَعْمَالِهِم، فَمِنْهُم مَنْ يَمُرُّ كَلَمحِ البَصَرِ، وَكَالرِّيحِ، وَكَأَجَاوِيدِ الخَيلِ، وَكَأَجَاوِيدِ الرِّكَابِ. وَمِنْهُم مَنْ يَسْعَى، وَمِنْهُم مَنْ يَمْشِي مَشْيًا، وَمِنْهُمْ مَنْ يَزْحَفُ زَحْفًا، وَمِنْهُم مَنْ يُخْطَفُ فَيُلْقَى في النَّارِ، كُلٌّ بِحسَبِ تَقْوَاهُ[1].

وَخُذْ مِنْ تُقى الرَّحْمَنِ أَعْظَمَ جُنَّةٍ ... لِيَومٍ بِهِ تَبْدُو عِيَانًا جَهَنَّمُ
وَيُنْصَبُ ذَاكَ الجِسْرُ مِنْ فَوقِ مَتْنِهَا ... فَهَاوٍ وَمَخْدُوشٌ وَنَاجٍ مُسَلَّمُ[2]

فَلْنَتَّخِذْ إِلَى النَّجَاةِ سَبِيلًا، وَإِلَى الخَلاصِ بَابًا، فَلا يَنْهَضُ بِنَا إِلَّا سَعْيُنَا الذي سَعَينَا، وَلا يَجْرِي بِنَا إِلَّا عَمَلُنَا الذي عَمِلْنَا. وَاللهُ المُسْتَعَانُ وَعَلَيهِ التُّكْلانُ، وَلَا حَولَ وَلا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ العَلِيِّ العَظِيمِ.

خامسًا: الاستغفارُ:

قالَ اللهُ تعالَى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

فَمَا أَسْهَلَ ذَلِكَ الأَمَانَ مِنَ العَذَابِ الدُّنْيَوِيِّ وَالأُخْرَوِيِّ عَلَىٰ مَنْ سَهَّلَهُ اللهُ عَلَيهِ، وَعَلَى الأُمَّةِ الإِسْلامِيَّةِ أَفْرَادًا وَجَمَاعَاتٍ أَنْ تَتَذَكَّرَ هَذَا الأَمَانَ مِنَ العَذَابِ، وَتَلْهَجَ بِهِ، وَتَعْمَلَ بِمُقْتَضَاهُ.

وَالاسْتِغْفَارُ: يَتَضَمَّنُ «طَلَبَ المَغْفِرَةِ مِنَ اللهِ، وَهُوَ مَحْوُ الذَّنْبِ، وإِزَالَةُ أَثَرِهِ، وَوِقَايَةُ شَرِّهِ. وَهَذَا الاسْتِغْفَارُ هُوَ الذي يَمنَعُ العَذَابَ؛ فَإِنَّ اللهَ لا يُعَذِّبُ مُسْتَغفِرًا، وَأَمَّا مَنْ أَصَرَّ عَلَىٰ الذَّنْبِ، وَطَلَبَ مِنَ اللهِ مَغْفِرَتَهُ، فَهَذَا لَيسَ بِاسْتِغْفَارٍ مُطْلَقٍ، وَلِهَذَا لا يَمْنَعُ العَذَابَ»[3].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٣/ ٢١٥).
(٢) شرح الطحاوية (٢/ ١/ ٢٩٥ ـ ٢٩٦).
(٣) تهذيب مدارج السالكين (ص٢٨٠).

وَلِهَذَا فَإِنَّ اللهَ عَلَّقَ قَبُولَ التَّوبَةِ بِالاستِغفَارِ، وَعَدَمِ الإصرَارِ، دُونَ المُعَاوَدَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آلِ عِمرَان: ١٣٥]. إِذَا عَلِمْنَا هَذَا: فَاعْلَمُوا أَنَّ العَبْدَ إِذَا قَالَ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ، وَلَمْ يُقْلِعْ بِقَلْبِهِ عَنْ ذَنْبِهِ فَهُوَ دَاعٍ، كَأَنَّهُ قَالَ: أَسْأَلُكَ أَنْ تَغْفِرَ لِي، وَهُوَ حَسَنٌ، فَقَد تُرْجَى لَهُ الإِجَابَةُ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: (إِنَّ ذَلِكَ تَوبَةُ الكَذَّابِينَ)، فَمُرَادُهُ لَيسَ بِتَوبَةٍ، كَمَا يَعْتَقِدُهُ بَعْضُ النَّاسِ، وَهَذَا حَقٌّ، فَإِنَّ التَّوبَةَ لا تَكُونُ مَعَ الإِصْرَارِ. وَالاسْتِغْفَارُ بِاللِّسَانِ كَيفَ كَانَ فَهُوَ حَسَنٌ كُلُّهُ، وَإِنْ كَانَ مَعَ غَفْلَةِ القَلْبِ عَنْ مَعْنَاهُ، فَهُوَ قَلِيلُ النَّفْعِ، وَغَيرُ مَقْبُولٍ غَالِبًا، كَمَا قَالَ ﷺ: «وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لاهٍ»[1].

إِنَّ حَالَنَا حَرِيٌّ بِالاسْتِغْفَارِ فِي كُلِّ وَقْتٍ وَحِينٍ، وَفِي الصَّبَاحِ وَالمَسَاءِ؛ لأَنَّنَا نُذْنِبُ كُلَّ حِينٍ، فَأَسْمَاعُنَا تُذْنِبُ، وَأَبْصَارُنَا تُذْنِبُ، وَقُلُوبُنَا وَجَوَارِحُنَا تُذْنِبُ، وَدَوَاءُ ذَلِكَ كُلِّهِ الاسْتِغْفَارُ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْتَغْفِرُكَ وَنَتُوبُ إِلَيكَ مِنْ جَمِيعِ ذُنُوبِنَا، وَمِنْ جَمِيعِ خَطَايَانَا؛ لِكَي تَرْزُقَنَا الأَمَانَ، وَتُنَجِّيَنَا مِنَ العَذَابِ.

سادسًا: كظمُ الغيظِ:

عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ كَفَّ غَضَبَهُ، كَفَّ اللهُ عَنْهُ عَذَابَهُ»[2]. فَمَنْ كَظَمَ غَيظَهُ فَقَد نَجَا مِنْ عَذَابِ اللهِ، وَنَالَ جَزِيلَ الأَجْرِ وَالثَّوَابِ.

«وَالْغَضَبُ يَنْتُجُ عَنْهُ مَفَاسِدُ عَظِيمَةٌ؛ رُبَّمَا سَبَّ الإِنْسَانُ نَفْسَهُ، أَوْ سَبَّ دِينَهُ، أَوْ سَبَّ رَبَّهُ، أَوْ طَلَّقَ زَوْجَتَهُ، أَوْ كَسَرَ إِنَاءَهُ، أَوْ أَحْرَقَ ثِيَابَهُ، وَكَثِيرٌ مِنَ الْوَقَائِعِ تَصْدُرُ مِنْ بَعْضِ النَّاسِ إِذَا غَضِبُوا، كَأَنَّمَا صَدَرَتْ مِنَ المَجْنُونِ»[3].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٧٩) من حديث أبي هريرة ﷺ، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٤٣٤).

(٢) أخرجه أبو يعلى (٤٣٣٨)، وحسنه لغيره الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٢٣٦٠).

(٣) شرح رياض الصَّالحين (٢/ ٤٢٤).

وَكَمْ مِنْ فِتْنَةٍ في العَالَمِ تَعَاظَمَتْ، وَتَفَاحَشَتْ فِيْهَا الشُّرُورُ، وَهُتِكَتْ فِيْهَا الأَعْرَاضُ، وَسُفِكَتْ فِيْهَا الدِّمَاءُ، وَقُطِعَتْ فِيْهَا الأَرْحَامُ، وَأَوْجَبَتْ غَضَبَ الرَّبِّ العَظِيْمِ عَزَّ وَجَلَّ، وَأَوْجَبَتْ عَذَابَهُ الشَّدِيْدَ بِسَبَبِ الغَضَبِ. بَلْ هُوَ سَبَبُ مُعْظَمِ الفِتَنِ في العَالَمِ، نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ، مَعَ مَا فِيْهِ مِنَ العَاجِلِ مِنْ أَلَمِ القَلْبِ، وَتَنْغِيْصِ العَيْشِ.

وَمِنْ ثَمَّ حُرِّمَ القَضَاءُ بِالحَقِّ عَلَىٰ القَاضِي العَادِلِ عِنْدَ الغَضَبِ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لا يقضِي القَاضِي بَينَ اثْنَينِ وَهُوَ غضبانُ»[1]، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لأَنَّهُ يَمْلِكُ العَبْدَ، وَلا يَمْلِكُهُ العَبْدُ، فَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْهُ[2].

وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَأْمُرُ مَنْ غَضِبَ بِتَعَاطِي أَسْبَابٍ تَدْفَعُ عَنْهُ الْغَضَبَ وَتُسَكِّنُهُ، وَيَمْدَحُ مَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ عِنْدَ غَضَبِهِ، وَمِنْ ذلكَ:

١ ـ الاسْتِعَاذَةُ باللهِ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ:

عَنْ سُلَيمَانَ بنِ صُرَدٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ وَرَجُلانِ يَسْتَبَّانِ، فَأَحَدُهُمَا احْمَرَّ وَجْهُهُ وَانْتَفَخَتْ أَوْدَاجُهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنِّي لأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَها ذَهَبَ عَنْهُ مَا يجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِالله مِنَ الشَّيطَانِ، ذَهَبَ عَنْهُ مَا يجِدُ»[3].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِذَا غَضِبَ الرَّجُلُ فَقَالَ: أَعُوْذُ بِاللهِ، سَكَنَ غَضَبُهُ»[4].

٢ ـ السُّكُوتُ:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «... وَإِذَا غَضِبْتَ فَاسْكُتْ» قَالَها ثَلاثًا[5].

---

(١) أخرجه البخاري (٧١٥٨)، ومسلم (١٧١٧) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.
(٢) الأمر بالعزلة في آخر الزمان (ص١٤٢)، للعلامة محمد بن إبراهيم الوزير رحمه الله.
(٣) أخرجه البخاري (٣٢٨٢) و(٦٠٤٨) و(٦١١٥)، ومسلم (٢٦١٠).
(٤) أخرجه السهمي في «تاريخ جرجان» (ص٢٩٢)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٤٥١). وصححه الألباني رحمه الله في «الصَّحيحة» (١٣٧٦).
(٥) أخرجه أحمد (٢١٣٦ و٢٥٥٦ و٣٤٤٨)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٣٢٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٩٩١).

أَمَرَ ﷺ بِالسُّكُوتِ عِنْدَ الغَضَبِ، وَكَرَّرَ ذٰلِكَ ثَلاثًا لِلتَّأكِيدِ[1].

وَهٰذَا أَيْضًا دَوَاءٌ عَظِيمٌ لِلْغَضَبِ، لِأَنَّ الغَضْبَانَ يَصْدُرُ مِنْهُ فِي حَالِ غَضَبِهِ مِنَ القَوْلِ، مَا يَنْدَمُ عَلَيْهِ فِي حَالِ زَوَالِ غَضَبِهِ، كَثِيرٌ مِنَ السِّبَابِ وَغَيرِهِ ممَّا يَعْظُمُ ضَرَرُهُ، فَإِذَا سَكَتَ زَالَ هَذَا الشَّرُّ كُلُّهُ عَنْهُ.

وَقَولُ النَّبِيِّ ﷺ: «إِذَا غَضِبْتَ فَاسْكُتْ» يَدُلُّ عَلَىٰ أَنَّ الغَضْبَانَ مُكَلَّفٌ فِي حَالِ غَضَبِهِ بِالسُّكُوتِ، فَيَكُونُ حِينَئِذٍ مُؤَاخَذًا بِالْكَلامِ.

٣ ـ مَدَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مَنْ مَلَكَ نَفْسَهُ وَكَظَمَ غَيْظَهُ:

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ مَرَّ بِقَومٍ يَصْطَرِعُونَ فَقَالَ: «مَا هَذَا؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ هَذَا فُلانٌ الصَّرِيعُ، مَا يُصَارِعُ أَحَدًا إِلَّا صَرَعَهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلا أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ؟ رَجُلٌ ظَلَمَهُ رَجُلٌ فَكَظَمَ غَيْظَهُ، فَغَلَبَهُ وَغَلَبَ شَيْطَانَهُ، وَغَلَبَ شَيطَانَ صَاحِبِهِ»[2].

وَعَنِ ابنِ عمرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ جَرْعَةٍ أَعْظَمُ أجرًا عِنْدَ اللهِ، مِن جَرعَةِ غَيظٍ كَظَمَهَا عَبدٌ ابتِغَاءَ وَجهِ اللهِ»[3].

سابعًا: ذكرُ اللَّهِ:

عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ما عَمِلَ آدَمِيٌّ عَمَلًا أَنْجَى لَهُ مِنَ العَذَابِ مِنْ ذِكْرِ اللهِ» قِيلَ: وَلا الجِهَادُ في سَبِيلِ اللهِ؟ قَالَ: «وَلا الجِهَادُ إِلَّا أَنْ تَضْرِبَ بِسَيفِكَ حَتَّى يَنْقَطِعَ»[4].

وَالحَدِيثُ مِنْ أَدِلَّةِ فَضْلِ الذِّكْرِ، وَأَنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ النَّجَاةِ مِنْ مَخَاوِفِ

---

(١) الفتح الرباني (١/ ١٥٢).
(٢) أخرجه البزار (٢٠٥٤ ـ كشف الأستار)، وحسنه الحافظ في «الفتح» (١٠/ ٥١٩).
(٣) أخرجه ابن ماجه (٤١٨٩)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٧٧).
(٤) أخرجه الطبراني في «المعجم الأوسط» (٢٢٩٦)، وفي المعجم الصغير (٢٠٩)، وحسنه لغيره الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٤٩٧).

عَذَابِ الآخِرَةِ، وَهُوَ أَيضًا مِنَ المُنْجِيَاتِ مِنْ عَذَابِ الدُّنيَا وَمَخَاوِفِهَا[1].

وَإِنَّ ذِكْرَ اللهِ يَكُونُ في القَلْبِ، وَيَكُونُ في اللِّسَانِ، وَيَكُونُ بِالجَوَارِحِ.

أَمَّا ذِكْرُ اللهِ بِالقَلْبِ: فَإِنَّ مَعْنَاهُ أَنْ يَكُونَ القَلْبُ مُتَعَلِّقًا بِاللهِ، وَيَكُونَ ذِكْرُ اللهِ دَائِمًا في قَلْبِهِ، يَسْتَحْضِرُ دَائِمًا عَظَمَةَ رَبِّهِ وَآيَاتِهِ، وَيَسْتَحْضِرُ نِعَمَهُ العَامَّةَ وَالخَاصَّةَ، وَيَسْتَدِلُّ بِمَا يُشَاهِدُهُ مِنْ مَخْلُوقَاتِهِ وَآيَاتِهِ عَلَىٰ عَظَمَتِهِ وَإِحَاطَتِهِ.

وَأَمَّا ذِكْرُ اللهِ بِاللِّسَانِ: فَهُوَ النُّطْقُ بِكُلِّ مَا يُقَرِّبُ إِلَى اللهِ، فَالتَّهْلِيلُ ذِكْرٌ، وَالتَّكْبِيرُ ذِكْرٌ، وَالتَّحْمِيدُ وَالتَّسْبِيحُ ذِكْرٌ، وَقِرَاءَةُ القُرْآنِ ذِكْرٌ، وَقِرَاءَةُ العُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ ذِكْرٌ؛ لأَنَّهَا ذِكْرٌ لأَحْكَامِ اللهِ وَتَشْرِيعَاتِهِ، وَنَصِيحَةُ العِبَادِ لِلْقِيَامِ بِأَمْرِ اللهِ ذِكْرٌ، وَالأَمْرُ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيُ عَنِ المُنْكَرِ ذِكْرٌ.

وَأَمَّا ذِكْرُ الجَوَارِحِ: فَهُوَ كُلُّ فِعْلٍ يُقَرِّبُ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَالطَّهَارَةُ ذِكْرٌ، وَالصَّلاةُ ذِكْرٌ، وَالسَّعْيُ إِلَيهَا ذِكْرٌ، وَالزَّكَاةُ ذِكْرٌ، وَكُلُّ فِعْلٍ يُقَرِّبُكَ إِلَى اللهِ فَهُوَ ذِكْرٌ؛ لأَنَّ التَّقَرُّبَ إِلَى اللهِ لا يَكُونُ إِلَّا بِنِيَّةٍ، وَنِيَّتُكَ وَاسْتِحْضَارُكَ عِنْدَ الفِعْلِ ذِكْرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَالدِّينُ كُلُّهُ ذِكْرُ اللهِ[2].

عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خُذُوا جُنَّتَكُم» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ مِنْ عَدُوٍّ قَدْ حَضَرَ؟ قَالَ: «لا، جُنَّتَكُم مِنَ النَّارِ. قُولُوا: (سُبحَانَ اللهِ وَالحَمدُ للهِ وَلا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَاللهُ أَكْبَرُ)؛ فَإِنَّهُنَّ يَأْتِينَ يَوْمَ القِيَامَةِ مُنَجِّيَاتٍ وَمُقَدِّمَاتٍ، وَهُنَّ البَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ»[3].

قَال الأَلْبِيرِيُّ:

يَا أَيُّهَا النَّاسُ خُذُوا حِذْرَكُم ... وَحَصِّنُوا الجُنَّةَ لِلنَّارِ

فَإِنَّهَا مِنْ شَرِّ أَعْدَائِكُم ... مَا فِي العَدا أَعْدَى مِنَ النَّارِ

وَأَكْثِرُوا مِنْ ذِكْرِ مَولاكُمْ ... فَذِكْرُهُ يُنَجِّي مِنَ النَّارِ

فَهَذِهِ التي يَنْبَغِي أَنْ يَتَنَافَسَ بِهَا المُتَنَافِسُونَ، وَيَسْتَبِقَ إِلَيهَا العَامِلُونَ، وَيَجِدَّ في

---

(١) سبل السلام (٤/ ٤١٩).

(٢) الضياء اللامع (ص١٥٣).

(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٥٤١) وصححه ووافقه الذهبي.

تَحْصِيلِها المُجْتَهِدُونَ[1]، وَيَرْغَبَ فِيها الرَّاغِبُونَ. فَهُوَ أَحَقُّ مَا أُنْفِقَتْ فِيهِ نَفَائِسُ الأَنْفَاسِ، وَأَولىٰ مَا شَمَّرَ إِلَيْهِ العَارِفُونَ الأَكْياسُ.

فَنَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُعِينَنَا عَلَىٰ ذِكْرِهِ وَشُكْرِهِ وَحُسْنِ عِبَادَتِهِ.

ثامنًا: الإخلاصُ:

إِنَّ إِخْلاصَ النِّيَّةِ وَصِدْقَ العَبدِ في الالتِجَاءِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، سَبَبٌ لِلنَّجَاةِ مِنْ عَذَابِ الدُّنْيَا وَمَصَائِبِهَا وَتَفْرِيجِ كُرَبِها، وهَذَا بَيِّنٌ في حَدِيثِ الثَّلاثَةِ الذينَ آوَاهُمُ المَبِيتُ إِلى الغَارِ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لا يُنَجِّيكُم مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُم، فَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُم بَعْدَ أَنْ يَذْكُرَ عَمَلًا صَالِحًا قَامَ بِهِ يَقُولُ: اللَّهُمَّ! إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابتِغَاءَ وَجْهِكَ، فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ! فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ عَنْهُم، وَخَرَجُوا يَمْشُونَ[2].

فَالإِخْلاصُ سَبِيلُ الخَلاصِ؛ إِذْ إِنَّ هَؤُلاءِ جَمِيعًا حِينَ أَخْلَصُوا للهِ سُبْحَانَهُ، وَأَفْرَدُوهُ بِالتَّضَرُّعِ وَالدُّعَاءِ في تِلْكَ الحَالاتِ العَصِيبَةِ؛ أَنْقَذَهُمُ اللهُ تَعَالَى وَنَجَّاهُم مِنْ وَرْطَاتِهِم، وَالشَّدَائِدِ التي كَانُوا فِيهَا.

وَمَعَ وُضُوحِ الإِخْلاصِ وَجَلائِهِ إِلَّا أَنَّهُ مِنْ أَشَقِّ الأُمُورِ عَلَىٰ النَّفْسِ، فَتَحْقِيقُهُ وَالاسْتِمْرَارُ فِيهِ يَتَطَلَّبُ مُجَاهَدَةً كَبِيرَةً، وَهَذِهِ المُجَاهَدَةُ لا تَقْتَصِرُ الحَاجَةُ فِيهَا عَلَىٰ عَوَامِ النَّاسِ فَقَط؛ بَلِ الكُلُّ مُحْتَاجٌ إِلَيهَا حَتَّى العُلَمَاءُ وَالأَشِدَّاءُ مِنَ الصَّالِحِينَ وَالعِبَادِ.

تاسعًا: الصدقةُ:

فَفِي حَدِيثِ الحَارِثِ الأَشْعَرِيِّ ﷺ: أَنَّ نَبِيَّ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ، أَنْ تَعْمَلَ بِهِنَّ، وَأَنْ يَأْمُرَ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا بِهِنَّ» فَذَكَرَ مِنْهَا: «وَآمُرُكُم بِالصَّدَقَةِ، فَإِنَّ مَثَلَ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسَرَهُ العَدُوُّ، فَشَدُّوا يَدَيهِ إِلى عُنُقِهِ، وَقَدَّمُوهُ لِيَضْرِبُوا عُنُقَهُ، فَقَالَ: هَلْ لَكُمْ أَنْ أَفْتَدِيَ نَفْسِي مِنْكُم؟ فَجَعَلَ يَفْتَدِي نَفْسَهُ مِنْهُم بِالقَلِيلِ وَالكَثِيرِ، حَتَّى فَكَّ نَفْسَهُ»[3].

---

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن (٣/ ١٦٢).

(٢) أخرجه البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ١٣٠)، والترمذي (٢٨٦٣)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٥٢).

هَذَا مِنَ الكَلامِ الذي بُرْهَانُهُ وُجُودُهُ، وَدَلِيلُهُ وُقُوعُهُ، فإنَّ للصَّدَقَةِ تَأْثِيرًا عَجِيبًا في النَّجَاةِ مِنَ العَذَابِ.

عَنْ مُعَاوِيَةَ بنِ حَيْدَةَ ﷺ: عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «إنَّ صَدَقَةَ السِّرِّ تُطْفِىءُ غَضَبَ الرَّبِّ»[1].

وَفِي تَمْثِيلِ النَّبيِّ ﷺ ذَلِكَ بِمَنْ قُدِّمَ لِيُضْرَبَ عُنُقُهُ، فَافْتَدَى نَفْسَهُ مِنْهُم بِمَالِهِ كِفَايَةٌ، فَإنَّ الصَّدَقَةَ تَفْدِي العَبْدَ مِنْ عَذَابِ اللهِ تَعَالَى، فَإنَّ ذُنُوبَهُ وَخَطَايَاهُ تَقْتَضِي هَلاكَهُ، فَتَجِيءُ الصَّدَقَةُ تَفْدِيهِ مِنَ العَذَابِ، وَتَفُكُّهُ مِنْهُ.

وَلِهَذَا قَالَ النَّبيُّ ﷺ فِي الحَدِيثِ الصَّحِيحِ لَمَّا خَطَبَ النِّسَاءَ يَومَ العِيدِ: «يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ! تَصَدَّقْنَ وَلَوْ مِنْ حُلِيِّكُنَّ، فَإنَّكُنَّ أَكْثَرُ أَهْلِ جَهَنَّمَ يَومَ القِيَامَةِ»[2].

وَكَأَنَّهُ حَثَّهُنَّ وَرَغَّبَهُنَّ عَلَىٰ مَا يَفْدِينَ بِهِ أَنْفُسَهُنَّ مِنَ النَّارِ. فَعَلَينَا أَنْ نُبَادِرَ بِالصَّدَقَةِ، وَنَسْتَكْثِرَ مِنْهَا.

عاشرًا: الصِّدقُ:

عَنْ كَعْبِ بنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: إنَّ اللهَ إنَّما نَجَّانِي بِالصِّدْقِ، وَإنَّ مِنْ تَوبَتِي: أَنْ لا أُحَدِّثَ إلَّا صِدْقًا مَا بَقِيتُ[3].

فَمَا أَنْجَى اللهُ مَنْ أَنْجَاهُ إلَّا بِالصِّدْقِ، وَلا أَهْلَكَ مَنْ أَهْلَكَهُ إلَّا بِالكَذِبِ، وَقَدْ أَمَرَ اللهُ سُبحَانَهُ عِبَادَهُ المُؤمِنِينَ أَنْ يَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٩].

كُونُوا «مَعَ الصَّادِقِينَ فِي أَقْوَالِهِم، وَأَفْعَالِهِم، وَأَحْوَالِهِم، الذينَ أَقْوَالُهُم صِدْقٌ، وَأَعْمَالُهُم وَأَحْوَالُهُم لا تَكُونُ إلَّا صِدْقًا خَالِيَةً مِنَ الكَسَلِ وَالفُتُورِ، سَالِمَةً

---

(١) أخرجه الطبراني (١٩/رقم (١٠١٨))، وحسنه لغيره الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (٨٨٨).

(٢) أخرجه الترمذي (٦٣٥) من حديث زينب امرأة عبد الله بن مسعود ﷺ، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (١/ ٣٩٤).

(٣) أخرجه البخاري (٤٤١٨)، ومسلم (٢٧٦٩) ـ في حديث طويل ـ.

مِنَ المَقَاصِدِ السَّيِّئَةِ، مُشْتَمِلَةً عَلَىٰ الإِخْلاصِ وَالنِّيَّةِ الصَّالِحَةِ»[1].

فَلْنَبْحَثْ عَنِ الصَّادِقِينَ في الدِّينِ وَالعِلمِ، وَالتَّرْبِيَةِ وَالوَعْظِ وَالخَطَابَةِ.

«فَلْنَبْحَثْ كَثِيرًا وَكَثِيرًا؛ لأَنَّنَا سَنَجِدُ مَنْ يَدْعُو وَيَنْشُرُ وَيُؤَلِّفُ وَيُخَرِّجُ وَيَعِظُ وَيَخْطُبُ: لِجَاهٍ أَوْ شُهْرَةٍ أَو مَالٍ أَو مَصْلَحَةٍ! سَنَجِدُ مَنْ يُعَلِّمُ وَيَعْمَلُ، وَلَكِنْ لَا بَرَكَةَ في عِلْمِهِ، وَلَا في عَمَلِهِ، وَلَا فِي دَعْوَتِهِ»[2]. كَمْ مِنَ النَّاسِ يَعْمَلُ لِيُقَالَ: عَمِلَ! كَمْ مِنَ النَّاسِ يَعْمَلُ لِيُنْشَرَ اسْمُهُ! كَمْ مِنَ النَّاسِ يَعْمَلُ لِيَسْمُوَ نَجْمُهُ! كَمْ مِنَ النَّاسِ يَعْمَلُ لِيَفْشُوَ ذِكْرُهُ في الصُّحُفِ وَالمَجَلَّاتِ! هَؤُلَاءِ الذينَ لا يَعْمَلُونَ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، إِنْ يَكُنْ لَهُم ذِكْرٌ عَمِلُوا، وَإِلَّا تَوَقَّفُوا[3].

تَذَكَّرُوا قَولَهُ ﷺ: «عَلَيكُمْ بِالصِّدْقِ، فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهدِي إِلَىٰ البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهدِي إِلَىٰ الجَنَّةِ، وَمَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ، وَيَتَحَرَّىٰ الصِّدْقَ حَتَّىٰ يُكْتَبَ عِنْدَ اللهِ صِدِّيقًا...»[4]. وَلَا نَنْسَى قَولَ النَّبِيِّ ﷺ لِذَلِكَ الأَعْرَابِيِّ: «إِنْ تَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقْكَ»[5].

لَيتَ هَذِهِ الكَلِمَاتِ تَجْرِي في سُلُوكِنَا. لَيتَنَا نَعْقِلُ مَعْنَاهَا وَمَغْزَاهَا. لَيتَنَا نُدْرِكُ مَقْصِدَهَا وَمَرْمَاهَا[6].

إِنَّ أَزْمَةَ الأُمَّةِ هِيَ الصِّدْقُ مَعَ اللهِ، فَلْنَسْعَ صَادِقِينَ لِحَلِّ هَذِهِ الأَزْمَةِ[7]. هَيَّا بِنَا نَصْدُقُ في العِبَادَاتِ وَالمُعَامَلاتِ. هَيَّا بِنَا نَصْدُقُ في عِلْمِنَا وَعَمَلِنَا وَدَعْوَتِنَا. إِنَّ الفَوزَ وَالنَّجَاةَ وَالخَيرَ - كُلَّ الخَيرِ - بِالصِّدْقِ. وَإِنَّ الهَلَاكَ وَالخُسْرَانَ وَالشَّرَّ - كُلَّ الشَّرِّ - مِنَ الكَذِبِ.

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ٢٩٥).
(٢) كعب بن مالك (ص٩٣).
(٣) سعد بن معاذ (ص٤٩).
(٤) أخرجه مسلم (٢٦٠٧).
(٥) جزء من حديث أخرجه النسائي (١٩٥٢)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن النسائي» (١٨٤٥).
(٦) سعد بن معاذ (ص٥٤).
(٧) سعد بن معاذ (ص٦٥).

وَلأَجْلِ هَذَا، كَانَ جَدِيرًا بِالعَاقِلِ أَنْ يُلازِمَ الصِّدْقَ في الأَقْوَالِ، وَالإِخْلاصَ في الأَعْمَالِ، وَالصَّفَاءَ في الأَحْوَالِ، فَمَنْ كَانَ كَذَلِكَ لَحِقَ بِالأَبْرَارِ، وَوَصَلَ إِلَى رِضَا الغَفَّارِ.

وَللهِ دَرُّ القَائِلِ:

سَيُعْطَى الصَّادِقُونَ بِفَضْلِ صِدْقٍ نَجَاةً فِي الحَيَاةِ وَفِي المَمَاتِ

اللَّهُمَّ تَفَضَّلْ عَلَينا بِالصِّدْقِ فِي أَقْوَالِنَا وَأَفْعَالِنَا وَجَمِيعِ أَحْوَالِنَا، إِنَّكَ جَوَادٌ كَرِيمٌ رؤُوفٌ رَحِيمٌ.

الحادي عشرَ: خشيةُ اللَّهِ والقَصْدُ والعَدْلُ:

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «ثَلاثٌ مُنْجِيَاتٌ: خَشْيَةُ اللهِ في السِّرِّ وَالعَلانِيَةِ، وَالعَدْلُ في الغَضَبِ وَالرِّضَا، وَالقَصْدُ في الفَقْرِ وَالغِنَى»[1].

أَمَّا خَشْيَةُ اللهِ في السِّرِّ وَالعَلانِيَةِ فَهِيَ مُرَاقَبَةُ اللهِ عَلَى الدَّوَامِ، وَالعِلْمُ بِقُرْبِ المَلِكِ العَلَّامِ، فَيَسْتَحِي مِنْ رَبِّهِ أَنْ يَرَاهُ حَيثُ نَهَاهُ، وَيَفْقِدَهُ في كُلِّ مَا يُقَرِّبُ إِلى رِضَاهُ.

«وَهَذِهِ هِيَ الخَشْيَةُ الحَقِيقِيَّةُ؛ لأَنَّ خَشْيَةَ اللهِ تَعَالَى في العَلانِيَةِ قَدْ يَكُونُ سَبَبَهَا مُرَاءَاةُ النَّاسِ، وَيَكونُ في هَذِهِ الخَشْيَةِ شَيءٌ مِنَ الشِّرْكِ، لأَنَّهُ يُرَائِي بِهَا، وَلَكِن إِذَا كَانَ يَخْشَى اللهَ فِي مَكَانٍ لا يَطَّلِعُ عَلَيهِ إِلَّا اللهُ، فَهَذَا هُوَ الخَاشِي حَقِيقَةً، وَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ عِنْدَ النَّاسِ لا يَفْعَلُ المَعَاصِي وَلَكِنْ فِيمَا بَينَهُ وَبَينَ نَفْسِهِ يَتَهَاوَنُ بِهَا. فَهَذَا خَشِيَ النَّاسَ فِي الحَقِيقَةِ وَلَمْ يَخْشَ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ؛ لأَنَّ الذي يَخْشَى اللهَ لا بُدَّ أَنْ يَقُومَ بِقَلْبِهِ تَعْظِيمُ اللهِ سُبْحَانَهُ وتعالى سَوَاءٌ بِحَضْرَةِ النَّاسِ، أَوْ بِغَيبَةِ النَّاسِ، أَيضًا يَخْشَى اللهَ بِالغَيبِ أَي بِمَا غَابَ عَنِ الأَبْصَارِ نَظَرًا، وَعَنِ الآذَانِ سَمْعًا، وَهُوَ خَشْيَةُ القَلْبِ، وَخَشْيَةُ القَلْبِ أَعْظَمُ مُلاحَظَةً مِنْ خَشْيَةِ الجَوَارِحِ. لأَنَّ الذي يَخْشَى اللهَ بِقَلْبِهِ يَكُونُ مُرَاقِبًا للهِ عَزَّ وَجَلَّ وَلِحَقِّهِ أَكْثَرَ، فَيَجِبُ أَنْ تُرَاقِبَ خَشْيَةَ القَلْبِ أَكْثَرَ مِمَّا تُرَاقِبُ خَشْيَةَ الجَوَارِحِ، إِذْ خَشْيَةُ الجَوَارِحِ بِإِمْكَانِ كُلِّ إِنْسَانٍ أَنْ يَقُومَ بِهَا حَتَّى في

---

(١) أخرجه أبو الشيخ في «طبقات المحدثين بأصبهان» (٢/ ١٨٨) ـ واللفظ له ـ، وأبو نعيم في «الحلية» (٢/ ٣٤٣)، وحسنه الألباني رحمه الله بمجموع طرقه في «الصحيحة» (١٨٠٢).

بَيتِهِ، فَكُلُّ إِنْسَانٍ يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُومَ يُصَلِّي وَلا يَتَحَرَّكُ، يَنْظُرُ إِلى مَوضِعِ سُجُودِهِ، يَرْفَعُ يَدَيهِ في مَوضِعِ الرَّفْعِ، يَعْنِي يَسْتَقِيمُ اسْتِقَامَةً تَامَّةً في ظَاهِرِ الصَّلاةِ، لَكِنَّ القَلْبَ غَافِلٌ. أَمَّا خَشْيَةُ القَلْبِ فَهِيَ الأَصْلُ، وَهِيَ التي يَجِبُ أَنْ يُرَاقِبَهَا الإِنْسَانُ وَيَحْرِصَ عَلَيهَا حِرْصًا تَامًّا»[1].

وَأَمَّا العَدْلُ في الغَضَبِ وَالرِّضَا: فَعَزِيزٌ جِدًّا، لأَنَّ الغَضَبَ يَحْمِلُ صَاحِبَهُ عَلَىٰ أَنْ يَقُولَ غَيرَ الحَقِّ، وَيَفْعَلَ غَيرَ العَدْلِ، فَمَنْ كَانَ لا يَقُولُ إِلَّا الحَقَّ في الغَضَبِ وَالرِّضَا، دَلَّ ذَلِكَ عَلَىٰ شِدَّةِ إِيمَانِهِ وَأَنَّهُ يَملِكُ نَفْسَهُ.

وَأَمَّا القَصْدُ في الفَقْرِ وَالغِنَى: فَإِنَّ الفَقْرَ وَالغِنَى بَلِيَّتَانِ وَمِحْنَتَانِ، يَبْتَلِي اللهُ بِهِمَا عَبْدَهُ. فَفِي الغِنَى يَبْسُطُ يَدَهُ، وَفِي الفَقْرِ يَقْبِضُهَا، وَالقَصْدُ هُوَ التَّوَسُّطُ الذي لَيْسَ مَعَهُ إِسْرَافٌ وَلا تَقْتِيرٌ.

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الهَدْيَ الصَّالِحَ، وَالسَّمْتَ الصَّالِحَ، وَالاقْتِصَادَ، جُزْءٌ مِنْ خَمْسَةٍ وَعِشْرِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»[2].

فَهَذِهِ الثَّلاثُ جَمَعَتْ كُلَّ خَيرٍ مُتَعَلِّقٍ بِحَقِّ اللهِ وَحَقِّ النَّفْسِ وَحُقُوقِ العِبَادِ. وَصَاحِبُهَا قَدْ فَازَ بِالقَدَحِ المُعَلَّى وَالهُدَى وَالرَّشَادِ.

الثاني عشرَ: المحافظةُ عَلَىٰ الصلواتِ الخمسِ:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ ذَكَرَ الصَّلاةَ يَومًا، فَقَالَ: «مَنْ حَافَظَ عَلَيهَا، كَانَتْ لَهُ نُورًا وَبُرْهَانًا، وَنَجَاةً مِنَ النَّارِ يَومَ القِيَامَةِ؛ وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيهَا، لَمْ تَكُنْ لَهُ نُورًا، وَلا نَجَاةً وَلا بُرْهَانًا؛ وَكَانَ يَومَ القِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ، وَفِرْعَونَ، وَهَامَانَ، وَأُبَيِّ بنِ خَلَفٍ»[3].

هَذِهِ الصَّلاةُ مَنْ حَافَظَ عَلَيهَا كَانَتْ لَهُ نُورًا. فَهِيَ لِلْمُؤمِنِينَ في الدُّنْيَا نُورٌ في

---

(١) تفسير سورة يس (ص٣٦ ـ ٣٧)، للعلامة ابن عثيمين رحمه الله.
(٢) أخرجه أبو داود (٤٧٧٦)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (١٩٩٣).
(٣) أخرجه الدارمي (٢٦٢١) ـ تعليق الدكتور البُغا ـ، وأحمد (٦٥٧٦) بإسنادٍ جيدٍ: كما قال المنذري في «الترغيب والترهيب» (٨٣٨).

قُلُوبِهِمْ وَبَصَائِرِهِم، تُشْرِقُ بِهَا قُلُوبُهُم، وَتَسْتَنِيرُ بَصَائِرُهُم؛ وَلِهَذَا كَانَتْ قُرَّةَ عَينِ المُتَّقِينَ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «جُعِلَتْ قُرَّةُ عَينِي في الصَّلاةِ»[1].

وَهِيَ نُورٌ لِلْمُؤمِنِينَ في قُبُورِهِمْ. وَهِيَ في الآخِرَةِ نُورٌ لِلْمُؤمِنِينَ في ظُلُمَاتِ القِيَامَةِ، وَعَلَى الصِّراطِ، فَإِنَّ الأَنْوَارَ تُقْسَمُ لَهُم عَلَىٰ حَسَبِ أَعْمَالِهِم.

وَهِيَ أَيضًا بُرْهَانٌ، «وَالبُرْهَانُ: هُوَ الشُّعَاعُ الذي يَلِي وَجْهَ الشَّمسِ، وَمِنْهُ سُمِّيَتِ الحُجَّةُ القَاطِعَةُ بُرْهَانًا، لِوُضُوحِ دِلَالَتِهَا عَلَىٰ مَا دَلَّتْ عَلَيهِ»[2]، وَكَذَلِكَ الصَّلاةُ بُرْهَانٌ عَلَىٰ صِحَّةِ الإِيمَانِ.

وَهِيَ أَيضًا نَجَاةٌ مِنَ الشَّرِّ وَالعَذَابِ، وَسَبَبٌ مُوصِلٌ لِلْخَيرِ وَالثَّوَابِ.

وَأَمَّا مَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيهَا، فَقَد بَاءَ بِالخُسْرَانِ المُبِينِ، وَكَانَ يَومَ القِيَامَةِ مَعَ قَارُونَ، وَفِرْعَونَ، وَهَامَانَ، وَأُبَيِّ بنِ خَلَفٍ.

«وَإِنَّمَا خَصَّ هَؤُلاءِ الأَرْبَعَةَ بِالذِّكْرِ، لأَنَّهُمْ مِنْ رُؤُوسِ الكَفَرَةِ.

وَفِيهِ نُكْتَة بَدِيعَةٌ: وَهُوَ أَنَّ تَارِكَ المُحَافَظَةِ عَلَىٰ الصَّلاةِ إِمَّا أَنْ يَشْغَلَهُ مَالُهُ، أَوْ مُلْكُهُ، أَو رِيَاسَتُهُ، أَو تِجَارَتُهُ؛ فَمَنْ شَغَلَهُ عَنْهَا مَالُهُ فَهُوَ مَعَ قَارُونَ، وَمَنْ شَغَلَهُ عَنْهَا مُلْكُهُ فَهُوَ مَعَ فِرْعَونَ، وَمَنْ شَغَلَهُ عَنْهَا رِيَاسَةٌ وَوِزَارَةٌ فَهُوَ مَعَ هَامَانَ، وَمَنْ شَغَلَهُ عَنْهَا تِجَارَتُهُ فَهُوَ مَعَ أُبَيِّ بنِ خَلَفٍ»[3].

الثالثُ عشرَ: حفظُ اللِّسَانِ وَلُزُومُ البَيتِ وَالبُكَاءُ عَلَىٰ الخطيئةِ:

عَنْ عُقْبَةَ بنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا النَّجَاةُ؟ قَالَ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيتُكَ، وَابْكِ عَلَىٰ خَطِيئَتِكَ»[4].

قَولُهُ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ» أَي: عَنِ الكَلامِ المُحَرَّمِ؛ لأَنَّ خَطَرَ اللِّسَانِ

---

(١) أخرجه النسائي (٣٩٥٠) من حديث أنس رضي الله عنه، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن النسائي» (٣/ ٥٧).

(٢) جامع العلوم والحكم (٢/ ٢٣).

(٣) الصلاة وحكم تاركها (ص٦٣ ـ ٦٤).

(٤) أخرجه الترمذي (٢٤٠٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٥٦٧).

عَظِيمٌ، وَآفَاتُهُ كَثِيرَةٌ، وَكُلُّهَا مَهَالِكُ وَمَعَاطِبُ، وَهِيَ مُسَاقَةٌ إِلى اللِّسَانِ لا تَثْقُلُ عَلَيهِ وَلَهَا حَلاوَةٌ في القَلْبِ، وَعَلَيهَا بَوَاعِثُ مِنَ الطَّبْعِ وَمِنَ الشَّيطَانِ. فَإِنْ كُنْتَ لا تَقْدِرُ عَلَىٰ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ تَكَلَّمَ فَغَنِمَ، فَكُنْ مِمَّنْ سَكَتَ فَسَلِمَ؛ فَالسَّلامَةُ إِحْدَى الغَنِيمَتَينِ، وَالسَّلامَةُ لا يَعْدِلُهَا شَيءٌ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ صَمَتَ نَجَا»(١).

وَعَنْ أَبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤمِنُ بِاللهِ وَاليَومِ الآخِرِ، فَلْيَقُلْ خَيرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»(٢).

فَقَولُ الخَيرِ خَيرٌ مِنَ الصَّمْتِ، وَالصَّمْتُ خَيرٌ مِنْ قَولِ الشَّرِّ. وَقَولُ الخَيرِ غَنِيمَةٌ وَالسُّكُوتُ عَنِ الشَّرِّ سَلامَةٌ، وَالإِنْسَانُ إِمَّا أَنْ يَتَكَلَّمَ أَو يَسْكُتَ: فَإِنْ تَكَلَّمَ فَإِمَّا بِخَيرٍ وَهُوَ رِبْحٌ وَإِمَّا بِشَرٍّ وَهُوَ خَسَارَةٌ، فَلَهُ في كَلامِهِ وَسُكُوتِهِ رِبْحَانِ فَيَنْبَغي أَنْ يُحَصِّلَهُمَا، أَو خَسَارَتَانِ فَيَنْبَغي أَنْ يَجْتَنِبَهُمَا.

عَنْ مُعاذِ بنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّكَ لَنْ تَزَالَ سَالِمًا مَا سَكَتَّ، فَإِذَا تَكَلَّمْتَ كُتِبَ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ»(٣).

وَعَنْ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «... قُولُوا خَيرًا تَغْنَمُوا، وَاسْكُتُوا عَنْ شَرٍّ تَسْلَمُوا»(٤).

وَقَولُهُ: «وَلْيَسَعْكَ بَيتُكَ» أَي: الزَمْ بَيتَكَ عِندَ ظُهُورِ الفِتَنِ، فَلُزُومُ البَيتِ نَجَاةٌ مِنَ الفِتَنِ وَشُرُورِهَا. عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «وَمَنْ جَلَسَ في بَيتِهِ لَمْ يَغْتَبْ إِنْسَانًا، كَانَ ضَامِنًا عَلَىٰ اللهِ»(٥). وَمَعْنىٰ ضَامِنٌ عَلَىٰ اللهِ تَعَالىٰ: أَنَّهُ فِي

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥٠١)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٦٠٤).
(٢) أخرجه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).
(٣) أخرجه الطبراني (٢٠/رقم (١٣٧)) ـ ضمن حديث طويل ـ، وحسنه لغيره العلامة الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣/ ٩٠).
(٤) أخرجه الحاكم (٤/ ٢٨٦ ـ ٢٨٧) ـ ضمن حديث طويل ـ ، وصححه العلامة الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «الصحيحة» (٤١٢).
(٥) أخرجه ابن حبان (٢٧٣)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٧٣٨).

رِعَايَةِ اللهِ تَعَالىٰ. وَقَولُهُ: «وَابْكِ عَلَىٰ خَطِيئَتِكَ» أَيْ: وَابْكِ مِنَ الذُّنُوبِ المَاضِيَةِ.

فَلْنَبْكِ عَلَىٰ مَا أَذْنَبْنَا فِي الشُّهُورِ وَالأَعْوَامِ، وَفِي السَّاعَاتِ وَالأَيَّامِ، مِنَ الخَطَايَا وَالإِجرَامِ، وَمَا فَرَّطْنَا فِيهِ مِنْ أَدَاءِ حُقُوقِ المَلِكِ العَلَّامِ.

الرابعُ عشرَ: الزُّهدُ في الدُّنيا:

عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرِو بنِ العَاصِ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَجَا أَوَّلُ هَذِهِ الأُمَّةِ بِاليَقِينِ والزُّهْدِ، وَيَهْلِكُ آخِرُ هذهِ الأُمَّةِ بالبُخْلِ وَالأَمَلِ»[1].

وَالَّذي يُصَحِّحُ هَذَا الزُّهْدَ ثَلاثَةُ أَشْيَاءَ:

أَحَدُهَا: عِلْمُ العَبْدِ أَنَّهَا ظِلٌّ زَائِلٌ وَخَيَالٌ زَائِرٌ.

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهِ عُمَرُ وَهُوَ عَلَىٰ حَصِيرٍ قَدْ أَثَّرَ في جَنْبِهِ، فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللهِ لَوِ اتَّخَذْتَ فِرَاشًا أَوثَرَ مِنْ هَذَا؟ فَقَالَ: «مَا لي وَلِلدُّنْيَا؟! مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ سَارَ في يَومٍ صَائِفٍ، فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»[2].

فَتَأَمَّلْ حُسْنَ هَذَا المِثَالِ، وَمُطَابَقَتَهُ لِلْوَاقِعِ سَوَاءً، فَإِنَّهَا في خُضْرَتِهَا كَشَجَرَةٍ، وَفي سُرْعَةِ انْقِضَائِهَا وَقَبْضِهَا شَيئًا فَشَيئًا كَالظِّلِّ، وَالْعَبْدُ مُسَافِرٌ إلى رَبِّهِ، وَالْمُسَافِرُ إذا رَأَى شَجَرَةً في يَومٍ صَائِفٍ لا يَحْسُنُ بِهِ أَنْ يَبْنِيَ تَحْتَهَا دَارًا وَلَا يَتَّخِذَهَا قَرَارًا، بَلْ يَسْتَظِلَّ بِهَا بِقَدْرِ الحَاجَةِ، وَمنْ زَادَ عَلَىٰ ذَلِكَ انْقَطَعَ عَنِ الرِّفَاقِ.

عَنِ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ مَطْعَمَ ابْنِ آدَمَ جُعِلَ مَثَلًا لِلدُّنيا، وَإِنْ قَزَّحَهُ وَمَلَّحَهُ، فَانْظُرُوا إلى ما يَصِيرُ»[3].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «قصر الأمل» (٢٠)، وحسنه لغيرهِ الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٣٤٠).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٠١)، وابن حبان (٢٥٢٦)، والحاكم (٤/ ٣٠٩ ـ ٣١٠)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه عبد الله بن أحمد في «زوائد المسند» (٥/ ١٣٦)، وصححه لغيره الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢١٥٠).

قَزَّحَهُ وَمَلَّحَهُ: «أَيْ تَوْبَلَهُ، مِنَ القِزْحِ وَهُوَ التَّابِلُ الَّذي يُطْرَحُ في القِدْرِ، كَالكَمُّونِ وَالْكُزْبَرَةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ. يُقَالُ: قَزَّحْتُ القِدْرَ إذا تَرَكْتَ فيهَا الأَبَازِيرَ.

وَالمَعْنَى: أَنَّ المَطْعَمَ وَإِنْ تَكَلَّفَ الإِنْسَانُ التَّنَوُّقَ في صُنْعَتِهِ وَتَطْيِيبِهِ فَإِنَّهُ عَائِدٌ إلى حَالٍ يُكْرَهُ وَيُسْتَقْذَرُ، فَكَذَلِكَ الدُّنيا المَحْرُوصُ عَلَىٰ عِمَارَتِهَا وَنَظْمِ أَسْبَابِهَا رَاجِعَةٌ إلى خَرَابٍ وَإِدْبَارٍ»[1].

وَعَنِ ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ اللهَ تعالى جَعَلَ الدُّنْيَا كُلَّهَا قَليلاً، وَمَا بَقِيَ مِنْهَا إلَّا القَليلُ مِنَ القَليلِ، وَمَثَلُ مَا بَقِيَ مِنَ الدُّنْيَا كَالثَّغَبِ - يَعْني الغَدِيرَ - شُرِبَ صَفْوُهُ، وَبَقِيَ كَدَرُهُ»[2].

وَعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعدٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ، مَا سقى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ»[3].

وَعَنْ أبي هريرةَ ﷺ يقولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «الدُّنيَا مَلْعُونَةٌ، مَلْعُونٌ ما فيهَا، إلَّا ذِكْرَ اللهِ وَمَا وَالاهُ، وَعَالِمٌ أو مُتَعَلِّمٌ»[4].

فَذِكْرُهُ: جَمِيعُ أَنْوَاعِ طَاعَتِهِ، فَكُلُّ مَنْ كَانَ في طَاعَتِهِ فَهُوَ ذاكِرٌ لَهُ، وَإِنْ لَمْ يَتَحَرَّكْ بِالذِّكْرِ، وَكُلُّ مَنْ وَالاهُ فَقَدْ أَحَبَّهُ وَقَرَّبَهُ، فَاللَّعْنَةُ لا تَنَالُ ذَلِكَ بِوَجْهٍ، وَهِيَ نَائِلَةٌ كُلَّ مَا عَدَاهُ[5].

وَعَن جَابِرٍ ﷺ: أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ مَرَّ بِالسُّوقِ دَاخِلاً مِنْ بَعْضِ العَالِيَةِ، وَالنَّاسُ كَنَفَتَيهِ[6]، فَمَرَّ بِجَدْيٍ أَسَكَّ[7] مَيِّتٍ، فَتَنَاوَلَهُ فَأَخَذَ بِأُذُنِهِ ثُمَّ قَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟» فَقَالُوا: مَا نُحِبُّ أَنَّهُ لَنَا بِشَيءٍ، وَمَا نَصْنَعُ بِهِ؟ قَالَ: «أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُم؟» قَالُوا: وَاللهِ لَوْ كَانَ حَيًّا كَانَ عَيْبًا فِيهِ لأَنَّهُ أَسَكُّ، فَكَيْفَ وَهُوَ

---

(١) النهاية في غريب الحديث (٤/ ٥٨).
(٢) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٢٠)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «الصحيحة» (١٦٢٥).
(٣) أخرجه الترمذي (٢٣٢٠)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٥٣٢).
(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٢٢)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٥٣٣).
(٥) إغاثة اللهفان (١/ ٤٠).
(٦) كَنَفَتَيهِ: أيْ عَنْ جَانِبَيهِ.
(٧) أسَكُّ: هُوَ الصَّغيرُ الأُذُنُ.

مَيِّتٌ؟ فَقَالَ: «فَوَاللهِ لَلدُّنيَا أَهْوَنُ عَلَىٰ اللهِ مِنْ هَذَا عَلَيْكُم»[1].

الثَّاني: عِلْمُهُ أَنَّ وَرَاءَهَا دَارًا أَعْظَمَ مِنْهَا قَدْرًا، وَأَجَلَّ خَطَرًا وَهِيَ دَارُ البَقَاءِ، وَأَنَّ نِسْبَتَهَا إِلَيْهَا كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَاللهِ مَا الدُّنْيَا في الآخِرَةِ، إِلَّا مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُم أُصْبُعَهُ في اليَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَا يَرْجِعُ؟!»[2].

وَمَعْنَى الحَدِيثِ: مَا الدُّنْيَا بِالنِّسْبَةِ إِلى الآخِرَةِ في قِصَرِ مُدَّتِهَا وَفَنَاءِ لَذَّاتِهَا، وَدَوَامِ الآخِرَةِ وَدَوَامِ لَذَّاتِهَا وَنَعِيمِهَا، إِلَّا كَنِسْبَةِ المَاءِ الذي يَعْلَقُ بِالأُصْبُعِ إِلى بَاقي البَحْرِ[3].

الثَّالثُ: مَعْرِفَتُهُ أَنَّ زُهْدَهُ فِيهَا لا يَمْنَعُهُ شَيْئًا كُتِبَ لَهُ مِنْهَا، وَأَنَّ حِرْصَهُ عَلَيْهَا لا يَجْلِبُ لَهُ مَا لَمْ يُقْضَ لَهُ مِنْهَا، فَمَتَى تَيَقَّنَ ذَلِكَ وَصَارَ لَهُ عِلْمُ يَقِينٍ، هَانَ عَلَيهِ الزُّهْدُ فِيهَا.

فَهَذِهِ الأُمُورُ الثَّلاثَةُ تُسَهِّلُ عَلَىٰ العَبْدِ الزُّهْدَ فِيهَا، وَتُثَبِّتُ قَدَمَهُ في مَقَامِهِ، وَاللهُ المُوَفِّقُ لِمَنْ يَشَاءُ[4].

وَلِلزَّاهِدِ ثَلاثُ عَلاماتٍ:

الأُولى: أَنْ لا يَفْرَحَ بِمَوجُودٍ، وَلا يَحْزَنَ عَلَىٰ مَفْقُودٍ، كَمَا قالَ تعالى: ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

الثَّانيةُ: أَنْ يَسْتَوِيَ عِنْدَهُ ذامُّهُ وَمَادِحُهُ.

الثالثةُ: أَنْ يَكُونَ أُنْسُهُ بِاللهِ تَعَالى، وَالغَالِبُ عَلَىٰ قَلْبِهِ حَلاوَةَ الطَّاعَةِ، إِذْ لا يَخْلُو القَلْبُ عَنْ حَلاوَةِ المَحَبَّةِ: إِمَّا مَحَبَّةِ الدُّنْيَا وَإِمَّا مَحَبَّةِ اللهِ، وَهُمَا في القَلْبِ كَالمَاءِ وَالْهَوَاءِ في القَدَحِ، فَالمَاءُ إِذا دَخَلَ خَرَجَ الهَوَاءُ وَلا يَجْتَمِعَانِ، وَكُلُّ مَنْ أَنِسَ باللهِ اشْتَغَلَ بِهِ وَلَمْ يَشْتَغِلْ بِغَيْرِهِ[5].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٧).
(٢) أخرجه مسلم (٢٨٥٨).
(٣) شرح مسلم (١٧/ ١٩٢ ـ ١٩٣)، للنووي رَحِمَهُ اللهُ.
(٤) طريق الهجرتين (ص٢٥٣).
(٥) عدة الصابرين (ص٣١٦).

الخامسُ عشرَ: الصَّومُ:

عَنْ عُثْمَانَ بنِ أبي العَاصِ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «الصَّومُ جُنَّةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ، كَجُنَّةِ أَحَدِكُم مِنَ القِتَالِ»[1].

الجُنَّةُ: هِيَ مَا يَسْتَجِنُّ بِهَا العَبْدُ، كَالمِجَنِّ الذي يَقِيهِ عِنْدَ القِتَالِ مِنَ الضَّرْبِ، فَكَذَلِكَ الصِّيَامُ يَقِي صَاحِبَهُ مِنَ المعَاصِي في الدُّنْيَا، وَمِنَ النَّارِ في الآخِرَةِ.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/٢١٧)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الجامع» (٣٨٧٩).

الخاتمـــــةُ

الحَمدُ للهِ الذي هَدَانا لِهَذا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَولا أنْ هَدانا اللهُ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى خَاتَمِ الأَنْبِيَاءِ وَالمرْسَلِينَ.

وَفِي خِتَامِ الحَدِيثِ عَنِ الخِصَالِ المُنْجِيةِ في الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، فَإِنَّ الإِنْسَانَ المُسْلِمَ لا سَبِيلَ لَهُ إِلىٰ النَّجَاةِ، إِلَّا بِعَفْوِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ وَمَغْفِرَتِهِ، كَمَا قَالَ أَطْوَعُ الخَلْقِ لِرَبِّهِ وَأَفْضَلُهُم عَمَلًا وَأَشَدُّهُم تَعْظِيمًا لَهُ: «لَنْ يُنْجِيَ أَحَدًا مِنْكُم عَمَلُهُ» قَالُوا: وَلا أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «وَلا أَنَا، إِلَّا أَنْ يَتَغَمَّدَنِيَ اللهُ بِرَحْمَةٍ»[1].

«وَلا يَعْرِفُ هَذَا حَقَّ مَعْرِفَتِهِ إِلَّا مَنْ عَرَفَ اللهَ، وَعَرَفَ حُقُوقَهُ عَلَيهِ، وَعَرَفَ مَا يَنْبَغِي لَهُ مِنْ عُبُودِيَّتِهِ، وَعَرَفَ نَفْسَهُ وَصِفَاتِهَا وَأَفْعَالَهَا، وَأَنَّ الذي قَامَ بِهِ مِنَ العُبُودِيَّةِ بِالنِّسْبَةِ إِلى حَقِّ رَبِّهِ عَلَيهِ، كَقَطْرَةٍ في بَحْرٍ، هَذَا إِذَا سَلِمَ مِنَ الآفَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ، وَلَيسَ إِلَّا ذَلِكَ أَوِ الهَلاكُ»[2].

عَنْ أُبَيِّ بنِ كعبٍ رضي الله عنه: عَنِ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: «لَو أَنَّ اللهَ عَذَّبَ أَهْلَ سَمَاوَاتِهِ وَأَهلَ أَرْضِهِ، عَذَّبَهُمْ وَهُوَ غَيْرُ ظَالِمٍ لَهُمْ؛ وَلَوْ رَحِمَهُمْ، كَانَتْ رَحْمَتُهُ خَيْرًا لَهُمْ مِنْ أَعْمَالِهِم»[3].

نَسألُ اللهَ تَعَالَى بِأَسْمائِهِ الحُسنى وَصِفَاتِهِ العُلى أَنْ يَتَغَمَّدَنَا بِرَحْمَتِهِ التي وَسِعَت كُلَّ شَيءٍ إِنَّهُ أَرحَمُ الرَّاحِمِينَ، وَأَكرَمُ الأَكرَمِينَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٦٣)، ومسلم (٢٨١٦).

(٢) زاد المعاد (٣/ ٥٩١ ـ ٥٩٢).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٩٩)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ١٤٨).

إصلاح القلوب

تأليف

عبد الهادي بن حسن وهبي

تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إِنَّ الْحَمْدَ للهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَن يُضلِلِ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ خَيْرَ الكَلَامِ كَلَامُ اللهِ، وَخَيرَ الهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحدَثَاتُهَا؛ وَكُلَّ مُحدَثَةٍ بِدعَةٌ، وَكُلَّ بِدعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

إِنَّ المُتَأَمِّلَ فِي نَفسِهِ وَمَنْ حَولَهُ مِنَ النَّاسِ بِكَافَّةِ طَبَقَاتِهِم، لَيَرَى اهْتِمَامًا بَالِغًا وَانْصِرَافًا تَامًّا - إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللهُ - إِلَى العِنَايَةِ بِالمَظَاهِرِ المَرئِيَّةِ، وَغَفلَةً تَكَادُ تَكُونُ عَامَّةً عَنِ العِنَايَةِ بِالأَعمَالِ القَلبِيَّةِ وَالذَّخَائِرِ الخَفِيَّةِ.

مَعَ أَنَّ إِصْلَاحَ القُلُوبِ مِنَ المَطَالِبِ العَالِيَةِ، وَالمَقَاصِدِ السَّامِيَةِ، وَأُمنِيَةٌ عَظِيمَةٌ، وَغَايَةٌ كَرِيمَةٌ لا تَصْلُحُ الأَحْوَالُ إِلَّا بِهَا بِإِذْنِ اللهِ تَعَالَى.

وَقَد صَارَ الكَلَامُ فِي إِصْلَاحِ القُلُوبِ عَزِيزًا وَغَرِيبًا. «وَأَغْرَبُ مِنْهُ مَنْ يَعْرِفُهُ، وَأَغْرَبُ مِنْهُ مَنْ يَدْعُو إِلَيْهِ، وَيَنْصَحُ بِهِ نَفْسَهُ وَالنَّاسَ»[1] وَإِذَا تَعَرَّضَ طَالِبُ العِلْمِ النَّافِعِ لِشَيءٍ مِنْهَا اسْتُغْرِبَ وَاسْتُبْعِدَ. فَهُوَ «مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ غُرْبَةً بَينَ النَّاسِ، لَهُم شَأْنٌ وَلَهُ شَأْنٌ، عِلْمُهُ غَيرُ عُلُومِهِم، وَإِرَادَتُهُ غَيرُ إِرَادَتِهِم، وَطَرِيقُهُ غَيرُ طَرِيقِهِم، فَهُوَ فِي وَادٍ وَهُم فِي وَادٍ»[2] مُنْفَرِدٌ فِي طَرِيقِ طَلَبِهِ، «فَلْزِمَهُ وَاسْتَقَامَ عَلَيْهِ»[3].

---

(١) إعلام الموقعين (٤/ ٢١٧ - ٢١٨).

(٢) فوائد الفوائد (ص٣٤٨).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ٢١٤).

طُوبَى لَهُ مِنْ وَحِيدٍ عَلَى كَثْرَةِ السُّكَّانِ، غَرِيبٍ عَلَى كَثْرَةِ الجِيرَانِ[1].

وَلَقَد أَحْسَنَ القَائِلُ:

الطُّرُقُ شَتَّى وَطُرُقُ الحَقِّ مُفْرَدَةٌ ... وَالسَّالِكُونَ طَرِيقَ الحَقِّ أَفرَادُ

لا يُعرَفُونَ وَلا تُذرَى مَقَاصِدُهُم ... فَهُم عَلَى مَهلٍ يَمشُونَ قُصَّادُ

وَالنَّاسُ فِي غَفلَةٍ عَمَّا يُرَادُ بِهِم ... فَجُلُّهُم عَن سَبِيلِ الحَقِّ رُقَّادُ

وَعَلَى الجُمْلَةِ: فَلا يَمِيلُ أَكثَرُ الخَلْقِ إِلَّا إِلى الأَسْهَلِ وَالأَوفَقِ لِطِبَاعِهِم. «وَكُلَّمَا كَانَ الفِعْلُ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ وَأَحَبَّ إِلَى اللهِ تَعَالَى، كَانَ اعْتِرَاضُ الشَّيْطَانِ لَهُ أَكْثَرَ»[2]. وَكُلَّما عَظُمَ المَطْلُوبُ وَشَرُفَ «كَثُرَتِ العَوَارِضُ وَالمَوَانِعُ دُونَهُ، هَذِهِ سُنَّةُ اللهِ فِي الخَلْقِ. فَانْظُرْ إِلى الجَنَّةِ وَعِظَمِهَا، وَإِلَى المَوَانِعِ وَالقَوَاطِعِ التي حَالَتْ دُونَهَا، حَتَّى أَوجَبَتْ أَنْ ذَهَبَ مِنْ كُلِّ أَلْفِ رَجُلٍ وَاحِدٌ إِلَيهَا. وَانْظُرْ إِلَى مَحَبَّةِ اللهِ وَالانْقِطَاعِ إِلَيهِ وَالإِنَابَةِ إِلَيهِ وَالتَّبَتُّلِ إِلَيهِ وَحْدَهُ، وَالأُنْسِ بِهِ وَاتِّخاذِهِ وَلِيًّا وَوَكِيلًا وَكَافِيًا وَحَسِيبًا، هَلْ يَكْتَسِبُ العَبْدُ شَيئًا أَشْرَفَ مِنْهُ؟»[3]. وَانْظُرْ إِلَى العَوَائِقِ الحَائِلَةِ دُونَهُ، مِنْ شِرْكٍ، وَبِدْعَةٍ، وَمَعصِيَةٍ؛ فَإِنَّها تَعُوقُ القَلبَ عَنْ سَيرِهِ إِلَى اللهِ، وَتَقْطَعُ عَلَيهِ طَرِيقَهُ، فَالعَوَائِقُ شَدِيدَةٌ، «لا يَخْلُصُ مِنْ حَبَائِلِهَا إِلَّا الوَاحِدُ بَعْدَ الوَاحِدِ، وَلَولا العَوَائِقُ وَالآفَاتُ لَكَانَتِ الطَّرِيقُ مَعْمُورَةً بِالسَّالِكِينَ، وَلَو شَاءَ اللهُ لأَزَالَهَا وَذَهَبَ بِهَا، وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ»[4].

وَلَمَّا كَانَ النَّاسُ فِي هَذِهِ الأَيَّامِ فِي غَفْلَةٍ عَنْ قُلُوبِهِم، جَمَعْتُ هَذَا البَحْثَ بِتَوفِيقِ اللهِ تَعَالَى، سَائِلًا المَولَى الكَرِيمَ أَنْ يُصْلِحَ بَوَاطِنَنَا وَظَوَاهِرَنَا، وَيُوَفِّقَنَا لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ فِي جَمِيعِ أُمُورِنَا بِمَنِّهِ وَكَرَمِهِ. وَالحَمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

---

(١) إعلام الموقعين (٤/٢١٨).
(٢) موارد الأمان (ص١٦٢).
(٣) طريق الهجرتين (ص٤٣٩).
(٤) طريق الهجرتين (ص٣٣٦).

أُصُولٌ نَفِيسةٌ
فِي إِصلاحِ القُلُوبِ

الأصلُ الأوَّلُ:
القَلبُ مَوضِعُ نَظَرِ اللهِ تَعالَى

عَنْ أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ»(١).

أَشْرَفُ مَا فِي الإِنسَانِ قَلْبُهُ، فَهُوَ مَحِلُّ نَظَرِ اللهِ، المَخْصُوصُ بِأَشْرَفِ العَطَايَا مِنَ الإِيمَانِ وَتَوَابِعِهِ. فَعَلَى العَبْدِ أَنْ يَهْتَمَّ بِقَلبِهِ وَيُزَيِّنَهُ بِالتَّوبَةِ وَالإِنَابَةِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، وَيُطَهِّرَهُ مِنْ كُلِّ مَا يَكْرَهُهُ اللهُ تَعَالَى، فَإِنَّ زِينَةَ الظَّاهِرِ مَعَ خَرَابِ البَاطِنِ لا تُغْنِي شَيئًا. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾ [الأعراف: ٢٦]. فَإِنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ أَنْزَلَ لِبَاسَيْنِ: لِبَاسًا ظَاهِرًا يُوارِي العَوْرَةَ وَيَسْتُرُهَا، وَلِبَاسًا بَاطِنًا مِنَ التَّقْوَى، يُجَمِّلُ العَبْدَ وَيَسْتُرُهُ، فَإِذَا زَالَ عَنْهُ هَذَا اللِّبَاسُ؛ انْكَشَفَتْ عَوْرَتُهُ البَاطِنَةُ، كَمَا تَنْكَشِفُ عَوْرَتُهُ الظَّاهِرَةُ بِنَزْعِ مَا يَسْتُرُهَا(٢).

وَلَقَد أَحْسَنَ القَائِلُ:

إِذَا المَرْءُ لَمْ يَلْبَسْ ثِيَابًا مِنَ التُّقَى ... تَقَلَّبَ عُرْيَانًا وَإِنْ كَانَ كَاسِيًا
وَخَيرُ لِبَاسِ المَرءِ طَاعَةُ رَبِّهِ ... وَلا خَيرَ فِيمَنْ كَانَ للهِ عَاصِيًا

---

(١) أخرجه مسلم [٣٤ ـ (٢٥٦٤)].
(٢) موارد الأمان (ص١٨٣).

وَهَكَذَا إِذَا رُئِيَ الرَّجُلُ أَوِ المَرْأَةُ فِي مَنَامِهِ مَكْشُوفَ السَّوْأَةِ، فَإِنَّهُ يَدُلُّ عَلَى فَسَادٍ فِي دِينِهِ، قَالَ الشَّاعِرُ:

إِنِّي كَأَنِّي أَرَى مَنْ لاَ حَيَاءَ لَهُ ... وَلاَ أَمَانَةَ وَسْطَ النَّاسِ عُرْيَانَا[1]

فَالله الله فِي إِصْلاحِ السَّرَائِرِ؛ فَإِنَّهُ مَا يَنْفَعُ مَعَ فَسَادِهَا صَلاحٌ ظَاهِرٌ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٥١]. فَانْظُر أَيُّهَا الأَخُ الحَبِيبُ: مَاذَا يَعْلَمُ اللهُ مِنْ قَلْبِكَ؟!

الأَصْلُ الثَّانِي:
صَلاَحُ الجَوَارِحِ بِصَلاَحِ القَلْبِ

عَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِيمَا رَوَى عَنِ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ: «... يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُم وَآخِرَكُم وَإِنسَكُم وَجِنَّكُم كَانُوا عَلَى أَتقَى قَلبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنكُم، مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلكِي شَيئًا، يَا عِبَادِي لَو أَنَّ أَوَّلَكُم وَآخِرَكُم وَإِنسَكُم وَجِنَّكُم كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلكِي شَيئًا»[2].

وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الأَصْلَ فِي التَّقْوَى وَالفُجُورِ هِيَ القُلُوبُ، فَإِذَا بَرَّ القَلْبُ واتَّقَى بَرَّتِ الجَوَارِحُ، وَإِذَا فَجَرَ القَلْبُ فَجَرَتِ الجَوَارِحُ[3].

عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «... أَلا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ»[4]. فَإِنْ كَانَ القَلْبُ صَالِحًا لَيْسَ فِيهِ إِلَّا إِرَادَةُ اللهِ وَإِرَادَةُ مَا يُرِيدُهُ، لَمْ تَنْبَعِثِ الجَوَارِحُ إِلَّا فِيمَا يُرِيدُهُ اللهُ، فَسَارَعَتْ إِلَى مَا فِيهِ رِضَاهُ، وَكَفَّتْ عَمَّا يَكْرَهُهُ. فَصَلُحَ اللِّسَانُ صِدْقًا وَقَوْلاً سَدِيدًا ثَابِتًا وَحِكْمَةً نَافِعَةً، وَصَلُحَتِ العَيْنُ اعْتِبَارًا وَغَضًّا عَنِ المَحَارِمِ. وَصَلُحَتِ الأُذُنُ اسْتِمَاعًا لِلنَّصِيحَةِ وَالقَوْلِ النَّافِعِ، وَمَا يَنْفَعُ العَبْدَ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ. وَصَلُحَ الفَرْجُ عِفَّةً وحِفْظًا.

---

(١) موارد الأمان (ص١٨٣).
(٢) قطعة من حديث أخرجه مسلم (٢٥٧٧).
(٣) جامع العلوم والحكم (ص٢١٦).
(٤) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).

وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ، وَلَا يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ»(١).

فَأَصْلُ الاسْتِقَامَةِ: اسْتِقَامَةُ القَلْبِ عَلَى التَّوْحِيدِ. فَمَتَى اسْتَقَامَ القَلْبُ عَلَى مَعْرِفَةِ اللهِ، وَعَلَى خَشْيَتِهِ، وَإِجْلَالِهِ، وَمَهَابَتِهِ، وَإِرَادَتِهِ، وَرَجَائِهِ، وَدُعَائِهِ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيْهِ، وَالإِعْرَاضِ عَمَّا سِوَاهُ، اسْتَقَامَتِ الجَوَارِحُ كُلُّهَا(٢).

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ للهِ، وَأَبْغَضَ للهِ، وَأَعْطَى للهِ، وَمَنَعَ للهِ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإِيمَانَ»(٣).

فَإِنَّهُ إِذَا كَانَ حُبُّهُ للهِ، وَبُغْضُهُ للهِ، وَهُمَا عَمَلُ قَلْبِهِ. وَعَطَاؤُهُ للهِ، وَمَنْعُهُ للهِ، وَهُمَا عَمَلُ بَدَنِهِ، دَلَّ عَلَى كَمَالِ الإِيمَانِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا(٤). فَالحُبُّ فِي اللهِ: أَنْ يُحِبَّ اللهَ، ويُحبَّ مَا يُحِبُّهُ. وَالبُغْضُ فِي اللهِ: أَنْ يُبْغِضَ كُلَّ مَا أَبْغَضَهُ اللهُ: مِنْ كُفْرٍ وَفُسُوقٍ وَعِصْيَانٍ؛ وَيُبْغِض مَنْ يَتَّصِفُ بِهَا، أَوْ يَدْعُو إِلَيْهَا(٥).

وَمَنْ كَانَ حُبُّهُ وَبُغْضُهُ وَعَطَاؤُهُ وَمَنْعُهُ لِهوَى نَفْسِهِ، كَانَ ذَلِكَ نَقْصًا فِي إِيمَانِهِ الوَاجِبِ، فَيَجِبُ عَلَيْهِ التَّوْبَةُ مِنْ ذَلِكَ(٦).

إِنَّ مُضْغَةً مَرْهُونٌ صَلَاحُكَ بِصَلَاحِهَا، وَفَسَادُكَ بِفَسَادِهَا، لَحَرِيٌّ بِكَ أَنْ تَتَفَقَّدَهَا، وَتَسْعَى إِلَى إِصْلَاحِهَا.

الأَصْلُ الثَّالِثُ:
القَلْبُ كَثِيرُ التَّقَلُّبِ

عَنِ المِقْدَادِ بْنِ الأَسْوَدِ ﷺ قَالَ: لَا أَقُولُ فِي رَجُلٍ خَيْرًا وَلَا شَرًّا، حَتَّى أَنْظُرَ مَا يُخْتَمُ لَهُ - يَعْنِي: بَعْدَ شَيءٍ سَمِعْتُهُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ - قِيلَ: وَمَا سَمِعْتَ؟ قَالَ:

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٩٨)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٥٥٤).
(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٥١١ - ٥١٢).
(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٨١)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ١٤١).
(٤) مجموع الفتاوى (١٠/ ٧٥٤).
(٥) المجموعة الكاملة لمؤلفات العلامة السعدي (٣/ ١٠٠).
(٦) جامع العلوم والحكم (٢/ ٣٩٨).

سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَقَلْبُ ابْنِ آدَمَ أَشَدُّ انْقِلَابًا مِنَ القِدْرِ إِذَا اجْتَمَعَتْ غَلْيًا»[1].

وَمَعْلُومٌ سُرعَةُ حَرَكَةِ القِدْرِ. وَهَذَا «مِنْ أَحْسَنِ الأَمْثَالِ وَأَبْلَغِهَا، وَأَعْظَمِهَا تَقْرِيبًا إِلى الأَفْهَامِ»[2].

وَقَالَ القَائِلُ:

مَا سُمِّيَ القَلْبُ إِلاَّ مِنْ تَقَلُّبِهِ ... فَاحْذَر عَلَى القَلْبِ مِنْ قَلْبٍ وَتَحْوِيلِ

وَعَنْ أَبِي مُوسَى الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ هَذَا القَلْبَ كَرِيشَةٍ بِفَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ، يُقِيمُهَا الرِّيحُ ظَهْرًا لِبَطنٍ»[3].

فَهُنَا يُصَوِّرُ لَنَا الرَّسُولُ ﷺ القَلْبَ وَكَأَنَّهُ رِيشَةٌ لِخِفَّتِهِ وَلِتَأْثِيرِ الفِتَنِ عَلَيْهِ، صَغِيرِهَا وَكَبِيرِهَا، تَمَامًا مِثْلَ الرِّيشَةِ الَّتِي تُؤَثِّرُ فِيهَا أَقَلُّ النَّسَمَاتِ فَتُغَيِّرُ اتِّجَاهَهَا.

«فَأَدْنَى شَيءٍ يَخْدِشُهُ وَيُدَنِّسُهُ وَيُؤَثِّرُ فِيهِ، فَهُوَ كَأَبْيَضِ ثَوْبٍ يَكُونُ؛ يُؤَثِّرُ فِيهِ أَدْنَى أَثَرٍ، وَكَالمِرْآةِ الصَّافِيَةِ جِدًّا؛ أَدْنَى شَيءٍ يُؤَثِّرُ فِيهَا، وَلِهَذَا تُشَوِّشُهُ اللَّحظَةُ وَاللَّفْظَةُ وَالشَّهْوَةُ الخَفِيَّةُ»[4].

الأَصْلُ الرَّابِعُ:
القَلْبُ عُرْضَةٌ لِلفِتَنِ

عَنْ حُذَيفَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَعَرْضِ الْحَصِيرِ عُودًا عُودًا، فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَت فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَت فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ، حَتَّى تَعُودَ القُلُوبُ عَلَى قَلْبَيْنِ: قَلبٍ أَسْوَدَ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا؛ إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ، وَقَلْبٍ

---

(١) أخرجه أحمد (٦/ ٤)، وصححه الألباني بطرقه في «الصحيحة» (١٧٧٢).
(٢) إعلام الموقعين (١/ ٢٩٥).
(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٤١٩)، وابن ماجه (٨٨)، وصححه الألباني في «صحيح سنن ابن ماجه» (٧١).
(٤) فوائد الفوائد (ص٤٢).

أَبْيَضَ، فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالأَرْضُ»[1].

فَشَبَّهَ عَرْضَ الفِتَنِ عَلَى القُلُوبِ شَيْئًا فَشَيْئًا؛ كَعَرْضِ عِيدَانِ الحَصِيرِ شَيْئًا فَشَيْئًا، «وَتُنْسَجُ فِيهَا وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ، كَالحَصِيرِ الذي يُنْسَجُ عُودًا عُودًا»[2].

وَقَسَّمَ القُلُوبَ عِنْدَ عَرْضِهَا عَلَيهَا إِلَى قِسْمَينِ:

أ ـ قَلْبٌ إِذا عُرِضَتْ عَلَيهِ فِتْنَةٌ أُشْرِبَها؛ كَمَا يُشْرَبُ السِّفْنَجُ المَاءَ، فَتُنْكَتُ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ.

وَللهِ دَرُّ القَائِلِ:

إِذَا مَا القَلْبُ أُشْرِبَ حُبَّ شَيءٍ ... فَلَا تَأْمَلْ لَهُ عَنْهُ انْصِرَافَا

فَلَا يَزَالُ يُشْرَبُ كُلَّ فِتْنَةٍ تُعْرَضُ عَلَيْهِ حَتَّى يَسْوَدَّ وَيَنْتَكِسَ، وَهُوَ مَعْنَى قَولِهِ: «كَالكُوزِ مُجَخِّيًا»؛ أي: كَالإِنَاءِ مَكْبُوبًا مَنْكُوسًا، الذي لا يَثْبُتُ فِيهِ شَيءٌ؛ فَإِذَا اسوَدَّ وَانْتَكَسَ عَرَضَ لَهُ مِنْ هَاتَيْنِ الآفَتَينِ مَرَضَانِ خَطِيرَانِ مُتَرَامِيانِ بِهِ إِلَى الهَلَاكِ:

أَحَدُهُما: اشْتِبَاهُ المَعْرُوفِ عَلَيْهِ بِالمُنكَرِ، فَلَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا، وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا، وَرُبَّمَا استَحْكَمَ عَلَيْهِ هَذَا المَرَضُ حَتَّى يَعْتَقِدَ المَعْرُوفَ مُنْكَرًا، والمُنْكَرَ مَعْرُوفًا، وَالسُّنَّةَ بِدْعَةً والبِدْعَةَ سُنَّةً، والحَقَّ بَاطِلًا وَالبَاطِلَ حَقًّا.

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ: هَلَكَ مَنْ لَمْ يَعْرِفْ قَلْبُهُ المَعْرُوفَ، وَيُنْكِرْ قَلْبُهُ المُنْكَرَ[3]. فَهُوَ مَيِّتُ القَلْبِ، الَّذِي قِيلَ فِيهِ:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيِّتٍ ... إِنَّمَا المَيْتُ مَيِّتُ الأَحْيَاءِ[4]

وَهُوَ قَلْبُ المُنَافِقِ، وَهُوَ شَرُّ قُلُوبِ الخَلْقِ. وَهَذَا القَلْبُ دَأْبُهُ دَائِمًا أَنْ يَدْعُوَ النَّاسَ إِلَى مَا يَكرَهُهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، وَيَنْهَاهُم عَمَّا يُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، مِنَ الأَقْوَالِ

---

(١) أخرجه مسلم (١٤٤).
(٢) كتاب الميسر في شرح مصابيح السنة (٤/ ١١٣٧).
(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٨٥٦٤) بسند صحيح.
(٤) تهذيب المدارج (ص٩٤٦).

وَالأَعْمَالِ وَالاعْتِقَادِ[1].

الثَّاني: تَحْكِيمُهُ هَوَاهُ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وَانْقِيادُهُ لِلْهَوَى وَاتِّبَاعُهُ لَهُ.

ب ـ وَقَلْبٌ أَبْيَضُ عَرَفَ الحَقَّ، وَقَبِلَهُ وَأَحَبَّهُ، وَآثَرَهُ عَلَى غَيرِهِ. قَدْ أَشْرَقَ فِيهِ نُورُ الإِيمَانِ، وَأَزْهَرَ فِيهِ مِصْبَاحُهُ، فَإِذَا عُرِضَتْ عَلَيْهِ الفِتْنَةُ أَنْكَرَهَا وَرَدَّهَا، فَازْدَادَ نُورُهُ وَإِشْرَاقُهُ وَقُوَّتُهُ.

وَالفِتَنُ الَّتِي تُعْرَضُ عَلَى القُلُوبِ هِيَ أَسْبَابُ مَرَضِهَا، وَهِيَ فِتَنُ الشَّهَوَاتِ وَفِتَنُ الشُّبُهَاتِ، فِتَنُ المَعَاصِي وَالبِدَعِ. هَذَانِ أَصْلُ دَاءِ الخَلْقِ إِلَّا مَنْ عَافَاهُ اللهُ[2].

فَفِتْنَةُ الشُّبُهَاتِ: إِمَّا بِاعْتِقَادِ خِلَافِ الحَقِّ الَّذِي أَرْسَلَ اللهُ بِهِ رَسُولَهُ ﷺ، وَأَنْزَلَ بِهِ كِتَابَهُ: كَالَّذِي يَنْفِي عُلُوَّ اللهِ عَلَى العَرْشِ[3]. وَإِمَّا بِالتَّعَبُّدِ بِمَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللهُ: وَهِيَ البِدَعُ عَلَى اخْتِلَافِ أَنْوَاعِهَا.

وَأَمَّا فِتْنَةُ الشَّهَوَاتِ: «أَنْ يُحِبَّ الشَّهَوَاتِ المُحَرَّمَةَ، مِثْلَ: الزِّنَا، وَالسَّرِقَةِ، وَشُرْبِ الخَمْرِ، وَالغِيبَةِ، وَالنَّمِيمَةِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢] أَي: مَرَضُ الشَّهْوَةِ، وَالعِيَاذُ بِاللهِ تَعَالَى»[4].

عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ رضي الله عنه: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِمَّا أَخْشَى عَلَيْكُم: شَهَوَاتِ الغَيِّ فِي بُطُونِكُم وَفُرُوجِكُم، وَمُضِلَّاتِ الهَوَى»[5].

فَاتِّبَاعُ الشَّهَوَاتِ: هُوَ دَاءُ العُصَاةِ.

وَاتِّبَاعُ الشُّبُهَاتِ: وَهُوَ دَاءُ المُبْتَدِعَةِ وَأَهْلِ الأَهْوَاءِ وَالخُصُومَاتِ، وَكَثِيرًا مَا

---

(١) الكلام على مسألة السماع (ص١٧٧ ـ ١٧٨).
(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٦٧).
(٣) فمن نفى حقيقة «الاستواء» فهو معطِّلٌ، ومن شبَّههُ باستواءِ المخلوق على المخلوق فهو ممثِّلٌ، ومن قال: استواءٌ ليس كمثله شيء، فهو الموحِّدُ المنزِّهُ.
(٤) دروس من القرآن الكريم (ص٨٧)، للعلامة الفوزان.
(٥) أخرجه أحمد (٤/ ٤٢٠)، وصححه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٢).

يَجْتَمِعَانِ، فَقَلَّ مَنْ تَجِدُهُ فَاسِدَ الاعْتِقَادِ إِلَّا وَفَسَادُ اعْتِقَادِهِ يَظْهَرُ فِي عَمَلِهِ[1].

وَهَذَانِ هُمَا أَصْلُ كُلِّ شَرٍّ وَفِتْنَةٍ وَبَلاءٍ، وَبِهِمَا كُذِّبَتِ الرُّسُلُ، وَعُصِيَ الرَّبُّ وَدُخِلَتِ النَّارُ، وَحَلَّتِ العُقُوبَةُ[2].

الأَصْلُ الخَامِسُ:
الأَعْمَالُ تَتَفَاضَلُ بِتَفَاضُلِ مَا فِي القُلُوبِ

إِنَّ الأَعْمَالَ لَا تَتَفَاضَلُ بِصُوَرِهَا وَعَدَدِهَا، وَإِنَّمَا تَتَفَاضَلُ بِتَفَاضُلِ مَا فِي القُلُوبِ، مِنَ الإِيمَانِ وَالمَحَبَّةِ وَالتَّعْظِيمِ وَالإِجْلَالِ، فَتَكُونُ صُورَةُ العَمَلَيْنِ وَاحِدَةً، وَبَيْنَهُمَا فِي التَّفَاضُلِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَالرَّجُلَانِ يَكُونُ مَقَامُهُمَا فِي الصَّفِّ وَاحِدًا، وَبَيْنَ صَلَاتَيْهِمَا كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، وَذَلِكَ أَنَّ أَحَدَهُمَا مُقْبِلٌ بِقَلْبِهِ عَلَى اللهِ ، وَالآخَرَ سَاهٍ غَافِلٌ.

عَنْ عُقْبَةَ بنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَتَوَضَّأُ فَيُحسِنُ وُضُوءَهُ، ثُمَّ يَقُومُ فَيُصَلِّي رَكعَتَينِ مُقبِلٌ عَلَيهِمَا بِقَلبِهِ وَوَجهِهِ، إِلَّا وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ»[3].

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ عَبَسَةَ رضي الله عنه : عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ ـ بَعْدَ ذِكْرِ فَضْلِ الوضُوءِ وَثَوَابِهِ ـ: «فَإِنْ هُوَ قَامَ فَصَلَّى، فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، وَمَجَّدَهُ بِالَّذِي هُوَ لَهُ أَهْلٌ، وَفَرَّغَ قلبَهُ للهِ، إِلَّا انْصَرَفَ مِنْ خَطِيئَتِهِ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ»[4].

وَكَذَلِكَ قِرَاءَةُ سُورَةٍ بِتَدَبُّرٍ وَمَعرِفَةٍ وَتَفَهُّمٍ، وَجَمعِ القَلْبِ عَلَيْهَا، أَحَبُّ إِلَى اللهِ تَعَالَى[5]، وَأَعْظَمُ أَجْرًا، «وَخَيرٌ مِنْ قِرَاءَةِ خَتْمَةٍ بِغَيرِ تَدَبُّرٍ وَتَفَهُّمٍ، وَأَنْفَعُ لِلْقَلْبِ، وَأَدْعَى إِلَى حُصُولِ الإِيمَانِ وَذَوقِ حَلاوَةِ القُرآنِ»[6].

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٨٥).
(٢) إعلام الموقعين (١/ ١٨٤).
(٣) أخرجه مسلم (٢٣٤).
(٤) أخرجه مسلم (٨٣٢).
(٥) المنار المنيف (ص١١).
(٦) مفتاح دار السعادة (١/ ٥٥٣).

وَلا رَيبَ أَنَّ مُجَرَّدَ القِيَامِ بِأَعْمَالِ الجَوَارِحِ، مِنْ غَيرِ حُضُورٍ وَلا مُرَاقَبَةٍ، وَلا إِقْبَالٍ عَلَى اللهِ: قَلِيلُ المَنْفَعَةِ، دُنْيَا وَأُخرى، كَثِيرُ المُؤْنَةِ. فَإِنَّهُ ـ وَإِنْ كَثُرَ ـ مُتْعِبٌ غَيرُ مُفِيدٍ[1].

وَلِهَذَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]. وَقَالَ: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۝٧﴾ [الكهف: ٧]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧].

فَهُوَ إِنَّمَا خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ، وَالمَوْتَ وَالحَيَاةَ، وَزَيَّنَ الأَرْضَ بِمَا عَلَيْهَا لِيَبْلُوَ عِبَادَهُ أَيُّهُم أَحْسَنُ عَمَلًا، لَا أَكْثَرُ عَمَلًا. وَلِهَذِهِ المَعَانِي الجَلِيلَةِ، لَمْ تُغْنِ الصَّالِحِينَ كَثْرَةُ الأَعْمَالِ بِالظَّاهِرِ، وَقَالُوا: الشَّأْنُ فِي الصَّفْوَةِ لَا فِي الكَثْرَةِ.

وَأَمَّا الَّذِينَ أَغْفَلُوا مَا فِي القُلُوبِ، فَغَرَّهُمُ العَدَدُ وَالكَثْرَةُ، وَمَا يَنْفَعُ رَفْعُ السُّقُوفِ وَلَمْ تُحْكَمْ مَبَانِيهَا؟!

الأَصْلُ السَّادِسُ:
عُبُودِيَّةُ القَلْبِ أَعْظَمُ مِنْ عُبُودِيَّةِ الجَوَارِحِ

القَلْبُ أَشْرَفُ مِنَ الجَوَارِحِ، فَكَانَ عَمَلُهُ أَشْرَفَ مِنْ عَمَلِ الجَوَارِحِ[2].

وَمَنْ تَأَمَّلَ الشَّرِيعَةَ فِي مَصَادِرِهَا وَمَوَارِدِهَا، عَلِمَ ارتِبَاطَ أَعْمَالِ الجَوَارِحِ بِأَعْمَالِ القُلُوبِ، وَأَنَّهَا لَا تَنْفَعُ بِدُونِهَا، وَأَنَّ أَعْمَالَ القُلُوبِ أَفْرَضُ عَلَى العَبْدِ مِنْ أَعْمَالِ الجَوَارِحِ، وَهَلْ يُمَيِّزُ المُؤْمِنُ عَنِ المُنَافِقِ[3] إِلَّا بِمَا فِي قَلْبِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِنَ الأَعْمَالِ الَّتِي مَيَّزَتْ بَيْنَهُمَا، وَهَلْ يُمْكِنُ أَحَدٌ الدُّخُولَ فِي الإِسْلَامِ إِلَّا بِعَمَلِ قَلْبِهِ قَبْلَ جَوَارِحِهِ، وَعُبُودِيَّةُ القَلْبِ أَعْظَمُ مِنْ عُبُودِيَّةِ الجَوَارِحِ وَأَكْبَرُ وَأَدْوَمُ، فَهِيَ وَاجِبَةٌ

---

(١) تهذيب مدارج السالكين (ص٢٤١).

(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٥٤٠).

(٣) قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللَّهُ في «الفتاوى» (١٠/ ٧٥٩): المنافقون يظهرون بجوارحهم الأقوال والأعمال الصالحة، وإنما عقابهم وكونهم في الدرك الأسفل من النار عَلَى ما في قلوبهم من الأمراض.

فِي كُلِّ وَقْتٍ، «مِثْلَ مَحَبَّةِ اللهِ وَرَسُولِهِ وَالتَّوَكُّلِ عَلَى اللهِ وَإِخْلَاصِ الدِّينِ لَهُ وَالشُّكْرِ لَهُ، وَالصَّبْرِ عَلَى حُكْمِهِ وَالخَوْفِ مِنْهُ وَالرَّجَاءِ لَهُ وَمَا يَتْبَعُ ذَلِكَ»[1]. وَلِهَذَا كَانَ الإِيمَانُ وَاجِبَ القَلْبِ عَلَى الدَّوَامِ، وَالإِسْلَامُ وَاجِبَ الجَوَارِحِ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ، فَمُرَكَّبُ الإِيمَانِ القَلْبُ، وَمُرَكَّبُ الإِسْلَامِ الجَوَارِحُ[2].

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «الإِسْلَامُ عَلَانِيَةٌ، وَالإِيمَانُ فِي القَلْبِ» قَالَ: ثُمَّ يُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، قَالَ: ثُمَّ يَقُولُ: «التَّقْوَى هَا هُنَا، التَّقْوَى هَا هُنَا»[3].

الأَصْلُ السَّابِعُ:
القَلْبُ هَدَفٌ للشيطان

لَمَّا عَلِمَ عَدُوُّ اللهِ إِبْلِيسُ أَنَّ المَدَارَ عَلَى القَلْبِ وَالاعْتِمَادَ عَلَيهِ؛ أَجْلَبَ عَلَيهِ بِالوَسَاوِسِ، وَأَقْبَلَ بِوُجُوهِ الشَّهَوَاتِ إِلَيهِ، وَزَيَّنَ لَهُ مِنَ الأَحْوَالِ وَالأَعْمَالِ مَا يَصُدُّهُ بِهِ عَنِ الطَّرِيقِ، وَأَمَدَّهُ مِنْ أَسْبَابِ الغَيِّ بِمَا يَقْطَعُهُ عَنْ أَسْبَابِ التَّوفِيقِ، وَنَصَبَ لَهُ مِنَ المَصَايِدِ وَالحَبَائِلِ مَا إِنْ سَلِمَ مِنَ الوُقُوعِ فِيهَا، لَمْ يَسْلَمْ مِنْ أَنْ يَحْصُلَ لَهُ بِهِ التَّعْوِيقُ[4].

وَلَمَّا كَانَ الأمرُ بِهَذِهِ الخُطُورَةِ: «كَانَ الاهْتِمَامُ بِتَصْحِيحِهِ وَتَسْدِيدِهِ أَولَى مَا اعْتَمَدَ السَّالِكُونَ، وَالنَّظَرُ فِي أَمْرَاضِهِ وَعِلاجِهَا أَهَمَّ مَا تَنَسَّكَ بِهِ النَّاسِكُونَ»[5].

الأَصْلُ الثَّامِنُ:
أَمْرَاضُ القُلُوبِ خَفِيَّةٌ

وَمَرَضُ القَلْبِ خَفِيٌّ، قَدْ لَا يَعْرِفُهُ صَاحِبُهُ ـ كَالرِّيَاءِ وَالعُجْبِ وَالكِبْرِ وَالشُّهْرَةِ ـ

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥).
(٢) بدائع الفوائد (٣/ ١١٤٨).
(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٤ ـ ١٣٥)، وجَوَّدَهُ الإمام تاج الدين السبكي في «طبقات الشافعية الكبرى» (١/ ٩١). وقال المتقي الهندي في «كنز العمال» (٤٤): «وصحح».
(٤) موارد الأمان (ص٣١).
(٥) موارد الأمان (ص٣١).

فَلِذَلِكَ يَغْفُلُ عَنْهُ، وَإِنْ عَرَفَهُ صَعُبَ عَلَيْهِ الصَّبْرُ عَلَى مَرَارَةِ دَوَائِهِ، لِأَنَّ دَوَاءَهُ مُخَالَفَةُ الهَوَى، وَإِنْ وَجَدَ الصَّبْرَ لَمْ يَجِدْ طَبِيبًا حَاذِقًا يُعَالِجُهُ، فَإِنَّ أَهْلَ الحَدِيثِ هُمْ أَطِبَّاءُ القُلُوبِ، العَالِمُونَ بِأَحْوَالِهَا وَأَعْمَالِهَا، العَارِفُونَ بِأَدْوِيَتِهَا وَأَدْوَائِهَا، دُونَ المُنْحَرِفِينَ عَنْ طَرِيقَتِهِم، المُتَشَبِّعُونَ بِمَا لَمْ يُعْطَوْا، لَابِسُو ثِيَابِ الزُّورِ، الَّذِينَ يَصُدُّونَ النَّاسَ عَنْ سُنَّةِ نَبِيِّهِم، وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا، وَهُم يَحْسَبُونَ أَنَّهُم يُحْسِنُونَ صُنْعًا. حَتَّى عَادَوْا أَهْلَ الحَدِيثِ، وَرَمَوْهُم بِالعَظَائِمِ، وَنَفَّرُوا النَّاسَ عَنْهُمْ، فَدَاوَوْا أَمْرَاضَ القُلُوبِ بِالآرَاءِ وَالأَهْوَاءِ وَالخَيَالَاتِ، وَالأَحَادِيثِ الضَّعِيفَةِ وَالمَوضُوعَةِ «فَكَانُوا كَالمُدَاوِي مِنَ السَّقَمِ بِالسُّمِّ القَاتِلِ.

فَاتَّفَقَ قِلَّةُ الأَطِبَّاءِ، وَكَثْرَةُ المَرْضَى، وَحُدُوثُ أَمْرَاضٍ مُزْمِنَةٍ لَمْ تَكُنْ فِي السَّلَفِ، فَاشْتَدَّ البَلَاءُ، وَتَفَاقَمَ الأَمْرُ، وَامْتَلَأَتِ الدُّورُ وَالطُّرُقَاتُ وَالأَسْوَاقُ مِنَ المَرْضَى، وَقَامَ كُلُّ جَهُولٍ يُطَبِّبُ النَّاسَ»[1]. يَنْطَبِقُ عَلَيهِ قَولُ القَائِلِ:

وَغَيرُ تَقِيٍّ يَأمُرُ النَّاسَ بِالتُّقَى ... طَبِيبٌ يُدَاوِي النَّاسَ وَهُوَ سَقِيمُ[2]

وَمَنْ لَهُ خِبْرَةٌ بِمَا عَلَيْهِ أَهْلُ الحَدِيثِ، وَبِمَا عَلَيْهِ أَهْلُ البِدَعِ اليَوْمَ فِي هَذَا البَابِ وَغَيْرِهِ؛ عَلِمَ أَنَّ بَيْنَ السَّلَفِ وَبَيْنَ هَؤُلَاءِ الخُلُوفِ مِنَ البُعْدِ، أَبْعَدَ مِمَّا بَيْنَ المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ، وَأَنَّهُم عَلَى شَيءٍ، وَالسَّلَفُ عَلَى شَيءٍ؛ كَمَا قِيلَ:

سَارَتْ مُشَرِّقَةً وَسِرْتُ مُغَرِّبًا ... شَتَّانَ بَيْنَ مُشَرِّقٍ وَمُغَرِّبِ

وَالأَمْر - واللهِ - أَعْظَمُ مِمَّا ذَكَرْنَا[3].

الأَصْلُ التَّاسِعُ:
إِهْمَالُ أَعْمَالِ القُلُوبِ يُؤَدِّي إِلَى الهَلَاكِ

إِنَّ الاعْتِنَاءَ بِالمَظَاهِرِ وَجَعْلَهَا زَاهِيَةً، وَإِهْمَالَ البَوَاطِنِ وَجَعْلَهَا خَاوِيَةً، يُؤَدِّي إِلَى دُخُولِ النَّارِ، وَالعِيَاذُ بِاللهِ تَعَالَى. وَلْيَتَأَمَّلِ القَارِئُ الأَحَادِيثَ التَّالِيَةَ:

---

(١) موارد الأمان (ص٣٢٠).
(٢) لطائف المعارف (ص٥٣).
(٣) موارد الأمان (ص٣٧١).

١ ـ عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَوَّلُ شَيءٍ يُرْفَعُ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ الخُشُوعُ، حَتَّى لَا تَرَى فِيهَا خَاشِعًا»[1].

وَأَصْلُ الخُشُوعِ: هُوَ لِينُ القَلْبِ وَرِقَّتُهُ وَسُكُونُهُ وَخُضُوعُهُ وانكِسَارُهُ، فَإِذَا خَشَعَ القَلْبُ تَبِعَهُ خُشُوعُ جَمِيعِ الجَوَارِحِ وَالأَعْضَاءِ؛ لأَنَّهَا تَابِعَةٌ لَهُ[2].

وَيَتَرَتَّبُ عَلَى عَدَمِ الخُشُوعِ أَمْرَانِ:

الأَوَّلُ: عَدَمُ الانتِهَاءِ عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنكَرِ. فَإِنَّ الصَّلَاةَ الخَاشِعَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ وَالمُنكَرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

الثَّانِي: عَدَمُ الفَلَاحِ يَوْمَ القِيامَةِ؛ لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى عَلَّقَ الفَلَاحَ يَوْمَ القِيامَةِ بِالخُشُوعِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾ [المؤمنون: ١ ـ ٢].

٢ ـ عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه : عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ، بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللهُ هَبَاءً مَنْثُورًا». قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللهِ! صِفْهُم لَنَا، جَلِّهِم لَنَا، أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُم وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ، قَالَ: «أَمَا إِنَّهُم إِخْوَانُكُم وَمِنْ جِلْدَتِكُم، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُم أَقْوَامٌ، إِذَا خَلَوا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا»[3].

فَهَؤُلَاءِ قَامُوا بِأَعْمَالٍ ظَاهِرَةٍ، وَأَهْمَلُوا أَعْمَالَ القُلُوبِ، فَلَمْ يُرَاقِبُوا اللهَ فِي خَلَوَاتِهِم، وَالمُرَاقَبَةُ: عِلْمُ القَلْبِ بِقُرْبِ الرَّبِّ.

هَؤُلَاءِ يَنْطَبِقُ عَلَيْهِم قَوْلُ القَائِلِ:

أَظْهَرَ بَيْنَ الخَلْقِ إِحْسَانَهُ ... وَخَالَفَ الرَّحْمَنَ لَمَّا خَلَا

---

(١) أخرجه الطبراني في «مسند الشاميين» (١٥٧٩)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٢٥٦٩).

(٢) تهذيب مدارج السالكين (ص٤٣٩).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٥)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥٠٥).

هَؤلاءِ يَجْعَلُ اللهُ أَعْمَالَهُم يومَ القِيَامَةِ هَبَاءً مَنْثُورًا، «لا يَنْتَفِعُ مَنْهَا صَاحِبُهَا بِشَيءٍ أَصْلًا؛ وَهَذا مِنْ أَعْظَمِ الحَسَرَاتِ عَلَى العَبْدِ يومَ القِيَامَةِ أَنْ يَرَى سَعْيَهُ كُلَّهُ ضَائِعًا لَمْ يَنْتَفِعْ مِنْهُ بِشَيءٍ، وَهُوَ أَحْوجُ مَا كَانَ العَامِلُ إلى عَمَلِهِ، وَقَدْ سَعِدَ أَهلُ السَّعيِ النَّافِعِ بِسَعْيِهِم»[1].

٣ ـ عَنْ أَبي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ، رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعْمَتَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ العِلْمَ وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ، فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ العِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. قَالَ: كَذَبْتَ وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ العِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِىءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»[2].

فَإِنَّ هَؤلاءِ الثَّلاثَةَ الذينَ يُرِيدُونَ الرِّيَاءَ وَالسُّمْعَةَ، هُم بِإِزَاءِ الثَّلاثَةِ الذينَ بَعْدَ النَّبِيِّينَ مِنَ الصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَداءِ وَالصَّالِحينَ.

فَإِنَّ مَنْ تَعَلَّمَ العِلْمَ الَّذي بَعَثَ اللهُ بِهِ رُسُلَهُ، وَعَلَّمَهُ لِوَجْهِ اللهِ، كَانَ صِدِّيقًا، وَمَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللهِ هِيَ العُلْيَا، وَقُتِلَ كَانَ شَهِيدًا، وَمنْ تَصَدَّقَ يَبْتَغي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ كَانَ صَالِحًا[3].

٤ ـ عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ عَمَلَ أَهْلِ الجَنَّةِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ؛ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَعْمَلُ

---

(١) الرسالة التبوكية (ص٥٩).
(٢) أخرجه مسلم (١٩٠٥).
(٣) شرح حديث: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» (ص٤٧).

عَمَلَ أَهْلِ النَّارِ، فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَهُوَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ»[1].

وَقَوْلُهُ: «فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ» إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ بَاطِنَ الأَمْرِ يَكُونُ بِخِلَافِ ذَلِكَ، وَأَنَّ خَاتِمَةَ السُّوءِ تَكُونُ بِسَبَبِ دَسِيسَةٍ بَاطِنَةٍ لِلْعَبْدِ لَا يَطَّلِعُ عَلَيْهَا النَّاسُ، فَتِلْكَ الخَصْلَةُ الخَفِيَّةُ تُوجِبُ سُوءَ الخَاتِمَةِ عِنْدَ المَوْتِ[2]. وَلَوْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ غِشٌّ وَآفَةٌ، لَمْ يَقْلِبِ اللهُ إِيمَانَهُ.

وَمِنْ هُنَا كَانَ الصَّحَابَةُ وَمَنْ بَعْدَهُم مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ: يَخَافُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمُ النِّفَاقَ، وَيَشْتَدُّ قَلَقُهُم وَجَزَعُهُم مِنْهُ. «وَأَسَاسُ النِّفَاقِ وَأَصْلُهُ: هُوَ التَّزَيُّنُ لِلنَّاسِ بِمَا لَيْسَ فِي البَاطِنِ مِنَ الإِيمَانِ»[3].

عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قال: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: «يا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: «نَعَم، إِنَّ القُلُوبَ بَينَ أُصْبُعَينِ مِنْ أَصَابِعِ اللهِ، يُقَلِّبُهَا كَيفَ يَشَاءُ»[4].

وَقَالَ ابنُ أَبِي مُلَيْكَةَ: أَدْرَكْتُ ثَلاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، كُلُّهُم يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَى نَفْسِهِ، مَا مِنْهُم أَحَدٌ يَقُولُ: إِنَّهُ على إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ[5].

وَقَالَ الحَسَنُ رَحِمَهُ اللهُ: كَانَ يُقَالُ: النِّفَاقُ اخْتِلافُ السِّرِّ وَالعَلانِيَةِ، وَالقَولِ وَالعَمَلِ[6].

وَعَنْ جُبَيرِ بنِ نُفَيرٍ قَالَ: دَخَلْتُ عَلَى أَبِي الدَّرْدَاءِ مَنْزِلَهُ بِحِمْصَ، فَإِذَا هُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي مَسْجِدِهِ، فَلَمَّا جَلَسَ يَتَشَهَّدُ فَجَعَلَ يَتَعَوَّذُ بِاللهِ مِنَ النِّفَاقِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قُلْتُ لَهُ: غَفَرَ اللهُ لَكَ يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ، مَا أَنْتَ وَالنِّفَاقَ؟! مَا شَأْنُكَ وَمَا شَأْنُ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٩٨)، ومسلم (١١٢)، وفيه قصة.
(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ١٧٢ ـ ١٧٣).
(٣) إعلام الموقعين (٢/ ١٦٩).
(٤) أخرجه الترمذي (٢١٤٠)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٤٤٤).
(٥) أخرجه البخاري معلقًا مجزومًا به: قبل الحديث (٤٨)، ووصله في «التاريخ الكبير» (٥/ ١٣٧).
(٦) أخرجه الفريابي في «صفة النفاق» (٥٠)، وصحح إسناده المحقق.

النِّفَاقِ؟! فَقَالَ: اللَّهُمَّ غُفْرًا - ثلاثًا - لا يَأمَنُ البَلاءَ مَنْ يَأمَنُ البَلاءَ، وَاللهِ إِنَّ الرَّجُلَ لَيُفْتَنُ في سَاعَةٍ وَاحِدَةٍ فَيَنْقَلِبُ عَنْ دِينِهِ[1].

وَعَنْ مُعَاوِيَةَ بنِ قُرَّةَ قَالَ: أَنْ لا يَكُونَ فِيَّ نِفَاقٌ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا. كَانَ عُمَرُ يَخْشَاهُ وَآمَنُهُ أَنَا؟[2].

وَقَالَ بِلالُ بنُ سَعدٍ: لا تَكُنْ وَلِيًّا للهِ في العَلانِيَةِ، وَعَدُوَّهُ في السِّرِّ[3].

وَلِأَجْلِ هَذَا: خَافَ عِبَادُ اللهِ تَعَالَى الصَّالِحُونَ عَلَى قُلُوبِهِم، وَبَكَوا عَلَيْهَا وَصَرَفُوا عِنَايَتَهُم إِلَيْهَا.

جَعَلَنَا اللهُ وَإِيَّاكُم مِنَ المُعْتَبِرِينَ بِالعِبَرِ، المُهْتَمِّينَ بِمَواضِعِ الخَطَرِ، المُوَفَّقِينَ لإِصْلَاحِهَا بِحُسْنِ النَّظَرِ، إِنَّهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ.

---

(١) أخرجه الفريابي في «صفة النفاق» (٧٤)، وصحح إسناده المحقق.
(٢) أخرجه الفريابي في «صفة النفاق» (٨٦)، وصحح إسناده المحقق.
(٣) أخرجه الفريابي في «صفة النفاق» (٩١)، وصحح إسناده المحقق.

عَلَامَاتُ القَلْبِ السَّلِيمِ

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩].

العَلَامَةُ الأُولَى: أَنْ يَكُونَ سَالِمًا مِنْ مَحَبَّةِ مَا يَكْرَهُهُ اللهُ، فَدَخَلَ فِي ذَلِكَ سَلَامَتُهُ مِنَ الشِّرْكِ الجَلِيِّ وَالخَفِيِّ، وَمِنَ الأَهْوَاءِ وَالبِدَعِ، وَمِنَ الفُسُوقِ وَالمَعَاصِي ـ كَبَائِرِهَا وَصَغَائِرِهَا ـ الظَّاهِرَةِ وَالبَاطِنَةِ، كَالرِّيَاءِ، وَالعُجْبِ، وَالغِلِّ، وَالغِشِّ، وَالحِقْدِ، وَالحَسَدِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ[1].

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «كُلُّ مَخْمُومِ القَلْبِ، صَدُوقِ اللِّسَانِ». قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ، فَمَا مَخْمُومُ القَلْبِ؟ قَالَ: «هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ لَا إِثْمَ فِيهِ، وَلَا بَغْيَ وَلَا غِلَّ وَلَا حَسَدَ»[2].

هَذَا القَلْبُ أَحَبُّ القُلُوبِ إِلَى اللهِ وأكثَرُهَا «خيرًا، تنبعُ منهُ عيونُ الخيرِ، وَتَتَفَجَّرُ منهُ يَنَابيعُ البرِّ، وَمَبَارُّ اللهِ ونِعَمُهُ تَغشَاهُ عَلَى الدَّوَامِ»[3].

العَلَامَةُ الثَّانِيَةُ: أَنْ يَرْتَحِلَ عَنِ الدُّنيَا حَتَّى يَنْزِلَ بِالآخِرَةِ، وَيَحِلَّ فِيهَا، حَتَّى يَبْقَى كَأَنَّهُ مِنْ أَهْلِهَا وَأَبْنَائِهَا، جَاءَ إِلَى هَذِهِ الدَّارِ غَرِيبًا يَأْخُذُ مِنْهَا حَاجَتَهُ، وَيَعُودُ إِلَى وَطَنِهِ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: «كُنْ فِي الدُّنيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ، وَعُدَّ نَفْسَكَ مِنْ أَهْلِ القُبُورِ»[4].

---

(١) شرح حديث شداد بن أوس (ص٤١)، للعلامة الرباني ابن رجب الحنبلي.
(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢١٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٩٧).
(٣) طريق الهجرتين (ص٦٠٦).
(٤) أخرجه الترمذي (٢٣٣٣)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (١٩٠٢).

وَقَالَ عَلِيٌّ ﷺ: ارْتَحَلَتِ الدُّنيَا مُدْبِرَةً، وَارْتَحَلَتِ الآخِرَةُ مُقْبِلَةً، وَلِكُلٍّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا بَنُونَ، فَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الآخِرَةِ، وَلَا تَكُونُوا مِنْ أَبْنَاءِ الدُّنْيَا، فَإِنَّ اليَوْمَ عَمَلٌ وَلَا حِسَابٌ، وَغَدًا حِسَابٌ وَلَا عَمَلٌ[1].

وَكُلَّمَا صَحَّ القَلْبُ مِنْ مَرَضِهِ؛ تَرَحَّلَ إِلَى الآخِرَةِ، وَقَرُبَ مِنْهَا، حَتَّى يَصِيرَ مِنْ أَهْلِهَا، وَكُلَّمَا مَرِضَ القَلْبُ وَاعْتَلَّ، آثَرَ الدُّنْيَا وَاسْتَوْطَنَهَا، حَتَّى يَصِيرَ مِنْ أَهْلِهَا. وَالنَّاسُ فِي هَذَا الزَّمَانِ سَافَرُوا فِي طَلَبِ الدُّنيَا وَهِيَ عَنْهُم زَائِلَةٌ، وَقَعَدُوا عَنِ السَّفَرِ إِلَى الآخِرَةِ وَهُمْ إِلَيْهَا رَاحِلُونَ. «يَسْعَونَ لِمَا يُدْرِكُونَ، وَيَتْرُكُونَ مَا هُمْ بِهِ مُطَالَبُونَ، وَيَعْمُرُونَ مَا هُمْ عَنْهُ مُنْتَقِلُونَ، وَيُخَرِّبُونَ مَا هُمْ إِلَيْهِ صَائِرُونَ، وَهُمْ عَنِ الآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ»[2].

العَلَامَةُ الثالثةُ: أَنَّهُ لَا يَزَالُ يَضْرِبُ عَلَى صَاحِبِهِ حَتَّى يُنِيبَ إِلَى اللهِ، وَيُخْبِتَ إِلَيْهِ، وَيَتَعَلَّقَ بِهِ تَعَلُّقَ المُحِبِّ المُضْطَرِّ إِلَى مَحْبُوبِهِ، الَّذِي لَا حَيَاةَ لَهُ، وَلَا فَلَاحَ، وَلَا نَعِيمَ، وَلَا سُرُورَ؛ إِلَّا بِرِضَاهُ وَقُرْبِهِ وَالأُنْسِ بِهِ، فَبِهِ يَطْمَئِنُّ، وَإِلَيْهِ يَسْكُنُ، وَإِلَيْهِ يَأْوِي، وَبِهِ يَفْرَحُ، وَعَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ، وَبِهِ يَثِقُ، وَإِيَّاهُ يَرْجُو، وَلَهُ يَخَافُ.

«فَيَا لَهُ مِنْ قَلْبٍ، مِنْ رَبِّهِ مَا أَدْنَاهُ، وَمِنْ قُرْبِهِ مَا أَحْظَاهُ»[3]. قَدْ نَالَ غِذَاءَهُ وَدَوَاءَهُ، وَشِفَاءَهُ وَحَيَاتَهُ، وَنُورَهُ وَقُوَّتَهُ، وَلَذَّتَهُ وَنَعِيمَهُ، مَا هُوَ أَجَلُّ أَنْوَاعِ النَّعِيمِ، وَأَطْيَبُ الطَّيِّبَاتِ، وَأَعْظَمُ اللَّذَّاتِ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [النحل: ٩٧][4].

العَلَامَةُ الرابعةُ: أَنَّهُ لَا يَفْتُرُ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ، وَلَا يَسْأَمُ مِنْ خِدْمَتِهِ، وَلَا يَأْنَسُ بِغَيْرِهِ، إِلَّا بِمَنْ يَدُلُّهُ عَلَيْهِ، وَيُذَكِّرُهُ بِهِ، وَيُذَاكِرُهُ بِهَذَا الأَمْرِ. فَذِكْرُ اللهِ عِنْدَهُ أَحْلَى

---

(١) أخرجه البخاري (١١/ ٢٣٩) معلقًا مجزومًا به. وانظر الكلام عَلَى هذا الأثر في «الفتح» (١١/ ٢٤٠ ـ ٢٤١).

(٢) التبيان في أقسام القرآن (ص٣٠٧).

(٣) طريق الهجرتين (ص٣٧٩).

(٤) مفتاح دار السعادة (١/ ١٨٢).

مِنَ العَسَلِ، وَأَشْهَى مِنَ المَاءِ العَذْبِ الصَّافِي عِنْدَ العَطْشَانِ فِي اليَوْمِ الصَّائِفِ.

العَلَامَةُ الخامسةُ: أَنَّهُ «إِذَا عُرِضَتْ عَلَيْهِ القَبَائِحُ؛ نَفَرَ مِنْهَا بِطَبْعِهِ، وَأَبْغَضَهَا، وَلَمْ يَلْتَفِتْ إِلَيْهَا»[1]، حَيَاؤُهُ يَمْنَعُهُ عَنِ القَبَائِحِ، وَالحَيَاءُ «هُوَ مَادَّةُ حَيَاةِ القَلْبِ، وَهُوَ أَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ، وَذَهَابُهُ ذَهَابُ الخَيْرِ أَجْمَعِهِ»[2].

فَإِنَّ حَيَاةَ القَلْبِ هِيَ المَانِعَةُ مِنَ القَبَائِحِ الَّتِي تُفْسِدُ القَلْبَ. فَإِنَّ الحَيَّ يَظْهَرُ عَلَيْهِ التَّأَثُّرُ بِالقَبِيحِ، وَلَهُ إِرَادَةٌ تَمْنَعُهُ عَنْ فِعْلِ القَبِيحِ، بِخِلَافِ الوَقِحِ الَّذِي لَيْسَ بِحَيِيٍّ فَلَا حَيَاءَ مَعَهُ، وَلَا إِيمَانَ يَزْجُرُهُ عَنْ ذَلِكَ[3]. فَلَا يَحُسُّ بِمَا يُؤْلِمُهُ مِنَ القَبَائِحِ.

لِذَلِكَ تَرَاهُ يَرْضَى بِتَبَرُّجِ زَوْجَتِهِ وَابْنَتِهِ وَأُخْتِهِ، وَمُخَالَطَتِهَا لِلرِّجَالِ، وَدُخُولِهَا عَلَيْهِم وَدُخُولِهِم عَلَيْهَا، حَتَّى عَظُمَ الشَّرُّ وَعَظُمَ البَلَاءُ. وَمِنْ تِلْكَ البَلَايَا: الأَجْهِزَةُ الخَبِيثَةُ الَّتِي يُدْخِلُهَا المُسْلِمُ بَيْتَهُ، فَإِنَّهَا تُرَبِّي زَوجَتَهُ وَبَنَاتِهِ عَلَى ذَهَابِ الحَيَاءِ.

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ»[4].

العَلَامَةُ السادسةُ: أَنَّهُ إِذَا فَاتَتْهُ طَاعَةٌ مِنَ الطَّاعَاتِ، وَجَدَ لِفَوَاتِهَا أَلَمًا أَعْظَمَ مِنْ تَأَلُّمِ الحَرِيصِ بِفَوَاتِ مَالِهِ وَفَقْدِهِ[5]. كَمَنْ يَحْزَنُ عَلَى فَوتِ الجَمَاعَةِ، وَيَعْلَمُ أَنَّهُ لَو تُقُبِّلَت مِنْهُ صَلَاتُهُ مُنْفَرِدًا، فَإِنَّهُ قَدْ فَاتَهُ سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ ضِعْفًا[6].

وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا يُعَانِي البَيْعَ وَالشِّرَاءَ يَفُوتُهُ صَفْقَةٌ وَاحِدَةٌ فِي بَلَدِهِ - مِنْ غَيْرِ سَفَرٍ وَلَا مَشَقَّةٍ - قِيمَتُهَا سَبْعَةٌ وَعِشْرُونَ دِينَارًا، لَأَكَلَ يَدَيْهِ نَدَمًا وَأَسَفًا. فَكَيْفَ وَكُلُّ ضِعْفٍ مِمَّا تُضَاعَفُ بِهِ صَلَاةُ الجَمَاعَةِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفٍ، وَأَلْفِ أَلْفٍ، وَمَا شَاءَ اللهُ

---

(١) موارد الأمان (ص٥٥).
(٢) الداء والدواء (ص١١٠).
(٣) مجموع الفتاوى (١٠/١٠٩ - ١١٠).
(٤) أخرجه البخاري (٣٤٨٣، ٣٤٨٤، ٦١٢٠).
(٥) إغاثة اللهفان (ص٧٩).
(٦) الوابل الصيب (ص١٦).

تَعَالَى؟! فَإِذَا فَوَّتَ العَبْدُ عَلَيْهِ هَذَا الرِّبحَ، وَهُوَ بَارِدُ القَلْبِ، فَارِغٌ مِنْ هَذِهِ المُصِيبَةِ، فَهَذَا مِنْ عَدَمِ تَعْظِيمِ أَمْرِ اللهِ تَعَالَى فِي قَلْبِهِ[1].

وَكُلَّمَا «كَانَ وُجُودُ الشَّيءِ أَنْفَعَ لِلْعَبْدِ وَهُوَ إِلَيْهِ أَحْوَجُ، كَانَ تَأَلُّمُهُ بِفَقْدِهِ أَشَدَّ، وَكُلَّمَا كَانَ عَدَمُهُ أَنْفَعَ لَهُ، كَانَ تَأَلُّمُهُ بِوجُودِهِ أَشَدَّ، وَلَا شَيءَ عَلَى الإِطْلَاقِ، أَنْفَعُ لِلعَبْدِ مِنْ إِقْبَالِهِ عَلَى اللهِ، وَاشْتِغَالِهِ بِذِكْرِهِ، وَتَنَعُّمِهِ بِحُبِّهِ، وَإِيثَارِهِ لِمَرضَاتِهِ، بَلْ لَا حَيَاةَ لَهُ وَلَا نَعِيمَ وَلَا سُرُورَ وَلَا بَهْجَةَ إِلَّا بِذَلِكَ، فَعَدَمُهُ آلَمُ شَيءٍ لَهُ وَأَشَدُّهُ عَلَيْهِ»[2]. وَهَذا يَدُلُّ عَلَى صِحَّةِ الإِيمَانِ فِي قَلْبِهِ وَعَلَى حَيَاتِهِ[3].

العَلَامَةُ السَّابِعَةُ: أَنَّهُ يَشْتَاقُ إِلَى طَاعَةِ رَبِّهِ، كَمَا يَشْتَاقُ الجَائِعُ إِلَى الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ. فَلَوْ عَطَّلَ «الطَّاعَاتِ لَضَاقَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، وَأَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ كَأَنَّهُ الحُوتُ إِذَا فَارَقَ المَاءَ حَتَّى يُعاوِدَهَا، فَتَسْكُنُ نَفْسُهُ وَتَقَرُّ عَيْنُهُ»[4].

العَلَامَةُ الثَّامِنَةُ: أَنَّهُ إِذَا دَخَلَ فِي الصَّلَاةِ ذَهَبَ عَنْهُ هَمُّهُ وَغَمُّهُ بِالدُّنْيَا، وَاشْتَدَّ عَلَيْهِ خُرُوجُهُ مِنْهَا، وَوَجَدَ فِيهَا رَاحَتَهُ وَنَعِيمَهُ، وَقُرَّةَ عَيْنِهِ وَسُرُورَ قَلْبِهِ. كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «يَا بِلالُ أَقِمِ الصَّلاةَ، أَرِحْنا بِهَا»[5]. وَلَمْ يَقُلْ: أَرِحْنَا مِنْهَا، كَمَا يَقُولُ المُبْطِلُونَ الغَافِلونَ[6].

وَقَال ﷺ: «حُبِّبَ إِلَيَّ النِّسَاءُ وَالطِّيبُ، وَجُعِلَت قُرَّةُ عَينِي في الصَّلاةِ»[7].

«وَمَنْ كَانَتْ قُرَّةُ عَيْنِهِ فِي شَيءٍ فَإِنَّهُ يَوَدُّ أَلَّا يُفَارِقَهُ وَلَا يَخْرُجَ مِنْهُ، فَإِنَّ قُرَّةَ عَيْنِ العَبْدِ نَعِيمُهُ وَطِيبُ حَيَاتِهِ بِهِ»[8].

---

(١) الوابل الصيب (ص١٦ ـ ١٧).
(٢) الداء والدواء (ص٣٠٤).
(٣) طريق الهجرتين (ص٥٠٤ ـ ٥٠٥).
(٤) الداء والدواء (ص٩٠).
(٥) أخرجه أبو داود (٤٩٨٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٤١٧١).
(٦) طريق الهجرتين (ص٣٠٧).
(٧) أخرجه النسائي (٣٩٤٠)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن النسائي» (٣٦٨١).
(٨) طريق الهجرتين (ص٥٧٩).

وَالغَافِلُ المُعْرِضُ لَيسَ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ ذَلِكَ، بَلِ الصَّلاةُ كَبِيرَةٌ شَاقَّةٌ عَلَيهِ، إِذَا قَامَ فِيهَا كَأَنَّهُ عَلَى الجَمْرِ حَتَّى يَتَخَلَّصَ مِنْهَا، وَأَحَبُّ الصَّلاةِ إِلَيهِ أَعْجَلُهَا وَأَسْرَعُهَا، فَإِنَّهُ لَيسَ لَهُ قُرَّةُ عَينٍ فِيهَا، وَلا لِقَلْبِهِ رَاحَةٌ بِهَا[1]. فَهِيَ كَبِيرَةٌ عَلَى هَذَا، وَقُرَّةُ عَينٍ وَرَاحَةٌ لِذَلِكَ[2]. فَسُبحَانَ مَنْ فَاضَلَ بَينَ النُّفُوسِ، وَفَاوَتَ بَينَهَا هَذَا التَّفَاوُتَ العَظِيمَ.

العَلَامَةُ التَّاسِعَةُ: أَنْ يَكُونَ هَمُّهُ وَاحِدًا، وَأَنْ يَكُونَ فِي اللهِ تَعَالَى. فَيصْبِحُ وَيُمْسِي وَلَيْسَ لَهُ هَمٌّ غَيْرُ رِضَا رَبِّهِ، «قَدْ قَطَعَ هَمُّهُ بِرَبِّهِ عَنْهُ جَمِيعَ الهُمُومِ»[3]. فَهَذَا غَايَةُ سَعَادَةِ العَبْدِ[4]. فَمَا أَطْيَبَ عَيشَهُ! وَمَا أَنْعَمَ قَلْبَهُ وَأَعْظَمَ سُرُورَهُ وَفَرَحَهُ![5].

وَأَيُّ حَيَاةٍ أَطْيَبُ مِنْ حَيَاةِ مَنِ اجْتَمَعَتْ هُمُومُهُ كُلُّهَا، وَصَارَتْ هَمًّا وَاحِدًا فِي مَرْضَاةِ اللهِ؟ وَلَمْ يَتَشَعَّبْ قَلْبُهُ، بَلْ أَقْبَلَ عَلَى اللهِ، وَاجْتَمَعَتْ إِرَادَتُهُ وَأَفْكَارُهُ عَلَى اللهِ. وَأَيُّ عَيشٍ أَنْكَدُ مِنْ عَيشِ مَنْ قَلْبُهُ مُشَتَّتٌ، وَهَمُّهُ مُفَرَّقٌ، فَلَيْسَ لِقَلْبِهِ مُسْتَقَرٌّ.

العَلَامَةُ العَاشِرَةُ: أَنْ يَكُونَ أَشَحَّ بِوَقْتِهِ أَنْ يَذْهَبَ ضَائِعًا مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ شُحًّا بِمَالِهِ. فَإِنَّ الفَلَاحَ كُلَّ الفَلَاحِ فِي الشُّحِّ بِالوَقْتِ.

فَهُوَ «يَرَى عِزَّةَ وَقْتِهِ وَخَطَرَهُ وَشَرَفَهُ وَأَنَّهُ رَأْسُ مَالِ سَعَادَتِهِ، فَيَبْخَلُ بِهِ أَنْ يُضَيِّعَهُ فِيمَا لَا يُقَرِّبُهُ إِلَى رَبِّهِ؛ فَإِنَّ فِي إِضَاعَتِهِ الخُسْرَانَ وَالحَسْرَةَ وَالنَّدَامَةَ، وَفِي حِفْظِهِ وَعِمَارَتِهِ الرِّبْحَ وَالسَّعَادَةَ، فَيَشُحُّ بِأَنْفَاسِهِ أَنْ يُضَيِّعَهَا فِيمَا لَا يَنْفَعُهُ يَوْمَ مَعَادِهِ»[6]. فَيَرَى «أَشَدَّ الأَشْيَاءِ عَلَيْهِ ضَيَاعَ شَيءٍ مِنْ وَقْتِهِ وَوُقُوفَهُ عَنْ سَيْرِهِ»[7] إِلَى رَبِّهِ؛ لأَنَّ إِضَاعَةَ الوَقْتِ تَقْطَعُهُ عَنِ الخَالِقِ وَالدَّارِ الآخِرَةِ.

---

(١) رسالة ابن القيم إلى أحد إخوانه (ص٣٨).
(٢) الصلاة وحكم تاركها (ص١٧٠).
(٣) طريق الهجرتين (ص٤٢).
(٤) الداء والدواء (ص٩٠).
(٥) فوائد الفوائد (ص٨٥).
(٦) الروح (ص٣٠١).
(٧) طريق الهجرتين (ص٥٨٠).

العَلَامَةُ الحَادِيَةُ عَشْرَةَ: أَنْ يَكُونَ اهْتِمَامُهُ بِتَصْحِيحِ العَمَلِ أَعْظَمَ مِنْهُ بِالعَمَلِ، فَيَشْهَدُ سِتَّةَ مَشَاهِدِ:

المَشْهَدُ الأَوَّلُ: الإِخْلَاصُ، وَهُوَ أَنْ يَكُونَ الحَامِلُ وَالدَّاعِي إِلَى الطَّاعَةِ، ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى.

المَشْهَدُ الثَّانِي: مَشْهَدُ الصِّدقِ وَالنُّصحِ، وَهُوَ أَنْ يُفَرِّغَ قَلْبَهُ للهِ فِي الطَّاعَةِ، وَيَسْتَفْرِغَ جُهْدَهُ فِي إِقْبَالِهِ فِيهَا عَلَى اللهِ، وَجَمْعِ قَلْبِهِ عَلَيْهَا، وَإِيقَاعِهَا عَلَى أَحْسَنِ الوجُوهِ وَأَكْمَلِهَا ظَاهِرًا وَبَاطِنًا.

المَشْهَدُ الثَّالِثُ: مَشْهَدُ المُتَابَعَةِ وَالاقْتِدَاءِ بِالنَّبِيِّ ﷺ.

المَشْهَدُ الرَّابِعُ: مَشْهَدُ الإِحْسَانِ وَهُوَ مَشْهَدُ المُرَاقَبَةِ، وَهُوَ أَنْ يَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّهُ يَرَاهُ.

المَشْهَدُ الخَامِسُ: مَشْهَدُ المِنَّةِ، وَهُوَ أَنْ يَشْهَدَ أَنَّ المِنَّةَ للهِ سُبْحَانَهُ فِي أَيِّ طَاعَةٍ يَفْعَلُهَا.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وَقَالَ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٥٣].

المَشْهَدُ السَّادِسُ: مَشْهَدُ التَّقْصِيرِ، وَأَنَّ العَبْدَ لَوِ اجْتَهَدَ فِي القِيَامِ بِالأَمْرِ غَايَةَ الاجْتِهَادِ وَبَذَلَ وُسْعَهُ فَهُوَ مُقَصِّرٌ، وَحَقُّ اللهِ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ أَعْظَمُ، وَالَّذِي يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُقَابِلَ بِهِ مِنَ الطَّاعَةِ وَالعُبُودِيَّةِ وَالخِدْمَةِ فَوْقَ ذَلِكَ بِكَثِيرٍ، وَأَنَّ عَظَمَتَهُ وَجَلَالَهُ سُبْحَانَهُ يَقْتَضِي مِنَ العُبُودِيَّةِ مَا يَلِيقُ بِهَا.

فَهَذِهِ سِتَّةُ مَشَاهِدِ لَا يَشْهَدُهَا إِلَّا القَلْبُ الحَيُّ السَّلِيمُ. وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ كُلِّهِ: يَخَافُ أَنْ لا يُتَقَبَّلَ مِنْهُ.

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ هَذِهِ الآيَةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ [المؤمنون: ٦٠] قَالَتْ: أَهُمُ الَّذِينَ يَشْرَبُونَ الخَمْرَ وَيَسْرِقُونَ؟

قَالَ: «لَا يَا بِنْتَ الصِّدِّيقِ، وَلَكِنَّهُمُ الَّذِينَ يَصُومُونَ وَيُصَلُّونَ وَيَتَصَدَّقُونَ، وَهُم يَخَافُونَ أَنْ لَا يُقْبَلَ مِنْهُم، أُولَئِكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ»[1] فَيَا لَهَا مِنْ مَشَاهِدَ، مَا أَجَلَّهَا وَأَعْلَاهَا، وَمَا أَعْظَمَ حَظَّ مَنْ نَالَهَا وَتَبَوَّأَ عُلَاهَا.

وَبِالجُمْلَةِ؛ فَالقَلْبُ السَّلِيمُ: هَمُّهُ كُلُّهُ فِي اللهِ، وَحُبُّهُ كُلُّهُ لَهُ، وَقَصْدُهُ لَهُ، أَفْكَارُهُ تَحُومُ عَلَى مَرَاضِيهِ وَمَحَابِّهِ. فَإِنْ سَكَتَ سَكَتَ للهِ، وَإِنْ نَطَقَ نَطَقَ للهِ وَباللهِ، وَإِنْ تَحَرَّكَ فَبِأَمْرِ اللهِ، وَإِنْ سَكَنَ فَسُكُونُهُ اسْتِعَانَةٌ عَلَى مَرْضَاةِ اللهِ. لَا يَفْرَحُ بِمَوْجُودٍ، وَلَا يَأْسَى عَلَى مَفْقُودٍ. فَلَا يَسْتَغْنِي إِلَّا بِاللهِ، وَلَا يَفْتَقِرُ إِلَّا إِلَى اللهِ، وَلَا يَفْرَحُ إِلَّا بِمُوَافَقَتِهِ لِمَرْضَاةِ اللهِ، وَلَا يَحْزَنُ إِلَّا عَلَى مَا فَاتَهُ مِنَ اللهِ، وَلَا يَخَافُ إِلَّا أَنْ يَفُوتَهُ رِضَا اللهِ، وَسَيْرُهُ دَائِمًا إِلَى اللهِ، تَعْتَرِضُهُ كَثْرَةُ جُيُوشِ الشَّهَوَاتِ، وَتُغِيرُ عَلَى قَلْبِهِ كُلَّ وَقْتٍ، فَهُوَ هَارِبٌ إِلَى رَبِّهِ مِنْ بَيْنِ تِلْكَ الجُيُوشِ، يَتَحَمَّلُ مِنْهَا لأَجْلِ اللهِ مَا لَا تَتَحَمَّلُهُ الجِبَالُ الرَّاسِيَاتُ. وَحَالُهُ كَمَا قِيلَ:

تَزُولُ الجِبَالُ الرَّاسِيَاتُ وَقَلْبُهُ ... عَلَى العَهْدِ لاَ يَلْوِي وَلاَ يَتَغَيَّرُ[2]

هَذِهِ عَلَامَاتُ القَلْبِ السَّلِيمِ، فَلَهُ النَّعِيمُ المُقِيمُ، وَالعَيْشُ السَّلِيمُ، فِي جِوَارِ الرَّبِّ الكَرِيمِ.

فَلْنَتَأَمَّلْ قَدْرَ هَذِهِ الصِّفَاتِ، وَلْنَتَدَبَّرْهَا حَقَّ التَّدَبُّرِ، وَلْنَزِنْ أَنْفُسَنَا بِهَا، وَلْنَنْظُرْ أَينَ نَحْنُ مِنْهَا؟!

نَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى بِأَسْمَائِهِ الحُسنَى وصِفَاتِهِ العُلَى، أَنْ يَرْزُقَنَا قُلُوبًا سَلِيمَةً، إِنَّه وَلِيُّ ذَلِكَ وَالقَادِرُ عَلَيهِ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣١٧٥)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٢٨٧).
(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٤١٤).

عِلَاجُ القُلُوبِ

اعْلَمْ - أَصْلَحَ اللهُ قَلْبَكَ - بِأَنَّ القُلُوبَ تَمْرَضُ بِالمَعَاصِي وَالشَّهَوَاتِ، وَتَأْثِيرُ «الذُّنُوبِ فِي القُلُوبِ كَتَأْثِيرِ الأَمْرَاضِ فِي الأَبْدَانِ، بَلِ الذُّنُوبُ أَمْرَاضُ القُلُوبِ وَدَاؤُهَا، وَلا دَوَاءَ لَهَا إِلَّا تَرْكُهَا»[1]. قَالَ ابنُ المُبَارَكِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى:

رَأَيتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ القُلُوبَ ... وَقَد يُورِثُ الذُّلَّ إِدمَانُهَا

وَتَركُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ القُلُوبِ ... وَخَيرٌ لِنَفسِكَ عِصيَانُهَا[2]

فَإِنْ عَالَجَهُ صَاحِبُهُ شُفِيَ، وَإِنْ تَرَكَهُ تَزَايَدَ المَرَضُ حَتَّى يَمُوتَ، قَالَ تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾ [البقرة: ١٠]، فَعَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يَعْتَنِيَ بِقَلْبِهِ، وَيَحْرِصَ عَلَى أَنْ يُعَالِجَهُ بِالأُمُورِ التَّالِيَةِ:

أَوَّلاً: قِرَاءَةُ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالتَّدَبُّرِ:

القُرْآنُ الكَرِيمُ: رَبِيعُ القُلُوبِ، وَشِفَاءُ الصُّدُورِ، وَنُورُ البَصَائِرِ، وَحَيَاةُ الأَرْوَاحِ، وَهُوَ كَلَامُ رَبِّ العَالَمِينَ[3]. يَسْتَضِيءُ بِهِ العَبْدُ فِي ظُلُمَاتِ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ، وَيَتَعَزَّى بِهِ عَنْ كُلِّ فَائِتٍ، وَيَتَعَزَّى بِهِ عَنْ كُلِّ مُصِيبَةٍ، وَيَسْتَشْفِي بِهِ مِنْ أَدْوَاءِ قُلُوبِهِ[4]. قَالَ اللهُ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي

---

(١) الداء والدواء (ص١٢١).

(٢) زاد المعاد (٤/ ٢٠٣).

(٣) شفاء العليل (ص٦٢٩).

(٤) زاد المعاد (٤/ ٢٠١)، بتصرف يسير.

ٱلصُّدُورِ﴾ [يونس: ٥٧]. وَقَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ هُدًى وَشِفَآءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]. وَقَالَ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الإسراء: ٨٢]. فَسُبْحَانَ مَنْ جَعَلَ كَلَامَهُ شِفَاءً تَامًّا لِمَا فِي الصُّدُورِ، فَمَنِ اسْتَشْفَى بِهِ صَحَّ وَبَرِىءَ مِنْ مَرَضِهِ. فَيَا مَنْ تَبْحَثُ عَنْ دَوَاءٍ لِقَلْبِكَ، دَوَاؤُكَ فِي القُرْآنِ. وَيَا مَنْ تَبْحَثِينَ عَنْ دَوَاءٍ لِقَلْبِكِ، دَوَاؤُكِ فِي القُرْآنِ. وَكَيفَ تُقَاوِمُ الأَدوَاءُ كَلَامَ رَبِّ الأَرْضِ وَالسَّمَاءِ[1]، الَّذِي لَو أُنزِلَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَتَصَدَّعَ مِنْ عَظَمَتِهِ وَجَلالَتِهِ[2]. فَتَدَبَّر فِي لَطَائِفِ خِطَابِهِ، وَطَالِبْ نَفْسَكَ بِالقِيَامِ بِأَحْكَامِهِ، وَقَلْبَكَ بِفَهْمِ مَعَانِيهِ، وَسِرَّكَ بِالإِقْبَالِ عَلَيْهِ.

ثَانِيًا: ذِكْرُ اللهِ:

اعْلَم ـ أَصْلَحَ اللهُ قَلْبَكَ ـ بِأَنَّ لِذِكْرِ اللهِ آثَارًا جَلِيلَةً عَلَى القَلْبِ، مِنْهَا:

أ ـ شِفَاءُ القَلْبِ: ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى دَوَاءُ القَلْبِ، وَالغَفْلَةُ مَرَضُهُ، فَالقُلُوبُ مَرِيضَةٌ، وَشِفَاؤُهَا فِي ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى. كَمَا قِيلَ:

إِذَا مَرِضْنَا تَدَاوَيْنَا بِذِكْرِكُمُ ... فَنَتْرُكُ الذِّكْرَ أَحْيَانًا فَنَنْتَكِسُ[3]

ب ـ جَلَاءُ القَلْبِ: وَذِكْرُ اللهِ يُورِثُ جَلَاءَ القَلْبِ مِنْ صَدَئِهِ. «وَلَا رَيْبَ أَنَّ القَلْبَ يَصْدَأُ كَمَا يَصْدَأُ النُّحَاسُ وَالفِضَّةُ وَغَيْرُهُمَا، وَجَلَاؤُهُ بِالذِّكْرِ، فَإِنَّهُ يَجْلُوهُ حَتَّى يَدَعَهُ كَالمِرْآةِ البَيضَاءِ؛ فَإِذَا تَرَكَ الذِّكْرَ صَدِىءَ، فَإِذَا ذَكَرَ جَلَاهُ. وَصَدَأُ القَلْبِ بِأَمْرَيْنِ: بِالغَفْلَةِ وَالذَّنْبِ، وَجَلَاؤُهُ بِشَيْئَيْنِ: بِالاسْتِغْفَارِ وَالذِّكْرِ»[4].

ج ـ حَيَاةُ القَلْبِ: حياةُ القلبِ بدوامِ الذِّكرِ، لا حَيَاةَ لَهُ بِدُونِ ذَلِكَ أبدًا. فَإِنَّهُ «لِلقَلْبِ مِثْلُ المَاءِ لِلسَّمَكِ، فَكَيْفَ يَكُونُ حَالُ السَّمَكِ إِذَا فَارَقَ المَاءَ؟!»[5].

بَلْ إِنَّ القُلُوبَ المَيِّتَةَ تَحْيَى بِالذِّكْرِ، كَمَا تَحْيَى الأَرْضُ المَيِّتَةُ بِالقَطْرِ.

---

(١) زاد المعاد (٤/ ٣٥٢).
(٢) المصدر السابق.
(٣) الوابل الصيب (ص١٧١ ـ ١٧٢).
(٤) الوابل الصيب (ص٩٢).
(٥) الوابل الصيب (ص٩٦).

وَالـذِّكْـرُ فِيـهِ حَيَـاةُ الـقُـلُـوبِ كَـمَـا يُـحْـيِـي الـبِـلَادَ إِذَا مَـا مَـاتَـتِ الـمَـطَـرُ

وَالقَلْبُ الذَّاكِرُ كَالحَيِّ فِي بُيُوتِ الأَحْيَاءِ، وَالغَافِلُ كَالمَيِّتِ فِي بُيُوتِ الأَمْوَاتِ. وَلَا رَيْبَ أَنَّ أَبْدَانَ الغَافِلِينَ قُبُورٌ لِقُلُوبِهِم، وَقُلُوبُهُم فِيهَا كَالأَمْوَاتِ فِي القُبُورِ، كَمَا قِيلَ:

فَـنِـسْـيَـانُ ذِكْـرِ اللهِ مَـوْتُ قُـلُـوبِـهِـمُ وَأَجْـسَـامُـهُـم قَـبْـلَ الـقُـبُـورِ قُـبُـورُ

«فَإِنَّ أَبْدَانَهُم قُبُورٌ لِقُلُوبِهِم، فَقَدْ مَاتَتْ قُلُوبُهُم، وَقُبِرَتْ فِي أَبْدَانِهِم»[1].

عَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ، مَثَلُ الحَيِّ وَالمَيِّتِ»[2].

فَحَقِيقٌ بِالعَبْدِ أَنْ يُنْزِلَ ذِكْرَ اللهِ مِنْهُ، «مَنْزِلَةَ حَيَاتِهِ الَّتِي لَا غِنَى لَهُ عَنْهَا، وَمَنْزِلَةَ غِذَائِهِ الَّذِي إِذَا فَقَدَهُ فَسَدَ جِسْمُهُ وَهَلَكَ، وَبِمَنْزِلَةِ المَاءِ عِنْدَ شِدَّةِ العَطَشِ، وَبِمَنْزِلَةِ اللِّبَاسِ فِي الحَرِّ وَالبَرْدِ»[3].

د ـ رِقَّةُ القَلْبِ: اعْلَم بِأَنَّ «فِي القَلْبِ قَسْوَةً لَا يُذِيبُهَا إِلَّا ذِكْرُ اللهِ تَعَالَى، فَيَنْبَغِي لِلْعَبْدِ أَنْ يُدَاوِيَ قَسْوَةَ قَلْبِهِ بِذِكْرِ اللهِ تَعَالَى؛ لأَنَّ القَلْبَ كُلَّمَا اشْتَدَّتْ بِهِ الغَفْلَةُ، اشْتَدَّت بِهِ القَسْوَةُ، فَإِذَا ذَكَرَ اللهَ تَعَالَى، ذَابَتْ تِلْكَ القَسْوَةُ كَمَا يَذُوبُ الرَّصَاصُ فِي النَّارِ، فَمَا أُذِيبَتْ قَسْوَةُ القُلُوبِ بِمِثْلِ ذِكْرِ اللهِ »[4].

قَـالَ اللهُ تَـعَـالَى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الحديد: ١٦ ـ ١٧]. فِيهِ إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ مَنْ قَدِرَ عَلَى إِحْيَاءِ الأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا بِوَابِلِ القَطْرِ، فَهُوَ قَادِرٌ عَلَى إِحْيَاءِ القُلُوبِ المَيِّتَةِ القَاسِيَةِ بِالذِّكْرِ.

---

(١) موارد الأمان (ص٥٩).
(٢) أخرجه البخاري (٦٤٠٧)، ومسلم (٧٧٩).
(٣) الوابل الصيب (ص١٠٥ ـ ١٠٦).
(٤) الوابل الصيب (ص١٧١).

عَسَى مَنْ أَحْيَى الأَرْضَ المَيْتَةَ بِالقَطْرِ، أَنْ يُحيِيَ القُلُوبَ المَيْتَةَ بِالذِّكْرِ[1].

هـ ـ تَنْبِيهُ القَلْبِ: وَالذِّكْرُ «يُنَبِّهُ القَلْبَ مِنْ نَوْمِهِ، وَيُوقِظُهُ مِنْ سِنَتِهِ، وَالقَلْبُ إِذَا كَانَ نَائِمًا فَاتَتْهُ الأَرْبَاحُ وَالمَتَاجِرُ، وَكَانَ الغَالِبُ عَلَيْهِ الخُسْرَانَ، فَإِذَا اسْتَيْقَظَ وَعَلِمَ مَا فَاتَهُ فِي نَوْمَتِهِ شَدَّ المِئْزَرَ، وَأَحْيَى بَقِيَّةَ عُمُرِهِ، وَاسْتَدْرَكَ مَا فَاتَهُ، وَلَا تَحْصُلُ يَقْظَتُهُ إِلَّا بِالذِّكْرِ، فَإِنَّ الغَفْلَةَ نَوْمٌ ثَقِيلٌ»[2].

و ـ نُورُ القَلْبِ: الذكرُ نُورٌ في القَلْبِ. فَمَا اسْتَنَارَتِ القُلُوبُ بِمِثْلِ ذِكْرِ اللهِ تَعَالَى. وَالشَّأْنُ كُلُّ الشَّأْنِ، وَالفَلَاحُ كُلُّ الفَلَاحِ فِي النُّورِ، وَالشَّقَاءُ كُلُّ الشَّقَاءِ فِي فَوَاتِهِ[3]. وَإِذا «اسْتَنَارَ القَلبُ أَقْبَلَت وُفُودُ الخَيراتِ إِلَيهِ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ، كَمَا أَنَّهُ إِذا أَظْلَمَ أَقْبَلَتْ سَحَائِبُ البَلاءِ وَالشَّرِّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ»[4].

ثَالِثًا: العِلْمُ النَّافِعُ:

اعْلَمْ ـ رَحِمَكَ اللهُ ـ بِأَنَّ أَمْرَاضَ القُلُوبِ كُلَّهَا مُتَوَلِّدَةٌ عَنِ الجَهْلِ وَدَوَاؤُهَا العِلْمُ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي حَدِيثِ صَاحِبِ الشُّجَّةِ الَّذِي أَفْتَوْهُ بِالغُسْلِ فَمَاتَ: «قَتَلُوهُ قَتَلَهُمُ اللهُ، أَلَا سَأَلُوا إِذْ لَمْ يَعْلَمُوا؟ فَإِنَّمَا شِفَاءُ العِيِّ السُّؤَالُ»[5]. فَجَعَلَ العِيَّ ـ وَهُو عِيُّ القَلْبِ عَنِ العِلْمِ وَاللِّسَانِ عَنِ النُّطْقِ بِهِ ـ مَرَضًا، وَشِفَاؤُهُ سُؤَالُ العُلَمَاءِ.

فَأَمْرَاضُ القُلُوبِ أَصْعَبُ مِنْ أَمْرَاضِ الأَبْدَانِ؛ لأَنَّ غَايَةَ مَرَضِ البَدَنِ أَنْ يُفْضِيَ بِصَاحِبِهِ إِلَى المَوْتِ، وَأَمَّا مَرَضُ القَلْبِ فَيُفْضِي بِصَاحِبِهِ إِلَى الشَّقَاءِ الأَبَدِيِّ، وَلَا شِفَاءَ لِهَذَا المَرَضِ إِلَّا بِالعِلْمِ[6]. فَكَمَا أَنَّهُ لَا حَيَاةَ لِلأَرْضِ إِلَّا بِالمَطَرِ، فَكَذَلِكَ لَا حَيَاةَ لِلْقَلْبِ إِلَّا بِالعِلْمِ. وَلِهَذَا؛ فَإِنَّ الأَرْضَ إِنَّمَا تَحْتَاجُ إِلَى المَطَرِ فِي بَعْضِ الأَوْقَاتِ، فَإِذَا تَتَابَعَ عَلَيْهَا احْتَاجَتْ إِلَى انْقِطَاعِهِ، وَأَمَّا العِلْمُ فَيَحْتَاجُ إِلَيْهِ القَلْبُ بِعَدَدِ

---

(١) لطائف المعارف (ص٥٤٤).
(٢) الوابل الصيب (ص١٥٧).
(٣) الوابل الصيب (ص١٥٧).
(٤) الداء والدواء (ص٢٧٥).
(٥) أخرجه أبو داود (٣٣٦)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ١٠١).
(٦) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٦٨ ـ ٣٧٠).

الأَنْفَاسِ، وَلَا يَزِيدُهُ كَثْرَتُهُ إِلَّا صَلَاحًا وَنَفْعًا[1]. فَحَاجَةُ القَلْبِ إِلَى العِلْمِ لَيْسَتْ كَالحَاجَةِ إِلَى التَّنَفُّسِ فِي الهَوَاءِ، بَلْ أَعْظَمُ.

وَبِالجُمْلَةِ؛ فَالعِلْمُ لِلْقَلْبِ مِثْلُ المَاءِ لِلسَّمَكِ؛ إِذَا فَقَدَهُ مَاتَ، فَنِسْبَةُ العِلْمِ إِلَى القَلْبِ كَنِسْبَةِ ضَوْءِ العَيْنِ إِلَيْهَا، وَكَنِسْبَةِ سَمْعِ الأُذُنِ كَلَامَ اللِّسَانِ إِلَيْهِ، فَإِذَا عَدِمَهُ كَانَ كَالعَيْنِ العَمْيَاءِ، وَالأُذُنِ الصَّمَّاءِ؛ وَاللِّسَانِ الأَخْرَسِ[2]. وَلَيْسَ هَذَا لِكُلِّ عِلمٍ، بَلْ لِلْعِلْمِ المَورُوثِ عَنِ الرَّسُولِ ﷺ، وَهُوَ العِلْمُ النَّافِعُ[3].

رَابِعًا: أَكْلُ الحَلَالِ وَاتِّقَاءُ الشُّبُهَاتِ:

عَنِ النُّعمَانِ بنِ بَشِيرٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الحَلَالَ بَيِّنٌ وَإِنَّ الحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَينَهُمَا أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ، لا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقى الشُّبُهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَولَ الحِمَى يُوشِكُ أَنْ يَرْتَعَ فِيهِ، أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلا وَإِنَّ حِمَى اللهِ مَحَارِمُهُ، أَلا وَإِنَّ فِي الجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ القَلْبُ»[4].

فَقَد دَلَّ هَذَا الحَدِيثُ عَلَى أَنَّ أَكْلَ الحَلالِ، يُصْلِحُ القَلْبَ، وَأَكْلُ الحَرَامِ وَالشُّبْهَةِ يُفْسِدُهُ. وَيُخَافُ عَلى آكِلِ الحَرَامِ وَالمُتَشَابِهِ، أَلَّا تُسْمَعَ لَهُ دَعْوَةٌ. أَلَا تَسْمَعُ قَولَهُ ﷺ: «أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللهَ طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللهَ أَمَرَ المُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ، فَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: ٥١]، وَقَالَ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾ [البقرة: ١٧٢]؛ ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ: يَا رَبِّ يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِّيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟!»[5].

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٥٠٨ ـ ٥٠٩).
(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٧١).
(٣) زاد المعاد (٢/ ٢٤).
(٤) أخرجه البخاري (٥٢)، ومسلم (١٥٩٩).
(٥) أخرجه مسلم (١٠١٥).

خامسًا: مُطَالَعَةُ القَلْبِ لِلأَسمَاءِ الحُسنَى وَالصِّفَاتِ العُلَى:

اعْلَمْ ـ أَصْلَحَ اللهُ قَلْبَكَ ـ بِأَنَّ «صَلاحَ القَلْبِ وَاسْتِقَامَتَهُ عَلَى طَرِيقِ سَيرِهِ إِلَى اللهِ تَعَالَى، مُتَوَقِّفٌ عَلَى جَمْعِيَّتِهِ عَلَى اللهِ، وَلَمِّ شَعْثِهِ بِإِقْبَالِهِ بِالكُلِّيَّةِ عَلَى اللهِ تَعَالَى»[1]. وَلَو فُرِضَتْ لَذَّاتُ أَهْلِ الدُّنيَا بِأَجْمَعِهَا حَاصِلَةً لِرَجُلٍ، لَمْ يَكُنْ لَهَا نِسْبَةٌ إِلَى لَذَّةِ جَمْعِيَّةِ قَلْبِهِ عَلَى اللهِ[2].

وَأَعْظَمُ سَبَبٍ لاسْتِقَامَةِ القَلْبِ: مُطَالَعَةُ القَلْبِ لأَسْمَاءِ اللهِ الحُسنَى وَصِفَاتِهِ العُلَى، فَإِنَّهَا تَدعُو إِلَىٰ مَحَبَّتِهِ وَخَشيَتِهِ، وَخَوفِهِ وَرَجَائِهِ، وَإِخلاصِ العَمَلِ لَهُ؛ وَهَذَا هُوَ المَطلَبُ الأَعلَىٰ، وَالمَقصَدُ الأَسنَىٰ، وَهَذَا عَينُ سَعَادَةِ العَبدِ.

وَلْنَذْكُر مِثَالاً وَاحِدًا: «المُرَاقَبَةُ الَّتي هِيَ مِنْ أَعلَى أَعْمَالِ القُلُوبِ هِيَ التَّعَبُّدُ للهِ بِاسْمِهِ الرَّقِيبِ الشَّهِيدِ، فَمَتَى عَلِمَ العَبدُ أَنَّ حَرَكَاتِهِ الظَّاهِرَةَ وَالبَاطِنَةَ قَد أَحَاطَ اللهُ بِعِلمِهَا، وَاسْتَحْضَرَ هَذَا العِلْمَ فِي كُلِّ أَحْوَالِهِ، أَوجَبَ لَهُ ذَلِكَ حِرَاسَةَ بَاطِنِهِ عَنْ كُلِّ فِكْرٍ وَهَاجِسٍ يُبْغِضُهُ اللهُ، وَحِفظَ ظَاهِرَهُ عَنْ كُلِّ قَولٍ أَو فِعْلٍ يُسْخِطُ اللهَ، وَتَعَبَّدَ بِمَقَامِ الإِحْسَانِ فَعَبَدَ اللهَ كَأَنَّهُ يَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ يَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاهُ»[3]. فَتَأَمَّلَ كُلَّ مَقَامٍ مِنْ مَقَامَاتِ الدِّينِ، وَكُلَّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ القُلُوبِ، كَيْفَ تَجِدُ هَذَا أَصْلَهُ وَمَنْبَعَهُ[4].

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٨٦).
(٢) مدارج السالكين (٣/ ١٦٣).
(٣) المجموعة الكاملة لمؤلفات العلامة السعدي (٣/ ٢٤٢).
(٤) إعلام الموقعين (٤/ ٢٥٥).

صورٌ مشرقةٌ
لأصحابِ القلوبِ السليمةِ

وَفِيمَا يَلي نُورِدُ نَمَاذِجَ مُشْرِقَةً، وَصُوَرًا مُشْرِقَةً، لأَصحَابِ القُلُوبِ السَّلِيمَةِ؛ فَاقْرَأها بِتَدَبُّرٍ وَحُضُورِ قَلْبٍ؛ سَائِلاً رَبَّ العَالَمِينَ أَنْ يَنْفَعَنَا بِهَا.

١ ـ عَنْ عَامِرِ بنِ سَعدٍ قَالَ: كَانَ سَعْدُ بنُ أبي وَقَّاصٍ ﷺ في إِبِلِهِ، فَجَاءَهُ ابنُهُ عُمَرُ، فَلَمَّا رَآهُ سَعْدٌ قَالَ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الرَّاكِبِ. فَنَزَلَ، فَقَالَ لَهُ: أَنَزَلْتَ في إِبِلِكَ وَغَنَمِكَ وَتَرَكْتَ النَّاسَ يَتَنَازَعُونَ المُلْكَ بَينَهُم؟ فَضَرَبَ سَعْدٌ في صَدْرِهِ، فَقَالَ: اسْكُتْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ اللهَ يُحِبُّ العَبْدَ التَّقِيَّ الغَنِيَّ الخَفِيَّ»[1].

وَالخَفِيُّ: مَعناهُ الخَامِلُ المُنْقَطِعُ إِلى العِبَادَةِ والاشْتِغَالِ بِأُمُورِ نَفْسِهِ[2]. لا يَهْتَمُّ أَنْ يَظْهَرَ عِنْدَ النَّاسِ، أَو يُشَارَ إِليهِ بِالبَنَانِ، أَو يَتَحَدَّثَ النَّاسُ عَنهُ[3]. إنسانٌ خَفِيٌّ لا يُحِبُّ الظُّهُورَ وَلا يَتَصَدَّرُ لِشَيءٍ، لأَنَّ أَهَمَّ مَا عِنْدَهُ هُوَ مَحَبَّةُ اللهِ لَهُ وَرِضَا اللهِ عَنهُ.

٢ ـ عَنْ عَبدِ اللهِ بنِ حَنْظَلَةَ: أَنَّ عَبدَ اللهِ بنَ سَلامٍ مَرَّ فِي السُّوقِ، وَعَلَيهِ حُزْمَةٌ مِنْ حَطَبٍ، فَقِيلَ لَهُ: أَلَيسَ اللهُ قَدْ أَعْفَاكَ عَنْ هَذَا؟! قَالَ: بَلَى، وَلَكِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَدْفَعَ بِهِ الكِبْرَ؛ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ مَنْ كَانَ في قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٦٥).
(٢) شرح مسلم (١٨/ ١٠٠ ـ ١٠٢).
(٣) شرح رياض الصالحين (٦/ ٢٠٠)، للعلامة ابن عثيمين رحمه الله.

مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ كِبْرٍ»[1].

وَلَعَلَّهُ مِنَ المُفِيدِ أَنْ نُذَكِّرَ القَارِئَ: بِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ عَرَّفَ الكِبْرَ بِقَوْلِهِ: «الكِبْرُ بَطَرُ الحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»[2].

فَبَطَرُ الحَقِّ: رَدُّهُ وَجَحْدُهُ، وَدَفْعُهُ بَعْدَ مَعْرِفَتِهِ.

عَنْ سَلَمَةَ بْنِ الأَكْوَعِ رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلاً أَكَلَ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِشِمَالِهِ. فَقَالَ: «كُلْ بِيَمِينِكَ» قَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ. قَالَ: «لَا اسْتَطَعْتَ» مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبْرُ، قَالَ: فَمَا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ[3].

وَغَمْطُ النَّاسِ: احْتِقَارُهُم وَازْدِرَاؤُهُم، وَمَتَى احْتَقَرَهُم وَازْدَرَاهُم وَقَعَ فِي العُجْبِ، وَهُوَ من أَعظَمِ المُهلِكَاتِ وَفَظَائِعِ الأُمُورِ.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «المُهْلِكَاتُ ثَلَاثٌ: إِعْجَابُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ، وَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ»[4].

٣ ـ عَنْ عَدِيِّ بنِ أَرْطَاةَ قَالَ: كَانَ الرَّجُلُ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا زُكِّيَ، قَالَ: اللَّهُمَّ لا تُؤاخِذْني بِمَا يَقُولُونَ، وَاغْفِرْ لِي مَا لا يَعْلَمُونَ[5].

٤ ـ وَلَمَّا طُعِنَ الخَلِيفَةُ الرَّاشِدُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه: «جَاءَ رَجُلٌ شَابٌّ فَقَالَ: أَبْشِرْ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ بِبُشْرَى اللهِ لَكَ: مِنْ صُحْبَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَقِدَم فِي الإِسْلَامِ مَا قَدْ عَلِمْتَ، ثُمَّ وَلِيتَ فَعَدَلْتَ، ثُمَّ شَهَادَةٌ، قَالَ: وَدِدْتُ أَنْ ذَلِكَ كَفَافٌ لَا عَلَيَّ وَلَا لِي، فَلَمَّا أَدْبَرَ إِذَا إِزَارُهُ يَمَسُّ الأَرْضَ، قَالَ: رُدُّوا عَلَيَّ الغُلَامَ، قَالَ:

---

(١) أخرجه عبد الله بن أحمد في «الزهد» (ص٢٢٧ ـ ٢٢٨): ومن طريقه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٣)/ رقم (١٢٩) ـ القسم المفقود ـ ، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٩١٠).

(٢) أخرجه مسلم (٩١).

(٣) أخرجه مسلم (٢٠٢١).

(٤) أخرجه البزار «كشف الأستار» (٨٢)، وحسنه الألباني رحمه الله بطرقه وشواهده في «الصحيحة» (١٨٠٢).

(٥) أخرجه البخاري في الأدب المفرد» (٧٦١)، وصحح إسناده الألباني رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٥٨٩).

ابْنَ أَخِي! ارْفَعْ ثَوْبَكَ، فَإِنَّهُ أَنْقَى لِثَوْبِكَ، وَأَتْقَى لِرَبِّكَ»[1].

يَا لَهُ مِنْ مَوْقِفٍ مَا أَجَلَّهُ، عُمَرُ الفَارُوقُ ﷺ صَاحِبُ القَلْبِ السَّلِيمِ لَمْ يَتْرُكِ الأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ فِي هَذَا المَوْطِنِ، امْتِثَالاً لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُم مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ»[2].

فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي القَلْبِ إِنْكَارُ مَا يَكْرَهُهُ [اللهُ] وَيُبْغِضُهُ، لَمْ يَكُنْ فِيهِ إِيمَانٌ[3].

٥ ـ عَنْ عَطَاءَ بنِ أَبي رَبَاحٍ قَالَ: قَالَ لِي ابنُ عَباسٍ ﷺ: أَلا أُرِيكَ امرَأَةً مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ؟ قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: هَذِهِ المَرْأَةُ السَّوداءُ، أَتَتِ النَّبيَّ ﷺ فَقَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ، وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللهَ لِي؛ قَالَ: «إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ، وَإِنْ شِئْتِ دَعَوتُ اللهَ أَنْ يُعَافِيَكِ» فَقَالَتْ: أَصْبِرُ، فَقَالَتْ: إِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللهَ لِي أَنْ لا أَتَكَشَّفَ، فَدَعَا لَهَا[4].

امْرَأَةٌ سَوْدَاءُ لَا يُؤْبَهُ لَهَا فِي المُجْتَمَعِ، كَانَتْ تُصْرَعُ وَتَنْكَشِفُ، فَأَخْبَرَتِ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَسَأَلَتْهُ أَنْ يَدْعُوَ لَهَا، فَقَالَ لَهَا: «إِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللهَ لَكِ، وَإِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الجَنَّةُ». قَالَتْ: أَصْبِرُ، وَإِنْ كَانَتْ تَتَأَلَّمُ وَتَتَأَذَّى مِنَ الصَّرعِ، لَكِنَّهَا صَبَرَتْ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَكُونَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ. وَلَكِنَّهَا قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي أَتَكَشَّفُ، فَادْعُ اللهَ أَنْ لَا أَتَكَشَّفَ. فَدَعَا اللهَ أَنْ لَا تَتَكَشَّفَ، فَصَارَتْ تُصْرَعُ وَلَا تَتَكَشَّفُ[5].

فَهَذِهِ المَرْأَةُ سَوْدَاءُ، لَكِنَّ قَلْبَهَا أَبْيَضُ. قَدْ تَصْبِرُ عَلَى المَرَضِ، وَلَكِنَّهَا لَا تَسْتَطِيعُ الصَّبْرَ عَلَى خَدْشِ الحَيَاءِ، وَجَرْحِ العَفَافِ؛ وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مِنْ غَيْرِ إِرَادَتِهَا.

أَلَمْ يَأْنِ لِلنِسْوَةِ فِي هَذَا الزَّمَنِ العَصِيبِ أَنْ يَقْتَدِينَ بِهَذِهِ المَرْأَةِ، وَيَتَرَبَّيْنَ عَلَى العَفَافِ وَالحَيَاءِ؟!

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠٠) ـ في حديث طويل ـ.
(٢) أخرجه مسلم (٤٩)، من حديث أبي سعيد ﷺ.
(٣) الاستقامة (٢/ ٣٦).
(٤) أخرجه البخاري (٥٦٥٢)، ومسلم (٢٥٧٦).
(٥) شرح رياض الصالحين (١/ ٢٣٦ ـ ٢٣٧).

٦ ـ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الحَنَفِيَّةِ قَالَ: قُلْتُ لأَبِي [عَلِيُّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ]: أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: أَبُو بَكْرٍ، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ عُمَرُ ـ وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ: عُثْمَانُ ـ، قُلْتُ: ثُمَّ أَنْتَ؟ قَالَ: مَا أَنَا إِلَّا رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ[1].

٧ ـ قَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه لأُوَيسِ بنِ عَامِرٍ: اسْتَغْفِرْ لِي، فَاسْتَغْفَرَ لَهُ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: أَينَ تُرِيدُ؟ قَالَ: الكُوفَةَ، قَالَ: أَلا أَكْتُبُ لَكَ إِلى عَامِلِهَا؟ قَالَ: أَكُونُ في غَبْرَاءِ النَّاسِ أَحَبُّ إِليَّ[2].

أي: ضِعَافِهِمْ وَصَعَالِيقِهِمْ وَأَخْلاطِهِمُ الَّذِينَ لا يُؤْبَهُ لَهُمْ، وَهَذَا مِنْ إِيثَارِ الخُمُولِ وَكَتْمِ حَالِهِ[3].

٨ ـ قَالَ حَمْزَةُ بنُ دَهْقَانَ: قُلْتُ لِبِشرِ بنِ الحَارِثِ (٢٢٧هـ): أُحِبُّ أَنْ أَخْلُوَ مَعَكَ. قَالَ: إِذَا شِئتَ فَيَكُونُ يومًا. فَرَأَيتُهُ قَدْ دَخَلَ قُبَّةً، فَصَلَّى فِيهَا أَرْبَعَ رَكَعَاتٍ لا أُحْسِنُ أُصَلِّي مِثلَهَا، فَسَمِعتُهُ يَقُولُ في سُجُودِهِ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ فَوْقَ عَرْشِكَ أَنَّ الذُّلَّ أَحَبُّ إِليَّ مِنَ الشَّرَفِ، اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ فَوْقَ عَرْشِكَ أَنَّ الفَقرَ أَحَبُّ إِليَّ مِنَ الغِنَى، اللَّهُمَّ إِنَّك تَعْلَمُ فَوْقَ عَرْشِكَ أَنِّي لا أُوثِرُ عَلى حُبِّكَ شَيئًا.

فَلَمَّا سَمِعتُهُ، أَخَذَنِي الشَّهِيقُ وَالبُكَاءُ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعلَمُ أَنِّي لَو أَعلَمُ أَنَّ هَذَا هَاهُنَا، لَم أَتَكَلَّمْ[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٧١).
(٢) انظر الحديث في «صحيح مسلم» [٢٢٥ ـ (٢٥٤٢)].
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/ ٧٧ ـ ٧٨).
(٤) السير (١٠/ ٤٧٣).

نصائحُ على الطريقِ

١ ـ عَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ:

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

وَالمُرَادُ بِالشَّعَائِرِ: العِبَادَاتُ الظَّاهِرَةُ سَوَاءٌ كَانَتْ كَبِيرَةً أَمْ صَغِيرَةً؛ مِثْلُ الطَّوَافِ بِالبَيْتِ، وَالسَّعْيِ بَيْنَ الصَّفَا وَالمَرْوَةِ، وَالأَذَانِ وَالإِقَامَةِ، وَغَيْرِهَا مِنْ شَعَائِرِ الإِسْلَامِ[١]. فَتَعْظِيمُ شَعَائِرِ اللهِ صَادِرٌ مِنْ تَقْوَى القُلُوبِ، فَالمُعَظِّمُ لَهَا، يُبَرْهِنُ عَلَى تَقْوَاهُ، وَصِحَّةِ إِيمَانِهِ، لأَنَّ تَعظِيمَهَا تَابِعٌ لِتَعظِيمِ اللهِ وَإِجْلالِهِ[٢]. فَالذي «يُعَظِّمُ شَعَائِرَ اللهِ فَيَرَى أَنَّهَا عَظِيمَةٌ في قَلْبِهِ، وَيَقُومُ بِمَا يَنْبَغِي لَهَا مِنَ التَّعْظِيمِ بِجَوَارِحِه، فَإِنَّ هذا مِنْ تَقْوَى القُلُوبِ، عَلامَةٌ عَلَى صَلاحِ نِيَّتِهِ وَتَقْوَى قَلْبِهِ، وَإِذا اتَّقَى القَلبُ اتَّقَتِ الجَوَارِحُ. فَعَلَيكَ بِتَعظِيمِ شَعَائِرِ اللهِ فَإِنَّ ذَلِكَ تَقْوَى لِقَلْبِكَ، وَأيضًا يَكُونُ خَيرًا لَكَ عِندَ اللهِ»[٣]، ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠]. أَي: وَمَنْ يَجْتَنِب مَعَاصِيهِ وَمَحَارِمَهُ وَيَكُونُ ارْتِكَابُهَا عَظِيمًا فِي نَفْسِهِ، فَلَهُ عَلَى ذَلِكَ خَيْرٌ كَثِيرٌ، وثَوابٌ جَزِيلٌ. فَكَمَا عَلَى فِعْلِ الطَّاعَاتِ ثَوَابٌ كَثِيرٌ وَأَجْرٌ جَزِيلٌ، كَذَلِكَ عَلَى تَرْكِ المُحَرَّمَاتِ وَاجْتِنَابِ المَحْظُورَاتِ[٤]. لأَنَّ تَعظِيمَ حُرُمَاتِ اللهِ، مِنَ الأُمُورِ المَحبُوبَةِ للهِ، المُقَرِّبَةِ إِلَيهِ، الَّتِي مَن عَظَّمَهَا وَأَجَلَّهَا، أَثَابَهُ اللهُ ثَوَابًا جَزِيلًا، وَكَانَت خَيرًا لَهُ، فِي دِينِهِ، وَدُنيَاهُ وَأُخرَاهُ، عِندَ رَبِّهِ[٥].

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/ ٥٤٢).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (ص٧٤٤).
(٣) شرح رياض الصالحين (٧/ ١٠١).
(٤) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٣٠١).
(٥) تيسير الكريم الرحمن (ص٧٤٤).

٢ ـ لا تُكْثِرِ الضَّحِكَ:

عَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تُكْثِرُوا الضَّحِكَ، فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ»(١).

٣ ـ لِيَكُنْ دُعَاؤُكَ بِحُضُورِ قَلْبٍ:

عَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ»(٢).

وَعَنْ سَهْلِ بنِ حُنَيفٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ سَأَلَ اللهَ الشَّهَادَةَ مِنْ قَلْبِهِ صَادِقًا، بَلَّغَهُ اللهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ»(٣).

٤ ـ أَطْعِمِ المِسْكِينَ وَامْسَحْ رَأْسَ اليَتِيمِ:

عَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ: أَنَّ رَجُلًا شَكَا إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ قَسْوَةَ قَلْبِهِ، فَقَالَ لَهُ: «إِنْ أَرَدْتَ تَلِينَ قَلْبُكَ، فَأَطْعِمِ المِسْكِينَ، وَامْسَحْ رَأْسَ اليَتِيمِ»(٤).

٥ ـ إِذَا أَذْنَبتَ ذَنبًا فَأَحْدِثْ تَوبَةً:

عَنْ أَبي هُرَيرَةَ ﷺ: عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً، نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فإِذَا هو نَزَعَ واستَغْفَرَ وَتَابَ سُقِلَ قَلْبُه، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤]»(٥).

وَكَمْ رَانَ مِنْ ذَنْبٍ عَلَى قَلْبِ فَاجِرٍ ... فَتَابَ مَن الذَّنْبِ الَّذِي رَانَ وَانْجَلى(٦)

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٤١٩٣)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧٤٣٥).
(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٧٩)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤٥).
(٣) أخرجه مسلم (١٩٠٩)، والترمذي (١٦٥٣) واللفظ له.
(٤) أخرجه أحمد (٢/ ٢٦٣)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (١٤١٠).
(٥) أخرجه الترمذي (٣٣٣٤)، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع (١٦٧٠).
(٦) تفسير القرطبي (١٩/ ٢٦٠).

٦ ـ أَكْثِرْ مِنَ الاسْتِغْفَارِ:

عَنِ الأَغَرِّ المُزَنِيِّ ﷺ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلْبِي، وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللهَ فِي الْيَوْمِ، مِئَةَ مَرَّةٍ»[١].

فَإِذَا كَانَ الرَّسُولُ ﷺ يَسْتَغْفِرُ في اليوم مِئَةَ مَرَّةٍ مَعَ عِظَمِ شَأْنِهِ وَكَونِهِ مَعْصُومًا. فَكَيفَ لا يَشْتَغِلُ بالاسْتِغْفَارِ لَيلاً وَنَهَارًا مَنْ أَثْقَلَتْ ظَهْرَهُ الذُّنوبُ وَالأَوزَارُ، وَاسْتَكْثَرَ مِنَ المَعَاصِي وَالسَّيئَاتِ؟! وَإِذَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَسْتغْفِرُ وَقَدْ غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَكَيفَ بِالَّذِي لَمْ يَظْهَرْ حَالُهُ أَغُفِرَ لَهُ أَمْ لا؟ كَيفَ لا يَسْتَغْفِرُ اللهَ في كُلِّ وَقْتٍ، وَلا يَجْعَلُ لِسَانَهُ أَبَدًا مَشْغُولاً بِالاسْتِغْفَارِ، الَّذِي هُوَ المُنَجِّي مِنْ عَذَابِ النَّارِ؟!

٧ ـ عَلَيكَ بِزِيَارَةِ القُبُورِ:

عَنْ أَنسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ أَلَا فَزُورُهَا؛ فَإِنَّهَا تُرِقُّ القَلْبَ، وَتُدْمِعُ الْعَيْنَ، وَتُذَكِّرُ الآخِرَةَ...»[٢].

فَهَذِهِ مَوْعِظَةٌ عَظِيمَةٌ إِذَا عَمِلَ الإِنْسَانُ بِهَا، نَفَعَتْهُ وَصَلُحَتْ أَحْوَالُهُ؛ فَهَلْ مِنْ سَامِعٍ مُنِيبٍ، وَأَوَّاهٍ حَلِيمٍ، لِلنَّصِيحَةِ يَسْتَجِيبُ؟! وَلَعَلَّكَ تُرِيدُ أَنْ تَقُولَ: لَيْسَ عِنْدِي وَقْتٌ لِزِيارَةِ القُبُورِ، فَاعْلَم بِأَنَّ أَصْحَابَ القُبُورِ كَانُوا مِثْلَكَ: أَعْمَالُهُم كَثِيرَةٌ، وَمَاتُوا وَلَمْ يُنْهُوا أَشْغَالَهُم، فَاعْتَبِر بِهَذَا الكَلَامِ، أَعَانَكَ اللهُ وَحَفِظَكَ، وَرَعَاكَ وَسَدَّدَكَ، وَأَيَّدَكَ وَكَفَاكَ، وَهَدَاكَ وَأَحَبَّكَ، وَرَضِيَ عَنْكَ.

٨ ـ أَكْثِرْ مِنَ الأَعْمَالِ الخَفِيَّةِ:

عَنِ الزُّبَيرِ بنِ العَوَّامِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنِ استَطَاعَ أَنْ يَكُونَ لَهُ خَبِيءٌ مِنْ عَمَلٍ صَالِحٍ فَلْيَفْعَل»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٢).
(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٣٧٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٥٨٤).
(٣) أخرجه الخطيب في «التاريخ» (١١/ ٢٦٢)، والضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» (٣/ ٧٨) رقم (٨٨٤)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٣١٣).

لَطَالَمَا عَصَينَا اللهَ كَثِيرًا فِي السِّرِّ، فَهَلَّا أَكْثَرْنَا مِنْ أَعْمَالٍ صَالِحَةٍ بَينَنَا وَبَينَ اللهِ؟! وَلْنَذْكُرْ عَلَى سَبِيلِ المِثَالِ ـ لا الحَصْرِ ـ الأَعْمَالَ التَّالِيَةَ:

أ ـ البُكَاءُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ:

عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَومَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ ـ وَذَكَرَ مِنْ بَينِهِم ـ: وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَينَاهُ»[1].

وَذِكْرُ اللهِ خَالِيًا يَكُونُ أَقْرَبَ لِلخُشُوعِ، وَأَجْلَبَ لِلدُّمُوعِ، وَأَبعَدَ عَنِ الرِّيَاءِ، وَأَصْفَى لِلنَّفْسِ، وَلا يَكُونُ فِيهِ التِفَاتٌ إِلَّا إِلَى اللهِ ، وَيَكُونُ البُكَاءُ حِينَئِذٍ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَخَوفِهِ.

ذَلِكَ بِأَنَّ الخَلْوَةَ مَدْعَاةٌ إِلَى قَسْوَةِ القَلْبِ، وَالجُرأَةِ عَلَى المعْصِيَةِ، فَإِذَا مَا جَاهَدَ الإِنسَانُ نَفسَهُ فِيهَا، وَاسْتَشْعَرَ عَظَمَةَ اللهِ فَاضَتْ عَينَاهُ، فَاسْتَحَقَّ أَنْ يَكُونَ تَحْتَ ظِلِّ عَرشِ الرَّحْمَنِ يَومَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ.

«وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَينَاهُ»: هَذَا الذَّاكِرُ مُسْتَظِلٌّ بِظِلِّ العَرْشِ يَومَ الحَرِّ الأَكْبَرِ، وَالنَّاسُ فِي حَرِّ الشَّمْسِ قَد صَهَرَتْهُم فِي المَوقِفِ. فَهَلَّا وَقَفْتَ يَومًا لِوَحْدِكَ وَخَلَوتَ بِاللهِ لا يَعْلَمُ بِكَ إِلَّا اللهُ، فَتَذَكَّرْتَ عَظَمَةَ اللهِ وَقُدْرَتَهُ وَمِنَّةَ اللهِ عَلَيْكَ وَنِعْمَتَهُ، وَتَذَكَّرْتَ تَقْصِيرَكَ وَكَثْرَةَ ذُنُوبِكَ؛ فَخَفَقَ القَلْبُ وَاقْشَعَرَّ البَدَنُ وَسَالَتِ الدَّمْعَةُ عَلَى الخَدَّينِ، فَرُبَّمَا كُنْتَ مِنَ السَّبْعَةِ الَّذِينَ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ. هَيَّا بِنَا إِلَى البُكَاءِ وَالدُّمُوعِ، لَعَلَّنَا نَسْتَظِلُّ بِظِلِّ العَرْشِ يَومَ القِيَامَةِ: ذَلِكَ اليَومُ الَّذِي يَعرَقُ النَّاسُ فِيهِ إِلَى آذَانِهِم!!!

عَنْ أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «يَعْرَقُ النَّاسُ يَومَ القِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُم فِي الأَرضِ سَبْعِينَ ذِرَاعًا، وَيُلْجِمُهُم حَتَّى يَبْلُغَ آذَانَهُم»[2].

وَعَنِ المقدَادِ بنِ الأَسودِ ﷺ قَالَ: سَمِعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «فَيَكُونُ النَّاسُ عَلَى قَدْرِ أَعْمَالِهِم فِي العَرَقِ، فَمِنْهُم مَنْ يَكُونُ إِلَى كَعْبَيهِ، وَمِنْهُم مَنْ يَكُونُ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٠)، ومسلم (١٠٣١).
(٢) أخرجه البخاري (٦٥٣٢)، ومسلم (٢٨٦٣).

إِلىٰ رُكْبَتَيهِ، وَمِنهُم مَنْ يَكُونُ إِلىٰ حَقوَيهِ، وَمِنهُم مَنْ يُلْجِمُهُ العَرَقُ إِلجَامًا»[1].

إِنَّ الإِنسَانَ في فَصْلِ الصَّيفِ يَعْمَلُ جَاهِدًا عَلَىٰ أَن يُذهِبَ الحَرَّ بِوَسَائِلِ التَّبْرِيدِ المختَلِفَةِ. فَكَيفَ لا يَعْمَلُ عَلَىٰ أَنْ يَقِيَ نَفسَهُ مِنْ ذَلِكَ الحَرِّ الرَّهِيبِ وَالعَرَقِ الكَثِيرِ، الَّذِي يَبْلُغُ مِنَ الإِنْسَانِ عَلَىٰ قَدْرِ عَمَلِهِ؟!

ب ـ الدُّعَاءُ بِظَهْرِ الغَيبِ:

عَنْ أَبي الدَّرْدَاءِ ﷺ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «دَعْوَةُ المَرْءِ المُسْلِمِ لأَخِيهِ ـ بِظَهرِ الغَيبِ ـ مُسْتَجَابَةٌ، عِنْدَ رَأسِهِ مَلَكٌ مُوَكَّلٌ؛ كُلَّمَا دَعَا لأَخِيهِ بِخَيرٍ، قَالَ المَلَكُ المُوَكَّلُ بِهِ: آمِينَ، وَلَكَ بِمِثْلٍ»[2].

وَدُعَاءُ الغَائِبِ لِلْغَائِبِ، أَعْظَمُ إِجَابَةً مِنْ دُعَاءِ الحَاضِرِ، لأَنَّهُ أَكْمَلُ إِخلاصًا وَأَبْعَدُ عَنِ الشِّرْكِ[3].

فَمَنْ دَعَا لأَخٍ لَهُ فِي اللهِ بِظَهْرِ الغَيبِ: بِأَنْ يَرْزُقَهُ اللهُ قَلْبًا سَلِيمًا طَاهِرًا خَاشِعًا تَقِيًّا، نَقِيًّا لَيِّنًا رَقِيقًا، فَإِنَّ المَلَكَ المُوَكَّلَ بِهِ يَقُولُ: آمِينَ وَلَكَ بِمِثْلٍ.

ج ـ الإِكْثَارُ مِنَ النَّوَافِلِ في البَيتِ:

عَنْ صُهَيبٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «صَلاةُ الرَّجُلِ تَطَوُّعًا حَيثُ لا يَرَاهُ النَّاسُ، تَعْدِلُ صَلاتَهُ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ خَمسًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً»[4].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٨٦٤).
(٢) أخرجه مسلم (٢٧٣٢).
(٣) مجموع الفتاوى (١/ ٣٢٨).
(٤) أخرجه أبو يعلى في «الكبير»، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٣٨٢١).

نَصِيحَةٌ
لِمُشَاهِدِي الأَفْلَامِ المَاجِنَةِ

اعْلَمْ ـ رَحِمَكَ اللهُ ـ بِأَنَّ كُلَّ عُضْوٍ مِنْ أَعْضَاءِ البَدَنِ خُلِقَ لِفِعْلٍ خَاصٍّ، بِهِ كَمَالُهُ فِي حُصُولِ ذَلِكَ الفِعْلِ مِنْهُ. وَمَرَضُهُ: أَنْ يَتَعَذَّرَ عَلَيهِ الفِعْلُ الَّذِي خُلِقَ لَهُ.

فَمَرَضُ اليَدِ: أَنْ يَتَعَذَّرَ عَلَيهَا البَطْشُ.

وَمَرَضُ العَينِ: أَنْ يَتَعَذَّرَ عَلَيهَا النَّظَرُ وَالرُّؤيَةُ.

وَمَرَضُ اللِّسَانِ: أَنْ يَتَعَذَّرَ عَلَيهِ النُّطْقُ.

وَمَرَضُ البَدَنِ: أَنْ يَتَعَذَّرَ عَلَيهِ حَرَكَتُهُ الطَّبِيعِيَّةُ.

وَمَرَضُ القَلْبِ: أَنْ يَتَعَذَّرَ عَلَيهِ مَا خُلِقَ لَهُ مِنْ مَعْرِفَةِ اللهِ وَمَحَبَّتِهِ وَالشَّوقِ إِلى لِقَائِهِ، وَالإِنَابَةِ إِلَيهِ[1]، وَالأُنْسِ بِهِ، وَتَوحِيدِهِ، وَالسُّرُورِ بِهِ، وَالابتِهَاجِ بِحُبِّهِ، وَالرِّضَى عَنْهُ، وَالتَّوَكُّلِ عَلَيهِ، وَالحُبِّ فِيهِ، وَالبُغْضِ فِيهِ، وَالمُوَالاةِ فِيهِ، وَالمُعَادَاةِ فِيهِ، وَدَوَامِ ذِكْرِهِ، وَأَنْ يَكُونَ أَحَبَّ إِلَيهِ مِنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَأَرْجَى عِنْدَهُ مِنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ، وَأَجَلَّ فِي قَلْبِهِ مِنْ كُلِّ مَا سِوَاهُ[2]، وَإِيثَارُ ذَلِكَ عَلَى كُلِّ شَهْوَةٍ[3]، وَلا صَلاحَ لِلْقَلْبِ وَلا نَعِيمَ لَهُ وَلا سُرُورَ وَلا لَذَّةَ، بَلْ وَلا حَيَاةَ لَهُ إِلَّا بِذَلِكَ، وَهَذَا لَهُ بِمَنْزِلَةِ الغِذَاءِ وَالصِّحَّةِ وَالحَيَاةِ.

---

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٦٨).
(٢) زاد المعاد (٤/ ٢٠٢).
(٣) إغاثة اللهفان (١/ ٦٨).

فَلَيسَ «لِلْقَلْبِ وَالرُّوحِ أَلَذَّ وَلا أَطيَبَ وَلا أَحلى وَلا أَنعَمَ مِنْ مَحَبَّةِ اللهِ وَالإِقْبَالِ عَلَيهِ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ، وَقُرَّةِ العَينِ بِهِ وَالأُنسِ بِقُرْبِهِ وَالشَّوقِ إِلَى لِقَائِهِ وَرُؤيَتِهِ، وَصَاحِبُ هَذِهِ اللَّذَّةِ فِي جَنَّةٍ عَاجِلَةٍ نِسْبَتُهَا إِلَى لَذَّاتِ الدُّنيَا، كَنِسْبَةِ لَذَّةِ الجَنَّةِ إِلَى لَذَّةِ الدُّنيَا»[1].

وَكُلُّ مَنْ عَرَفَ اللهَ أَحَبَّهُ، وَأَخْلَصَ العِبَادَةَ لَهُ وَلا بُدَّ، وَلَمْ يُؤثِرْ عَلَيهِ شَيئًا مِنَ المَحْبُوبَاتِ، فَمَنْ آثَرَ عَلَيهِ شَيئًا مِنَ المَحْبُوبَاتِ؛ فَقَلْبُهُ مَرِيضٌ وَمَأسُورٌ، أَسِيرُ شَهْوَتِهِ وَهَوَاهُ.

فَكَيفَ يَسِيرُ إِلى اللهِ وَالدَّارِ الآخِرَةِ: قَلْبٌ مَأسُورٌ مَسْجُونٌ مُقَيَّدٌ؟

وَمُشَاهَدَةُ الأَفْلامِ المَاجِنَةِ وَالدُّخُولُ عَلَى المَوَاقِعِ الإِبَاحِيَّةِ، تِلْكَ فِتْنَةٌ كُبْرَى، وَبَلِيَّةٌ عُظْمَى، وَسُمٌّ قَاتِلٌ، وَدَاءٌ عُضَالٌ، وَمَرَضٌ مِنْ أَمْرَاضِ القَلْبِ، «وَفِيهِ مِنْ أَنْوَاعِ الشَّرِّ وَالفَسَادِ مَا لا يُحْصِيهِ إِلَّا رَبُّ العِبَادِ»[2]، وَهُوَ مِنَ الأَمْرَاضِ التي تُفْسِدُ دِينَ صَاحِبِهَا، ثُمَّ قَدْ تُفْسِدُ عَقْلَهُ ثُمَّ جِسْمَهُ[3]، وَلَو سَلِمَ مِنْ فِعلِ الفَاحِشَةِ الكُبْرَى، فَدَوَامُ تَعَلُّقِ القَلْبِ بِهَا بِلا فِعْلِ الفَاحِشَةِ أَشَدُّ ضَرَرًا عَلَيهِ، مِمَّنْ يَفْعَلُ ذَنْبًا ثُمَّ يَتُوبُ مِنهُ وَيَزُولُ أَثَرُهُ مِنْ قَلْبِهِ[4].

ذَلِكَ بِأَنَّ إِصْرَارَ القَلْبِ على مَحَبَّةِ مَا يَكرَهُهُ اللهُ، نَقْصٌ في التَّوحِيدِ، وَهُوَ نَوعٌ مِنَ الشِّركِ الخَفِيِّ[5].

وَمِنْ أَعْظَمِ أَسْبَابِ هَذَا البَلاءِ: إِعْرَاضُ القَلْبِ عَنِ اللهِ، فَإِنَّ القَلْبَ إِذَا ذَاقَ طَعْمَ عِبَادَةِ اللهِ وَالإِخْلاصِ لَهُ، لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ شَيءٌ قَطُّ أَحْلَى مِنْ ذَلِكَ[6].

وَسُئِلَ بَعْضُ العُلَماءِ عَنْ عِشْقِ الصُّوَرِ؟ فَقَالَ: قُلُوبٌ غَفَلَتْ عَنْ ذِكْرِ اللهِ،

---

(١) روضة المحبين (ص١٨٠).
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٨٧).
(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٣٢).
(٤) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٨٧).
(٥) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٥٢٤ ـ ٥٢٥).
(٦) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٨٧).

فَابْتَلاهَا بِعُبُودِيَّةِ غَيرِهِ[1].

وَالشَّيطَانُ «دَائِمًا يَتَرَقَّبُ غَفْلَةَ العَبْدِ، فَيَبْذُرُ في قَلْبِهِ بَذْرَ الأَمَانِي والشَّهَواتِ والخَيَالاتِ البَاطِلَةِ، فَيُثْمِرُ كُلَّ حَنْظَلٍ وَكُلَّ شَوكٍ وَكُلَّ بَلاءٍ، وَلا يَزَالُ يُمِدُّهُ بِسَقْيِهِ حتَّى يُغَطِّيَ القَلْبَ وَيُعْمِيَهُ»[2].

وَلَو «لَم يَكُنْ لِلْقَلبِ المُشْتَغِلِ بِمَحَبَّةِ غَيرِ اللهِ المُعْرِضِ عَنْ ذِكْرِهِ مِنَ العُقُوبَةِ، إِلَّا صَدَؤُهُ وَقَسْوَتُهُ وَتَعطِيلُهُ عَمَّا خُلِقَ لَهُ، لَكَفَى بِذَلِكَ عُقُوبَةً»[3].

وَأَنْصَحُ مَنِ ابْتُلِيَ بِهَذَا البَلاءِ بِخَمسَةِ أُمُورٍ:

الأَوَّلُ: الصَّبْرُ:

عَنْ أَبي سَعِيدٍ الخدريِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «... وَمَا أُعطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيرًا وَأَوسَعَ مِنَ الصَّبرِ»[4].

وَعَلَى المُبتَلى أَنْ يَصْبِرَ وَيَتَحَمَّلَ مَرَارَةَ الدَّوَاءِ، وَذَلِكَ أَصْعَبُ شيءٍ عَليهِ، وَلَيسَ لَهُ أَنْفَعُ مِنْهُ. وَإِذَا تَلَمَّحَ حَلاوَةَ العَافِيَةِ، هَانَتْ عَليهِ مَرَارَةُ الصَّبرِ.

فَلَيسَ لِمَنْ قَدْ فُتِنَ بِمُشَاهَدَةِ تِلكَ الأَفْلامِ دَوَاءٌ مِثْلُ الصَّبرِ، فَإِنْ صَبَرَ عَنْ مُشَاهَدَةِ مَا لا يُرْضِي اللهَ نَجَا مِمَّا هُوَ أَعْظَمُ مِنْهَا، وَإِنْ لَمْ يَصْبِرْ سَقَطَ فِيمَا هُوَ شَرٌّ مِنْهَا، فَدَامَتْ حَسَرَاتُهُ وَاشْتَدَّ أَلَمُهُ وَعَذَابُهُ، فَلا يُنْكِرُ قُرْبَ الهَلاكِ.

وَقَد قِيلَ: الصَّبْرُ عَلَى غَضِّ البَصَرِ، أَيسَرُ مِنَ الصَّبرِ عَلَى أَلَمِ مَا بَعْدَهُ[5].

فَكُلَّمَا شَاهَدَ فِيلْمًا جَرَّهُ إِلى فِيلْمٍ آخَرَ وَهَلُمَّ جَرًّا. فَمَثَلُهُ مَثَلُ عَطْشَانٍ شَرِبَ مِنَ البَحْرِ، فَازدَادَ عَطَشًا، وَقَدْ يَفْعَلُ الفَاحِشَةَ وَالعِيَاذُ بِاللهِ، وَقَدْ يَأتِيهِ الموتُ وَهُوَ عَلَى ذَلِكَ، فَيَلْقَى اللهَ بِقَلْبٍ غَيرِ سَلِيمٍ، وَلا يَنْجُو إِلَّا مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ.

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٧٤).
(٢) مفتاح دار السعادة (١/ ٣٧٥).
(٣) روضة المحبين (ص١٨٢).
(٤) أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).
(٥) الداء والدواء (ص١٧٩).

الثَّانِي: الدُّعَاءُ:

وَلْيُكْثِرِ «اللَّجَأَ وَالتَّضَرُّعَ إِلى مَنْ يُجِيبُ المُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ، فِي صَرْفِ ذَلِكَ عَنْهُ، وَلْيَطْرَحْ نَفْسَهُ بَينَ يَدَيهِ، مُسْتَغِيثًا بِهِ، مُتَضَرِّعًا، مُتَذَلِّلًا، مُسْتَكِينًا، ضَعِيفًا، لا قُوَّةَ لَهُ وَلا قُدرَةَ وَلا حَولَ إِلَّا بِرَبِّهِ، فَمَتَى وُفِّقَ لِذَلِكَ فَقَد قَرَعَ بَابَ التَّوفِيقِ.

وَلَعَلَّهُ مِنَ المُفِيدِ جِدًّا أَنْ يُكْثِرَ مِنَ الأَدْعِيَةِ التَّالِيَةِ:

١ ـ عَنِ ابْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوفِ أَحَدِكُم كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ، فَاسْأَلُوا اللهَ أَنْ يُجَدِّدَ الإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُم»[(١)].

يَخْلَقُ: أَي يَبْلَى.

١ ـ اللَّهُمَّ إِني أَسْأَلُكَ قَلْبًا سَلِيمًا، وَلِسَانًا صَادِقًا[(٢)].

٢ ـ اللَّهُمَّ حَبِّبْ إِلَيْنَا الإِيمَانَ وَزَيِّنْهُ فِي قُلُوبِنَا، وَكَرِّه إِلَيْنَا الْكُفْرَ وَالفُسُوقَ وَالعِصْيَانَ، وَاجْعَلْنَا مِنَ الرَّاشِدِينَ[(٣)].

٣ ـ اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ القُلُوبِ، صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَى طَاعَتِكَ[(٤)].

٤ ـ اللَّهُمَّ إِني أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ لَهَا[(٥)].

٥ ـ اللَّهُمَّ نَقِّ قَلْبِي مِنَ الخَطَايَا، كَمَا نَقَّيْتَ الثَّوْبَ الأَبْيَضَ مِنَ الدَّنَسِ[(٦)].

٦ ـ اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ سَمْعِي، وَمِنْ شَرِّ بَصَرِي، وَمِنْ شَرِّ لِسَانِي،

---

(١) أخرجه الحاكم (١/ ٤)، وحسنه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (١٥٨٥).

(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧١٣٥)، وجوّد إسناده العلامة الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٣٢٢٨).

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٦٩٩)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٥٤١).

(٤) أخرجه مسلم (٢٦٥٤).

(٥) أخرجه مسلم (٢٧٢٢).

(٦) أخرجه البخاري (٦٣٧٧)، ومسلم [٤٩ ـ (٥٨٩) كتاب الذكر والدعاء].

وَمِنْ شَرِّ قَلْبِي، وَمِنْ شَرِّ مَنِيِّي - يَعْنِي فَرْجَهُ -[1].

٧ - اللَّهُمَّ اغفِر ذَنبِي، وَطَهِّرْ قَلْبِي، وَحَصِّن فَرجِي[2].

٨ - يا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ، ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ[3].

٩ - يا وَلِيَّ الإسلامِ وَأَهْلِهِ، ثَبِّتْنِي بِهِ حَتَّى أَلْقَاكَ[4].

الثَّالِثُ: الإِخلَاصُ:

وَعَلَيْهِ أَنْ يَرْجِعَ بِقَلْبِهِ إِلَى اللهِ، وَلَيْسَ دَوَاءٌ أَنْفَعَ مِنَ الإِخْلَاصِ للهِ، وَهُوَ الدَّوَاءُ الَّذِي ذَكَرَهُ اللهُ فِي كِتَابِهِ حَيْثُ قَالَ: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤].

«فَاللهُ يَصْرِفُ عَنْ عَبْدِهِ مَا يَسُوءُهُ مِنَ الْمَيْلِ إِلَى الصُّوَرِ وَالتَّعَلُّقِ بِهَا، وَيَصْرِفُ عَنْهُ الْفَحْشَاءَ بِإِخْلَاصِهِ للهِ»[5].

فَإِنَّ الْقَلْبَ إِذَا خَلَصَ وَأَخْلَصَ عَمَلَهُ للهِ، لَمْ يَتَمَكَّنْ مِنْهُ عِشْقُ الصُّوَرِ؛ فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَتَمَكَّنُ مِنْ قَلْبٍ فَارِغٍ، كَمَا قَالَ:

أَتَانِي هَوَاهَا قَبْلَ أَنْ أَعْرِفَ الهَوَى ... فَصَادَفَ قَلْبًا خَالِيًا فَتَمَكَّنَا[6]

وَلِهَذَا تَجِدُ العَبْدَ إِذَا كَانَ مُخْلِصًا للهِ مُنِيبًا إِلَيْهِ مُطْمَئِنًّا بِذِكْرِهِ، مُشْتَاقًا قَلْبُهُ إِلَى لِقَائِهِ، مُنْصَرِفًا عَنْ هَذِهِ المُحَرَّمَاتِ، لَا يَلْتَفِتُ إِلَيهَا، وَلَا يُعَوِّلُ عَلَيهَا[7]. كَالمَشْغُولِ

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٤٩٢)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٧٥).

(٢) يدل عليه دعاء النبي ﷺ للفتى الشاب، الذي أتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسول الله، ائذن لي بالزنى... قال: فوضع يده عليه، وقال: «اللهمَّ اغفِر ذنبَهُ، وطهِّر قلبَهُ، وحصِّن فرجَهُ» فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إِلَى شيء. أخرجه أحمد (٥/ ٢٥٦ - ٢٥٧)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٧٠).

(٣) أخرجه الترمذي (٢١٤٠)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٤٤٤).

(٤) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٦١)، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (١٨٢٣).

(٥) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٨٨).

(٦) الداء والدواء (ص٣٢٤ - ٣٢٥).

(٧) موارد الأمان (ص٤٣٣ - ٤٣٤).

بِالجَوهَرِ إِذَا لاحَتْ لَهُ قُشُورُ البَصَلِ، بِخِلافِ مَا إِذَا عُدِمَ هَذِهِ الحَلاوةَ الإِيمَانِيَّةَ، فَإِنَّهُ حِينَئِذٍ يَمِيلُ إِلى شَيءٍ مِنَ المُحَرَّمَاتِ[1].

فَلَا تَزُولُ الفِتْنَةُ عَنِ القَلْبِ إِلَّا إِذَا كَانَ دِينُ الْعَبْدِ كُلُّهُ للهِ ، فَيَكُونُ حُبُّهُ للهِ وَلِمَا يُحِبُّهُ اللهُ، وَبُغْضُهُ للهِ وَلِمَا يُبْغِضُهُ اللهُ[2].

الرَّابِعُ: الصَّوْمُ:

عَنْ عَبدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا مَعْشَرَ الشَّبَابِ! مَنِ اسْتَطَاعَ البَاءَةَ فَلْيَتَزَوَّجْ، فَإِنَّهُ أَغَضُّ للبَصَرِ وَأَحْصَنُ للفَرْجِ؛ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ، فَعَلَيهِ بِالصَّومِ، فَإِنَّهُ لَهُ وِجَاءٌ»[3].

فَهَذَا دَوَاءٌ نَافِعٌ «وَقَلَّ مَنْ أَدْمَنَ الصَّوْمَ، إِلَّا وَمَاتَتْ شَهْوَتُهُ، أَوْ ضَعُفَتْ جِدًّا»[4].

الخَامِسُ: عَدَمُ التَّعَرُّضِ لِلفِتْنَةِ:

إِنَّ العَبْدَ ضَعِيفٌ، وَمَهْمَا بَلَغَتْ مَنْزِلَتُهُ لا يَأْمَنُ على نَفْسِهِ الفِتْنَةَ، وَيَخْشَى أَنْ تَجْرِفَهُ رِيَاحُ الأَهْوَاءِ وَالفِتَنِ. وَقَدْ مَرَّ مَعَنَا بِأَنَّ مَثَلَ القَلْبِ كَرِيشَةٍ بِفَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ. فَهَلْ يَلِيقُ بِالعَاقِلِ أَن يُعَرِّضَ نَفْسَهُ لِلْفِتَنِ؟!

فَيَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يَبْتَعِدَ عَنْ مَوَاطِنِ الْفِتَنِ، وَيَفِرَّ مِنْهَا فِرَارَهُ مِنَ الأَسَدِ، حَتَّى لَا يَقَعَ فِيهَا.

فَكَمْ مِنْ إِنْسَانٍ وَقَعَ مَوَاقِعَ الْفِتَنِ، وَهُوَ يَرَى نَفْسَهُ أَنَّهُ سَيَتَخَلَّصُ، ثُمَّ لَا يَتَخَلَّصُ.

حَتَّى إِنَّ الرَّسُولَ ﷺ أَمَرَ مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ أَنْ يَبْتَعِدَ عَنْهُ، حَتَّى لَا يَقَعَ فِي فِتْنَتِهِ.

---

(١) شرح حديث: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن» (ص٣٣).
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٠١).
(٣) أخرجه البخاري (٥٠٦٦)، ومسلم (١٤٠٠).
(٤) روضة المحبين (ص٢٣٠).

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ سَمِعَ بِالدَّجَّالِ فَلْيَنْأَ عَنْهُ»[1].

فَمَا اسْتُعِينَ عَلَى التَّخَلُّصِ مِنَ الشَّرِّ، بِمِثْلِ الْبُعْدِ عَنْ أَسْبَابِهِ وَمَظَانِّهِ[2].

فَاحْذَرْ - رَحِمَكَ اللهُ - مِنَ أَنْ تَتَعَرَّضَ لِلْفِتْنَةِ، فَبَعِيدٌ أَنْ يَسْلَمَ مَنِ اقْتَرَبَ مِنَ الفِتْنَةِ.

وَكَمَا أَنَّ مَنِ اقْتَرَبَ مِنَ النَّارِ أَصَابَهُ مِنْ حَرِّهَا وَوَهْجِهَا، كَذَلِكَ «الشَّهْوَةُ مِثْلُ النَّارِ: إِذا أَضْرَمَهَا صَاحِبُهَا، بَدأَتْ بِإِحْرَاقِهِ»[3]. فَإِنَّ الْخَطَايَا وَالذُّنُوبَ لِلْقَلْبِ بِمَنْزِلَةِ الْحَطَبِ الَّذِي يُمِدُّ النَّارَ وَيُوْقِدُهَا، وَلِهَذَا: كُلَّمَا كَثُرَتِ الْخَطَايَا اشْتَدَّت نَارُ الشَّهْوَةِ فِي الْقَلْبِ»[4]. فَأَيُّ نَعِيمٍ لِمَنْ قَلْبُهُ يَغْلِي بِالْخَطَايَا وَالشَّهَوَاتِ؟ وَأَيُّ سُرُورٍ لِمَنْ يَلْتَهِبُ فُؤَادُهُ بِمَحَبَّةِ مَا يَكْرَهُ اللهُ؟ وَأَيُّ حَيَاةٍ لِمَنْ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِالزَّانِيَاتِ؟ وَأَيُّ عَاقِبَةٍ وَفَلَاحٍ لِمَنِ انْقَطَعَ قَلْبُهُ عَنْ رَبِّ الْبَرِيَّاتِ؟!

وَمَنْ كَانَ هَذَا حَالَهُ، فَقَدْ فَتَحَ عَلَى نَفْسِهِ بَابَ العَطَبِ، فَهُوَ إِلَى الهَلَاكِ أَدْنَى مِنْهُ إِلَى السَّلَامَةِ.

«وَيَحْتَاجُ الْمُسْلِمُ فِي ذَلِكَ إِلَى أَنْ يَخَافَ اللهَ، وَيَنْهَى النَّفْسَ عَنِ الهَوَى، وَنَفْسُ الْهَوَى والشَّهْوَةِ لَا يُعَاقَبُ عَلَيْهِ، بَلْ عَلَى اتِّبَاعِهِ وَالْعَمَلِ بِهِ، فَإِذَا كَانَتِ النَّفْسُ تَهْوَى وَهُوَ يَنْهَاهَا، كَانَ نَهْيُهُ عِبَادَةً للهِ، وَعَمَلًا صَالِحًا»[5].

عَنْ فُضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللهِ»[6].

فَيُؤْمَرُ بِجِهَادِهَا كَمَا يُؤْمَرُ بِجِهَادِ مَنْ يَأْمُرُ بِالْمَعَاصِي وَيَدْعُو إِلَيْهَا، وَهُوَ إِلَى

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٣١٩)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٣٦٢٩).
(٢) عدة الصابرين (ص٨٦).
(٣) فوائد الفوائد (ص٢٩٠).
(٤) انظر: موارد الأمان (ص١١٧).
(٥) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٣٥).
(٦) قطعة من حديث: أخرجه أحمد (٦/ ٢١، ٢٢)، وابن حبان (٤٨٦٢)، والحاكم (٢٤)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥٤٩).

جِهَادِ نَفْسِهِ أَحْوَجُ، فَإِنَّ هَذَا فَرْضُ عَيْنٍ، وَذَاكَ فَرْضُ كِفَايَةٍ. وَالصَّبْرُ فِي هَذَا مِنْ أَفْضَلِ الأَعْمَالِ، فَإِنَّ هَذَا الجِهَادَ حَقِيقَةُ ذَلِكَ الجِهَادِ، فَمَنْ صَبَرَ عَلَيْهِ صَبَرَ عَلَى ذَلِكَ الجِهَادِ[1].

وَإِنَّمَا يَعْتَبِرُ بِهَذَا الكَلامِ «مَنْ في قَلْبِهِ بَعْضُ حَيَاةٍ يَحُسُّ بِهَا، فَأَمَّا مَنْ مَاتَ قَلْبُهُ، وَعَظُمَتْ فِتْنَتُهُ؛ فَقَد سَدَّ عَلَى نَفْسِهِ طَرِيقَ النَّصِيحَةِ: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [المائدة: ٤١]»[2].

وَفِي خِتَامِ هَذِهِ النَّصيحَةِ، نَقُولُ لِمَنْ تَلَطَّخَ بِشَيءٍ مِنْ هَذِهِ القَاذُورَاتِ: «لَا يَصْلُحُ لِقُربِ اللهِ إِلَّا طَاهِرٌ، فَإِنْ أَرَدْتَ قُرْبَهُ وَمُنَاجَاتَهُ الْيَوْمَ فَطَهِّرْ ظَاهِرَكَ وَبَاطِنَكَ لِتَصلُحَ لِذَلِكَ، وَإِنْ أَرَدْتَ قُرْبَهُ وَمُنَاجَاتَهُ غَدًا فَطَهِّرْ قَلْبَكَ مِنْ سِوَاهُ لِتَصْلُحَ لِمُجَاوَرَتِهِ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩]»[3].

تُبْ إِلَى رَبِّكَ تَوبَةً نَصُوحًا مَا دُمْتَ فِي مُدَّةِ الإِمْكَانِ، وَاحْذَرْ مِنَ الإِقَامَةِ عَلَى مَا يُسْخِطُ المَوْلَى مِنَ الإِصْرَارِ عَلَى العِصْيَانِ[4].

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «... وَيلٌ للمُصِرِّينَ الذينَ يُصِرُّونَ عَلَى ما فَعَلُوا وَهُم يَعْلَمُونَ»[5].

فَنَسأَلُ اللهَ الحَيَّ القَيُّومَ ذَا الجَلالِ وَالإِكْرَامِ، العَافِيَةَ مِنْ كُلِّ دَاءٍ وَبَلاءٍ. إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٦٣٥ ـ ٦٣٦).
(٢) موارد الأمان (ص٣١٣).
(٣) انظر: اختيار الأولى لابن رجب (ص٦٧).
(٤) المجموعة الكاملة لمؤلفات العلامة السعدي (٦/ ٢٧٦).
(٥) قطعة من حديث أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٨٠)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٢٣٩).

عِبَرٌ وَعِظَاتٌ

١ ـ مَا ضُرِبَ عَبدٌ بِعُقُوبَةٍ أَعْظَمَ مِنْ قَسْوَةِ القَلْبِ وَالبُعدِ عَنِ اللهِ[١].

٢ ـ خُلِقَتِ النَّارُ لإِذَابَةِ القُلُوبِ القَاسِيَةِ[٢].

٣ ـ مَتَى أُقْحِطَتِ العَينُ مِنَ البُكَاءِ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ قَحْطَهَا مِنْ قَسْوَةِ القَلْبِ، وَأَبْعَدُ القُلُوبِ مِنَ اللهِ القَلْبُ القَاسِي[٣].

٤ ـ قَسْوَةُ القَلْبِ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْيَاءَ إِذا جَاوَزَت قَدْرَ الحَاجَةِ: الأَكلُ وَالنَّومُ وَالكَلامُ وَالمخَالَطَةُ[٤].

٥ ـ لَيْسَ الاعتِبَارُ بِأَعْمَالِ البِرِّ بِالجَوَارِحِ، إِنَّمَا الاعتِبَارُ بِبِرِّ القُلُوبِ وَتَقْوَاهَا، وَتَطْهِيرِهَا عَنِ الآثَامِ. سَفَرُ الدُّنيَا يُقْطَعُ بِسَيْرِ الأَبْدَانِ، وَسَفَرُ الآخِرَةِ يُقْطَعُ بِسَيْرِ القُلُوبِ[٥].

٦ ـ لَيْسَ كُلُّ مَنْ تَحَلَّى بِالمَعْرِفَةِ وَالحِكْمَةِ وَانْتَحَلَهَا كَانَ مِنْ أَهْلِهَا، بَل أَهْلُ المَعْرِفَةِ وَالحِكْمَةِ: الَّذِينَ أَحْيَوْا قُلُوبَهُم بِقَتْلِ الهَوَى، وَأَمَّا مَنْ قَتَلَ قَلْبَهُ فَأَحْيَى الهَوَى؛ فَالمَعْرِفَةُ وَالحِكْمَةُ عَارِيَةٌ عَلَى لِسَانِهِ[٦].

---

(١) فوائد الفوائد (ص٢٦٢).
(٢) فوائد الفوائد (ص٢٦٢).
(٣) بدائع الفوائد (٣/ ١٢٠٠).
(٤) فوائد الفوائد (ص٢٦٢).
(٥) لطائف المعارف (ص٤٤٣).
(٦) فوائد الفوائد (ص٢٦٣).

٧ ـ خَرَابُ القَلبِ؛ مِنَ الأَمْنِ وَالغَفْلَةِ، وَعِمَارَتُهُ؛ مِنَ الخَشيَةِ والذِّكرِ[١].

٨ ـ القَلبُ يَمرَضُ كَمَا يَمْرَضُ البَدَنُ، وَشِفَاؤُهُ فِي التَّوبَةِ وَالحِمْيَةِ، وَيَصْدَأُ كَمَا تَصْدَأُ المِرْآةُ، وَجَلَاؤُهُ بِالذِّكرِ، وَيَعْرَى كَمَا يَعْرَى الجِسْمُ، وَزِينَتُهُ التَّقْوَى، وَيَجُوعُ وَيَظْمَأُ كَمَا يَجُوعُ البَدَنُ، وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ المَعرِفَةُ وَالمَحَبَّةُ، والتَّوَكُّلُ وَالإِنَابَةُ وَالخِدمَةُ[٢].

٩ ـ إِضَاعَةُ القَلْبِ مِنْ إِيثَارِ الدُّنيَا عَلَى الآخِرةِ. وَإِضَاعَةُ الوَقْتِ مِنْ طُولِ الأَمَلِ. فَاجْتَمَعَ الفَسَادُ كُلُّهُ فِي اتِّبَاعِ الهَوَى وَطُولِ الأَمَلِ، وَالصَّلَاحُ كُلُّهُ فِي اتِّبَاعِ الهُدَى وَالاسْتِعْدَادِ لِلِّقَاءِ[٣].

١٠ ـ العَجَبُ مِمَّنْ تَعْرِضُ لَهُ حَاجَةٌ فَيَصْرِفُ رَغبَتَهُ وَهِمَّتَهُ فِيهَا إِلَى اللهِ لِيَقْضِيَهَا لَهُ، وَلَا يَتَصَدَّى لِلسُّؤَالِ لِحَيَاةِ قَلْبِهِ مِنْ مَوْتِ الجَهْلِ وَالإِعْرَاضِ وَشِفَائِهِ مِنْ دَاءِ الشُّبُهَاتِ وَالشَّهَوَاتِ، وَلَكِنْ إِذَا مَاتَ القَلْبُ لَمْ يَشْعُر بِمَعْصِيَتِهِ[٤].

١١ ـ إذا حَمَّلْتَ عَلَى القَلْبِ هُمُومَ الدُّنيَا وَأَثْقَالَهَا وَتَهَاوَنْتَ بِأَوْرَادِهِ الَّتِي هيَ قُوَّتُهُ وَحَيَاتُهُ، كُنْتَ كَالمُسَافِرِ الَّذِي يُحَمِّلُ دابَّتَهُ فَوقَ طَاقتِهَا وَلا يُوَفِّيهَا عَلَفَهَا، فَمَا أَسْرَعَ مَا تَقِفُ بِهِ![٥].

١٢ ـ القَلْبُ فِي سيرِهِ إِلَى اللهِ بِمَنزِلَةِ الطَّائِرِ، فَالمَحَبَّةُ رَأسُهُ وَالخَوفُ وَالرَّجَاءُ جَنَاحَاهُ، فَمَتَى سَلِمَ الرَّأْسُ وَالجَنَاحَانِ فَالطَّائرُ جيِّدُ الطَّيَرَانِ، وَمَتى قُطِعَ الرَّأْسُ مَاتَ الطَّائِرُ، وَمَتَى فُقِدَ الجَنَاحَانِ فَهُوَ عُرضَةٌ لِكُلِّ صَائِدٍ كَاسِرٍ[٦].

١٣ ـ مَا حُفِظَتْ حُدُودُ اللهِ وَمَحَارِمُهُ، وَوَصَلَ الوَاصِلُونَ إِلَيْهِ، بِمِثْلِ خَوْفِهِ وَرَجَائِهِ وَمَحَبَّتِهِ، فَمَتَى خَلَا القَلْبُ عَنْ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ، فَسَدَ فَسَادًا لَا يُرْجَى صَلَاحُهُ أَبَدًا،

---

(١) فوائد الفوائد (ص٢٦٣).
(٢) فوائد الفوائد (ص٢٦٣ ـ ٢٦٤).
(٣) فوائد الفوائد (ص٣٨٥).
(٤) فوائد الفوائد (ص٣٨٥).
(٥) فوائد الفوائد (ص٤٤٢).
(٦) مدارج السالكين (١/ ٥١٧).

وَمَتَى ضَعُفَ فِيهِ شَيءٌ مِنْ هَذِهِ، ضَعُفَ إِيمَانُهُ بِحَسَبِهِ[1].

١٤ ـ طَهَارَةُ القَلْبِ بِالتَّوبَةِ، وَطَهَارَةُ البَدَنِ بِالمَاءِ[2].

١٥ ـ الرَّجُلُ هُوَ الَّذِي يَخَافُ مَوْتَ قَلْبِهِ، لَا مَوْتَ بَدَنِهِ، إِذْ أَكْثَرُ الخَلْقِ يَخَافُونَ مَوْتَ أَبْدَانِهِم، وَلَا يُبَالُونَ بِمَوْتِ قُلُوبِهِم[3].

١٦ ـ القَلْبُ الوَاسِعُ يَسِيرُ بِالخَلقِ إِلَى اللهِ مَا أَمْكَنَهُ، فَلَا يَهْرُبُ مِنْهُم وَلَا يَلْحَقُ بِالقِفَارِ[4] وَالجِبَالِ وَالخَلَوَاتِ، بَلْ لَوْ نَزَلَ بِهِ مَنْ نَزَلَ سَارَ بِهِ إِلَى اللهِ، فَإِنْ لَمْ يَسِر مَعَهُ سَارَ هُوَ وَتَرَكَهُ[5].

١٧ ـ المَحَبَّةُ شَجَرَةٌ فِي القَلْبِ عُرُوقُهَا الذُّلُّ لِلمَحْبُوبِ، وَسَاقُهَا مَعْرِفَتُهُ، وَأَغْصَانُهَا خَشْيَتُهُ، وَوَرَقُهَا الحَيَاءُ مِنْهُ، وَثَمَرَتُهَا طَاعَتُهُ، وَمَادَّتُهَا الَّتِي تَسْقِيهَا ذِكْرُهُ، فَمَتَى خَلَا الحُبُّ عَنْ شَيءٍ مِنْ ذَلِكَ كَانَ نَاقِصًا[6].

١٨ ـ إِذَا كَانَتِ القُلُوبُ مَجْبُولَةً عَلَى حُبِّ مَنْ أَحْسَنَ إِلَيهَا، وَكُلُّ إِحْسَانٍ وَصَلَ إِلَى العَبْدِ فَمِنَ اللهِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، فَلَا أَلْأَمَ مِمَّنْ شَغَلَ قَلْبَهُ بِحُبِّ غَيْرِهِ دُونَهُ[7].

١٩ ـ مَتَى خَلَتِ الغَيرَةُ مِنَ القَلْبِ خَلَا مِنَ الدِّينِ، وَالغَيْرَةُ تُصَفِّي القَلْبَ وَتُخْرِجُ خَبَثَهُ، كَمَا يُخْرِجُ الكِيرُ خَبَثَ الحَدِيدِ[8].

٢٠ ـ اللهُ يَغَارُ عَلَى قَلْبِ عَبْدِهِ أَنْ يَكُونَ مُعَطَّلًا مِنْ حُبِّهِ وَخَوْفِهِ وَرَجَائِهِ، وَأَنْ يَكُونَ فِيهِ غَيْرُهُ. وَيَغَارُ عَلَى لِسَانِهِ أَنْ يَتَعَطَّلَ مِنْ ذِكْرِهِ وَيَشْتَغِلَ بِذِكرِ غَيْرِهِ. وَيَغَارُ

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٨٥٢ ـ ٨٥٣).
(٢) موارد الأمان (ص١١٦).
(٣) تهذيب المدارج (ص٩٤٦).
(٤) القفار: الصحاري.
(٥) روضة المحبين (ص٢٩٨).
(٦) روضة المحبين (ص٤١١).
(٧) روضة المحبين (ص٤١٩).
(٨) روضة المحبين (ص٣٠٢).

عَلَى جَوَارِحِهِ أَنْ تَتَعَطَّلَ مِنْ طَاعَتِهِ وَتَشْتَغِلَ بِمَعْصِيَتِهِ. فَيقبُحُ بِالعَبْدِ أَنْ يَغَارَ مَوْلَاهُ الحَقُّ عَلَى قَلْبِهِ وَلِسَانِهِ وَجَوَارِحِهِ، وَهُوَ لَا يَغَارُ عَلَيْهَا[1].

٢١ ـ شَتَّانَ بَيْنَ أَقْوَامٍ مَوْتَى تَحْيَى القُلُوبُ بِذِكْرِهِم، وَبَينَ أَقْوَامٍ أَحْيَاءٍ تَمُوتُ القُلُوبُ بِمُخَالَطَتِهِم[2].

٢١ ـ دَوَاءُ قَلْبِكَ خَمْسٌ عِنْدَ قَسْوَتِهِ ... فَدُمْ عَلَيهَا تَفُزْ بِالخَيْرِ وَالظَّفَرِ

خَلَاءُ بَطْنٍ وَقُرْآنٌ تَدَبَّرُهُ ... كَذَا تَضَرُّعُ بَاكٍ سَاعَةَ السَّحَرِ

كَذَا قِيَامُكَ جُنْحَ اللَّيلِ أَوْسَطَهُ ... وَأَن تُجَالِسَ أَهْلَ الخَيْرِ وَالخَبَرِ

---

(١) روضة المحبين (ص٣١٠).

(٢) الرسالة التبوكية (ص٨٦).

الخَاتِمَةُ

الحَمْدُ للهِ الَّذِي «أَحَاطَ عِلْمُهُ بِالبَوَاطِنِ وَالظَّوَاهِرِ وَالضَّمَائِرِ، فَعَلِمَ مَا تَحتَوِي عَلَيهِ مِنْ سَيِّىءِ النِّيَّاتِ وَحُسْنِهَا وصفَاءِ السَّرَائِرِ؛ وَجَعَلَ إِرَادَاتِ القُلُوبِ تَدْعُو إِلَى ما يُشَاكِلُهَا مِنْ أَقْوَالِ اللِّسَانِ وَأَعْمَالِ الظَّوَاهِرِ»[1]، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ عَلَى خَاتَمِ النَّبِيِّينَ: خَاطَبَنَا بِأَلْطَفِ الخِطَابِ وَأَحْلَاهُ، وَنَصَحَنَا بِأَحْسَنِ النَّصَائِحِ، وَوَصَّانَا بِأَكْمَلِ الوَصَايَا، وَأَمَرَنَا بِأَشْرَفِ الخِصَالِ، وَنَهَانَا عَنْ أَقْبَحِ الأَقْوَالِ وَالأَعْمَالِ.

«إِنَّ العِنَايَةَ بِإِصْلَاحِ القُلُوبِ مِنْ أَهَمِّ المُهِمَّاتِ، وَأَوْجَبِ الوَاجِبَاتِ، وَأَجَلِّ القُرُبَاتِ»[2]، وَهِيَ تَمْرَضُ أَعْظَمَ مِمَّا تَمْرَضُ الأَبْدَانُ، فَاجْتَهِدُوا فِي دَوَائِهَا وَتَزْكِيَتِهَا، فَإِنَّها مَوْضِعُ نَظَرِ المَنَّانِ؛ فَكَيْفَ تُهْمِلُونَ السَّعْيَ لأَدْوِيةِ أَمْرَاضِ قُلُوبِكُم، وَأَنْتُم لِطَبِيبِ أَمْرَاضِ الأَبْدَانِ تَبْذُلُونَ نَفَائِسَ أَمْوَالِكُم، وَعَافِيَةُ قُلُوبِكُم وَسَلَامَتُهَا تُثْمِرُ الفَوَائِدَ الدِّينِيَّةَ وَالأُخرَوِيَّةَ. وَبِهَا يَحْصُلُ الفَوْزُ وَالسَّعَادَةُ الأَبَدِيَّةُ؟[3] فَمَنْ أَصْلَحَ بَاطِنَهُ أَصْلَحَ اللهُ لَهُ الأَحْوَالَ، وَسَدَّدَهُ فِي الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ[4]؛ وَلَمْ يَدَعْ لِلْخَيرِ مَطْلَبًا، وَلَا مِنَ الشَّرِّ مَهْرَبًا. وَجَاءَتْهُ العَافِيَةُ مِنْ كُلِّ نَاحِيَةٍ.

«فَنَسْأَلُ المَوْلَى الَّذِي ابْتَدَأَ بِالإِحْسَانِ وَخَتَمَ بِالإِحْسَانِ، وَعَلِمَ حَالَةَ الإِنْسَانِ وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مِنَ النُّقْصَانِ: أَنْ يَتَوَلَّانَا بِلُطْفِهِ، وَيَمُنَّ عَلَيْنَا»[5] بِقُلُوبٍ سَلِيمَةٍ طَاهِرَةٍ خَاشِعَةٍ، لَيِّنَةٍ رَقِيقَةٍ تَقِيَّةٍ نَقِيَّةٍ. وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

---

(١) المجموعة الكاملة لمؤلفات العلامة السعدي (٦/ ٢٠٣).
(٢) الذخيرة في إصلاح السريرة (ص١٣).
(٣) المجموعة الكاملة لمؤلفات العلامة السعدي (٦/ ٢٦٩).
(٤) المجموعة الكاملة لمؤلفات العلامة السعدي (٦/ ١١٦).
(٥) المجموعة الكاملة لمؤلفات العلامة السعدي (٣/ ٤٠٥).

تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

تذكير الإنسان بعداوة الشيطان

تأليف
عبد الهادي بن حسن وهبي

تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إنَّ الحمدَ لله نحمدهُ ونستعينهُ ونستغفرهُ، ونعوذُ بالله منْ شرورِ أنفسنَا وسيئاتِ أعمالنَا، منْ يهدهِ اللهُ فلا مضلَّ لهُ، ومنْ يضلل فلا هاديَ لهُ، وأشْهدُ أنْ لا إله إلَّا الله، وحدَهُ لا شريكَ لهُ، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُهُ ورسولُهُ.

أمَّا بعدُ، فإنَّ أصدقَ الحديثِ كتابُ الله، وأحسنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، وشرَّ الأُمورِ محدثاتُها، وكلَّ محدثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضلالةٌ، وكلَّ ضلالةٍ في النَّارِ.

«إنَّ الله ﷻ ابتلى هذا الإنسانَ بعدوٍّ لا يفارقُهُ طرْفةَ عينٍ، وصاحبٍ لا ينامُ عنهُ، ولا يغْفُلُ عنهُ، يراهُ هوَ وقبيلُهُ منْ حيثُ لا يراهُ، يبْذُلُ جَهْدَهُ في معاداتهِ في كلِّ حالٍ، ولا يدعُ أمرًا يكيدُهُ بهِ يقْدرُ على إيصالهِ إليه إلَّا أوْصلَهُ إليهِ، ويستعينُ عليهِ ببني أبيهِ منْ شياطينِ الجنِّ، وغيرهمْ منْ شياطينِ الإنْسِ؛ فقد نصبَ لهُ الحبائلَ، وبغى لهُ الغوائلَ، ومَدَّ حولَهُ الأشْراكَ، ونَصَبَ لهُ الفِخَاخَ والشِّباكَ، وقالَ لأعْوانهِ: دونَكُمْ عدوَّكمْ وعدوَّ أبيكم لا يفوتنَّكُمْ! ولا يكُنْ حظُّهُ الجنَّةَ وحظُّكمُ النَّارَ، ونصيبُهُ الرحمةَ ونصيبُكُمُ اللَّعنةَ، وقدْ علمتمْ أنَّ ما جرى عَلَيَّ وعليكُمْ منَ الخِزْيِ واللَّعنِ والإبعادِ منْ رحمةِ اللهِ فبسببهِ ومنْ أجلهِ؛ فابذلوا جَهدَكُمْ أنْ يكونوا شركاءَنَا في هذهِ البَلِيَّةِ؛ إذْ قدْ فاتنا شرْكةُ صالحيهم في الجنَّةِ.

وقدْ أعلمنا اللهُ ﷻ بذلكَ كلِّهِ منْ عدوِّنا، وأمرَنَا أنْ نأخذَ لهُ أهْبَتَهُ، ونعدَّ لهُ عُدَّتَهُ»[1]، وأكثرَ في كتابهِ من ذكرِ قصَّةِ إبليسَ مع آدمَ عليه السلام لتكونَ نصبَ أعيننا دائمًا.

---

(١) الداء والدواء (ص١٤٨ ـ ١٤٩) [طبعة دار ابن الجوزي].

ولمَّا كانَ النَّاسُ في هذهِ الأيَّامِ في غفْلةٍ عنْ عدوِّهم الأوَّل، وَفَّقَني اللهُ تعالى لجمعِ هذا البحثِ تذكيرًا بعداوةِ الشَّيطانِ وحَثًّا على مجاهدتهِ، راجيًا مِنَ اللهِ تعالى أنْ ينفعَني بهِ أوَّلاً، وأنْ ينفعَ بهِ منْ يقرؤُهُ منَ المسلمينَ.

أسألُ اللهَ العظيمَ أنْ يتقبَّلَهُ بقبولِ حسنٍ، إنَّهُ سميعٌ مجيبٌ.

الراجي عفوَ رَبِّه

عبد الهادي بن حسن وهبي

التَّحْذِيرُ
مِنْ شُرُورِ الشَّيْطَانِ

إنَّ الله ﷻ بحكمتهِ سلَّطَ على العبدِ عَدُوًّا عالمًا بطرقِ هلاكهِ وأسبابِ الشَّرِّ الذي يُلقيهِ فيهِ؛ مُتَفَنِّنًا فيهَا، خبيرًا بهَا، حريصًا عليهَا، لا يفترُ يَقَظَةً ولا منامًا. ولهذا جاءَ ذِكْرُ هذا العدوِّ وشأنهِ وجنودهِ ومكايدهِ في القرآنِ كثيرًا جدًّا لحاجةِ النُّفوسِ إلى معرفةِ عدوِّها وطُرقِ محاربتهِ ومجاهدتهِ.

قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦].

«والأمرُ باتخَاذِهِ عَدُوًّا تنبيهٌ على استفراغِ الوسعِ في محاربتهِ ومجاهدتهِ، كأنَّهُ عدُوٌّ لا يفترُ ولا يقصِّرُ في محاربةِ العبدِ على عددِ الأنفاسِ»[1].

وقصّ الله تعالى علينا من عداوة الشيطان لأبينا آدم عليه السلام ما فيه العظةُ البالغةُ، فقد استطاع أن يُغرِيَهُ بالأكل من الشجرة، وأن يُخرجَهُ من الجنَّة بكذبه وخداعه، وأن يوقِعَهُ في مخالفة أمره وارتكاب نهيه؛ ثمَّ قال عقب ذلك: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ ۗ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [الأعراف: ٢٧].

وقال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [النور: ٢١].

أي: «لا تسلكوا الطُّرقَ التي يدعوكم إليها الشيطانُ»[2]، فإنَّه «يأمر

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٦).

(٢) شرح السنة للبغوي (١٤/ ٤٠٤).

بـ«الفحشاء» ـ وهي عظائمُ الذنوب؛ و«المنكر» ـ وهو ما دونها مِنَ المعاصي؛ فكلُّ معصيةٍ فهي منْ خطواتِ الشيطانِ؛ سواء كانتْ تلكَ المعصيةُ منْ فعلِ المحظورِ، أو منْ تركِ المأمورِ، فإنَّها من خطواتِ الشيطان»[1].

وعلى المؤمنِ أنْ يرفعَ قدمَهُ بسرعةٍ ويحوِّلَها إلى طريقِ النُّورِ، عندمَا يكتشفُ أنَّ الخطوةَ التي أمامَهُ هي خطوةٌ منْ خطواتِ الشَّيطانِ، ويبتعدُ عنْ كلِّ عملٍ منْ أعمالِ الشَّيطانِ؛ تمامًا كمَا قالَ عمرُ رضي الله عنه عندمَا قُرِئَتْ عليهِ الآيةُ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩١] فقال: «انتهينا انتهينا»[2].

وقال ﷻ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٦٨﴾ إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٦٨ ـ ١٦٩].

نهاهمُ اللهُ ﷻ عن اتِّباعِ خطواتِ الشَّيطانِ التي يأمرُ بهَا، وهيَ جميعُ المعاصي، وذكَّرَهمْ بأنَّ الشَّيطانَ لهم عدوٌّ مبينٌ، يأمرهم بالأفعال السيئة، وأغلظ منها الفحشاء من المعاصي، كالزنا، وشرب الخمر، والقتل، والقذف، والبخل، وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلا علم. فمنْ وصفَ اللهَ بغيرِ ما وصفَ به نفسَهُ، أو وصفهُ بهِ رسولُهُ ﷺ، أو نفى عنهُ ما أثبتهُ لنفسهِ، ـ كالذي ينفي علوَّ الله على العرش ـ فقدْ قالَ على الله بلا علمٍ. ومنْ قال: إنَّ الله تعالى أحلَّ كذا أو حرَّمَ كذا، أو أمرَ بكذا، أو نهى عن كذا، بغيرِ بصيرةٍ، فقدْ قالَ على اللهِ بلا علمٍ.

ومنْ أعظمِ القولِ على اللهِ بلا علمٍ، أنْ يَتأوَّلَ المُتَأوِّلُ كلامَ الله تعالى، أو يتأوَّلُ كلامَ النَّبيِّ ﷺ؛ كالذي يتأوَّلُ حديثَ النزولِ فيقولُ: إنَّ الله تعالى منزَّهٌ عن النزولِ وإنَّ الذي ينزلُ أمرُهُ أو رحمتُهُ أو ملكٌ من الملائكةِ.

فالقولُ على الله بلا علمٍ منْ أكبرِ المحرَّماتِ وأشملِها وأكبرِ طرقِ الشَّيطانِ التي يدعو إليهَا[3].

---

(١) تفسير سورة البقرة (٣/ ٧ ـ ٨)، للعلامة ابن عثيمين رحمه الله.
(٢) أخرجه الترمذي (٣٠٤٩)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢٤٤٢).
(٣) راجع تيسير الكريم الرحمن (ص٨١)، طبعة مؤسسة الرسالة.

ومن شرِّه: أنَّهُ يأمرُ بالبخلِ ويمنعُ مِنَ الإنفاقِ.

قال ﷻ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾﴾ [البقرة: ٢٦٨]. أي: يخوِّفكم الفقرَ والحاجةَ إذا أنفقتم، ويأمركم بالفحشاءِ، وهي البخلُ الذي هو منْ أقبحِ الفواحشِ.

عن جابرٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ سَيِّدُكُم يا بَنِي سَلِمَةَ؟» قلنا: جُدُّ بن قيس، على أنَّا نبخِّله، قال: «وأيُّ داءٍ أدوى من البُخْلِ؟»[1].

هذا وإنَّ وعدَهُ لهُ الفَقْرَ ليسَ شفقةً عليهِ، ولا نصيحةً لهُ، وإنَّما وَعْدُهُ لهُ بالفقرِ، وأَمْرُهُ إيَّاه بالبخلِ، لِيُسِيءَ ظنَّهُ بربِّهِ، ويتركَ ما يحبُّهُ مِنَ الإنفاقِ لوجههِ، فيستوجبُ مِنَ الحرمانِ. وأمَّا الله ﷻ فإنَّهُ يَعِدُ عبدَهُ مغفرةً منهُ لذنوبهِ، وفضْلًا بأنْ يُخْلِفَ عليهِ أكْثرَ ممَّا أنفقَ وأضعافَهُ، إمَّا في الدُّنيا أو في الدُّنيا والآخرةِ.

فهذا وعدُ اللهِ وذاكَ وعدُ الشَّيطانِ. فلينظر البخيلُ والمنفقُ أيَّ الوعدَيْنِ هو أوثقُ، وإلى أيِّهمَا يطمئنُّ قلبهُ وتسكنُ نفسهُ؟ والله يوفِّقُ منْ يشاءُ، ويخذلُ منْ يشاءُ، وهوَ الواسعُ العليمُ[2].

قال ﷻ: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩]. فالله الله عبادَ اللهِ، ثِقُوا بمولاكم جلَّ جلاله في الخَلَفِ، ولا تطيعوا الشَّيطانَ الذي يعدكُمُ الفقرَ والتَّلفَ.

ومن شرِّه: أنَّهُ يوسوسُ للعبدِ، والوسوسةُ أعظمُ صفاتِ الشَّيطانِ، وأشدُّها شرًّا، وأقواها تأثيرًا، وأعَمُّها فسادًا، وهي أصلُ كلِّ معصيةٍ وبلاءٍ.

عن ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قال: جاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبيِّ ﷺ فقَالَ: يَا رَسُولَ الله إِنَّ أَحَدَنَا يَجِدُ في نَفْسِهِ ـ يُعَرِّضُ بالشَّيْءِ ـ لأنْ يَكُونَ حُمَمَةً أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنْ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ. فقَال: «اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرُ، الْحَمْدُ لله الَّذِي رَدَّ كَيْدَهُ إِلى الْوَسْوَسَةِ»[3].

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٩٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٢٢٧).

(٢) طريق الهجرتين (ص٥٥٤) [طبعة دار ابن القيم، الطبعة الثانية].

(٣) أخرجه أبو داود (٥١١٢)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٤٢٦٤).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: جَاءَ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَسَأَلُوهُ: إِنَّا نَجِدُ فِي أَنْفُسِنَا مَا يَتَعَاظَمُ أَحَدُنَا أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ. قَالَ: «وَقَدْ وَجَدْتُمُوهُ؟» قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «ذَاكَ صَرِيحُ الإِيمَانِ»[1].

وحصولُ هذا الوسواسِ؛ مع هذهِ الكراهةِ العظيمةِ لهُ ودفعهِ عن القلبِ، هو منْ صريحِ الإيمانِ؛ كالمجاهدِ الذي جاءهُ العدوُّ، فدافعهُ حتَّى غلبهُ؛ فهذا أعظمُ الجهادِ و«الصَّريحُ» الخالصُ، كاللبنِ الصَّريحِ. وإنَّما صَارَ صريحًا لمَّا كَرِهوا تلكَ الوساوسَ الشَّيطانيةَ وَدَفَعُوهَا فخلصَ الإيمانُ فصارَ صريحًا، والحمدُ لله الذي كانَ غايةُ كيدِ الشَّيطانِ الوسوسةَ.

ومن شرِّه: أنَّه لصٌّ سارقٌ لأموالِ النَّاسِ، فكلُّ طعامٍ أو شرابٍ لمْ يُذْكَرِ اسمُ الله تعالى عليهِ، فلهُ فيهِ حظٌّ بالسَّرقةِ.

عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَسْتَحِلُّ الطَّعَامَ أَنْ لَا يُذْكَرَ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ»[2].

ومن شرِّه: الإفسادُ بينَ المؤمنينَ بكلِّ طريقةٍ وحيلةٍ.

عن جابرٍ ﷺ قال: سمعتُ النَّبيَّ ﷺ يقول: «إِنَّ الشَّيطانَ قدْ أَيِسَ أنْ يَعْبُدَهُ المُصَلُّونَ في جَزِيرَةِ العَرَبِ، ولكنْ في التَّحْرِيشِ بَيْنَهُمْ»[3].

وعنْ جابرٍ ﷺ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ إِبْلِيسَ يَضَعُ عَرْشَهُ عَلَى الْمَاءِ، ثُمَّ يَبْعَثُ سَرَايَاهُ، فَأَدْنَاهُمْ مِنْهُ مَنْزِلَةً أَعْظَمُهُم فِتْنَةً، يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا وَكَذَا، فَيَقُولُ: مَا صَنَعْتَ شَيْئًا. قَالَ: ثُمَّ يَجِيءُ أَحَدُهُمْ فَيَقُولُ: مَا تَرَكْتُهُ حَتَّى فَرَّقْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ امْرَأَتِهِ، قَالَ: فَيُدْنِيهِ مِنْهُ وَيَقُولُ: نِعْمَ أَنْتَ»[4].

وقوله (نِعْمَ أنت): موضوعةٌ للمدْحِ فيمْدحهُ لإعجابهِ بصنْعهِ وبلوغهِ الغايةَ التي أرادهَا[5].

---

(١) أخرجه مسلم (١٣٢).
(٢) أخرجه مسلم (٢٠١٧).
(٣) أخرجه مسلم (٢٨١٢).
(٤) أخرجه مسلم (٢٨١٣).
(٥) صحيح مسلم بشرح النووي (١٧/١٥٧).

ومن شرِّه: أنَّ العبدَ إذا خرجَ لما يبغضُ الله، دنَا منهُ عدوُّهُ، الذي شقاؤُهُ وفسادُهُ في قربهِ وموالاتهِ.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَا مِنْ خَارِجٍ يَخْرُجُ، يَعْنِي مِنْ بَيْتِهِ، إِلَّا بِبابِهِ رَايَتَانِ رَايَةٌ بِيَدِ مَلَكٍ ورَايَةٌ بِيَدِ شَيْطَانٍ، فَإِنْ خرجَ لِمَا يُحِبُّ اللهُ ﷻ اتَّبَعَهُ الْمَلَكُ بِرَايَتِهِ، فَلَمْ يَزَلْ تَحْتَ رَايَةِ المَلَكِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بَيْتِهِ، وَإِنْ خَرَجَ لِمَا يُسْخِطُ اللهَ اتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ بِرَايَتِهِ فَلَمْ يَزَلْ تَحْتَ رَايَةِ الشَّيْطَانِ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَى بَيْتِهِ»[1].

فاحرصْ يا أخي أنْ يكونَ خروجكَ حقًا ثابتًا باللهِ وفي مرضاتهِ؛ لطلبِ علمٍ، وصلةِ رحمٍ، وعيادةِ مريضٍ، وزيارةِ أخٍ لكَ في الله، وقضاءِ حاجةٍ لهُ، وشهودِ جنازةٍ، وحضورِ جماعةٍ.

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: بينا نحنُ مع رسولِ الله ﷺ إذْ طلعَ شابٌّ من الثنيةِ، فلمَّا رأيناهُ رميناهُ بأبصارنا، فقلنا: لو أنَّ هذا الشابَ جعلَ شبابهُ ونشاطهُ وقوَّتهُ في سبيلِ الله! فسمعَ رسولُ الله ﷺ مقالَتنا فقال: «وما سبيلُ الله إلَّا مَنْ قُتِلَ؟ مَنْ سعى على والدَيْهِ ففي سبيلِ الله، ومنْ سعى على عِيَالِهِ ففي سَبِيلِ الله، ومن سعى على نَفْسِهِ يُعِفُّها فهُوَ في سبيلِ الله، ومنْ سعى مُكَاثِرًا ففي سبيلِ الشَّيطانِ»[2].

ومن شرِّه: إصرارهُ العنيدُ على ملاحقةِ الإنسانِ في كلِّ حالةٍ، وعلى إتيانهِ منْ كلِّ صَوْبٍ وجهةٍ، وعلى اتِّباعهِ في كلِّ ساعةٍ.

عن أبي سعيدٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الشيطانَ قال: وعِزَّتِك يارَبِّ لا أَبْرَحُ أُغْوِي عِبادَكَ ما دَامَتْ أَرْوَاحُهُمْ في أَجْسَادِهِمْ. فقال الرَّبُّ: وَعِزَّتي وجَلَالِي لا أزالُ أغفرُ لهمْ ما اسْتَغْفَرُونِي»[3].

ومن شرِّه: أنَّ الجنينَ إذا انْفَصَلَ اسْتَقْبَلَهُ وطَعَنَهُ في خاصرتهِ تحرُّقًا عليهِ

---

(١) أخرجه أحمد في «المسند» (٢/ ٣٢٣) (٨٢٩٦) بسند صحيح.

(٢) أخرجه البزّار «كشف الأستار» (١٨٧١)، وأبو نعيم في «حلية الأولياء» (٦/ ١٩٦ ـ ١٩٧)، والحديث صحيح [راجع: «السلسلة الصحيحة» (٢٢٣٢)].

(٣) أخرجه الحاكم (٤/ ٢٦١)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (١٦٥٠).

وتغيُظًا، واسْتقْبَالاً بالعداوةِ التي كانتْ بين الأبوينِ قديمًا، وإنْذارًا منهُ لبدايةِ المعركةِ مع هذا المولود الجديد.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما من مولودٍ يُولَدُ إلَّا والشَّيطانُ يَمَسُّهُ حينَ يُولَدُ فيَسْتَهِلُّ صَارِخًا مِنْ مَسِّ الشَّيطانِ إيَّاه إلا مريم وابنها» واقرؤوا إن شئتم: ﴿وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾ [آل عمران: ٣٦][1].

ومن شرِّه: أنَّهُ يُرِي الإنسانَ مناماتٍ مخيفةً بقصدِ إيلامهِ وإحزانهِ ولا شيءَ أحبُّ إلى الشَّيطانِ منْ حزنِ المؤمنِ.

عنْ عوفِ بنِ مالكٍ ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الرُّؤْيَا ثَلَاثٌ: مِنْهَا أَهَاوِيلُ مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزُنَ بِهَا ابْنَ آدَمَ. وَمِنْهَا مَا يَهُمُّ بِهِ الرَّجُلُ فِي يَقَظَتِهِ، فَيَرَاهُ فِي مَنَامِهِ. وَمِنْهَا جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»[2].

وعنْ جابرٍ ﷺ قالَ: جاءَ رجلٌ إلى النَّبي ﷺ فقال: يا رسولَ الله رأيتُ في المنامِ كأنَّ رأسي قُطعَ، فضحكَ النَّبيُّ ﷺ وقال: «إذا لَعِبَ الشَّيطانُ بأَحدِكُمْ في مَنَامِهِ فلا يُحَدِّثْ بهِ النَّاسَ»[3].

ومن شرِّه: أنَّهُ حريصٌ على أن يُنْسِيَ العبدَ ما فيهِ خيرُهُ.

عنْ عبد الله بن عَمْرٍو ﷺ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «خَصْلَتَانِ أَوْ خَلَّتَانِ لَا يُحَافِظُ عَلَيْهِمَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ إِلَّا دَخَلَ الْجَنَّةَ، هُمَا يَسِيرٌ وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا قَلِيلٌ: يُسَبِّحُ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ عَشْرًا وَيَحْمَدُ عَشْرًا وَيُكَبِّرُ عَشْرًا، فَذَلِكَ خَمْسُونَ وَمِائَةٌ بِاللِّسَانِ وَأَلْفٌ وَخَمْسُمِائَةٍ فِي الْمِيزَانِ، وَيُكَبِّرُ أَرْبَعًا وَثَلَاثِينَ إِذَا أَخَذَ مَضْجَعَهُ، وَيَحْمَدُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَيُسَبِّحُ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ فَذَلِكَ مِائَةٌ بِاللِّسَانِ وَأَلْفٌ فِي الْمِيزَانِ» فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ الله ﷺ يَعْقِدُهَا بِيَدِهِ. قالُوا: يَا رَسُولَ الله كَيفَ هُمَا يَسِيرٌ وَمَنْ يَعْمَلُ بِهِمَا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٥٤٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٣٩٠٧)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣١٥٥).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٦٨).

قَليلٌ؟ قالَ: «يَأْتِي أحَدَكُمْ في مَنَامِهِ ـ يَعْنِي الشَّيْطَانُ ـ فَيُنَوِّمُهُ قَبْلَ أَنْ يَقُولَهُ، وَيَأْتِيهِ في صَلَاتِهِ فَيُذَكِّرُهُ حَاجَتَهُ قَبْلَ أَنْ يَقُولَهَا»[1].

ومن شرِّه: أنَّهُ يحضرُ الانسانَ، عندَ إرادتهِ فعلاً من الأفعالِ كائنًا ما كان؛ ليُفسِدَ النِّيةَ والقولَ والعملَ.

عنْ جابرٍ رضي الله عنه عنِ النَّبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الشَّيطانَ يحضُرُ أَحَدَكُم عندَ كلِّ شأنٍ منْ شأنهِ حتَّى يحضُرَهُ عندَ طعامهِ، فإذا سقطتْ منْ أحدكم اللقمةُ فليُمِطْ ما كانَ بها منْ أذىً ثمَّ لْيَأْكُلْها ولا يَدَعْها للشَّيطانِ فإذا فَرَغَ فَلْيَلْعَقْ أصابِعَهُ فإنَّهُ لا يدْري في أيِّ طعامهِ تكونُ البركةُ»[2].

ومن شرِّه: أنَّه قعدَ لابنِ آدمَ على طريقِ الحقِّ وسبيلِ النَّجاةِ الموصلِ للجنَّةِ كما يقعدُ القُطَّاعُ للسَّابلةِ.

قال الله تعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

فأيُّ سبيلٍ سلكَهَا الإنسانُ «وجدَ الشَّيطانَ عليها رصَدًا لهُ، فإنْ سلكهَا في طاعةٍ وجدَهُ عليها يثبِّطُهُ عنها ويقطعُهُ، أو يعوِّقُهُ ويُبَطِّئُهُ، وإنْ سلكها لمعصيةٍ وجدهُ عليها حاملاً لهُ وخادِمًا ومعينًا ومُمَنِّيًا»[3].

عن سَبْرَةَ بنِ أبي فاكهٍ رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول: «إنَّ الشَّيطانَ قَعَدَ لابنِ آدمَ بأطْرُقِهِ، فقعدَ لهُ بطريقِ الإسلامِ فقالَ: تُسْلِمُ وتذَرُ دِينَكَ، ودينَ آبائِكَ، وآباءِ أبيكَ؟ فعصاهُ فأسْلمَ. ثمَّ قعدَ لهُ بطريقِ الهجرةِ فقالَ: تهاجرُ وتدعُ أرْضَكَ وسماءَكَ؟ فعصاهُ فهاجرَ. ثمَّ قعدَ لهُ بطريقِ الجهادِ فقالَ: تجاهدُ فهوَ جهْدُ النَّفْسِ والمالِ، فتُقَاتِلُ فتُقْتَلُ، فتنكحُ المرأةُ ويُقْسَمُ المالُ؟ فعصاهُ فجاهدَ»[4].

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٦٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٤٢٣٣).
(٢) أخرجه مسلم (٢٠٣٣).
(٣) موارد الأمان (ص١٧٤ ـ ١٧٥).
(٤) أخرجه النسائي (٣١٣٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن النسائي» (٢٩٣٧).

فكمْ مِنْ عازمٍ على الجِدِّ سوَّفهُ، وكمْ منْ ساعٍ إلى فضيلةٍ ثبَّطهُ، ولا يزالُ يُحَبِّبُ الكَسَلَ، ويسَوِّفُ العملَ، ويُسْنِدُ الأمرَ إلى طولِ الأمل. وكلَّما كانَ الفعلُ أنفعَ للعبدِ، وأحبَّ إلى الله تعالى، كانَ اعتراضُ الشَّيطانِ لهُ أكثرَ.

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال النبيُّ ﷺ: «إذا نُودِيَ بالصَّلاة، أدْبَرَ الشيطانُ وله ضراطٌ، فإذا قضي أقْبَلَ، فإذا ثُوِّبَ بها أدبرَ، فإذا قُضِيَ أقْبَلَ، حتى يخْطِرَ بين الإنْسانِ وقلبه، فيقول: اذْكُرْ كذا، وكذا، حتى لا يدْري أثلاثًا صلى أمْ أربعًا، فإذا لمْ يَدْرِ ثلاثًا صلَّى أو أرْبَعًا، سجدَ سَجْدَتي السَّهْوِ»[1].

والعبدُ إذا قامَ في الصَّلاة؛ غارَ الشَّيطانُ منهُ، فإنَّهُ قامَ في أعْظمِ مقامٍ وأقربِهِ وأغيظِهِ للشَّيطانِ، وأشدِّهِ عليهِ، فهو يحرصُ ويجتهدُ كلَّ الاجْتهادِ أنْ يحولَ بينهُ وبينَ قلبهِ، فيذكِّرهُ في الصَّلاة ما لمْ يكنْ يذْكرُ قبْلَ دخولِهِ فيها، حتَّى ربَّما كانَ قدْ نسيَ الشَّيءَ والحاجةَ، وأيِسَ منها، فيذكِّرهُ إيَّاها في الصَّلاةِ؛ ليشْغَلَ قلبَهُ بها، ويأخذَهُ عَنِ الله ﷻ.

ولهذا سألتْ عائشةُ رضي الله عنها النَّبيَّ ﷺ عَنِ الالتفاتِ في الصَّلاة فقال: «هوَ اختلاسٌ يختلسهُ الشَّيطانُ منْ صلاةِ العبدِ»[2].

ومن شرِّه: أنَّ العبدَ إذا تثاءبَ ولمْ يَضَعْ يَدَهُ على فيهِ دخلَ الشَّيطانُ.

عن أبي سعيدٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إذا تَثَاءَبَ أَحَدُكم فَلْيُمْسِكْ بِيَدِهِ على فِيهِ فإنَّ الشَّيطانَ يَدْخُلُ»[3].

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: التَّثَاؤُبُ مِنَ الشَّيطانِ، فإذا تَثَاءَبَ أَحَدُكُمْ فَلْيَرُدّه ما اسْتَطَاعَ فإنَّ أَحَدَكُم إذا قالَ: ها ضَحِكَ الشَّيطَانُ»[4].

ومن شرِّه: أنَّ العبدَ إذا نامَ، عقدَ على رأسهِ عُقَدًا ليمنعَهُ من القيامِ إلى الخيراتِ؛ منْ قيامٍ وتلاوةٍ وذكرٍ واستغفارٍ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٠٨، ١٢٢٢، ١٢٣١، ٣٢٨٥)، ومسلم (٣٨٩).
(٢) أخرجه البخاري (٧٥١، ٣٢٩١).
(٣) أخرجه مسلم (٢٩٩٥).
(٤) أخرجه البخاري (٣٢٨٩، ٦٢٢٣، ٦٢٢٦).

عنْ أبي هريرةَ ﷺ قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «يَعْقِدُ الشَّيْطَانُ على قَافِيَةِ رَأْسِ أَحَدِكُمْ إذا هُوَ نَامَ ثَلَاثَ عُقَدٍ يَضْرِبُ على مَكَانِ كُلِّ عُقْدَةٍ: عَلَيْكَ لَيْلٌ طَوِيلٌ فَارْقُدْ. فَإِنِ اسْتَيْقَظَ فَذَكَرَ الله انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ تَوَضَّأَ انْحَلَّتْ عُقْدَةٌ، فَإِنْ صَلَّى انْحَلَّتَ عُقْدَةٌ، فَأَصْبَحَ نَشِيطًا طَيِّبَ النَّفْسِ، وإلَّا أَصْبَحَ خَبِيثَ النَّفْسِ كَسْلَانَ»[1].

وظاهرُ الحديثِ أنَّ منْ لمْ يجمعِ الأمورَ الثلاثةَ: وهي الذِّكرُ والوضوءُ والصَّلاةُ فهوَ داخلٌ فيمنْ يصبحُ خبيثَ النَّفسِ كسلانَ[2]، قد بال الشيطان في أذنيه.

عن ابنِ مسعودٍ ﷺ قال: ذُكِرَ عندَ النَّبيِّ ﷺ رجلٌ نامَ ليلةً حتى أصبحَ قالَ: «ذَاكَ رَجُلٌ بالَ الشَّيْطَانُ في أُذُنَيْهِ» أو قالَ: «أُذُنِهِ»[3].

ومن شرِّه: أنَّه يجري من ابنِ آدمَ مجرى الدمِ.

قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِن ابْنِ آدَمَ مَجْرَى الدَّمِ»[4].

وجَرْيُ الشَّيطانِ من الإنسانِ مجرى الدمِ على ظاهرِهِ، لا يفارقُ الإنسانَ، كما لا يفارقُهُ دمُهُ، فاشتركا في شدَّةِ الاتصالِ وعدمِ المفارقةِ.

ومن شرِّه: أنَّ العبد إذا غنَّى نفخ الشيطان في منخريه.

عن السائبِ بنِ يزيدِ ﷺ: أنَّ امرأةً جاءتْ إلى النبي ﷺ فقال: «يا عائشةُ أتعرفينَ هذه؟» قالت: لا يا نبيَّ الله. قال: «هذه قَيْنَةُ بني فلانٍ» فغنَّتْها، قال النبي ﷺ: «قدْ نفخَ الشيطانُ في منْخريهَا»[5].

ومن شرِّه: ما قالهُ النَّبيُّ ﷺ فيما يروي عن ربِّهِ ﷻ: «... إنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وإنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ، فاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وحَرَّمَتْ عليهم ما أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وأَمَرَتْهُمْ أنْ يُشْرِكُوا بي ما لَمْ أُنزِّلْ به سُلْطَانًا»[6].

---

(١) أخرجه البخاري (١١٤٢، ٣٢٦٩)، ومسلم (٧٧٦)
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (٦/٦٧).
(٣) أخرجه البخاري (١١٤٤، ٣٢٧٠)، ومسلم (٧٧٤).
(٤) أخرجه البخاري (٢٠٣٨)، ومسلم (٢١٧٥)
(٥) أخرجه أحمد (٣/٤٤٩) (١٥٧٦٢) بسند صحيح.
(٦) قطعة من حديث: أخرجه مسلم (٢٨٦٥).

وهذا الحديثُ العظيمُ القَدْرِ الجليلُ الشَّأنِ «يتضمنُ أصلَيْنِ عظيمَيْنِ مقصودَيْنِ لأنفُسِهِمَا: أحدُهُما: عبادَتُهُ وحدَهُ لا شريكَ لهُ. والثاني: أنَّه إنَّما يُعْبَدُ بما شَرَعَهُ وأَحَبَّهُ وأَمَرَ بهِ. وهذانِ الأصلانِ هما المقْصودُ الذي خُلِقَ لهُ الخلقُ، وضِدُّهما الشِّرْكُ والبِدَعُ، فالمشركُ يَعبدُ مَعَ الله غيرَهُ، وصاحبُ البِدْعةِ يتقرَّبُ إلى الله بما لمْ يَأْمُرْ بهِ ولم يُشَرِّعْه ولا أحبَّه»[1].

والبدعةُ ـ وهي إمَّا باعتقادٍ خلاف الحقِّ. وإمَّا بالتَّعَبُّدِ بما لم يَأْذَنْ به اللهُ ـ أحبُّ إلى إبْليسَ مِنَ المعصيةِ، لأنَّ المعصيةَ يُتابُ منها والبدعةَ لا يُتابُ منها. وإنَّما كانت البدعةُ أحبَّ إلى إبليسَ مِنَ المعصيةِ لأنَّ «المبتدعَ الذي يتَّخذُ دينًا لمْ يُشَرِّعْهُ اللهُ ولا رسولُهُ قد زُيِّنَ له سوءُ عملِهِ فرآهُ حسنًا فهوَ لا يتوبُ ما دامَ يراهُ حسنًا»[2].

ومن شرِّه: أنَّه يجعلُ العبدَ يتهاونُ في صغائرِ الذنوبِ.

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الشَّيطَانَ قَدْ أَيِسَ أن يُعْبَدَ بِأَرْضِكُم هَذِهِ، ولَكِنْ قَدْ رَضِيَ مِنْكُم بِمَا تُحَقِّرُونَ»[3].

وعنْ عائشةَ رضي الله عنها قالتْ: قال لي رسولُ الله ﷺ: «يا عائشةُ! إيَّاكِ ومُحَقِّراتِ الأَعْمَالِ، فإنَّ لها مِنَ اللهِ طَالِبًا»[4].

وعنْ سهلِ بنِ سعدٍ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إيَّاكُمْ وَمُحَقِّرَاتِ الذُّنُوبِ، كقومٍ نَزَلُوا في بَطْنِ وادٍ، فَجَاءَ ذا بِعُودٍ، وجَاءَ ذَا بِعُودٍ، حَتَّى أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُم، وإنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُها تُهْلِكُهُ»[5].

ومعنَى الحديثِ: أنَّ كلَّ واحدٍ منهم جاءَ بعودِ حطبٍ حتَّى أوقدوا نارًا عظيمةً فطبَخُوا واشْتَوَوا، وكَذلِكَ فإنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ تَجْتَمِعُ عَلَى العَبْدِ وَهُوَ يَسْتَهِينُ بِشَأنها حَتَّى تُهْلِكَهُ.

---

(١) شفاء العليل (٢/ ٨٢٤).
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٩).
(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٨) (٨٧٩٦) بسند صحيح على شرط الشيخين.
(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٣)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٢١).
(٥) أخرجه أحمد (٢٢٩١٦) بسند صحيح على شرط الشيخين.

وَوَاحِدَةٌ مِن عِيدَانِ الحَطَبِ لا تَخبِزُ خُبزًا، وَلا تُنضِجُ طَبخًا، وَلَكِن إِذَا اجتَمَعَتِ العِيدَانُ إِلَى بَعضِهَا وَأُوقِدَت: أَشعَلَت نَارًا عَظِيمَةً. وَالتَّهَاوُنُ فِي صَغَائِرِ الذُّنُوبِ بِمَنزِلَةِ الشَّرَارَةِ مِنَ النَّارِ تُرمَى فِي الحَشِيشِ اليَابِسِ، فَأَحدَثَت حَرِيقًا هَائِلًا، كَمَا قِيلَ:

ومُعظَمُ النَّارِ مِن مُستَصغَرِ الشَّرَرِ

فَتَكُونُ نَظرَةً، ثُمَّ خَطرَةً، ثُمَّ خَطوَةً، ثُمَّ خَطِيئَةً.

قَالَ أَبُو عَبد الرَّحمَنِ الحُبُلِيُّ: مَثَلُ الَّذِي يَجتَنِبُ الكَبَائِرَ وَيَقَعُ فِي المُحَقَّرَات، كَرَجُلٍ لَقِيَهُ سَبُعٌ فَاتَّقَاهُ حَتَّى نَجَا مِنهُ، ثُمَّ لَقِيَه فَحلُ إِبِلٍ فَاتَّقَاهُ فَنَجَا مِنهُ، فَلَدَغَتهُ نَملَةٌ فَأَوجَعَتهُ، ثُمَّ أُخرَى، ثُمَّ أُخرَى حَتَّى اجتَمَعنَ عَلَيهِ فَصَرَعنَهُ، وَكَذَلِكَ الَّذِي يَجتَنِبُ الكَبَائِرَ وَيَقَعُ فِي المُحَقَّرَات[1].

وَقَالَ ابنُ المُعتَزِّ:

خَلِّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا ... وكَبِيرَهَا ذَاكَ التُّقَى

واصنَع كَمَاشٍ فَوقَ أَر ... ضِ الشَّوكِ يَحذَرُ مَا يَرَى

لا تَحقِرَنَّ صَغِيرَةً ... إِنَّ الجِبَالَ مِنَ الحَصَى

فَوَاحِدَةٌ مِنَ الحَصَى لا تُشَكِّلُ تَلًّا، وَلا جَبَلًا، وَلَكِن إِذَا كَثُرَت صَارَت تَلًّا، وَإِذَا تَرَاكَمَت شَكَّلَت جَبَلًا. وَهَكَذَا العَبدُ يَتَسَاهَلُ فِي صَغَائِرِ الذُّنُوب، حَتَّى تَغمِرَهُ ذُنُوبُهُ وَتُحِيطَ بِهِ خَطِيئَتُهُ، فَيَستَحكِمُ الهَلاكُ. «ومنْ تأمَّلَ هذا الموضعَ وتفقَّهَ فيهِ علمَ شدَّةَ الحاجةِ إليهِ وعظمَ الانتفاعِ به»[2].

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/ ٢٠٣).

(٢) التبيان في أقسام القرآن (ص٣٠١).

الحِصنُ الحَصِينُ
مِنَ
الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ

الحِصنُ الأوّلُ: الإخلَاصُ

لمَّا علمَ إبْليسُ أنَّهُ لا سبيلَ لهُ على أهلِ الإخلاصِ، استثناهم منْ شِرْطتِهِ التي اشترطها للغِوايَةِ والإهلاكِ، فقال: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص: ٨٢ ـ ٨٣].

فالإخلاصُ هو سبيلُ الخلاصِ مِنَ الشَّيطانِ. وأهلُ الإخلاصِ أعمالُهم كُلُّها لله، وأقوالُهم لله، وعطاؤُهم لله، ومنعُهُم لله، وحُبُّهم لله، وبُغْضُهم لله.

عنْ أبي أمامةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وأَبْغَضَ لِلَّهِ، وأَعْطَى لِلَّهِ، ومَنَعَ لِلَّهِ، فَقَدِ اسْتَكْمَلَ الإيمَانَ»[1].

قال العَلّامة السَّعديُّ:

عَزَفُوا القلوبَ عَنِ الشَّواغلِ كلِّها ... قدْ فرَّغوها مِنْ سوى الرحمنِ

حركاتُهمْ وهُمومُهم وعُزومُهم ... للهِ لا للخَلْقِ والشَّيْطَانِ[2]

فأهل الاخلاص معاملتهم ظاهرًا وباطنًا لوجهِ الله وحدَهُ، لا يُريدونَ بذلكَ مِنَ النَّاسِ جزاءً ولا شكورًا، ولا ابتغاءَ الجاهِ عندهمْ، ولا طلبَ المحمَدَةِ والمنزلةِ في

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٨١)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٣٩١٥).
(٢) الدُّرة الفاخرة (ص٢٩).

قلوبهم، ولا هربًا من ذمِّهم، بل قد عَدُّوا النَّاسَ بمنزلةِ أصحابِ القبورِ، لا يملكونَ لهم ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

واعلم بأنَّ «أصعبَ شيءٍ على النَّفسِ تخليصُ الأعمالِ ـ مِنَ الشَّيطانِ ـ لله»[1]. وهذا الأمرُ لا يُوَفَّقُ إليهِ «إلَّا مَنْ أَمَدَّهُ اللهُ بأمدادِ التَّوفيق، وأَيَّدَهُ برحمتهِ، وتولَّى حفظَهُ وحمايتَهُ، وفتحَ بصيرةَ قلبهِ»[2].

الحِضنُ الثَّانِي: قِرَاءَةُ القُرآنِ

عن أبي قتادةَ ﷺ أنَّ النبيَّ ﷺ خَرج ليلةً فإذا هُو بأبي بكر ﷺ يصلِّي، يَخْفِضُ صوتَهُ، ومرَّ بعمر بن الخطاب، وهو يصلِّي رافعًا صوتَهُ، فلمَّا اجتمعا عندَ النبيِّ ﷺ، قالَ النبيُّ ﷺ: «يا أبا بكرٍ، مَرَرْتُ بِكَ وأَنْتَ تُصَلِّي، تَخْفِضُ صَوْتَكَ» قال: أَسْمَعْتُ مَنْ ناجيتُ يا رسولَ الله. وقال لِعُمَرَ: «مَرَرْتُ بِكَ وأنتَ تصلِّي رافعًا صوتَكَ» فقال: يا رسولَ الله! أُوقِظُ الوَسْنَانَ وأطْرُدُ الشَّيطانَ. فقال النبيُّ ﷺ: «يا أبا بكرٍ، ارْفَعْ مِنْ صَوْتِكَ شيئًا» وقال لِعُمَرَ: «اخْفِضْ مِنْ صَوتِكَ شَيْئًا»[3].

الحِضنُ الثَّالثُ: آيَةُ الكُرسِيِّ

ثبت في «صحيح البخاري» أنَّ من قرأ آية الكرسي إذا أوى إلى فراشه، لن يزال عليه من الله حافظ، ولا يقربنَّهُ شيطان حتى يصبح[4].

وثبت في «عمل اليوم والليلة» للنسائي أنَّ من قرأ آية الكرسي حين يصبح أُجِيرَ من الجنِّ إلى أن يمسي، ومن قرأها حين يمسي أُجير من الجنِّ إلى أن يصبح[5].

---

(١) الروح (ص٣٠٦)، بتصرف يسير.
(٢) الروح (ص٣٢١).
(٣) أخرجه أبو داود (١٣٢٩)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (١١٨٠).
(٤) انظر: البخاري (٢٣١١ و٣٢٧٥ و٥٠١٠).
(٥) عمل اليوم والليلة (١٠٧٩٧).

الحِصْنُ الرَّابِعُ:
آخِرُ آيَتَينِ مِنْ سُورَةِ البَقَرَةِ

عن النُّعْمَانِ بنِ بَشيرٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الله كتبَ كتابًا قبلَ أن يخلُقَ السَّمواتِ والأرضَ بألفَيْ عام، أَنزلَ منهُ آيَتَيْنِ خَتمَ بهمَا سورةَ البقرةِ ولا يُقْرآنِ في دارٍ ثلاثَ ليالٍ فيقربُها شيطانٌ»[1].

الحِصْنُ الخَامِسُ: المُعَوِّذَتَانِ

فإنَّ لهما تأثيرًا عجيبًا في الاستعاذة بالله تعالى منْ شرِّ الشَّيطانِ ودفعهِ والتحصُّن منه، وإنَّ حاجةَ العبدِ إلى الاستعاذةِ بهاتينِ السُّورتينِ أعظمُ مِنْ حاجتهِ إلى النَّفسِ والطَّعامِ والشَّرابِ.

عن أبي سعيدٍ رضي الله عنه قال: «كانَ رسولُ الله ﷺ يتعوَّذُ مِنَ الجانِّ، وعينِ الإنسانِ، حتىَّ نَزَلَتِ المعوِّذتان: فلمَّا نَزَلَتا، أَخَذَ بهما وَتَركَ ما سِوَاهُما»[2].

وعن عقبة بن عامرٍ رضي الله عنه قَالَ: بَيْنَا أَنَا أَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بَيْنَ الْجُحْفَةِ وَالأَبْوَاءِ، إِذْ غَشِيَتْنَا رِيحٌ وَظُلْمَةٌ شَدِيدَةٌ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَتَعَوَّذُ بِأَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ وَأَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ وَيَقُولُ: «يا عُقْبَةُ تَعَوَّذْ بِهِمَا، فَمَا تَعَوَّذَ مُتَعَوِّذٌ بِمِثْلِهِمَا»[3].

وتشرعُ قراءةُ المعوِّذتين في المواضعِ التالية:

أولاً: عند الصباح والمساء:

عنْ عبدِ اللهِ بنِ خبيبٍ رضي الله عنه قال: خرجنَا في ليلةٍ ممطرةٍ وظلمةٍ شديدةٍ نطلبُ رسولَ الله ﷺ يصلِّي لنا قال: فأدركْتهُ قال: «قُلْ» فلمْ أقلْ شيئًا. ثمَّ قال: «قُلْ» فلمْ أقلْ شيئًا. قال: «قُلْ» فقلتُ: ما أقولُ؟ قال: «قُلْ: قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٨٢)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢٣١١).
(٢) أخرجه النسائي (٥٤٩٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن النسائي» (٥٠٦٩).
(٣) أخرجه أبو داود (١٤٦٣)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٧٩٤٩).

والمُعَوِّذتَيْن حِينَ تُمْسِي وتُصبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيءٍ»[1].

ثانيًا: عند النوم:

عنْ عائشةَ رضي الله عنها قالتْ: «كانَ رسولُ الله ﷺ إذا أَوَى إلَى فِراشِهِ كلَّ ليلةٍ جمعَ كَفَّيْهِ ثمَّ نفثَ فيهما فقرأَ فيهما: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ ۝١﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١﴾ ثمَّ يمسحُ بهما ما استطاع من جَسَدِه، يَبدَأ بهما على رأسِهِ ووجهه وما أَقبَلَ منْ جسدَهِ، يفعلُ ذلكَ ثلاثَ مرَّات»[2].

ثالثًا: في دُبُرِ كلِّ صلاةٍ:

عنْ عقبةَ بنِ عامرٍ رضي الله عنه قَالَ: «أَمَرَنِي رَسُولُ الله ﷺ أَنْ أَقْرَأَ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ»[3].

رابعًا: عند المَرَضِ:

عنْ عائشةَ رضي الله عنها قالتْ: «كانَ رسولُ الله ﷺ إذا مَرِضَ أحدٌ منْ أهْلِهِ، نفثَ عليهِ بالمعوِّذاتِ، فلمَّا مَرِضَ مرضَهُ الذي مات فيهِ، جعلتُ أنْفُثُ عليهِ، وأمْسَحُهُ بِيَدِ نفْسِهِ لأنَّها كانتْ أعظمَ بركةً منْ يدي»[4].

الحِصْنُ السَّادِسُ: التَّهْلِيلُ مَائَةَ مَرَّةٍ

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ قالَ: لا إلهَ إلَّا الله، وحدَهُ لا شريكَ لهُ، لهُ الملكُ وله الحمدُ، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، في يوم مَائَةَ مَرَّةٍ، كانَتْ له عَدْلَ عَشْرِ رقابٍ، وكُتِبَتْ له مَائَةُ حَسَنَةٍ، ومُحِيَتْ عنه مَائَةُ سَيِّئَةٍ، وكَانَتْ له حِرْزًا من الشيطانِ يومَهُ ذلكَ حتى يمسي...»[5].

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٨٢)، وحسّنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٤٢٤١).
(٢) أخرجه البخاري (٥٠١٦، ٥٧٤٨، ٦٣١٩).
(٣) أخرجه الترمذي (٢٩٠٣)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢٣٢٤).
(٤) أخرجه مسلم (٢١٩٢).
(٥) أخرجه البخاري (٣٢٩٣، ٦٤٠٣)، ومسلم (٢٦٩١).

الحِصْنُ السَّابِعُ: كَثْرَةُ ذِكْرِ اللهِ تَعَالى

عَنِ الحارثِ الأشعريِّ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الله أمرَ يحيى بن زكريا بخمس كلماتٍ أن يعملَ بها، ويأمرَ بني إسرائيل أن يعمَلُوا بها. [ومنها قوله:] وآمُرُكُم أنْ تَذْكُرُوا اللهَ فإنَّ مَثَلَ ذلكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ خرجَ العدوُّ في أَثَرِهِ سِرَاعًا، حتى إذا أتى على حصنٍ حصينٍ؛ فأَحْرَزَ نفسَهُ منهم، كذلكَ العبدُ لا يُحْرِزُ نَفْسَهُ مِنَ الشَّيطانِ إلَّا بذكرِ اللهِ»[1].

الحِصْنُ الثَّامنُ: سُجُودُ التِّلَاوَةِ

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إذا قَرأ ابنُ آدم السَّجدةَ، فسجدَ، اعْتَزَلَ الشيطانُ يبكي، يقولُ: يا ويلي، أُمِرَ ابنُ آدم بالسُّجودِ، فسَجَدَ، فلهُ الجنَّةُ، وأُمِرْتُ بالسُّجودِ، فعصَيْتُ فلي النَّارُ»[2].

الحِصْنُ التَّاسعُ: التَّسْمِيَةُ

منْ أرادَ أنْ يتحصَّنَ بالله مِنَ الشَّيطانِ فعليهِ إذا قامَ بأيِّ عملٍ أنْ يبدأَه بالتسمية «بِسْمِ اللهِ»، منْ أجلِ ذلك أُمرنَا بالتَّسميةِ في أمورٍ كثيرةٍ لقهرِ الشَّيطانِ أذكرُ منها:

الموضعُ الأولُ: إذا عَثَرتِ الدَّابَّةُ:

عن أبي المَليح، عن رجل قال: كنت رديفَ النبيِّ ﷺ، فعثرت دابته، فقلتُ: تَعِسَ الشَّيطانُ، فقالَ: «لا تَقُلْ: تَعِسَ الشَّيطانُ، فإنَّكَ إذا قلتَ ذلكَ تعاظَم حتّى يصيرَ مثلَ البيتِ، ويقول: بقوَّتي، ولكن قلْ: بسم الله، فإنَّكَ إذا قلت ذلك، تصاغر، حتى يكونَ مثلَ الذبابِ»[3].

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٨٦٣)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢٢٩٨).
(٢) أخرجه مسلم (٨١).
(٣) أخرجه أبو داود (٤٩٨٢)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٤١٦٨).

الموضعُ الثاني: عندَ الخروجِ من البَيْتِ:

عنْ أنسِ ابنِ مالكٍ رضي الله عنه قال: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إذا خرجَ الرَّجلُ من بيته فقالَ: بسم الله، توكَّلْتُ على الله، لا حولَ ولا قوَّةَ إلَّا بالله، يقالُ حينئذٍ: هُدِيْتَ، وكُفِيْتَ، ووُقِيتَ، فتتَنَحَّى لهُ الشَّياطينُ، فيقولُ شيطانٌ لآخَرَ: كيفَ لَكَ برجلٍ قدْ هُدِيَ، وكُفِيَ، ووُقِيَ؟»[1].

الموضعُ الثالثُ: عند الجِمَاع:

عَنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «أمَا إنَّ أحدَكُم إذا أتى أهلَهُ، وقالَ: بسم الله، اللهمَّ جنِّبنا الشَّيطانَ، وجنِّبِ الشَّيطانَ ما رَزَقْتَنا، فرُزِقَا ولدًا لم يضرَّهُ الشَّيطانُ»[2].

الموضعُ الرابعُ: عندَ الدُّخولِ إلى الخَلَاءِ:

عنْ عليٍّ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «سَتْرُ ما بينَ أَعْيُنِ الجِنِّ وعَوْرَاتِ بَني آدَمَ إذا دخلَ أحدُهُم الخَلَاءَ أنْ يقولَ: بسم الله»[3].

الموضعُ الخامسُ: على الطعام:

عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه أنه سمع النَّبِيَّ ﷺ يقول: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ، فَذَكَرَ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ. وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ دُخُولِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ. وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللهَ عِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ»[4].

الحِصْنُ العَاشِرُ: التَّسليمُ لِلْقَدَرِ

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «المؤمنُ القويُّ خيرٌ وأحبُّ إلى الله مِنَ المؤمنِ الضعيفِ، وفي كلٍّ خيرٌ، احْرِصْ على ما يَنْفَعُكَ واسْتَعِنْ باللهِ

---

(١) أخرجه أبو داود (٥٠٩٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٤٢٤٩).
(٢) أخرجه البخاري (١٤١، ٣٢٧١، ٣٢٨٣، ٥١٦٥)، ومسلم (١٤٣١).
(٣) أخرجه الترمذي (٦٠٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٤٩٦).
(٤) أخرجه مسلم (٢٠١٨).

ولا تَعْجَزْ، وإنْ أصابكَ شيءٌ فلا تَقُلْ: لو أنِّي فعلتُ كان كذا وكذا، ولكنْ قلْ: قَدَّرَ الله وما شاءَ فعلَ، فإنَّ لو تفتحُ عملَ الشَّيطانِ»[1].

الحِضْن الحَادِي عَشَرَ: قِيَامُ اللَّيْلِ

عن أبي هريرةَ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يَعْقِدُ الشيطانُ على قافيةِ رأسِ أحدكُمْ إذا هو نامَ ثلاثَ عُقَدٍ يَضْربُ على مكانِ كلِّ عُقْدَةٍ: عليك ليلٌ طَويلٌ فارْقُدْ. فإن استيقظَ فذَكَرَ الله انحلَّتْ عقدةٌ، فإنْ توضَّأَ انحلَّتْ عُقْدةٌ، فإن صلَّى انحلَّتْ عقْدةٌ، فأصبَحَ نشيطًا طيِّبَ النَّفْسِ، وإلَّا أصبحَ خبيثَ النَّفسِ كَسْلَانَ»[2].

الحِضْنُ الثَّانِي عَشَرَ: الاسْتِعَاذَةُ

وتشرع الاستعاذة عند أمور كثيرة:

أولاً: عند تلاوةِ القُرآنِ:

قال الله ﷻ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾﴾ [النحل: ٩٨].

ثانيًا: عند دخول المسجد:

عن عبد الله بن عَمْرٍو ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ كانَ إذا دخلَ المسْجدَ قال: «أعوذُ بالله العظيمِ، وبوَجْهِه الكريمِ، وسُلطانِهِ القديمِ، مِنَ الشَّيطانِ الرجيمِ» قال: «فإذا قلتَ ذلكَ، قال الشيطانُ: حُفِظَ منِّي سائرَ اليومِ»[3].

ثالثًا: عند الدخول إلى الخلاء:

عن زيدِ بنِ أَرْقَمَ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ هذه الحشوشَ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٦٤).
(٢) أخرجه البخاري (١١٤٢، ٣٢٦٩) ومسلم (٧٧٦).
(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٦)، وصححه الألباني ﷺ في «صحيح سنن أبي داود» (٤٤١).

مُحْتَضَرةٌ - يعني تحضرها الشياطين - فإذا أتى أحدُكم الخلاءَ فليقُلْ: أعوذُ بالله من الخُبُثِ والخَبَائِثِ»[1].

رابعًا: عند الغضب:

عن سليمانَ بنِ صُرَدٍ ﷺ قال: كنتُ جالسًا مع النبيِّ ﷺ، ورجلان يستبَّان، فأحدُهما احمرَّ وجهُه وانتفخَتْ أوداجُهُ، فقال النبيُّ ﷺ: «إني لأعلَمُ كلمةً لو قالها ذهبَ عنهُ ما يجد، لو قال: أعوذُ بالله من الشَّيطانِ، ذهبَ عنهُ ما يجد»[2].

خامسًا: بعد تكبيرة الإحرام وقبل القراءة:

عن أبي سعيدٍ ﷺ قال: كان النبيُّ ﷺ إذا قام من الليل كبَّر ثمَّ يقول: «سبحانكَ اللهمَّ وبحمدِكَ، وتبارك اسمُكَ، وتعالى جَدُّكَ، ولا إلهَ غيرُكَ» ثم يقول: «لا إلهَ إلا اللهُ ثلاثًا» ثم يقول: «اللهُ أكبرُ كبيرًا ثلاثًا» ثم يقول: «أعوذُ بالله السَّميعِ العليمِ مِنَ الشَّيطانِ الرَّجيمِ، من هَمْزِهِ ونَفْخِهِ ونَفْثِهِ»[3].

سادسًا: عند الإحساس بنَزَغَات الشيطان:

قال ﷻ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠]، وقال ﷻ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾﴾ [فصلت: ٣٦]، وقال تعالى للنبي ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَٰتِ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون: ٩٧ - ٩٨].

فأمرَ الله ﷻ نبيَّهُ بالاستعاذة بربوبيته التامَّة الكاملة من هذا الخلق العظيم شأنه في الفساد، لأنَّه أصل كلِّ شرٍّ وقاعدته ومنبعه[4].

---

(١) أخرجه أبو داود (٦)، وابن ماجه (٢٩٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٢٢٦٣).
(٢) أخرجه البخاري (٣٢٨٢)، ومسلم (٢٦١٠).
(٣) أخرجه أبو داود (٧٧٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٧٠١).
(٤) انظر: الروح (ص٣١١)

وإذا كان خيرُ العالمينَ وأعْقلُهمْ وأفضلُهمْ عندَ الله تعالى يحتاجُ مَعَ ذلكَ إلى أنْ يسْتعيذَ باللهِ منْ شرِّ الشيطانِ؛ فكيفَ بكَ معْ جهْلِكَ وغفْلَتِكَ ونقْصِكَ؟!.

سابعًا: الاستعاذةُ من تَخَبُّط الشيطان عند الموت:

منْ دعاء النَّبي ﷺ: «وأعوذُ بكَ أنْ يتخبَّطنيَ الشَّيطانُ عندَ الموتِ»(١).

ثامنًا: عند سماع نباح الكلاب ونهيق الحمير:

عن جابرٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا سمِعْتُم نِباحَ الكلابِ، ونَهيقَ الحميرِ بالليلِ فتعوَّذُوا بالله من الشَّيطانِ، فإنهنَّ يَرَيْنَ ما لا تَرَونَ...»(٢).

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «... إذا سمعتم نهيقَ الحَميرِ فتعوَّذُوا بالله من الشَّيطانِ فإنَّها رَأَتْ شيطانًا»(٣).

تاسعًا: عند الفزع في النوم:

عن ابن عَمْرٍو رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا فَزِعَ أحَدُكُمْ في النَّوْمِ فَلْيَقُلْ: أعُوذُ بكَلِمَات الله التَّامَّة، مِنْ غَضَبِهِ، وَعِقَابِهِ، وشَرِّ عِبَادِهِ، ومِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطينِ وأَنْ يَحْضُرُون، فإنَّها لَنْ تَضُرَّه»(٤).

عاشرًا: عند رؤية الإنسان في المنام ما يكره:

عن أبي قتادةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الرؤيا الحسنةُ مِنَ الله، فإذا رأى أحدُكم ما يحبُّ فلا يُحَدِّثْ بهِ إلا منْ يحبُّ، وإذا رأى ما يكرهُ، فليتعوَّذْ بالله من شرِّها، ومنْ شرِّ الشَّيطانِ، ولْيَتْفُلْ ثلاثًا ولا يُحَدِّثْ بها أحدًا، فإنَّها لا تضرُّهُ»(٥).

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٥٢)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (١٢٨٢).
(٢) أخرجه أبو داود (٥١٠٣)، والبخاري في «الأدب المفرد» (١٢٣٣)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٦٢٠).
(٣) قطعة من حديث: أخرجه البخاري (٣٣٠٣)، ومسلم (٢٧٢٩).
(٤) أخرجه الترمذي (٣٥٢٢)، وحسّنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٩٣).
(٥) أخرجه البخاري (٧٠٤٤)، ومسلم (٢٢٦١).

الحادي عَشَرَ: عند العين والحسد:

عن ابنِ عبَّاسٍ ﷺ قال: كان النبيُّ ﷺ يُعوِّذُ الحسنَ والحسينَ ويقول: «أُعِيذُكُمَا بكلماتِ الله التامَّة، من كلِّ شيطانٍ وهامَّة، ومنْ كلِّ عينٍ لامَّة» ثمَّ يقول: «كان أبوكم يُعوِّذُ بها إسماعيلَ وإسحاق»[1].

الثاني عَشَرَ: عند الصباح والمساء:

عن أبي بكر ﷺ أنَّهُ سألَ النَّبيَّ ﷺ: يا رسول الله! علمني ما أقول إذا أصبحتُ وإذا أمسيتُ، فقال: «يا أبا بكر! قل: اللَّهمَّ فاطرَ السموات والأرض، عَالِمَ الغَيْبِ والشَّهادَةِ، رَبَّ كُلِّ شَيءٍ ومَليكَهُ، أعوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسي، وَمِنْ شَرِّ الشَّيْطانِ وشِرْكِهِ، وأنْ أقْترفَ على نفسي سوءًا، أو أجُرَّهُ إلى مسلم»[2].

الحِصْنُ الثَّالِثُ عَشَرَ: كَظْمُ الغَيْظِ

عن أنسٍ ﷺ: أنَّ النبي ﷺ مرَّ على قومٍ يصطرعونَ فقالَ: «ما هذا؟» قالوا: يا رسولَ الله هذا فلانٌ الصَّرِيعُ، ما يُصارعُ أحدًا إلَّا صرعَهُ. فقال رسولُ الله ﷺ: «ألا أَدُلُّكم على منْ هوَ أشدُّ منهُ؟ رجلٌ كلَّمهُ رجلٌ فكظمَ غيظَهُ، فغلبهُ وغَلَبَ شيطانَهُ، وَغَلَبَ شيطانَ صاحبِهِ»[3].

الحِصْنُ الرَّابِعُ عَشَرَ: تَسوِيَةُ الصُّفُوفِ

١ ـ عن ابنِ عُمَرَ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «أقِيمُوا الصُّفوفَ وحَاذُوا بينَ المَناكِبِ، وسُدُّوا الخَلَلَ، وَلِينُوا بأَيْدِي إخوانِكُم ولا تَذَرُوا فُرُجَاتٍ للشيطانِ، وَمَنْ وَصَلَ صَفًّا وَصَلَهُ الله، ومن قَطَعَ صفًّا قطَعَهُ اللهُ»[4].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٧١)، وأبو داود (٤٧٣٧) واللفظ له.

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١٢٠٤)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٩١٤).

(٣) أخرجه البزار (٢٠٥٤)، وحسنه الحافظ في «الفتح» (١٠/٥١٩).

(٤) أخرجه أبو داود (٦٦٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٦٢٠).

٢ ـ عن أنسٍ ﷺ : عن النبيِّ ﷺ قال: «أقيمُوا صفوفَكُم...» وكان أحدُنا يُلْزِقُ مَنْكِبَهُ بِمَنْكِبِ صاحبِهِ وقدمَهُ بقدمِهِ[١].

ترجمَ البخاري لهذا الحديث بقوله: باب إلزاقِ المنكِبِ بالمنكِبِ، والقدمِ بالقدمِ في الصفِّ.

٣ ـ عن النُّعمانِ بنِ بشيرٍ ﷺ قال: أقبل رسول الله ﷺ على الناس بوجهه، فقال: «أقيمُوا صفوفَكُم؛ ثلاثًا، والله لَتُقِيمُنَّ صفوفكم أو لَيُخالفنَّ الله بين قلوبِكُم»، قال: فرأيتُ الرَّجُلَ يَلْصُقُ مَنْكِبَهُ بِمَنْكِبِ صاحبه، ورُكْبَتَهُ برُكْبَةِ صاحبه، وكَعْبَهُ بكَعْبِهِ[٢].

٤ ـ عن أنسٍ ابنِ مالكٍ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «رصُّوا صفوفَكُم، وقارِبُوا بينها، وحاذُوا بالأَعْنَاقِ، فوالذي نفسي بيده، إني لأرى الشيطانَ يدخلُ من خَلَلِ الصَّفِّ، كأنَّها الحَذَفُ»[٣].

الحَذَفُ: غنم صغار سود.

الحِضْنُ الخَامِسُ عَشَرَ: سُجُودُ السَّهْوِ

عن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا شكَّ أحدُكم في صلاتِهِ، فلم يَدْرِ كم صلَّى ثلاثًا أم أربعًا؟ فلْيَطْرَحِ الشكَّ، ولْيَبْنِ على ما استيقَنَ، ثم يسجدُ قبلَ أن يسلِّمَ، فإنْ كانَ صلَّى خمسًا شَفَعْنَ له صلاتَهُ، وإنْ كانَ صَلَّى إتمامًا لأربعٍ كانتا ترغيمًا للشيطان»[٤].

الحِضْنُ السَّادِسُ عَشَرَ: لُزُومُ الجَمَاعَةِ

عن عَرْفَجَةَ بنِ شُرَيْحٍ الأشجعيِّ ﷺ قال: رأيتُ النبيَّ ﷺ على المنبر

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٥).
(٢) أخرجه أبو داود (٦٦٢)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٦١٦).
(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٤١٧) (١٥٢١)، وصححه ووافقه الذهبي.
(٤) أخرجه مسلم (٥٧١).

يخطب الناس فقال: «إنَّ الشَّيطانَ مَعَ مَنْ فَارَقَ الجماعةَ يركُضُ»[1].

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: خَطَبَنَا عُمَرُ بِالْجَابِيَةِ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ: إِنِّي قُمْتُ فِيكُمْ كَمَقَام رَسُولِ اللهِ ﷺ فِينَا فَقَالَ: «عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الاثْنَيْنِ أَبْعَدُ. مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزَمِ الْجَمَاعَةَ»[2].

قال ابنُ مسعود رضي الله عنه: «الجماعةُ ما وافَق الحقَّ وإنْ كُنْتَ وَحْدَكَ»[3].

وقال أبو شامَةَ: «حيثُ جاءَ الأمرُ بلزومِ الجماعةِ؛ فالمرادُ به لزومُ الحقِّ واتِّباعُه، وإنْ كان المتمسِّكُ به قليلًا، والمخالفُ له كثيرًا؛ لأنَّ الحقَّ هو الذي كانت عليه الجماعةُ الأولى من عهدِ النبي ﷺ وأصحابِه، ولا نظرَ إلى كثرةِ أهلِ البِدَعِ بعدهُم»[4].

ولقدْ حرصَ الإسلامُ على الجماعةِ بأشكالها جميعًا لأنَّها مطردةٌ للشيطانِ.

أولاً: صلاةُ الجماعة:

عن أبي الدرداءِ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ما من ثلاثةٍ في قريةٍ ولا بَدْوٍ، لا تقامُ فيهمُ الصلاةُ، إلَّا قد اسْتَحْوَذَ عليهم الشيطانُ، فعليكمْ بالجماعةِ؛ فإنَّما يأكلُ الذئبُ القاصِيَةَ»[5].

ثانيًا: الجماعةُ في السفر:

عن ابن عَمْرٍو رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «الراكبُ شيطانٌ، والراكبانِ شيطانانِ، والثلاثةُ رَكْبٌ»[6].

---

(١) أخرجه النسائي (٤٠٢٢)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن النسائي» (٣٧٥٣).
(٢) أخرجه الترمذي (٢١٦٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (١٧٥٨).
(٣) أخرجه اللالكائي في «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» (١٦٠)، وصحح إسناده المحدّث الألباني رحمه الله في «مشكاة المصابيح» (١/ ٦١).
(٤) الباعث على إنكار البدع والحوادث (ص١٩ ـ ٢٠).
(٥) أخرجه النسائي (٨٤٩)، وحسّنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن النسائي» (٨١٧).
(٦) أخرجه أبو داود (٢٦٠٧)، وحسّنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٢٢٧١).

ثالثًا: الاجتماعُ في المجلس:

عن جابرِ بنِ سَمُرَةَ رضي الله عنه قال: خرجَ علينا رسولُ الله ﷺ، فرآنا حِلَقًا، فقال: «ما لي أراكُمْ عِزِينَ؟!»[1].

قوله: «ما لي أراكم عزين» أي: متفرِّقين.

وعنْ أبي ثعْلبةَ الخُشَنِيِّ رضي الله عنه قال: كان النَّاسُ إذا نزلوا منزلاً، تفرَّقُوا في الشِّعابِ والأوديةِ، فقال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ تفرُّقَكُمْ في هذهِ الشِّعَابِ والأَوْدِيَةِ إنَّما ذلكمْ مِنَ الشَّيطانِ» فلم ينزلْ بعدَ ذلكَ منزلاً إلّا انْضَمَّ بعضُهمْ إلى بعضٍ، حتى يقال: لو بُسِطَ عليهمْ ثوبٌ لَعَمَّهمْ[2].

رابعًا: الاجتماعُ على الطعامِ:

عنْ وحشيِّ بنِ حَرْبٍ رضي الله عنه: أنَّ أصحابَ النبي ﷺ قالوا: يا رسول الله، إنَّا نأكلُ ولا نشبع. قال: «فَلَعَلَّكُم تَفْتَرِقُون؟» قالوا: نعم! قال: «فاجْتَمِعُوا على طَعَامِكُم، واذْكُروا اسمَ اللهِ عليه، يُبَارَكْ لَكُم فيه»[3].

ومن المؤسف حقًا أنْ ترى كثيرًا من المسلمينَ اليومَ وبخاصَّة أولئكَ الذين تأثروا بالعاداتِ الغربيةِ والتقاليدِ الأوروبية؛ قد تمكَّنَ الشيطانُ من سلبهِ قسمًا من أموالهم ليس عدوانًا بل بمحض اختيارهم، وما ذاكَ إلَّا لجهلهم بالسنَّةِ، أو إهمالاً منهم إيَّاها، ألستَ تراهم يتفرَّقونَ في طعامهم على موائدهم، وكلُّ واحدٍ منهم يأكلُ لوحده ـ دون ضرورة ـ في صحنٍ خاص، لا يشاركهُ فيهِ على الأقل جارهُ بالجنبِ، خلافًا للحديث السابق[4].

---

(١) أخرجه مسلم (٤٣٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٦٢٨)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٢٢٨٨).

(٣) أخرجه أبو داود (٣٧٦٤)، وحسَّنه العلامة الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٣١٩٩).

(٤) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٣/ ٣٩٤ ـ ٣٩٥).

الحِصْن السَّابِعُ عَشَرَ:
الإِشَارَةُ بالسَّبَّابَةِ في التَّشَهُّدِ

عن نافع قال: كان عبدُ الله بنُ عمر إذا جلس في الصلاة، وضع يدَيْه على ركبتَيْه، وأشارَ بأصبعِهِ، وأتبعها بصرَهُ، ثمَّ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لَهِيَ أَشَدُّ على الشَّيْطَانِ مِنَ الحَدِيدِ». يعني السَّبَّابَةَ[1].

الحِصْنُ الثَّامِنُ عَشَرَ: الصَّلَاةُ إِلَى سُتْرَةٍ

عن سهل بن أبي حَثْمَةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا صلَّى أحدُكم إلى سُتْرَةٍ فَلْيَدْنُ منها لا يَقْطَعُ عليه الشيطانُ صلاتَهُ»[2].

ومِنَ الجديرِ بالذِّكرِ أنَّ مقدارَ السُّترةِ المجزئة التي تسترُ المصلِّي، وتدفعُ عنهُ ضرر المارِّ، طولُ مُؤَخِّرَةِ الرَّحْلِ.

عنْ طلحةَ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ الله ﷺ: «إذا وضعَ أحدُكم بينَ يدَيْهِ مثلَ مُؤَخِّرَةِ الرَّحْلِ[3]، فلْيُصَلِّ، ولا يبالِ مَنْ مرَّ وراءَ ذلكَ»[4].

الحِصْنُ التَّاسِعُ عَشَرَ: دعاءُ اللهِ تعالى

عن أبي الأَزْهر الأنماريِّ رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ كانَ إذا أخذَ مضجَعَهُ مِنَ الليلِ قالَ: «بسمِ الله وضعتُ جنبي، اللهمَّ اغْفِرْ لي ذنبي واخْسِئْ شيطاني، وفُكَّ رِهَانِي، واجْعَلْنِي في النَّدِيِّ الأَعْلَى»[5].

---

(١) أخرجه أحمد (٦٠٠٠)، وسنده حسن كما قال الألباني رحمه الله في «مشكاة المصابيح» (١/ ٢٨٩).
(٢) أخرجه أبو داود (٦٩٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٦٤٣).
(٣) العود الذي في آخر الرحل.
(٤) أخرجه مسلم (٤٩٩).
(٥) أخرجه أبو داود (٥٠٥٤)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٤٢٢٦).

وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا دَخَلَ أحدُكم المسجدَ فليسلِّمْ على النبيِّ ﷺ وليقُلْ: اللهمَّ افتَحْ لي أبوابَ رحمتِكَ، وإذا خرجَ فليسلِّمْ على النبيِّ ﷺ وليقُلْ: اللهمَّ اعْصِمْني من الشَّيطانِ الرَّجِيمِ»[1].

الحَضن العِشرُونَ: مُخَالفَةُ الشَّيطَانِ

إنَّ المؤمن الحق يرفض أنْ تكون له أيُّ صلةٍ مع الشيطان فهو يخالفه في الأمور التالية:

أولاً: العَجَلَةُ:

عن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «التَّأَنِّي مِنَ الله، والعَجَلَةُ مِنَ الشيطان»[2].

ثانيًا: الجلوسُ بين الظل والشمس:

عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَهَى أَنْ يُجْلَسَ بَيْنَ الضِّحِّ وَالظِّلِّ وَقَالَ: «مَجْلِسُ الشَّيْطَانِ»[3].

الضِّح: ضوء الشمس إذا استمكن من الأرض؛ والمعنى: لا يجلس في مكان بحيث يكون نصفه في الشمس ونصفه في الظل.

ثالثًا: الأكلُ والشرب:

عن ابنِ عمر رضي الله عنهما قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إذا أكلَ أحدُكم فليَأْكُل بيمينِهِ، وإذا شربَ فليشرَبْ بيمينِهِ، فإنَّ الشيطانَ يأكلُ بشمالِهِ، ويشرب بشمالِهِ»[4].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٧٧٣)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٦٢٧).
(٢) أخرجه أبو يعلى (٤٢٥٦)، بسند حسن.
(٣) أخرجه أحمد (٣/ ٤١٣ ـ ٤١٤) (١٥٤٦٢)، وإسناده حسن.
(٤) أخرجه مسلم (٢٠٢٠).

رابعًا: الأخذُ والعطاءُ:

عن أبي هريرةَ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ليأكُلْ أحدُكم بيمينِهِ، ويشربْ بيمينِهِ، وليأخُذْ بيمينِهِ، وليُعْطِ بيمينِهِ، فإنَّ الشيطانَ يأكلُ بشمالِهِ، ويشربُ بشمالِهِ، ويُعطي بشمالِهِ، ويأخُذُ بشمالِهِ»[1].

خامسًا: الكِبْرُ:

اعلم ـ عصمك الله من الشيطان ـ بأنَّ الكبر من صفات إبليس. قال ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [البقرة: ٣٤]، وقال ﷻ: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف: ١٣].

ومخالفة الشيطان في هذه الصفة يكون بالتواضع. وهو على نوعين:

النوعُ الأول: تواضعُ العبدِ عندَ أمرِ الله امتثالاً وعندَ نهيِهِ اجتنابًا.

والنوعُ الثاني: تواضعهُ لعظمةِ الرَّبِّ وجلالِهِ، وخضوعهُ لعزَّتِهِ وكبريائِهِ[2].

سادسًا: الشيطانُ لا يَقِيلُ:

عن أنسٍ ﷺ قال: قال النبيُّ ﷺ: «قِيلُوا فإنَّ الشياطينَ لا تَقِيلُ»[3].

سابعًا: الشيطانُ يمشي في النعل الواحدة:

عن أبي هريرةَ ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «إنَّ الشيطانَ يمشي في النَّعْلِ الوَاحِدَةِ»[4].

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٢٦٦)، وصححه الألباني ﷺ في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٦٤٣).

(٢) الروح (ص٣١٢).

(٣) أخرجه الطبراني في «الأوسط» (١/ ١٣) (٢٨)، وهو في «صحيح الجامع» برقم (٤٤٣١).

(٤) أخرجه الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (٢/ ١٤٢)، وصححه الألباني ﷺ في «الصحيحة» (٣٤٨).

ثامنًا: التبذيرُ والإسرافُ:

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ﴾ [الإسراء: ٢٧].

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال له: «فِرَاشٌ لِلرَّجُلِ، وَفِرَاشٌ لامرأته، وَالثالث لِلضَّيْفِ، وَالرَّابِعُ لِلشَّيْطَانِ»(١).

الحِضن الحَادِي والعِشرُونَ: التَّوبَةُ والاستِغفَارُ

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾ [الأعراف: ٢٠١].

لمَّا كان العبدُ لا بدَّ أن يغفلَ وينالَ منه الشيطانُ، الذي لا يزال مرابطًا، ينتظرُ غفلتهُ، ذكر تعالى علامة المتقين من الغاوين، وأنَّ المتَّقي إذا أحسَّ بذنبٍ، ومسَّهُ طائفٌ من الشيطان، فأذنب بفعلِ محرَّم أو تركِ واجبٍ تذكَّرَ منْ أيِّ بابٍ أُتِيَ، ومنْ أيِّ مدخلٍ دخلَ الشَّيطانُ عليه، وتذكَّرَ ما أوجبَ الله عليهِ، فأبصرَ واستغفرَ الله تعالى، واستدركَ ما فَرَّطَ منهُ بالتوبةِ النَّصوحِ، والحسناتِ الكثيرةِ، فردَّ شيطانهُ خاسئًا حسيرًا، وقدْ أفسدَ عليهِ كلَّ ما أدركه منهُ(٢).

وعن أبي سعيدٍ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الشيطانَ قال: وعِزَّتِكَ يارَبِّ لا أبرحُ أُغوي عبادَكَ ما دامَتْ أرواحُهُمْ في أجسادِهِمْ. فقال الرَّبُّ: وعِزَّتي وجلالي لا أزالُ أغفرُ لهمْ ما استغفروني»(٣).

الحِضن الثَّانِي والعِشرُونَ: الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ

قال الله ﷻ: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُواْ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء: ٥٣].

---

(١) أخرجه أبو داود (٤١٤٢)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٣٤٨٩).
(٢) تيسير الكريم الرحمن (٢/ ١٨٣).
(٣) أخرجه الحاكم (٤/ ٢٦١) وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (١٠٤).

في هذه الآية الكريمة «يأمرُ تباركَ وتعالى عبدَهُ ورسولَهُ ﷺ أنْ يأمرَ عبادَ الله المؤمنين أنْ يقولوا في مخاطبتهم ومحاورتهم الكلامَ الأحسنَ والكلمةَ الطَّيبةَ، فإنَّهم إنْ لمْ يفعلوا ذلكَ، نزغَ الشيطانُ بينهم، وأخرجَ الكلامَ إلى الفِعَالِ، وأوقعَ الشَّرَّ والمخاصَمَةَ والمقاتلةَ، فإنَّه عدوٌّ لآدمَ وذريتهِ من حين امتنعَ عن السُّجودِ لآدم، وعداوتهُ ظاهرةٌ بيِّنةٌ»[1].

الحِصْن الثَّالِثُ والعِشْرُونَ: الاعْتِصَامُ بِاللهِ

قال ﷻ: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٨].

أي: متى اعتصمتم به تولَّاكم، ونصركم على الشَّيطانِ، وهو العدوُّ الذي لا يفارقُ العبدَ، وعداوتُه أضرُّ من عداوة العدوِّ الخارج.

فالنَّصْرُ على هذا العدوِّ أهمُّ، والعبدُ إليه أحْوجُ، وكمالُ النُّصرةِ على العدوِّ بحسبِ كمالِ الاعتصامِ بالله، ونقْصُ هذا الاعتصامِ يؤدِّي إلى الانخلاعِ منْ عصْمةِ الله وهوَ حقيقةُ الخذلانِ. فما خلَّى اللهُ بينكَ وبينَ الشَّيطانِ إلَّا بعدَ أنْ خذلكَ، ولو عصَمَكَ ووفَّقكَ لما وجدَ الشَّيطانُ إليكَ سبيلاً.

فالعبد مطْروحٌ بين الله وبين عدوِّه إبْليس، فإنْ تولاه الله لمْ يظفرْ به عدوُّه، وإنْ خذله وأعْرضَ عنه افترسه الشيطانُ كما يفترس الذئبُ الشاةَ إذا خلَّى الراعي بينهُ وبينها، فالشَّيطانُ ذئبُ الإنسانِ.

فإنْ قيل: فما ذنب الشاة، إذا خلَّى الراعي بين الذئب وبينها، وهل يمكنها أن تقوى على الذئب وتنجو منه؟

والجوابُ وبالله التوفيق: إنَّ الشَّيطانَ ذئبُ الإنسانِ، ولكنْ لم يجعلِ الله لهذا الذئبِ اللعينِ على هذهِ الشاةِ سلطانًا مَعَ ضَعفها، فإذا أعطتْ يدَهَا وسالمتِ الذئبَ، ودعاهَا فلَبَّتْ دعوتَه، وأجابتْ أمرَهُ، ولم تتخلَّفْ، بلْ أقبلتْ نحوَهُ سريعةً مطيعةً، وفارقت حمى الراعي الذي ليسَ للذئابِ عليهِ سبيلٌ، ودخلتْ في محلٍّ

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٦٥).

الذئابِ الذي منْ دخلَهُ كانَ صيدًا لهم، فهل الذنبُ كلُّ الذنبِ إلَّا على الشَّاةِ، فكيفَ والرَّاعي يحذِّرهَا، ويخوِّفهَا وينذرهَا، وقدْ أراها مصارعَ الشَّاةِ التي انفردتْ عَنِ الرَّاعي، ودخلتْ وادي الذئابِ.

وقدْ حذَّر الله سبحانه ابنَ آدم من ذنبه مرةً بعد مرةً، وهو يأبى إلَّا إنْ يستجيبَ لهُ إذا دعاهُ ويبيتُ معهُ ويصبح[1]. فأيُّ فلاحٍ وأيُّ رخاءٍ وأيُّ عيشٍ لمنْ قطع ما بينه وبين وليه ومولاه ـ الذي لا غنى له عنه طرفة عينٍ ـ ولا بدَّ له منه، ولا عوضَ له عنه، ووصل ما بينه وبين أعدى عدوٍّ له: فتولاه عدوُّه من كلِّ ناحيةٍ وتخلَّى عنه وليه. ومن تولَّاه عدوُّه واستولى عليه أناله وبالاً، ولم يدع أذًى يُمكِنُهُ من إيصاله إليه إلَّا أوصله.

الحِصْنُ الرَّابِعُ والعِشْرُونَ:
تَحْقِيقِ العُبودِيَّةِ للهِ تَعَالَى

لمَّا علمَ عدوُّ الله إبْليس أنَّ المدارَ على القلبِ والاعتماد عليه، أجْلَبَ عليه بالوساوسِ، وأقْبَلَ بوجوه الشهواتِ إليه، وزيَّنَ له من الأحْوالِ والأعْمالِ ما يصدُّهُ به عن الطريقِ، وأمدَّه من أسْبابِ الغيِّ بما يقْطعُهُ عنْ أسْبابِ التوفيقِ، ونصبَ له من المصايدِ والحبائلِ ما إنْ سلِمَ من الوقوعِ فيها لمْ يسْلمْ منْ أنْ يَحْصُلَ لهُ التعويقُ، فلا نجاة من مصايدهِ ومكايدهِ إلَّا بدوامِ الاسْتعانةِ بالله تعالى، والتعرُّضِ لأسْبابِ مرْضاتهِ، والتجاءِ القلبِ إليهِ وإقْبالِهِ عليهِ في حركاتهِ وسكناته، والتحقُّقِ بذُلِّ العبوديّة الذي هو أولى ما تلبَّسَ به الإنسانُ ليَحْصُلَ له الدخولُ في ضمان ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

فهذه الإضافةُ هي القاطعةُ بينَ العبدِ وبين الشيطان، وحصولها سببُ تحقيقُ مقام العبودية لربِّ العالمين، وإشْعارِ القلبِ إخْلاصَ العملِ، ودوامَ اليقينِ، فإذا أشْرِبَ القلبُ العبوديةَ والإخْلاصَ صار عندَ الله من المقرَّبين، وشَمَلَهُ اسْتثْناء: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: ٤٠]. فمن لم يتحقق بعبودية الرحمن وطاعته

---

(١) شفاء العليل (١/ ٣١١ ـ ٣١٣)، بتصرف يسير.

فإنَّه يعبد الشيطان بطاعته له، كما قال ﷻ: ﴿۞أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾﴾ [يس: ٦٠]. ولم يخلُص من عبادة الشيطان إلا من أخلص عبودية الرحمن، وهم الذين حققوا قول: «لا إله إلَّا الله» وأخلصوا في قولها، وصدَّقوا قولهم بفعلهم[1].

الحِضنُ الخَامِسُ والعِشرُونَ:
اتِّبَاع الصِّراطِ المُستَقِيمِ

قال ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وسَبيلُ اللهِ وصراطُهُ المستقيمُ: هو الذي كانَ عليهِ رسولُ الله ﷺ وصحابتُه؛ بدليلِ قوله ﷻ: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧]، وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢].

فمَن اتَّبَعَ رسولَ اللهِ ﷺ في قولِه وفِعْلِه؛ فهو على صِراطِ اللهِ المستقيم، وهو ممَّنْ يُحِبُّهُ اللهُ ويَغْفِرُ لهُ ذنوبَهُ، ومَن خالَفَهُ في قولِه أو فعلِهِ فهو مبتَدِعٌ متَّبِعٌ لسبيلِ الشَّيطانِ، غيرُ داخلٍ فيمَن وَعَدَ اللهُ بالجنَّةِ والمغفِرَةِ والإحسانِ[2].

عن جابرٍ رضي الله عنه قال: كنَّا جلوسًا عند النبيِّ ﷺ، فخطَّ خطًّا هكذا أمامه فقال: «هذا سبيلُ الله ﷻ»، وخطَّ خَطًّا عنْ يمينه، وخطَّ خطًّا عنْ شماله، وقال: «هذه سُبُلُ الشَّيطانِ»، ثمَّ وضع يده في الخطِّ الأوسط، ثمَّ تلا هذه الآية: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾﴾ [الأنعام: ١٥٣][3].

فإنْ كنتَ ممَّنْ فيهِ بقيَّةٌ منَ الحياءِ، فاختَرْ لِنَفْسِكَ الإنصافَ باتِّباعِ السَّبيلِ

---

(١) كلمة الاخلاص لابن رجب الحنبلي (ص٣٧).
(٢) ذم الوسواس لابن قدامة المقدسي (ص٤٦ ـ ٤٨).
(٣) أخرجه ابن أبي عاصم في «السنة» (١٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «ظلال الجنة» (ص١٢).

الواحدِ الذي كانَ عليهِ سلفُ هذهِ الأمَّةِ وأئمَّتُها من الصحابةِ والتابعينَ، والأربعةِ المجتهدينَ، وسائرِ المحدِّثينَ المتَّبَعِينَ. ولا تتَّبِعِ السُّبُلَ الحادثةَ في الدِّينِ، منذُ زمنٍ كثيرٍ، فتفرَّقَ بكَ عنْ سبيلِ اللهِ المستقيمِ، وصراطِهِ القَويمِ. واتقِ اللهَ يا هذا في قبولِ هذهِ الوصيَّةِ، من مالكٍ يومِ الدِّينِ، لعلَّكَ تُفْلِحُ وحالُكَ، يصلُحُ، في يومٍ يقومُ فيه النَّاسُ لربِّ العالمينَ. وإنْ كنتَ ممن لا خلاقَ لهُ من الإسلامِ إلَّا اسمُهُ، ومن الدِّينِ إلَّا رسمُهُ، فالأمرُ إليك، والوزرُ عليك، وما علينا إلَّا البلاغُ[1].

الحِصْنُ السَّادِس والعِشْرُونَ:
تَحْصِينُ البَيْتِ

أولاً: ذكرُ الله عند الدخول:

عَنْ جَابِرٍ ﷺ أنه سمع النَّبِيَّ ﷺ يقول: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ بَيْتَهُ، فَذَكَرَ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ وَعِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: لَا مَبِيتَ لَكُمْ وَلَا عَشَاءَ. وَإِذَا دَخَلَ فَلَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ دُخُولِهِ، قَالَ الشَّيْطَانُ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ. وَإِذَا لَمْ يَذْكُرِ اللَّهَ عِنْدَ طَعَامِهِ، قَالَ: أَدْرَكْتُمُ الْمَبِيتَ وَالْعَشَاءَ»[2].

ثانيًا: التسليمُ على الأهل:

عن أنسٍ ﷺ قال: قال لي رسولُ الله ﷺ: «يا بُنَيَّ إذا دَخَلْتَ على أهلك، فسلِّم يكُنْ بركةً عليك وعلى أهل بيتك»[3].

ثالثًا: عمارة البيت بالطاعة والعبادة:

عَنْ أبي هريرةَ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُم مَقَابِرَ، إنَّ الشَّيطانَ يَنْفِرُ مِنَ البَيْتِ الذي تُقْرَأُ فيهِ سُورَةُ البَقَرَةِ»[4].

---

(١) الدين الخالص (٣/ ٢٨٩).
(٢) أخرجه مسلم (٢٠١٨).
(٣) أخرجه الترمذي (٢٦٩٨)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢١٧١).
(٤) أخرجه مسلم (٧٨٠).

قولُهُ ﷺ: «لا تجعَلُوا بيوتَكُم مقابرَ» يعني: لا تعطِّلُوا البيوتَ من ذكرِ اللهِ، ومن صلاةِ النافلةِ، وتلاوةِ القرآنِ، لأنها إذا عُطِّلَت صارَت مثلَ القبورِ، لأنَّ القبورَ ليسَ فيها عملٌ، خاويةٌ خاليةٌ، حفَرٌ مظلمةٌ، إلَّا من نوّرَها اللهُ عليه بنورِ الإيمانِ الذي سبقَ لهم في الحياةِ الدنيا.

فهذا فيهِ العنايةُ بالبيوتِ، بيوتِ المسلمينَ، وأن تُعمَّرَ بذكرِ اللهِ، وبتلاوةِ القرآنِ، وصلاةِ النافلةِ، والإكثارِ من ذكرِ اللهِ، بل إن الرسولَ ﷺ أمرَ بأن تُجعلَ النوافلُ التي لا تُشرعُ لها الجماعةُ كلُّها في البيوتِ، أمّا الفرائضُ فإنها تكونُ في المساجدِ، وذلكَ لعمارةِ البيوتِ، لأنها إذا عمرَت بذكرِ اللهِ ابتعدَت عنها الشياطينُ، ونشأَ أهلُ البيوتِ من النساءِ والذريةِ والساكنينَ فيها على طاعةِ اللهِ، وصارَت هذه البيوتُ مدارسَ خيرٍ، يتخرَّجُ منها المسلمُ الموحِّدُ.

أمّا إذا كانَت هذهِ البيوتُ خاليةً من ذكرِ اللهِ، فإنَّ أهلَها يعيشونَ في الجهلِ، ويعيشونَ في الغفلةِ، ويصيرونَ مثلَ الموتى، فما بالُكم إذا خلَتِ البيوتُ من ذكرِ اللهِ، وجُلبَ إليها وسائلُ الشرِّ من الأفلامِ الخليعةِ، وجُلبَ إليها الجهازُ الذي يستقبلُ محطات التلفزيونِ من العالمِ بما فيها من فسادٍ وخلاعةٍ ومجونٍ وكفرٍ وإلحادٍ وشرورٍ عظيمةٍ، كلها تدخلُ في هذا البيتِ بواسطةِ هذا الجهازِ الشيطانيِّ الذي يُنصِبُه صاحبُ البيتِ، ماذا تكونُ هذه البيوتُ؟ تكونُ بيوتًا للشيطانِ، لا تكونُ مقابرَ فقط، وإنما تكونُ مآويَ للشياطينِ ـ والعياذُ باللهِ ـ، ويتخرَّجُ منها أشرارٌ من الذريةِ والنساءِ، يصاحبُهُم عدمُ الحياءِ، وعدمُ الغيرةِ، وحبُّ الشرِّ، والحرصُ على تنفيذِ ما يرونَهُ في هذهِ المبثوثاتِ من الشرورِ، وفسادِ الأخلاقِ، وفسادِ الأمورِ، سيطبقونَ هذه الأمورَ التي يرونَها ويشاهدونَها، وتؤثِّرُ على أخلاقِهِم وعلى عفَّتِهِم، ويتكاسلونَ عن الصلاةِ، بل يضيِّعونَ الصلاةَ بسببِها.

اتقوا اللهَ يا من ابتُليتُم بهذهِ الآلةِ الخبيثةِ؛ أزيلُوها عن بيوتِكُم، فالرسولُ ﷺ يقولُ: «لا تجعلوا بيوتَكُم مقابرَ» وأمرَكُم بالعنايةِ بالبيوتِ، بأن تعمرُوها بطاعةِ اللهِ[1].

---

(١) انظر: إعانة المستفيد بشرح كتاب التوحيد (١/ ٣١٤ ـ ٣١٥).

رابعًا: تطهيرُ البيت من صوت إبليس:

ليتدبر القارئ اللبيب الأحاديث والآثار التالية:

١ ـ عن عبد الرحمنِ بنِ عوفٍ ﷺ قال: أخذ النبيُّ ﷺ بيدي، فانطلقت معه إلى إبراهيم ابنه، وهو يجود بنفسه، فأخذه النبي ﷺ في حجره حتى خرجت نفسه، قال: فوضعه وبكى. فقلت: تبكي يا رسول الله، وأنت تنهى عن البكاء؟ قال: «إني لم أَنْهَ عن البُكَاءِ، ولكني نَهَيْتُ عن صوتَيْنِ أحمَقَينِ فاجِرَيْنِ: صوتٍ عند نغمةٍ لهوٍ ولعبٍ ومزاميرِ الشَّيطانِ، وصوتٍ عند مُصيبةٍ لَطْمِ وجوهٍ، وشقِّ جُيوبٍ...»[(١)].

٢ ـ عن أنسٍ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «صَوْتَانِ مَلْعُونَانِ في الدُّنيا والآخِرَةِ: مزمارٌ عند نعمةٍ، ورَنَّةٌ عند مصيبة»[(٢)].

٣ ـ عن أبي مالكٍ الأشعريِّ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «ليكونَنَّ من أمتي أقوامٌ يستحلُّونَ الحِرَ والحريرَ والخمرَ والمعازفَ...»[(٣)].

٤ ـ عن ابن عباسٍ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إنَّ الله حرَّمَ عليَّ الخمرَ، والميسرَ، والكُوبَةَ» قال سفيان: فسألتُ علي بن بذيمة عن الكوبةِ؟ قال: الطَّبلُ[(٤)].

٥ ـ عن ابنِ مسعودٍ ﷺ أنَّهُ سئلَ عن هذه الآية: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [لقمان: ٦]؟ فقال: «هو الغناءُ، والذي لا إله إلا هو، يرددها ثلاثَ مرَّاتٍ»[(٥)].

---

(١) أخرجه الترمذي (١٠٠٥)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٨٠٤).
(٢) أخرجه البزار (٧٩٥ ـ كشف الأستار)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٣٨٠١).
(٣) أخرجه البخاري (٥٥٩٠) معلقًا بصيغة الجزم، ووصله أبو داود (٤٠٣٩)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٣٤٠٧).
(٤) أخرجه أبو داود (٣٦٩٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٣١٤٣).
(٥) أخرجه الحاكم (٢/ ٤١١)، وصححه ووافقه الذهبي.

٦ ـ قال الشعبي : «إنَّ الغناءَ ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع، وإنَّ الذكرَ ينبتُ الإيمان في القلب كما ينبت الماء الزرع»[١].

٧ ـ قال الأوزاعيُّ : «لا ندخل وليمةً فيها طبلٌ ولا معزافٌ»[٢].

٨ ـ قال ابنُ مسعودٍ رضي الله عنه : «الغناءُ ينبتُ النِّفاقَ في القَلبِ»[٣].

٩ ـ كتبَ عُمَرُ بنُ عبدِ العزيزِ إلى مؤدِّبِ ولدِهِ: «لِيَكُنْ أوَّلَ ما يعتقدون منْ أدبكَ بُغْضُ المَلاهي، التي بَدْؤُها من الشيطانِ، وعاقبتها سَخَطُ الرحمنِ؛ فإنَّهُ بلغني عنِ الثِّقاتِ منْ أهْلِ العلمِ أنَّ صوتَ المعازفِ، واسْتِماعَ الأغاني، واللَّهْجَ بها، ينبِتُ النِّفاقَ في القلبِ كما يَنْبُتُ العشْبُ على الماء»[٤].

فائدة مهمة: صدرت فتوى من هيئة كبار العلماء في المملكة العربية السعودية في تحريم نغمات الهواتف الموسيقية.

خامسًا: تطهيرُ البيت من الأجراس:

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «الجرسُ مزاميرُ الشَّيطانِ»[٥]. ولمَّا كانتِ الشياطين تصحب الجرس تخلَّتِ الملائكةُ عن الرفقةِ التي معها جرس.

عن أبي هريرةَ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «لا تَصْحَبُ الملائكةُ رُفْقَةً فيها كلبٌ ولا جرسٌ»[٦].

وعن عائشةَ رضي الله عنها قالت: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول: «لا تدخُلُ الملائكةُ بيتًا فيه جرسٌ»[٧].

---

(١) أخرجه الإمام المروزي في «تعظيم قدر الصلاة» (٦٩١)، وجوَّد إسناده العلامة الألباني رحمه الله في «تحريم آلات الطرب» (ص١٣).

(٢) أخرجه أبو الحسن الحربي في «الفوائد المنتقاة» (٤/ ٣/ ١) بسند صحيح عنه كما في «آداب الزفاف» (ص١٦٥ ـ ١٦٦) [طبعة دار ابن حزم ـ بيروت، الطبعة الثالثة].

(٣) أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (١٠/ ٢٢٣) بسندٍ صحيح.

(٤) أخرجه الآجُرِّي في «سيرة عمر بن عبد العزيز» (٦٢) بسندٍ حسن.

(٥) أخرجه مسلم (٢١١٤).

(٦) أخرجه مسلم (٢١١٣).

(٧) أخرجه أبو داود (٤٢٣١)، وحسّنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (٣٥٦٠).

واعلم بأن جرس ساعة المنبه الذي يوقظ من النوم، وجرس الهاتف، والدور، لا يدخل هذا في الأحاديث المذكورة؛ وذلك لأنَّهُ لا يشبه الناقوس لا في صوته ولا في صورته.

وهذا بخلاف أجراسِ بعضِ الساعاتِ الكبار التي تعلَّق على الجدرانِ، فإنَّ صوتها يشبهُ صوت الناقوسِ تمامًا، ولذلك فهذا النَّوع من الساعات لا ينبغي للمسلمِ أنْ يُدْخِلَها إلى داره، ولا سيما أنَّ بعضها تعزف ما يشبه الموسيقى قبيل أنْ يدق جرسها! مثل ساعة لندن التي تسمع من إذاعتها والمعروفة باسم (بك بن)[1].

سادسًا: تطهيرُ البيت من التصاوير والتماثيل:

يجبُ على المسلمِ أن يطهِّرَ بيتهُ مِنَ التماثيلِ والصُّورِ إلا مَا وردَ فيهِ الاستثناءُ، كلعبِ البناتِ، والصُّورِ التي لا روحَ فيهَا كالأشجارِ والأنهارِ والزروعِ والجماداتِ وغيرهَا، وما كان لضرورةٍ كصورةِ البطاقةِ والأوراقِ الرسمية، وذلكَ لأنَّ الملائكةَ لا تدخلُ بيتًا فيه تصاوير ولا تماثيل، وإذا خرجتِ الملائكةُ مِنَ البيتِ عَشْعَشَتْ فيهِ الشَّياطينُ.

عن أبي طلحةَ رضي الله عنه عن النبيِّ ﷺ قال: «لا تدخلُ الملائكةُ بيتًا فيه كلبٌ ولا صورةٌ»[2].

فقه الحديث:

الأولُ: تحريمُ الصُّورِ، لأنها سببٌ لمنعِ دخولِ الملائكةِ.

الثاني: أنَّ التَّحريمَ يشملُ الصُّورَ التي ليستْ مجسمةً ولا ظلَّ لها، ولا فرقَ في ذلكَ بينَ مَا كانَ منها تطريزًا على الثوبِ أو كتابةً على الورقِ، أو رسمًا بالآلةِ الفوتوغرافية إذ كل ذلك صور وتصوير[3].

---

(١) انظر: جلباب المرأة المسلمة (ص١٦٩).
(٢) أخرجه البخاري (٣٣٢٢)، ومسلم (٢١٠٦).
(٣) لمزيد من التفصيل، راجع: كتاب إعانة المستفيد (٢/ ٢٦٢ ـ ٢٦٣).

الخَاتِمَةُ

الحمدُ لله ربِّ العالمينَ، والصَّلاةُ والسَّلامُ على خاتمِ الأنبياءِ والمرسلينَ.

ينبغي أنْ نعْلمَ بأنَّنا في جهادٍ عظيم، وأنَّنا نخوضُ معركةً واحدةً دائمة لا تضعُ أوزارهَا؛ لأنَّ الشيطانَ لا يملُّ هذهِ الحرب التي أعلنها منذُ لعنهِ وطردهِ، فهوَ مصرٌّ ماضٍ في طريقهِ.. وأنَّ الجهادَ - من ثمَّ - ماضٍ إلى يومِ القيامةِ في كلِّ صورهِ ومجالاتهِ.

وإنَّ المؤمنَ لا يغفلُ عنْ هذهِ المعركة ولا ينسحبُ منهَا؛ بل «يجاهد شيطانهُ بتكذيبِ وعدهِ، ومعصيةِ أمرهِ، وارتكابِ نهيهِ، فإنَّهُ يعدُ الأمانيَّ، ويمنِّي الغرور، ويَعِدُ الفقرَ، ويأمرُ بالفحشاء، وينهى عن التقى والهدى، والعفةِ والصبرِ، وأخلاقِ الإيمانِ كلِّها»[1].

وأغفلُ الغافلينَ منْ يعلم أنَّ لهُ عدوًّا يقفُ لهُ بالمرصادِ، عنْ عمدٍ وقصدٍ، وسابقِ إنْذارٍ وإصرارٍ، ثمَّ لا يأخذُ حِذْرَهُ؛ ثمَّ يزيدُ فيصبحُ تابعًا لهذا العدوِّ الصَّريحِ!

واعلم بأنَّ الشَّيطانُ لهُ معَ سائرِ النَّاسِ عداوةٌ عامَّةٌ، ومعكَ أيُّها المجتهدُ في العبادةِ والعلم عداوةٌ خاصَّةٌ، وإنَّ أمركَ له لمهمٌّ، ومعهُ عليكَ أعوانٌ، أشدُّها عليكَ نفْسُكَ وهواكَ، وله أسْبابٌ ومداخلُ وأبْوابٌ أنْتَ عنْها غافلٌ. الشَّيطانُ فارغٌ وأنتَ مشْغولٌ وهو يراكَ وأنتَ لا تراه، وأنتَ تنْساه وهو لا ينْساك، ومنْ نفسكَ للشَّيطان

---

(١) زاد المعاد (٣/٨).

عليك عونٌ. فالحذرَ الحذرَ، فإنَّما هو الورودُ على العطَبِ والمهالكِ والمتالفِ، أوِ النَّجاةُ بفضلِ الله ورحمتهِ.

ولكثرة فتنِ الشَّيطانِ، وتشبثها بالقلوبِ؛ عزَّتِ السَّلامةُ[1].

اللهمَّ إنِّي عبدُكَ وهذهِ ناصيتي بينَ يديكَ، ولا خلاصَ منْ هذا العدوِّ إلَّا بكَ، وإنِّي مغْلوبٌ فانْتَصِرْ.

---

(١) المنتقى النفيس (ص٥٥).

تحذير السالك
من
المهالك

تأليف

عبد الهادي بن حسن وهبي

تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إنَّ الحمد للَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَستَعِينُهُ وَنَستَغفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِن شُرُورِ أَنفُسِنَا وَمِن سَيِّئَاتِ أَعمَالِنَا، مَن يَهدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَن يُضلِل فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشهَدُ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ.

أَمَّا بَعدُ: فَإِنَّ خَيرَ الكَلَامِ كَلَامُ اللَّهِ، وَخَيرَ الهَدي هَديُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحدَثَاتُهَا؛ وَكُلَّ مُحدَثَةٍ بِدعَةٌ، وَكُلَّ بِدعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

وبعدُ: فَإِنَّ النَّبِيَّ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيهِ هُوَ مَنْ بلَّغَ البَلَاغَ المُبِينَ، فَمَا تَرَكَ شَيئًا يُقَرِّبُ مِنَ الجَنَّةِ وَيُبَاعِدُ مِنَ النَّارِ إِلَّا أَخبَرَنَا بِهِ، كَمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُ لَمْ يَكُنْ نَبِيٌّ قَبْلِي إِلَّا كَانَ حَقًّا عَلَيهِ أَنْ يَدُلَّ أُمَّتَهُ عَلَى خَيرِ مَا يَعلَمُهُ لَهُم، وَيُنذِرَهُم شَرَّ مَا يَعلَمُهُ لَهُم»[1].

وَمِنْ بَينِ الأُمُورِ الَّتِي حَذَّرَنَا مِنهَا: مُهلِكَاتٌ فِي الدُّنيَا والآخِرَةِ حَرِيٌّ بِنَا أَنْ نَعلَمَهَا وَنَفهَمَهَا، وَنَعمَلَ عَلَى اجتِنَابِهَا لِنَنجُوَ مِنْ عَذَابِ الدُّنيَا وَالآخِرَةِ.

---

(١) أخرجه مسلم (١٨٤٤).

تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

تحذير السالك
من المهالك

التَّنَافُسُ فِي الدُّنيَا

عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ: مَرَّ النَّبِيُّ ﷺ بِدِمْنَةِ قَوْمٍ، فِيهَا سَخْلَةٌ[1] مَيْتَةٌ، فَقَالَ: «مَا لِأَهْلِهَا فِيهَا حَاجَةٌ؟». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ! لَوْ كَانَ لِأَهْلِهَا فِيهَا حَاجَةٌ مَا نَبَذُوهَا، فَقَالَ: «وَاللهِ! لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ هذِهِ السَّخْلَةِ عَلَى أَهْلِهَا، فَلَا أُلْفِيَنَّهَا أَهْلَكَتْ أَحَدًا مِنْكُم»[2].

لَمْ يَقْتَصِر عَلَى تَمْثِيلِهَا بِالسَّخْلَةِ المَيْتَةِ، بَلْ جَعَلَهَا أَهْوَنَ عَلَى اللهِ مِنْهَا، وَأَكَّدَ ذلِكَ بِالقَسَمِ الصَّادِقِ، فَإِذَا كَانَ مِثْلُهَا عِنْدَ اللهِ أَهْوَنَ وَأَحْقَرَ مِنْ سَخْلَةٍ مَيْتَةٍ عَلَى أَهْلِهَا، فَمُحِبُّهَا وَعَاشِقُهَا أَهْوَنُ عَلَى اللهِ مِنْ تِلْكَ السَّخْلَةِ.

وَكَوْنُهَا سَخْلَةً أَهْوَنُ عَلَيْهِم مِنْ كَوْنِهَا شَاةً كَبِيرَةً؛ لِأَنَّ تِلْكَ رُبَّمَا انتَفَعُوا بِصُوفِهَا أَوْ دَبَغُوا جِلدَهَا، وَأَمَّا وَلَدُ شَاةٍ صَغِيرَةٍ مَيْتٌ فَفِي غَايَةِ الهَوَانِ[3].

وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُم» يَعْنِي لَا أَخْشَى عَلَيْكُم مِنَ الفَقْرِ؛ لِأَنَّ الفَقِيرَ فِي الغَالِبِ أَقْرَبُ إِلَى الحَقِّ مِنَ الغَنِيِّ.

---

(١) السَّخلَة: ولد الشاة من المعز أو الضأن.

(٢) أخرجه البزار «كشف الأستار» (٣٦٩٠)، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٣٣٩٢).

(٣) عدة الصابرين (ص٢٠٥ ـ ٢٠٦)، بتصرف يسير.

وَانْظُرُوا إِلَى الرُّسُلِ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ؛ مَنِ الَّذِي يُكَذِّبُهُمْ؟ يُكَذِّبُهُمُ المَلَأُ الأَشْرَارُ الأَغْنِيَاءُ، وَأَكْثَرُ مَنْ يَتَّبِعُهُمُ الفُقَرَاءُ، حَتَّى النَّبِيُّ ﷺ أَكْثَرُ مَنِ اتَّبَعَهُ الفُقَرَاءُ.

فَالفَقْرُ لَا يُخشَى مِنْهُ، بَلِ الَّذِي يُخشَى مِنْهُ أَنْ تُبسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْنَا، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَت عَلَى مَن [كَانَ] قَبْلَكُم، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهلِكَكُم كَمَا أَهْلَكَتْهُم»[1].

تُبسَطَ: تُوَسَّعَ. فَتَنَافَسُوهَا: مِنَ المُنَافَسَةِ، وَهِيَ الرَّغْبَةُ فِي الشَّيءِ، وَمَحَبَّةُ الانفِرَادِ بِهِ، وَالمُغَالَبَةُ عَلَيْهِ. فَتُهلِكَكُم: فَتَكُونَ سَبَبًا لِإهْلَاكِكُم، مثلَ مَا أَهْلَكَتْ مَنْ سَبَقَكُم، بِحُبِّهِم لِلدُّنيَا وتَكَالُبِهِم عَلَيْهَا.

وَصَدَقَ الرَّسُولُ ﷺ، الَّذِي أَهْلَكَ النَّاسَ اليَوْمَ هُوَ التَّنَافُسُ فِي الدُّنيَا، وَجَمْعُ مَالِهَا وَحُبُّ الاستِئْثَارِ بِهِ؛ لِأَنَّ ذلِكَ يُؤَدِّي إِلَى إِضْمَارِ الأَضْغَانِ وَالأَحْقَادِ، وَتَرْبِيَةِ دَاءِ الحَسَدِ ثُمَّ العَدَاوَةِ ثُمَّ المُجَاهَرَةِ وَالمُدَابَرَةِ، وَفِي ذلِكَ هَلَاكٌ لِلمُجْتَمَعِ.

عَنْ عَبْدِ اللَّهْ بْنِ عَمْرٍو رضي الله عنهما: عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا فُتِحَت عَلَيْكُم فَارِسُ وَالرُّومُ، أَيُّ قَوْمٍ أَنْتُم؟» قَالَ عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بْنُ عَوْفٍ: نَقُولُ كَمَا أَمَرَنَا الله. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوَ غَيْرَ ذلِكَ؟! تَتَنَافَسُونَ، ثُمَّ تَتَحَاسَدُونَ، ثُمَّ تَتَدَابَرُونَ، ثُمَّ تَتَبَاغَضُونَ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ؛ ثُمَّ تَنْطَلِقُونَ فِي مَسَاكِينِ المُهَاجِرِينَ، فَتَجْعَلُونَ بَعْضُهُم عَلَى رِقَابِ بَعْضٍ»[2].

انْظُر أَيُّهَا المُسْلِمُ إِلَى مَاذَا يَصِلُ التَّنَافُسُ فِي الدُّنْيَا بِالإِنْسَانِ، نَعَم يَصِلُ بِهِ إِلَى الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ السُّقُوطِ، فَيَقْضِي عَلَى كَرَامَتِهِ وَيَحْلِقُ دِينَهُ حَلْقًا، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «دَبَّ إِلَيْكُم دَاءُ الأُمَمِ قَبْلَكُم: الحَسَدُ وَالبَغْضَاءُ؛ هِيَ الحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ: تَحلِقُ الشَّعرَ؛ وَلكِن تَحْلِقُ الدِّينَ...»[3].

الحَالِقَةُ: الخَصْلَةُ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَحلِقَ: أَيْ: تُهْلِكَ وَتَسْتَأْصِلَ الدِّينَ، كَمَا يَسْتَأْصِلُ المُوسُ الشَّعْرَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠١٥)، ومسلم (٢٩٦١).
(٢) أخرجه مسلم (٢٩٦٢).
(٣) أخرجه الترمذي (٢٥١٠)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٦٠٧).

فَالَّذِي يَخْضَعُ لِلدُّنْيَا وَيَتَذَلَّلُ لَهَا وَلِأَهْلِهَا، لَا يُفَكِّرُ إِلَّا فِيهَا وَلَا يَسْعَى إِلَّا لَهَا، وَلَا يَقُومُ أَوْ يَقْعُدُ إِلَّا عَلَيْهَا، هذَا بِلَا شَكٍّ خَاسِرٌ هَالِكٌ. وَلِذلِكَ قَالَ ﷺ: «إِنَّ هذَا الدِّينَارَ وَالدِّرْهَمَ أَهْلَكَا مَن كَانَ قَبْلَكُم، وَلَا أَرَاهُمَا إِلَّا مُهْلِكَاكُم»[1].

عَن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ أَمْشِي مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي نَخْلٍ لِبَعْضِ أَهْلِ المَدِينَةِ، فَقَالَ: «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ هَلَكَ المُكْثِرُونَ، إِلَّا مَنْ قَالَ هَكَذَا، وَهَكَذَا، وَهَكَذَا» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، حَتَّى بِكَفِّهِ عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ يَسَارِهِ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ، «وَقَلِيلٌ مَا هُمْ»[2].

قَوْلُهُ: «هَلَكَ المُكْثِرُونَ» وَ«هُمْ أَصْحَابُ الأَمْوَالِ الزَّائِدَةِ عَلَى حَاجَاتِهِم وَلَا يُنْفِقُونَ مِنْهَا فِي سَبِيلِ الخَيْرِ، فَهَؤُلَاءِ مِنَ الهَالِكِينَ؛ أَمَّا مَنْ كَانَ ذَا مَالٍ يُنْفِقُ مِنْهُ فِي سَبِيلِ الخَيْرِ: هذَا لِفَقِيرٍ، وَهَذَا لِبِنَاءِ مَسْجِدٍ، وَهذَا لِإِعَانَةِ مُجَاهِدٍ فِي سَبِيلِ اللهِ وَنَحْوِ ذلِكَ. وَإِلَيْهِ الإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ ﷺ: «هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا» يَعْنِي يُنفِقُ مَالَهُ فِي أُمُورٍ مُتَعَدِّدَةٍ مِن أَنْوَاعِ الخَيْرِ، فَهَؤُلَاءِ عِنْدَ اللهِ نَاجُونَ مَأْجُورُونَ وَلكِنَّهُم قَلِيلونَ»[3].

إِنَّها لتربيةٌ كريمةٌ، وتوجيهٌ سليمٌ، وجَّهَ النبيُّ ﷺ أصحابَهُ إليهِ، ولفتَ أنظارَهُم بكلامِهِ العذبِ الجميلِ إِلَى معانٍ سَامِيةٍ رَفِيعَةٍ يَنْبَغِي أَلَّا تغيبَ عنهم، وَأَلَّا يغفَلُوا عَنْهَا، وَهِيَ أَنَّ هذِهِ الحياةَ الدُّنيا بِمَا فيهَا من زخرفٍ ومتاعٍ، وبما تحويهِ من زينةٍ وبهرجٍ، لَا تستحقُّ أَنْ يشقَى الإنسانُ مِن أجلها وينصَبَ. بَل عليهِ أَنْ يأخذَ مِنْهَا مَا يكفيهِ، وَأَن يهتمَّ بِمَا يكونُ سببًا لسعادتهِ فِي الآخرةِ.

فالإنسانُ مَهْمَا جمعَ من مَالٍ وَكدَّسَ من ثروةٍ، تبقَى نفسُهُ متطلِّعةً إِلَى المزيدِ، وَصدقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَيْثُ قَالَ: «لَو كَانَ لابنِ آدمَ واديانِ من مالٍ لابتغَى ثالثًا، وَلَا يملأُ جوفَ ابنِ آدمَ إِلَّا الترابُ، ويتوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تابَ»[4].

وَمَا أكرمَ هَذَا التوجيهَ النبويَّ الخالدَ، الزاخرَ بالحِكَمِ والمواعظِ. فَهَذِهِ الدُّنْيَا كَمْ خَدَعَتْ من أُناسٍ، وكَمْ فتنَتْ من خلائقَ؟ اغتَرُّوا بِهَا، وفُتِنُوا بِمَا فِيهَا،

---

(١) أخرجه الطبراني (١٠٠٦٩)، وصححه لغيره الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (١٧٠٣).
(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٠٩)، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٤/ ٣٦٦).
(٣) «الفتح الرباني» (٩/ ١٦٠).
(٤) أخرجه البخاري (٦٤٣٦) ـ واللفظ له ـ، ومسلم (١٠٤٩).

فأورَدَتْهُم مواردَ الهلاكِ، وجرَّعَتْهُم كؤوسَ الحسرةِ والندمِ، فَلَمْ ينالُوا مِنْهَا إِلَّا التافهَ، وَلَمْ يَجْنُوا مِنْهَا إِلَّا الحقيرَ، فهيَ دارُ الغرورِ يغترُّ بِهَا الجاهلونَ، ويركَنُ إِلَيْهَا الغافلونَ.

فالعاقلُ يَنْبَغِي أَلَّا يشغَلَ نَفْسَه بِالشيءِ التافهِ ويتركَ الشيءَ النفيسَ، فكلُّ مَا فِي هَذِهِ الحياةِ الدُّنْيَا من متعٍ وشهواتٍ، ومن فتنٍ ومُغْرَياتٍ، ومن زينةٍ وبهرجٍ، لَيْسَ طريقًا لسعادةِ الإِنْسَانِ، لِأَنَّ السعادةَ الحقيقيَّةَ لَيْسَت بالأملاكِ والقصورِ، وَلَا بالذهبِ والفضةِ، وَلَا بالمتاعِ والرياشِ، إِنَّمَا هِيَ فِي تقوى اللهِ، وغنَى النفسِ، وَمَا أحسنَ مَا قِيلَ:

ولستُ أرَى السعادةَ جمعَ مالٍ ... وَلَكِنَّ التقيَّ هوَ السعيدُ

وَتَقْوَى اللهِ خيرُ الزَّادِ ذُخرًا ... وَعندَ اللهِ للأتْقَى مزيدُ

«فَاحْذَر ـ يَا أَخِي ـ: لَا تَغُرَّنَّكَ الحَيَاةُ الدُّنْيَا، وَلَا يَغُرَّنَّكَ بِاللهِ الغَرُورُ. أَنْتَ إِنْ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْكَ الرِّزْقَ وَشَكَرْتَهُ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ؛ وَإِنْ ضَيَّقَ عَلَيْكَ الرِّزْقَ فَصَبَرْتَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ. أَمَّا أَنْ تَجْعَلَ الدُّنْيَا أَكْبَرَ هَمِّكَ وَمَبْلَغَ عِلْمِكَ، فَهذِهِ خَسَارَةٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ»[1].

عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ نَبِيَّكُم ﷺ يَقُولُ: «مَنْ جَعَلَ الهُمُومَ هَمًّا وَاحِدًا ـ هَمَّ آخِرَتِهِ ـ كَفَاهُ اللهُ هَمَّ دُنْيَاهُ، وَمَنْ تَشَعَّبَت بِهِ الهُمُومُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا، لَمْ يُبَالِ اللهُ فِي أَيِّ أَوْدِيَتِهَا هَلَكَ»[2].

ثلاثُ خِصَالٍ مُهلِكَاتٌ

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «المُهْلِكَاتُ ثَلَاثٌ: إِعْجَابُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ، وَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًى مُتَّبَعٌ»[3].

---

(١) شرح رياض الصالحين (٤/ ٥٣٢).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢٥٧)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٠٩).

(٣) أخرجه البزار «كشف الأستار» (٨٢)، وحسنه الألباني رحمه الله بمجموع طرقه في «الصحيحة» (١٨٠٢).

فَيَا لَهُ مِنْ كَلَامٍ جَامِعٍ مُحَذِّرٍ عَنْ مَوَاقِعِ الهَلَكَاتِ، الثَّلَاثُ المُهْلِكَاتِ فَأَوَّلُهَا: «إِعْجَابُ المَرْءِ بِنَفْسِهِ» فَإِنَّهُ مِنْ أَعْظَمِ المُهْلِكَاتِ وفَظَائِعِ الأُمُورِ، فَإِنَّ الْعُجْبَ بَابٌ إِلَى الْكِبْرِ وَالزَّهْوِ وَالغُرُورِ، وَوَسِيلَةٌ إِلَى الفَخْرِ وَالْخُيَلَاءِ وَاحْتِقَارِ الخَلْقِ الَّذِي هُوَ مِنْ أَعْظَمِ الشُّرُورِ، وَلِهذَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ: هَلَكَ النَّاسُ، فَهُوَ أَهْلَكُهُم»[1].

فَمَعْنَاهُ أَنَّ الْقَائِلَ كَذلِكَ القَوْلَ هُوَ أَحَقُّ النَّاسِ بِالْهَلَاكِ، أَوْ أَشَدُّهُم هَلَاكًا، وَمَحْمَلُهُ عَلَى مَا إِذَا قَالَ ذلِكَ مُحَقِّرًا لِلنَّاسِ، وَزَارِيًا عَلَيْهِم، مُعْجَبًا بِنَفْسِهِ وَعَمَلِهِ، وَمَنْ كَانَ كَذلِكَ فَهُوَ الأَحَقُّ بِالْهَلَاكِ مِنْهُم، فَأَمَّا لَوْ قَالَ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ[2] الإِخْبَارِ عَنِ الوَاقِعِ «لِمَا يَرَى فِي النَّاسِ مِنْ نَقْصٍ فِي أَمْرِ دِينِهِم، وَقَالَهُ تَحَزُّنًا عَلَيْهِم، وَعَلَى الدِّينِ فَلَا بَأْسَ»[3].

وَأَمَّا الشُّحُّ المُطَاعُ: الشُّحُّ: هُوَ شِدَّةُ الحِرْصِ عَلَى الشَّيءِ، وَالإِحْفَاءُ فِي طَلَبِهِ، والاسْتِقْصَاءُ فِي تَحْصِيلِهِ، وَجَشَعُ النَّفْسِ عَلَيْهِ. وَهُوَ فَقْرٌ لَازِمٌ لَا يُذْهِبُهُ مِلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا، بَلْ غِنَى الْمَالِ يَزِيدُهُ[4].

وَالبُخْلُ ثَمَرَةُ الشُّحِّ، والشُّحُّ يَدْعُو إِلَى البُخْلِ وَمَنْعِ الحُقُوقِ، وَيَدعُو إِلَى الضَّرَرِ وَالقَطِيعَةِ والعُقُوقِ. أَمَرَ الشُّحُّ أَهْلَهُ بِالقَطِيعَةِ فَقَطَعُوا، وَدَعَاهُم إِلَى مَنْعِ الحُقُوقِ الوَاجِبَةِ فَامْتَثَلُوا، وَأَغْرَاهُم بِالمُعَامَلاتِ السَّيِّئَةِ مِنَ البَخْسِ وَالغِشِّ وَالرِّبَا فَفَعَلُوا، فَهُوَ يَدْعُو إِلَى كُلِّ خُلُقٍ رَذِيلٍ، وَيَنْهَى عَنْ كُلِّ خُلُقٍ جَمِيلٍ، كَمَا أَخْبَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِقَوْلِهِ: «اتَّقُوا الشُّحَّ فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم، حَمَلَهُم عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُم وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُم»[5].

وَهذِهِ سِلْسِلَةٌ مِنَ البَلَايَا، فَأَيُّ خَيْرٍ سَيَبْقَى بَعْدَ هذِهِ الدَّوَاهِي؟! فَلَا شَكَّ أَنَّ الأُمَّةَ الَّتِي تَتَّصِفُ بِهذَا الخُلُقِ السَّاقِطِ ـ الشُّحِّ ـ سَيَكُونُ عَاقِبَتُهَا الهَلَاكَ وَمَآلُهَا

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٢٣).
(٢) المفهم (٦/٦٠٨).
(٣) موسوعة المناهي الشرعية (٣/٢٤٧ ـ ٢٤٨).
(٤) بهجة الناظرين (١/٦١٣ ـ ٦١٤).
(٥) أخرجه مسلم (٢٥٧٨).

الخَرَابَ، سُنَّةُ اللهِ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً. وَهذَا نَبِيُّنَا صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ يَنْصَحُنَا وَيُحَذِّرُنَا مِن هذَا الخَرَابِ، وَيَأْمُرُنَا بِاتِّقَائِهِ وَالتَّحَفُّظِ مِنْهُ وَمُحَارَبَتِهِ خَوْفًا مِنْ أَنْ يَقْضِيَ عَلَى مُجْتَمَعِنَا، فَيَا لِلأَسَفِ عَلَى حَالَتِنَا.

وَإِذَا آلَ الشُّحُّ إِلَى مَا وُصِفَ مِنْ هذِهِ الأَخْلَاقِ المَذْمُومَةِ وَالشِّيَمِ اللَّئِيمَةِ؛ لَمْ يَبْقَ مَعَهُ خَيْرٌ مَوْجُودٌ وَلَا صَلَاحٌ مَأْمُولٌ. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦]. يُخْبِرُ تَعَالَى أَنَّ مَنْ سَلِمَ مِنَ الحِرصِ الشَّدِيدِ الَّذِي يَحْمِلُهُ عَلَى ارْتِكَابِ المَحَارِمِ، وَمَنْعِ الحُقُوقِ؛ فَقَد فَازَ وَنَجَحَ.

وَأَمَّا الهَوَى المُتَّبَعُ: فَإِنَّهُ يَهْوِي بِصَاحِبِهِ إِلَى أَسْفَلِ الدَّرَكَاتِ، وَبِالهَوَى تَنْدَفِعُ النُّفُوسُ إِلَى الشَّهَوَاتِ الضَّارَّةِ المُهْلِكَاتِ. وَالهَوَى ثَلَاثَةُ أَرْبَاعِ الهَوَانِ، وَمَنْ هَوَى شَيْئًا هَوَى بِهِ. فَيَنْبَغِي لِلإِنْسَانِ أَنْ يُجَاهِدَ نَفْسَهُ وَهَوَاهُ بِالصَّبْرِ، لِهذَا وَرَدَ فِي الحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَا أُعْطِيَ أَحَدٌ عَطَاءً خَيْرًا وَأَوْسَعَ مِنَ الصَّبْرِ»[1].

فَهذِهِ الثَّلَاثُ: الهَوَى المُتَّبَعُ، وَالشُّحُّ المُطَاعُ، وَالإِعْجَابُ بِالنَّفْسِ: مَنْ جَمَعَهَا فَهُوَ مِنَ الهَالِكِينَ، وَمَنِ اتَّصَفَ بِهَا فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَاسْتَحَقَّ العَذَابَ المُهِينَ. فَطُوبَى لِمَنْ كَانَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَرَاضِي اللهِ، وَطُوبَى لِمَنْ وُقِيَ شُحَّ نَفْسِهِ فَكَانَ مِنَ المُفْلِحِينَ، وَعَرَفَ نَفْسَهُ حَقِيقَةً فَتَوَاضَعَ لِلْحَقِّ وَخَفَضَ جَنَاحَهُ لِلْمُؤْمِنِينَ، مَنَّ اللهُ عَلَيَّ وَعَلَيْكُم بِمَكَارِمِ الأَخْلَاقِ وَمَعَالِيهَا، وَحَفِظَنَا مِنْ مَضَارِّهَا وَمَسَاوِيهَا، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا[2].

الاخْتِلافُ

عَن عَبدِ اللهِ بنِ مَسعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعتُ رَجُلاً قَرَأَ آيَةً، سَمِعتُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ خِلَافَهَا، فَأَخَذتُ بِيَدِهِ، فَأَتَيتُ بِهِ رَسُولَ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «كِلَاكُمَا مُحْسِنٌ؛ لَا تَخْتَلِفُوا، فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ اخْتَلَفُوا، فَهَلَكُوا»[3].

---

(١) أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).
(٢) المجموعة الكاملة لمؤلفات الشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي (ص١٥٨ ـ ١٥٩).
(٣) أخرجه البخاري (٢٤١٠).

وَفِي وجيزِ هَذَا اللفظِ منهُ ﷺ: أَتَمُّ زجرٍ وأبلَغُ رَدْعٍ عَنِ الاختلافِ. فَالاِخْتِلَافُ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ الْهَلَاكِ. وَهَا نَحْنُ نَعِيشُ فِي الاِخْتِلَافِ الكَثِيرِ. اخْتِلَافٌ فِي العَقِيدَةِ وَالفِقْهِ، بَل وَفِي القُلُوبِ. القُلُوبُ مُخْتَلِفَةٌ، لِأَنَّنَا لَمْ نُنَفِّذ وَصِيَّةَ النَّبِيِّ ﷺ بِقَوْلِهِ: «لَا تَخْتَلِفُوا فَتَخْتَلِفَ قُلُوبُكُم»[1].

عَدَمُ تَسْوِيَةِ الصُّفُوفِ يُؤَدِّي إِلَى اخْتِلَافِ القُلُوبِ. اخْتِلَافٌ فِي أُصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ، وَفِي الأَعْمَالِ وَالأَقْوَالِ وَالاِعْتِقَادَاتِ. وَهذَا مُوَافِقٌ لِمَا قَالَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «تَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُم فِي النَّارِ، إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً»، قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟! قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي»[2].

لَقَد كَانَتْ جَمَاعَةً وَاحِدَةً فَأَصْبَحَت جَمَاعَاتٍ، وَكَانَتْ دَعْوَةً فَأَضْحَت دَعَوَاتٍ. إِنَّ الاِخْتِلَافَ لَيُؤَدِّي إِلَى هَلَاكِ الأُمَّةِ، وَلنَسْتَمِعْ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦].

هَا هِيَ الأُمَمُ قَد تَدَاعَت عَلَيْنَا كَمَا تَتَدَاعَى الأَكَلَةُ عَلَى قَصْعَتِهَا وَآنِيَتَهَا، وَلَا نَشْكُو مِنْ قِلَّةِ عَدَدٍ، وَلكِنَّنَا نَشْكُو الوَهنَ وَالهَوَانَ بِسَبَبِ الاِخْتِلَافِ.

وَفِي هَذَا يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُم، كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصعَتِهَا» فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِن قِلَّةٍ نحنُ يَومَئِذٍ؟ قَالَ: «بَل أَنتُم يَومَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلكِنَّكُم غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيلِ؛ وَلَيَنزعَنَّ اللهُ مِن صُدُور عَدُوِّكُمُ المَهَابَةَ مِنكُم، وَلَيَقذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الوَهْنَ» فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الوَهْنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ المَوْتِ»[3].

وَلَكِنْ لِمَاذَا هذَا الاِخْتِلَافُ الكَثِيرُ؟ لِأَنَّهُمُ اعْتَمَدُوا قَوَانِينَ البَشَرِ وَنُظُمَهُم، وَتَرَكُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِم مِنْ رَبِّهِم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى. لِأَنَّهُم تَعَصَّبُوا لِأَقْوَالِ البَشَرِ، فَقَدَّمُوا كَلَامَ زَيدٍ وَعَمرٍو عَلَى كَلَامِ اللهِ تَعَالَى وَكَلَامِ رَسُولِهِ ﷺ. إِنَّ سَبَبَ الاِخْتِلَافِ الكَثِيرِ: هُوَ التَّلَقِّي مِن غَيْرِ اللهِ سُبْحَانَهُ، ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ

---

(١) قطعة من حديث: أخرجه مسلم (٤٣٢).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٤١)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٥٤).
(٣) أخرجه أبو داود (٤٢٩٧)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «الصحيحة» (٩٥٨).

فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]. فَسَبَبُ الاِخْتِلَافِ؛ هُوَ التَّنَكُّبُ عَن كِتَابِ اللهِ تَعَالَى وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، فَمَا كَانَ مِن عِندِ اللهِ سُبْحَانَهُ فَلَا اخْتِلَافَ فِيهِ، وَمَا كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ فَفِيهِ الاِخْتِلَافُ.

فَالِاخْتِلَافُ دَاءٌ، فَمَا هُوَ دَوَاؤُهُ وَعِلَاجُهُ؟ العِلَاجُ بَيَّنَهُ النَّبِيُّ ﷺ بِقَوْلِهِ: «فَعَلَيكُم بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ المَهدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ؛ وَإِيَّاكُم وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[1].

«عَلَيْكُم بِسُنَّتِي»: الزَمُوا سُنَّةَ النَّبِيِّ ﷺ وَمِنْهَاجَهُ وَطَرِيقَتَهُ. تَمَسَّكُوا بِمَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الاعْتِقَادَاتِ وَالأَقْوَالِ وَالأَعْمَالِ، وَهذِهِ هِيَ السُّنَّةُ الكَامِلَةُ. «فَهِيَ الطَّرِيقَةُ السَّالِمَةُ مِنَ الشُّبُهَاتِ والشَّهَوَاتِ»[2].

قَالَ أَبُو حَاتِم ـ ابنُ حِبَّانَ ـ: «فِي قَوْلِهِ ﷺ: «فَعَلَيْكُم بِسُنَّتِي»؛ عِنْدَ ذِكْرِهِ الاخْتِلَافَ الَّذِي يَكُونُ فِي أُمَّتِهِ: بَيَانٌ وَاضِحٌ عَلى أَنَّ مَنْ وَاظَبَ عَلَى السُّنَنِ، قَالَ بِهَا، وَلَمْ يُعَرِّجْ عَلَى غَيرِهَا مِنَ الآرَاءِ مِنَ الفِرَقِ النَّاجِيةِ فِي القِيامةِ، جَعَلَنا اللهُ مِنْهُم بِمَنِّهِ»[3].

لَقَدْ تَرَكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أُمَّتَهُ عَلَى النُّورِ وَالهُدَى، تَرَكَهَا عَلَى مِثْلِ البَيْضَاءِ؛ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا إِلَّا هَالِكٌ خَاسِرٌ، لَا عُذْرَ لَهُ وَلَا حُجَّةَ، كَمَا فِي قَوْلِهِ ﷺ: «إِنِّي قَد تَرَكْتُكُم عَلَى مِثْلِ البَيْضَاءِ: لَيلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ»[4].

«عَلَيْكُم بِسُنَّتِي»: وَبِالاتفاق أَنَّ النبيَّ ﷺ مَا قَالَ: عَلَيْكُم بسنَّةِ علمائِكم ومشايخكم، وَلَا قَالَ: فاقتَدُوا بِهِم تقليدًا، واتَّبِعُوا طريقَهُم[5]. «وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ١١٩).

(٢) كشف الكربة (ص١٨).

(٣) الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان (١/ ١٨٠).

(٤) أخرجه ابن أبي عاصم في كتاب «السنَّة» (٤٩)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٩).

(٥) النهي عن الرقص والسماع (٢/ ٦٧٢ ـ ٦٧٣).

الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ»: هذَا أَمْرٌ بِاقْتِفَاءِ آثَارِهِم، وَالسَّيْرِ عَلَى مَنَارِهِم. وَالمَنَارُ: هُوَ العَلَامَاتُ الَّتِي تَكُونُ عَلَى الطَّرِيقِ، يَسْتَدِلُّ بِهَا السَّالِكُ.

«عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ». وَالنَّوَاجِذُ: الأَضْرَاسُ. كِنَايَةٌ عَنْ شِدَّةِ التَّمَسُّكِ بِهَا. «يُقَالُ: عَضَّ عَلَيْهِ بِالنَّوَاجِذِ إِذَا اشْتَدَّ تَمَسُّكُهُ بِهِ، كَالغَرِيقِ إِذَا وَقَعَ وَمَعَهُ حَبْلٌ فَإِنَّهُ يَتَمَسَّكُ بِهذَا الحَبْلِ لِئَلَّا يَغْرَقَ، فَإِذَا خَشِيَ أَنْ يَنْفَلِتَ مِن يَدَيْهِ عَضَّ عَلَيْهِ بِنَوَاجِذِهِ - يَعْنِي بِأَضْرَاسِهِ - مِنَ الحِرْصِ عَلَى الإِمْسَاكِ بِهَذَا الحَبْلِ؛ لِأَنَّهُ سَبِيلُ النَّجَاةِ، فَسُنَّةُ الرَّسُولِ ﷺ [وَسُنَّةُ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ]، مِثْلُ هذَا الحَبْلِ الَّذِي بِيَدِ الغَرِيقِ، لَوْ أَطْلَقَهُ لَهَلَكَ»[1].

لَا بُدَّ إِذَن أَنْ نَفْهَمَ السُّنَّةَ النَّبَوِيَّةَ كَمَا فَهِمَهَا الخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ أَقْرَبُ النَّاسِ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَطْهَرُهُم جَنَانًا، وَأَصْدَقُهُم إِيمَانًا، وَأَكْثَرُهُم إِحْسَانًا، وَأَشَدُّهُم مُلَازَمَةً لِلنَّبِيِّ ﷺ، إِنَّهُم يُعَايِنُونَ الأُمُورَ وَنَحْنُ نَسْمَعُهَا أَخْبَارًا، وَ«لَيْسَ الخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ»[2].

لَقَدْ وَصَفَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ بِالرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ، فَهَل مِن أَحَدٍ بَعدَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ وُصِفَ بِهذَا الوَصفِ فَنتَّبِعَهُ؟![3] وَإِنَّمَا وُصِفَ الخُلَفَاءُ بِالرَّاشِدِينَ، لِأَنَّهُم عَرَفُوا الحَقَّ، وَقَضَوْا بِهِ، فَالرَّاشِدُ ضِدُّ الغَاوِي، وَالغَاوِي مَن عَرَفَ الحَقَّ، وَعَمِلَ بِخِلَافِهِ.

وَفِي رِوَايَةٍ: «المَهْدِيِّينَ» يَعْنِي: أَنَّ اللهَ يَهْدِيهِم لِلحَقِّ، وَلَا يُضِلُّهُم عَنْهُ، فَالأَقْسَامُ ثَلَاثَةٌ: رَاشِدٌ وَغَاوٍ وَضَالٌّ، فَالرَّاشِدُ عَرَفَ الحَقَّ واتَّبَعَهُ، وَالغَاوِي: عَرَفَهُ وَلَمْ يَتَّبِعْهُ، وَالضَّالُّ: لَمْ يَعرِفْهُ بِالكُلِّيَّةِ، فَكُلُّ رَاشِدٍ فَهُوَ مُهْتَدٍ، وَكُلُّ مُهْتَدٍ هِدَايَةً تَامَّةً فَهُوَ رَاشِدٌ، لِأَنَّ الهِدَايَةَ إِنَّمَا تَتِمُّ بِمَعْرِفَةِ الحَقِّ وَالعَمَلِ بِهِ.

لَقَدْ قَالَ ﷺ: «عَضُّوا عَلَيْهَا»، لَم يَقُل عَلَيْهِ الصَّلَاةُ السَّلَامُ: (عَضُّوا عَلَيْهِمَا) أَي: عَلَى سُنَّتَينِ، بَل قَالَ: «عَضُّوا عَلَيْهَا» أَي: فَهِيَ سُنَّةٌ وَاحِدَةٌ، إِذِ العَمَلُ بِسُنَّةٍ

---

(١) شرح لمعة الاعتقاد للعلامة الفوزان (ص٦٠).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢١٥)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في التعليق على «هداية الرواة» (٥/ ٢٥٤).

(٣) وصية مودع (ص٣٨ - ٤١).

الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ عَمَلٌ بِسُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَيْسَ لِلخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ ﷺ سُنَّةٌ غَيْرُ سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ. فَلَيْسَ هُنَاكَ مِن سَبِيلٍ إِلَّا الالْتِزَامُ بِسُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ المَهْدِيِّينَ، لَا سِيَّمَا وَقَد كَثُرَت سُنَنُ غَيْرِ النَّبِيِّ ﷺ وَخُلَفَائِهِ ﷺ، وَتَخَبَّطَ النَّاسُ فِي الأَهْوَاءِ وَالشَّهَوَاتِ.

لَا بُدَّ مِنْ بَذْلِ الجَهدِ فِي التَّمَسُّكِ بِالسُّنَّةِ، مَخَافَةَ الضَّيَاعِ وَالضَّلَالِ، أَشَدَّ مِمَّا يُحَافِظُ عَلَيْهِ الرِّجَالُ فِي الصَّحَارَى وَالْمَفَازَاتِ عَلَى شَرَابِهِم وَطَعَامِهِم، لِأَنَّ فِي الشَّرَابِ وَالطَّعَامِ حَيَاةَ الأَبْدَانِ، وَفِي السُّنَّةِ حَيَاةُ الجَنَانِ.

«وَإِيَّاكُم وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ». لَم يَكْتَفِ النَّبِيُّ ﷺ بِالأَمرِ؛ بِاتِّبَاعِ سُنَّتِهِ ﷺ وَسُنَّةِ الخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ ﷺ؛ بَل نَهَى عَن مُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، إِذ إِنَّ فِي إِحْيَاءِ المُحْدَثَاتِ وَالبِدَعِ إِمَاتَةً لِلسُّنَّةِ. فَمَا مِن بِدْعَةٍ تُحدَثُ؛ إِلَّا وَتُمِيتُ سُنَّةً - عِيَاذًا بِاللهِ تَعَالَى -.

وَرَحِمَ اللهُ التَّابِعِيَّ الجَلِيلَ حَسَّانَ بْنَ عَطِيَّةَ المُحَارِبِيَّ إِذْ قَالَ: «مَا ابْتَدَعَ قَوْمٌ بِدْعَةً فِي دِينِهِم؛ إِلَّا نَزَعَ اللهُ مِن سُنَّتِهِم مِثْلَهَا، ثُمَّ لَا يُعِيدُهَا إِلَيْهِم إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»[1].

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: «اتَّبِعُوا وَلَا تَبْتَدِعُوا فَقَد كُفِيتُم»[2]، «وَعَلَيْكُم بِالْعَتِيقِ»[3].

«اتَّبِعُوا» يَعْنِي مَا جَاءَ فِي الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. «وَلَا تَبْتَدِعُوا» نَهيٌ عَنِ الابْتِدَاعِ. ثُمَّ قَالَ رضي الله عنه: «فَقَدْ كُفِيتُم» أَي: كُفِيتُمُ المَؤُونَةَ، لَا تَحْتَاجُونَ إِلَى زِيَادَةٍ وَإِلَى تَكَلُّفٍ، يَكْفِيكُم أَنْ تَعْمَلُوا بِمَا جَاءَ فِي كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ ﷺ، وَمَا قَالَهُ صَحَابَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

وَصَحَّ عَنْهُ رضي الله عنه مَوْقُوفًا؛ وَهُوَ مَرْفُوعٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ حُكْمًا[4]، أَنَّهُ قَالَ:

---

(١) أخرجه الدارمي (٩٨)، وسنده صحيح - كما قال الألباني رحمه الله في تعليقه على «هداية الرواة» (١/ ١٤١) -.

(٢) أخرجه الدارمي (٢٠٩) - تعليق: الدكتور البغا -، وهو أثرٌ ثابتٌ.

(٣) أخرجه الدارمي (١٤٢)، وهو أثر صحيح لغيره.

(٤) كما أفاده الألباني رحمه الله في كتابه «قيام رمضان» (ص٤)/ مقدمة الطبعة الأولى.

«كَيْفَ أَنْتُم إِذَا لَبِستْكُم فِتْنَةٌ يَهْرَمُ فِيهَا الكَبِيرُ، وَيَرْبُو فِيهَا الصَّغِيرُ، إِذَا تُرِكَ مِنْهَا شَيْءٌ قِيلَ: تُرِكَتِ السُّنَّةُ؟» قَالُوا: وَمَتَى ذَاكَ؟ قَالَ: «إِذَا ذَهَبَتْ عُلَمَاؤُكُم، وَكَثُرَت جُهَلَاؤُكُم، وَكَثُرَت قُرَّاؤُكُم، وَقَلَّتْ أُمَنَاؤُكُم، وَالتُمِسَتِ الدُّنيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ، وَتُفُقِّهَ لِغَيرِ الدِّينِ»[1].

وَرَضِيَ اللهُ عَنْ حُذَيْفَةَ صَاحِبِ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ القُرَّاءِ، استَقِيمُوا فَقَد سَبَقْتُم سَبْقًا بَعِيدًا! فَإِنْ أَخَذْتُم يَمِينًا وَشِمَالاً، لَقَد ضَلَلْتُم ضَلَالاً بَعِيدًا»[2].

مَا هُوَ مَوْقِفُنَا مِنَ البِدَعِ إِذَا كَثُرَ الاِخْتِلَافُ وَعَظُمَ؟

يُجِيبُ عَلَى هذَا كَثِيرٌ مِنَ الدُّعَاةِ فَيَقُولُونَ: دَعْكَ مِنْ ذَلِكَ فَلَيْسَ هذَا أَوَانَهُ، بَل إِنَّ الحَدِيثَ عَنِ البِدَعِ يُفَرِّقُ المُسْلِمِينَ وَيُشَتِّتُهُم. وَأَمَّا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَقَد أَوْصَانَا حِينَ نُبتَلَى بالاِخْتِلَافِ الكَثِيرِ، أَنْ نَتَجَنَّبَ البِدَعَ بِقَوْلِهِ: «فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنكُم بَعْدِي فَسَيَرَى اختِلَافًا كَثِيرًا» إِلَى أَنْ قَالَ: «وَإِيَّاكُم وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ»[3].

ثُمَّ لَا تَنْسَ ـ رَحِمَكَ اللهُ ـ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ جَعَلَ اجْتِنَابَ البِدَعِ مِنْ أَهَمِّ الأُمُورِ فِي وَصِيَّتِهِ البَلِيغَةِ الَّتِي أَفَادَ بِهَا أُمَّتَهُ، وَحَرِصَ عَلَى مَصْلَحَتِهِم فِيهَا أَشَدَّ الحِرْصِ. فَقَالَ: «فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»[4].

يُبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ المُحْدَثَاتِ وَالبِدَعَ طَرِيقُ الضَّلَالِ، وَهِيَ ثَمَرَةٌ لِتَرْكِ السُّنَّةِ الَّتِي وَصَّى بِهَا (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ). كَمَا هُوَ شَأْنُ بَنِي إِسْرَائِيلَ حِينَ هَلَكُوا فَقَد أَخلَدُوا إِلَى القَصَصِ، وَتَرَكُوا العَمَلَ بِدِينِهِم، كَمَا فِي الحَدِيثِ: «إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا هَلَكُوا قَصُّوا»[5]. أَي لَمَّا هَلَكُوا بِتَرْكِ العَمَلِ أَخلَدُوا إِلَى القَصَصِ، وَعَوَّلُوا

---

(١) أخرجه الدارمي (١٩٠).
(٢) أخرجه البخاري (٧٢٨٢).
(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ١١٩).
(٤) لفظ رواية أبي داود (٤٦٠٧) المتقدمة: «فإنَّ كلَّ مُحدَثَةٍ بدعَةٌ، وكُلَّ بدعَةٍ ضَلَالَةٌ».
(٥) أخرجه الطبراني (٣٧٠٥)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «الصحيحة» (١٦٨١). وانظر التعليق عليه في «صحيح الجامع» (٢٠٤٥).

عَلَيْهِ، وَاكْتَفَوْا بِهَا. وَلْيَنْظُرِ المُؤْمِنُ العَاقِلُ فِي حَالِ كَثِيرٍ مِنَ المُسْلِمِينَ اليَوْمَ، فَقَدْ أَصَابَهُم مَا أَصَابَ مَنْ قَبْلَهُم، فَقَد أَخْلَدَ وُعَّاظُهُم إِلَى القَصَصِ، وَأَعْرَضُوا عَنِ العِلْمِ النَّافِعِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ، مِصْدَاقًا لِقَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَتَرْكَبُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُم شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ أَنَّ أَحَدَهُم دَخَلَ جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُم، وَحَتَّى لَو أَنَّ أَحَدَهُم جَامَعَ امْرَأَتَهُ بِالطَّرِيقِ لَفَعَلْتُمُوهُ»[1].

وَهُنَاكَ مَنْ يَقُولُ: بِدْعَةٌ حَسَنَةٌ وَبِدْعَةٌ سَيِّئَةٌ[2]. وَالرَّسُولُ ﷺ قَالَ: «كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلالة في النَّار»[3]، وَ«كُلُّ» مِنْ أَلْفَاظِ العُمُومِ. وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: «كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَإِنْ رَآهَا النَّاسُ حَسَنَةً»[4].

عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ أَحدَثَ فِي أَمْرِنَا هذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»[5]. وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[6]. أَيْ مَرْدُودٌ.

وَهذَا الحَدِيثُ: أَصْلٌ مِنْ أُصُولِ الدِّينِ، فَكُلُّ مَنْ أَحْدَثَ شَيْئًا، وَنَسَبَهُ إِلَى الدِّينِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ أَصْلٌ مِنَ الدِّينِ يُرْجَعُ إِلَيْهِ، فَهُوَ ضَلَالَةٌ، والدِّينُ بَرِيءٌ مِنْهُ، وَسَوَاءٌ فِي ذَلِكَ مَسَائِلُ الاعْتِقَادَاتِ، أَوِ الأَعْمَالُ، أَوِ الأَقْوَالُ الظَّاهِرَةُ وَالبَاطِنَةُ[7].

قَالَ الإِمَامُ البَرْبَهارِيُّ رحمه الله: وَاحْذَرْ صِغَارَ المُحْدَثَاتِ مِنَ الأُمُورِ، فَإِنَّ صَغِيرَ البِدَعِ يَعُودُ حَتى يَصيرَ كَبِيرًا، وَكَذَلِكَ كُلُّ بِدْعَةٍ أُحْدِثَتْ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ، كَانَ أَوَّلُهَا صَغِيرًا يُشْبِهُ الحَقَّ فَاغْتَرَّ بِذَلِكَ مَنْ دَخَلَ فِيهَا، ثُمَّ لَمْ يَستَطِع الخُرُوجَ مِنْهَا، فَعَظُمَتْ

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/ ٤٥٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٥٠٦٧). لكن نبَّه في «الصحيحة» (١٣٤٨)، أن الصواب في الحديث: لفظ «أُمَّهُ» بدل «امرأتَهُ».

(٢) وصية مودع (ص٥١ ـ ٦٠).

(٣) أخرجه النسائي (١٥٧٧)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن النسائي» (١/ ٥١٢).

(٤) أخرجه أبو القاسم اللَّالكائيُّ في «شرح أصول اعتقاد أهل السنَّة والجماعة» (رقم: ١٢٦)، وصححه الألباني رحمه الله موقوفًا في «أحكام الجنائز» (ص٢٥٨).

(٥) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم [١٧ ـ (١٧١٨)].

(٦) أخرجه مسلم [١٨ ـ (١٧١٨)].

(٧) جامع العلوم والحكم (٣/ ١٢٦ ـ ١٢٨).

وَصَارَتْ دِينًا يُدَانُ بِهَا[1].

فَمَنْ أَرَادَ النَّجَاةَ غدًا، والمُصَاحَبَةَ لِأَئِمَّةِ الهُدَى، والسلَامةَ منْ طُرُقِ الرَّدَى، والخَلاصَ منْ أيدِي العِدَى، والخُلُودَ فِي النَّعيمِ الدائمِ أبدًا، فعليهِ بِكتاب اللهِ عَزَّ وَجَلَّ متَّبِعًا مَا فِيهِ رشدًا، وليعملْ بِما فِيهِ مُتَّبِعًا لرسولِ اللهِ ﷺ وصحابَتِهِ فِيمَا عمِلُوا، ولينظُرْ مَا كَانُوا عليهِ، من قولِهِم وفِعْلِهِم، وليجعَلْ عبادتَهُ واجتهادَهُ عَلَى سنَنِهِم، وسلوكَهُ فِي طريقِهِم، فِيمَا فَرغَ منهُ من كُلِّ عملٍ صالحٍ، وَمَا فيهِ منَ الأعمالِ ابتدَى، ولتكُنْ همَّتُه فِي اللَّحاقِ بِهِم، فإنَّ طريقَهُمُ الصراطُ المستقيمُ لِمَنِ اهتَدَى[2].

البُخلُ وطُولُ الأمَلِ

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمرٍو رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «صَلَاحُ أَوَّلِ هَذِهِ الأُمَّةِ بِالزُّهْدِ وَاليَقِينِ، وَيَهلِكُ آخِرُهَا بِالبُخلِ وَالأَمَلِ»[3].

البُخلُ: مَنْعُ إِنْفَاقِ المَالِ بَعْدَ حُصولِهِ، وَحُبُّهُ وَإِمْسَاكُهُ.

عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مِنْ سَيِّدُكُم يَا بَنِي سَلِمَةَ؟» قُلْنَا: جُدُّ بنُ قَيْسٍ، عَلَى أَنَّا نُبَخِّلُهُ، قَالَ: «وَأَيُّ دَاءٍ أَدوَى مِنَ البُخلِ؟! بَل سَيِّدُكُم عَمرُو ابنُ الجَمُوحِ»[4].

وَالمَعْنَى: أَيُّ عَيْبٍ أَقْبَحُ مِنَ البُخلِ! وَأَيُّ مَرَضٍ أَعْظَمُ مِنْهُ! لَا شَيْءَ أَعْظَمُ مِنْهُ، فَتَشْبِيهُهُ بِالدَّاءِ مِنْ حَيْثُ كَوْنُهُ مُفْسِدًا لِلدِّينِ مُورِثًا لَهُ سُوءَ الثَّنَاءِ، كَمَا أَنَّ الدَّاءَ يَؤُولُ إِلَى طُولِ الضَّنَى وَشِدَّةِ العَنَاءِ. وَمِن ثَمَّ عَدَّ بَعْضُهُم هَذَا الحَدِيثَ مِنْ جَوَامِعِ الكَلِمِ.

---

(١) شرح السنة (ص٦١).
(٢) النهي عن الرقص والسماع (٢/ ٧٥٢ ـ ٧٥٣).
(٣) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٦)، وحسنه لغيره الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٣٤٢٧).
(٤) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٩٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٢٢٧).

البُخْلُ يَدُلُّ عَلَى ضَعْفِ الإيمَانِ وَعَدَمِ الوُثُوقِ بِضَمَانِ الرَّحْمٰنِ، وَذَلِكَ جَالِبٌ إِلَى الخُسْرَانِ وَقَائِدٌ إِلَى الهَوَانِ وَالحِرْمَانِ[1]. وَأَمَّا طُولُ الأَمَلِ: فَإِنَّهُ عَائِقٌ عَنْ كُلِّ خَيْرٍ وَطَاعَةٍ، جَالِبٌ لِكُلِّ شَرٍّ وَفِتْنَةٍ، دَاءٌ عُضَالٌ يُوقِعُ الخَلْقَ فِي أَنْوَاعِ البَلِيَّاتِ.

وَيَتَرَتَّبُ عَلَى طُولِ الأَمَلِ أَرْبَعَةُ أَشْيَاءَ:

أَحَدُهَا: تَرْكُ الطَّاعَةِ، يَقُولُ المرءُ: سَوْفَ أَفْعَلُ، وَالأَيَّامُ بَيْنَ يَدَيَّ.

الثَّانِي: تَرْكُ التَّوْبَةِ وَتَسوِيفُهَا، يَقُولُ: سَوْفَ أَتُوبُ، وَفِي الأَيَّامِ السَّعَةُ وَأَنَا شَابٌّ، وَالتَّوْبَةُ بَيْنَ يَدَيَّ، وَأَنَا قَادِرٌ عَلَيْهَا مَتَى رِمْتُهَا، وَرُبَّمَا اخْتَطَفَهُ الأَجَلُ قَبْلَ إِصْلَاحِ العَمَلِ.

الثَّالِثُ: الحِرْصُ عَلَى الجَمْعِ، وَالاِشْتِغَالُ بِالدُّنْيَا عَنِ الآخِرَةِ.

الرَّابِعُ: القَسْوَةُ فِي القَلْبِ والنِّسْيَانُ لِلآخِرَةِ، لِأَنَّ مَنْ أَمَّلَ العَيْشَ الطَّوِيلَ، لَا يَذْكُرُ المَوْتَ وَالقَبْرَ، وَإِنَّمَا رِقَّةُ القَلْبِ وَصَفْوَتُهُ بِذِكْرِ المَوْتِ وَالقَبْرِ، وَالثَّوَابِ وَالعِقَابِ وَأَحْوَالِ الآخِرَةِ.

عَنْ أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كُنْتُ نَهَيْتُكُم عَنْ زِيَارَةِ القُبُورِ أَلَا فَزُورُوهَا، فَإِنَّهَا تُرِقُّ القَلْبَ، وَتُدْمِعُ العَيْنَ، وَتُذَكِّرُ الآخِرَةَ، وَلَا تَقُولُوا هُجْرًا»[2].

فَمَنْ طَالَ أَمَلُهُ، قَلَّتْ طَاعَتُهُ، وَتَأَخَّرَتْ تَوْبَتُهُ، وَكَثُرَتْ مَعْصِيَتُهُ، وَاشْتَدَّ حِرْصُهُ، وَقَسَا قَلْبُهُ، وَعَظُمَتْ غَفْلَتُهُ عَنِ العَاقِبَةِ، فَذَهَبَتْ - وَالعِيَاذُ بِاللهِ، إِنْ لَمْ يَرْحَمِ اللهُ - آخِرَتُهُ؛ فَأَيُّ حَالٍ أَسْوَأُ مِنْ هَذِهِ؟ وَأَيُّ آفَةٍ أَعْظَمُ مِنْ هَذِهِ؟ وَكُلُّ هَذَا بِسَبَبِ طُولِ الأَمَلِ.

مُحَقِّرَاتُ الذُّنُوبِ

عَنْ سَهْلِ بنِ سَعْدٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِيَّاكُم وَمُحَقِّرَاتِ

---

(١) فتح الحميد شرح كتاب التوحيد (٤/ ١٨١٣).

(٢) أخرجه الحاكم (١/ ٣٧٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٤٥٨٤).

الذُّنُوبِ، كقوم نَزَلُوا فِي بَطنِ وادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، وجَاءَ ذَا بِعُودٍ، حَتَّى أَنضَجُوا خُبزَتَهُم، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤخَذ بِهَا صَاحِبُها تُهلِكهُ»[1].

وَهَذَا تَشبِيهٌ بَلِيغٌ مِن أَفصَحِ النَّاسِ لِشُؤمِ الذُّنُوبِ وَخَطَرِهَا عَلَى العَبْدِ. وَمَعْنَى الحَدِيثِ: أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُم جَاءَ بِعُودِ حَطَبٍ حَتَّى أَوقَدُوا نَارًا عَظِيمَةً فَطَبَخُوا وَاشتَوَوا، وَكَذَلِكَ فَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ تَجتَمِعُ عَلَى العَبدِ - وَهُوَ يَستَهِينُ بِشَأنِهَا - حَتَّى تُهلِكَهُ.

وَوَاحِدَةٌ مِن عِيدَانِ الحَطَبِ لَا تَخبِزُ خُبزًا، وَلَا تُنضِجُ طَبخًا، وَلَكِن إِذَا اجتَمَعَتِ العِيدَانُ إِلَى بَعضِهَا وَأُوقِدت: أَشعَلَت نَارًا عَظِيمَةً.

أَوَتَدرِي مَا مُحَقَّرَاتُ الذُّنُوبِ؟! إِنَّهَا الذُّنُوبُ الَّتِي يَستَصغِرُهَا العَبدُ وَلَا يُبَالِي فَيَقَعُ فِيهَا بِغَيرِ حِسَابٍ، وَلا يَزَالُ الشَّيطَانُ يُهَوِّنُ عَلَيهِ أَمرَهَا حَتَّى يُصِرَّ عَلَيهَا.

وَ«الإِصرَارُ عَلَى المَعصِيَةِ - وَهُوَ الاستِقرَارُ عَلَى المُخَالَفَةِ، وَالعَزمُ عَلَى المُعَاوَدَةِ - مَعصِيَةٌ أُخرَى، وَذَلِكَ عَلَامَةُ الهَلَاكِ»؛ لِأَنَّ الإِصرَارَ عَلَى الذَّنبِ إِذَا تَمَكَّنَ مِنَ القَلبِ، فَإِنَّهُ يَعِزُّ عَلَيهِ التَّخَلُّصُ مِنهُ كَمَا لا يَخفَى؛ فَكَم مِن إِنسَانٍ تَسَاهَلَ فِي صَغِيرةٍ فَعَظُمَت، فَلَم يَستَطِعِ الخُرُوجَ مِنهَا.

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الشَّيطَانَ قَد أَيِسَ أَن يُعبَدَ بِأَرضِكُم هَذِهِ، وَلَكِنَّهُ قَد رَضِيَ مِنكُم بِمَا تُحَقِّرُونَ»[2].

وَعَن عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَت: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا عَائِشَةُ! إِيَّاكِ وَمُحَقَّرَاتِ الأَعمَالِ، فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللهِ طَالِبًا»[3].

وَالتَّهَاوُنُ فِي صَغَائِرِ الذُّنُوبِ بِمَنزِلَةِ الشَّرَارَةِ مِنَ النَّارِ، تُرمَى فِي الحَشِيشِ اليَابِسِ، فَأَحدَثَت حَرِيقًا هَائِلًا، كَمَا قِيلَ:

ومُعظَمُ النَّارِ مِن مُستَصغَرِ الشَّرَرِ ..... .

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٣١)، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٣٨٩).
(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٨)، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٤٧١).
(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٣)، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٥١٣).

فَتَكُونُ نَظرَةً، ثُمَّ خَطرَةً، ثُمَّ خَطوَةً، ثُمَّ خَطِيئَةً.

قَالَ الحَافِظُ الحَكَمِيُّ:

لاَ تَحتَقِر شَيئًا مِنَ المَآثِمِ وَإِنَّمَا الأَعمَالُ بِالخَوَاتِمِ

وَقَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لَا تَحقِرَنَّ يَسِيرَ المَعصِيَةِ، كَالعُشبِ الضَّعِيفِ يُفتَلُ مِنهُ حِبَالٌ، تَجُرُّ السُّفُنَ».

وَقَالَ أَبُو عَبد الرَّحمٰنِ الحُبُلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَثَلُ الَّذِي يَجتَنِبُ الكَبَائِرَ وَيَقَعُ فِي المُحَقَّرَاتِ، كَرَجُلٍ لَقِيَهُ سَبُعٌ فَاتَّقَاهُ فَنَجَا مِنهُ، فَلَدَغَتهُ نَملَةٌ فَأَوجَعَتهُ، ثُمَّ أُخرَى، ثُمَّ أُخرَى حَتَّى اجتَمَعنَ عَلَيهِ فَصَرَعنَهُ، وَكَذَلِكَ الَّذِي يَجتَنِبُ الكَبَائِرَ وَيَقَعُ فِي المُحَقَّرَاتِ.

وَقَد قَالَ الشَّاعِرُ:

لاَ تَحقِرَنَّ مِنَ الذُّنُوبِ صَغِيرَهَا إِنَّ الصَّغِيرَ غَدًا يَعُودُ كَبِيرًا
كُلُّ الذُّنُوبِ وَإِنْ تَقَادَمَ عَهدُهَا عِندَ الإِلٰهِ مُسَطَّرًا مَسطُورًا

وَلِلَّهِ دَرُّ القَائِلِ:

قَد يُوبِقُ المَرْءَ أَمرٌ وَهُوَ يَحقِرُهُ وَالشَّيءُ يَا نَفسُ يَنمَا وَهُوَ يُحتَقَرُ

وَقَالَ ابنُ المُعتَزِّ:

خَلِّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا وَكَبِيرَهَا ذَلِكَ التُّقَى
وَاصنَع كَمَاشٍ فَوقَ أَر ضِ الشَّوَاكِ يَحذَرُ مَا يَرَى
لاَ تَحقِرَنَّ صَغِيرَةً إِنَّ الجِبَالَ مِنَ الحَصَى

فَوَاحِدَةٌ مِنَ الحَصى لَا تُشَكِّلُ تلًّا، وَلاَ جَبَلًا، وَلَكِن إِذَا كَثُرَت صَارَت تلًّا، وَإِذَا تَرَاكَمَت شَكَّلَت جَبَلًا. وَهَكَذَا العَبدُ يَتَسَاهَلُ فِي صَغَائِرِ الذُّنُوبِ، حَتَّى تَغمِرَهُ ذُنُوبُهُ وَتُحِيطَ بِهِ خَطِيئَتُهُ، فَيَستَحكِمَ الهَلاكُ.

طَاعَةُ اللهِ خَيرُ مَا اكتَسَبَ العَبدُ فَكُن طَائِعًا لِلَّهِ لاَ تَعصِيَنَّهُ
مَا هَلاَكُ النُّفُوسِ إِلاَّ المَعَاصِي فَاجتَنِبْ مَا نَهَاكَ لاَ تَقرَبَنَّهُ
إِنَّ شَيئًا هَلاَكُ نَفسِكَ فِيهِ يَنبَغِي أَن تَصُونَ نَفسَكَ عَنهُ

فَلْيَحْذَرِ المؤمِنُ مِنْ صِغَارِ الذُّنُوبِ، كَمَا يَحذَرُ مِنْ شَرَارَةٍ.

لاَ تَحقِرَنَّ صَغِيرًا فِي مُعَامَلَةٍ ... إِنَّ البَعُوضَةَ تُدمِي مُقْلَةَ الأَسَدِ

وَلَقَدْ وَصَفَ الصَّحَابِيُّ الجَلِيلُ عَبدُ اللهِ بنُ مَسعُودٍ ﷺ، حَالَ المؤمنِ الصَّادِقِ فِي خَشيَتِهِ مِنْ ذُنُوبِه، فَقَالَ: «إِنَّ المؤمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ قَاعِدٌ تَحتَ جَبَلٍ، يَخَافُ أَن يَقَعَ عَلَيهِ، وَإِنَّ الفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ مَرَّ عَلَى أَنفِهِ، فَقَالَ بِهِ هَكَذَا»[1].

وَكَانَ أَنَسُ بنُ مَالِكٍ ﷺ يَقُولُ لِتَلَامِيذِهِ مِنَ التَّابِعِينَ مُحَذِّرًا لَهُم مِنْ صَغَائِرِ الذُّنُوبِ: «إِنَّكُم لَتَعمَلُونَ أَعمَالاً هِيَ أَدَقُّ فِي أَعيُنِكُم مِنَ الشَّعرِ، إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ ﷺ مِنَ المُوبِقَاتِ»[2] أي: المُهلِكَاتِ.

وَاعلَم ـ بَارَكَ اللهُ فِيكَ ـ: بِأَنَّهُ لَا يَفُوزُ غَدًا إِلَّا المُخِفُّونَ مِنَ الذُّنُوبِ.

عَن أَبِي الدَّرْدَاءِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ بَينَ أَيدِيكُم عَقَبَةً كَؤُودًا، لَا يَنجُو مِنهَا إِلَّا كُلُّ مُخِفٍّ»[3].

وَتِلكَ العَقَبَةُ المَوتُ وَمَا بَعدَهُ مِنَ الشَّدَائِدِ: مِنَ القَبرِ وَالحَشرِ، وَالوقُوفِ بَينَ يَدَيِ اللهِ تَعَالَى فِي المَحشَرِ، وَالحِسَابِ وَالصِّرَاطِ وَالمِيزَانِ. وَمَن عَلِمَ يَقِينًا بِوقُوعِ هَذِهِ الأَشيَاءِ، يُخَفِّف أَثقَالَهُ بِامتِثَالِ أَوَامِرِ اللهِ وَاجتِنَابِ نَوَاهِيهِ[4].

الغُلُوُّ فِي الدِّينِ[5]

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ـ غَدَاةَ العَقَبَةِ وَهُوَ عَلَى نَاقَتِهِ ـ: «الْقُطْ لِي حَصًى»، فَلَقَطتُ لَهُ سَبْعَ حَصَيَاتٍ هُنَّ حَصَى الخَذْفِ، فَجَعَلَ يَنْفُضُهُنَّ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٣٠٨).

(٢) أخرجه البخاري (٦٤٩٢).

(٣) أخرجه البزار «كشف الأستار» (٣٦٩٦)، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٢٤٨٠).

(٤) التوبة طريق إلى الجنة (ص٤٠ ـ ٤٣).

(٥) أنصح بقراءة كتاب «الغلو في الدين»: لفضيلة الشيخ الدكتور عبد الرحمٰن اللويحق حفظه الله.

فِي كَفِّهِ، وَيَقُولُ: «أَمْثَالَ هَؤُلَاءِ فَارْمُوا» ثُمَّ قَالَ: «أَيُّهَا النَّاسُ! إِيَّاكُم وَالغُلُوَّ فِي الدِّينِ؛ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الغُلُوُّ فِي الدِّينِ»[1].

فَقَدْ جَعَلَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ الغُلُوِّ فِي الدِّينِ: أَن يختارَ الحاجُّ إِذَا أَرَادَ رَميَ الجَمَراتِ بِمِنًى الحَصَى الكَبِيرَةَ، وَأَمَرَ أَن تَكُونَ مِثْلَ الخَذفِ. «يَعْنِي أكبَر من حبِّ الحِمِّصِ بقليلٍ، وَلَا يأخذُ حصًى كبارًا، فإنَّ هَذَا منَ الغُلُوِّ في العبادةِ، والغلوُّ يُفْسِدُ العبادةَ، فبعضُ الناسِ يأخذُ حصًى كَبِيرَةً ويقولُ: أَنَا أُقَاتِلُ الشيطَانَ وهذهِ لَا تصنعُ بالشيطانِ شيئًا هذِهِ الحصَيَاتُ الصغيرةُ، فيأخذُ الكبارَ يريدُ أَن يقتلَ الشَّيْطَانَ، ويظنُّ أَن الرميَ إِنَّمَا هُوَ قتلٌ للشيطانِ، الرَّميُ عبادةٌ وذكرُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، والشيطانُ بِهَذِهِ الطريقةِ يضحكُ عَلَيْنَا، لأننا خالفنَا سنةَ نبيِّنا ﷺ، فالعباداتُ مدارُها عَلَى التوقيفِ، نرمِي كَمَا رمَى رَسُولُ اللهِ ﷺ، وبمثل الحَصَيَاتِ الَّتِي رَمَى بها ﷺ، هَذَا هُوَ الواجبُ»[2].

وَمَعَ هَذَا التَّحذِيرِ الشَّدِيدِ مِنَ الغُلُوِّ فِي الدِّينِ، وَقَعَ المُسلِمُونَ فِيهِ مَعَ الأَسَفِ الشَّدِيدِ.

والغلوُّ فِي العباداتِ، هُوَ: الزيادةُ فِيهَا عَنِ الحدِّ المشروعِ: كميَّةً وكيفيَّةً ووقتًا، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، لَا نُحدِثُ شيئًا مِن عندِ أنفُسِنَا.

والبدعةُ تنقسِمُ إِلَى قسمينِ: بدعةٍ حقيقيَّةٍ، وبدعةٍ إضافيَّةٍ.

البدعةُ الحقيقيَّةُ: إِذَا أُحدِثَ شيءٌ لَا أصلَ لهُ، مثلُ المولدِ والتبركِ بالآثَارِ.

والإضافيَّةُ: أنْ نُحدِثَ للعبادةِ المشروعةِ وقتًا أو صفةً لَمْ يشرَعْهَا اللهُ ورسولُه، كَمَا لَو قُلْنَا: ليلةُ النِّصفِ منْ شعبانَ يصلُّونَ النَّاسُ ويتهجَّدونَ، أَو نصومُ النِّصفَ من شعبانَ.

فالصِّيامُ مشروعٌ، وقيامُ الليلِ مشروعٌ، لكن إِذَا حدَّدنَاهُ بوقتٍ لَا دليلَ عَلَيْهِ، فَهَذَا بدعةٌ إضافيَّةٌ، لأنَّ أصلَ العِبَادَةِ مشروعٌ.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (٣٠٢٩)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن ابن ماجه» (٢٤٧٣).

(٢) تسهيل الإلمام بفقه الأحاديث من بلوغ المرام (٣/ ٣٦٦).

وَمِن مَظَاهِرِ الغُلُوِّ الَّتِي شَاعَت فِي هَذَا الزَّمَانِ: مَسأَلَةُ التَّكْفِيرِ عِندَ جَمَاعَةِ التَّكْفِيرِ، بِدُونِ ضَوَابِطِ وَقَوَاعِدِ، فَكَفَّرُوا وَفَجَّرُوا وَقَتَلُوا.

فَالوَاجِبُ عَلَيْنَا أَنْ نَحْذَرَ مِن هَذَا، وَأَنْ نَلْزَمَ طَرِيقَ الاِسْتِقَامَةِ فِي كُلِّ شَيْءٍ. فَالغُلُوُّ هَلَاكٌ فِي الدُّنْيَا، وَهَلَاكٌ فِي الآخِرَةِ، وَلَا يَأْتِي بِخَيْرٍ أَبَدًا.

التَّنَطُّعُ

عَن ابنِ مسعودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ» قَالَهَا ثَلَاثًا[1].

الهَلَاكُ: ضِدُّ البَقَاءِ، يَعْنِي أَنَّهُم تَلِفُوا وَخَسِرُوا، وَالمُتَنَطِّعُونَ: هُمُ المُتَشَدِّدُونَ[2]. وَلِهَذَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ: «لَا تُشَدِّدُوا عَلَى أَنْفُسِكُم؛ فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ قَبْلَكُم بِتَشْدِيدِهِم عَلَى أَنْفُسِهِم، وَسَتَجِدُونَ بَقَايَاهُم فِي الصَّوَامِعِ وَالدِّيَارَاتِ»[3] (قَالَهَا ثَلَاثًا) ـ أَي هَذِهِ الكَلِمَةَ، أَوِ الجُمْلَةَ ثَلَاثًا، إِنَّمَا رَدَّدَ ﷺ القَوْلَ ثَلَاثًا تَهْوِيلًا وَتَحْذِيرًا وَتَنْبِيهًا وَتَأْكِيدًا، لِتَحَقُّقِ وُقُوعِ الهَلَاكِ عَلَى مَن فَعَلَ ذَلِكَ.

«وَكَم تَحْتَ هَذِهِ الكَلِمَةِ مِن مُصِيبَةٍ تَعُودُ عَلَى أَهْلِ اللِّسَانِ بِمَا يُؤَدِّيهِم إِلَى تَغَيُّرِ الأَدْيَانِ وَهَلَاكِ الأَبْدَانِ، نَسْأَلُ اللهَ العَافِيَةَ مِنَ الدُّخُولِ فِي الوَبَالِ»[4].

كَذَلِكَ أَيْضًا: مِنَ التَّشْدِيدِ فِي العِبَادَةِ، أَن يُشَدِّدَ الإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ فِي الصَّلَاةِ أَوْ فِي الصَّوْمِ أَوْ فِي غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ إِذَا شَدَّدَ عَلَى نَفْسِهِ فِيمَا يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْهِ فَهُوَ هَالِكٌ، وَمِن ذَلِكَ: مَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ المَرْضَى ـ وَلَا سِيَّمَا فِي رَمَضَانَ ـ حَيْثُ يَكُونُ اللهُ قَدْ أَبَاحَ لَهُ الفِطْرَ وَهُوَ مَرِيضٌ، وَيَحْتَاجُ إِلَى الأَكْلِ وَالشُّرْبِ، وَلَكِنَّهُ يُشَدِّدُ عَلَى نَفْسِهِ فَيَبْقَى صَائِمًا، فَهَذَا أَيْضًا نَقُولُ: إِنَّهُ يَنْطَبِقُ عَلَيْهِ الحَدِيثُ: «هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ».

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٠).

(٢) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٥٨).

(٣) أخرجه البخاري في التاريخ الكبير (٤/ ٩٧)، وحسنه لغيره الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٣١٢٤).

(٤) فتح الحميد شرح كتاب التوحيد (٢/ ٨٥٨).

وَمِن ذَلِكَ: مَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ النَّاسِ مِنَ التَّنَطُّعِ فِي صِفَاتِ اللهِ تَعَالَى وَالتَّقَعُّرِ فِيهَا، حَيْثُ يَسْأَلُونَ عَمَّا لَمْ يَسْأَلْ عَنْهُ الصَّحَابَةُ ﷺ[1].

فَيَقُولُونَ مَثَلًا فِي قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «يَنزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ»[2]: «كَيْفَ يَنْزِلُ؟ وَلِمَ ثُلُثُ اللَّيْلِ؟ وَثُلُثُ اللَّيْلِ يَدُورُ عَلَى الأَرْضِ كُلِّهَا؛ مَعْنَى هَذَا: أَنَّهُ نَازِلٌ دَائِمًا، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ مِنَ الكَلَامِ الَّذِي لَا يُؤْجَرُونَ عَلَيْهِ، وَلَا يُحْمَدُونَ بَلْ هُم إِلَى الإِثْمِ أَقْرَبُ مِنْهُم إِلَى السَّلَامَةِ، وَهُم إِلَى الذَّمِّ أَقْرَبُ مِنْهُم إِلَى المَدْحِ.

هَذِهِ المَسَائِلُ الَّتِي لَمْ يُكَلَّف بِهَا الإِنْسَانُ وَهِيَ مِن مَسَائِلِ الغَيْبِ، وَلَمْ يَسْأَل عَنْهَا مَن هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ، وَأَحْرَصُ مِنْهُ عَلَى مَعْرِفَةِ اللهِ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، يَجِبُ عَلَيْهِ أَن يُمْسِكَ عَنْهَا، وَأَن يَقُولَ: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَصَدَّقْنا وَآمَنَّا، أَمَّا أَنْ يَبْحَثَ [عَنْ] أَشْيَاءَ دَقِيقَةٍ مَا لَهَا فَائِدَةٌ، فَإِنَّ هَذَا لَا شَكَّ أَنَّهُ مِنَ التَّنَطُّعِ»[3].

وَمِن ذَلِكَ أَيْضًا: مَا يَفْعَلُهُ بَعْضُ المُتَشَدِّدِينَ فِي الوُضُوءِ، حَيْثُ تَجِدُهُ مَثَلًا يَتَوَضَّأُ ثَلَاثًا أَو أَرْبَعًا أَو خَمْسًا أَو سَبْعًا، أَو أَكْثَرَ وَهُوَ فِي عَافِيَةٍ مِن ذَلِكَ، وَبَعْضُ النَّاسِ تَجِدُهُ يُشَدِّدُ فِي المَاءِ فَيُشَدِّدُ اللهُ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ إِذَا استَرْسَلَ مَعَ هَذَا الوَسْوَاسِ مَا كَفَاهُ أَرْبَعٌ أَو خَمْسٌ وَلَا سِتٌّ وَلَا أَكْثَرُ مِن ذَلِكَ، فَيَسْتَرْسِلُ مَعَهُ الشَّيْطَانُ حَتَّى يَخْرُجَ عَنْ طَوْرِهِ.

أَيْضًا فِي الاِغْتِسَالِ مِنَ الجَنَابَةِ، تَجِدُ البَعْضَ يَتعَبُ تَعَبًا عَظِيمًا عِنْدَ الاِغْتِسَالِ فِي إِدْخَالِ المَاءِ فِي أُذُنَيهِ، وَفِي إِدخَالِ المَاءِ فِي مِنخَرَيْهِ، وَكُلُّ هَذَا دَاخِلٌ فِي قَوْلِ الرَّسُولِ ﷺ: «هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ، هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ» فَكُلُّ مَن شَدَّدَ عَلَى نَفْسِهِ فِي أَمْرٍ قَد وَسَّعَ اللهُ لَهُ فِيهِ، فَإِنَّهُ يَدْخُلُ فِي هَذَا الحَدِيثِ[4].

وَالحَاصِلُ: أَنَّ كُلَّ مَا يَصْدُقُ عَلَيْهِ لُغَةً، أَوْ شَرعًا: أَنَّهُ تَنَطُّعٌ فِي الدِّينِ،

---

(١) القول المفيد على كتاب التوحيد (١/ ٣٧٧).
(٢) حديث متواتر: أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨).
(٣) شرح رياض الصالحين لفضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (١/ ٥٦٠).
(٤) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٦٠ ـ ٥٦١).

وَتَعَمُّقٌ فِي أَحْكَامِ الشَّرعِ المُبِينِ، فَهُوَ يَدْخُلُ تَحْتَ هَذَا الحَدِيثِ، دُخُولاً أَوَّلِيًّا. وَمَا أَجْمَعَهُ لِلمَعَانِي، مِن كُلِّ بَابٍ مِنَ البِدَعِ، والحَوَادِثِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ! فَاشْدُدْ يَدَيْكَ عَلَى مَنْطُوقِهِ، وَمَفْهُومِهِ، وَاعْرُضْ ظَاهِرَكَ وَبَاطِنَكَ عَلَيْهِ، حَتَّى يَمِيزَ اللهُ لَكَ الخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، وَتَعْرِفَ مَا هُوَ صَوَابٌ وَيُسْرٌ، وَتُنْكِرَ مَا هُوَ تَعَمُّقٌ وَخَوْضٌ وَعُسْرٌ. وَبِاللهِ التَّوْفِيقُ وَهُوَ المُسْتَعَانُ.

كَثْرَةُ الخَبَثِ

عَنْ زَيْنَبَ ابنَةِ جَحْشٍ رضي الله عنها: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَخَلَ عَلَيْهَا فَزِعًا يَقُولُ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَيْلٌ لِلعَرَبِ مِن شَرٍّ قَدِ اقْتَرَبَ، فُتِحَ اليَومَ مِن رَدمِ يَأجُوجَ ومَأجُوجَ مِثلُ هذِهِ» ـ وَحَلَّقَ بِإِصبَعِهِ الإِبهَامِ والَّتِي تَلِيهَا ـ قَالَت زَيْنَبُ بِنتُ جَحشٍ رضي الله عنها: فَقُلتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَنَهلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟! قالَ: «نَعَم، إِذَا كَثُرَ الخَبَثُ»[1].

وَيْلٌ: الخِزيُ وَالهَلَاكُ وَالعَذَابُ. رَدم يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ: الرَّدم: السَّدُّ العَظِيم، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾[الكهف: ٩٥] أَي سَدًّا مَتِينًا، وَالرَّدمُ أَكبَرُ مِنَ السَّدِّ وَأَوْثَقُ، فَهُوَ السَّدُّ المَتِينُ وَالحَاجِزُ الحَصِينُ. وَرَدمُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ: هُوَ السَّدُّ العَظِيمُ الَّذِي بَنَاهُ (ذُو القَرنَينِ)، وَإِلَى ذَلِكَ تُشِيرُ الآيَةُ الكَرِيمَةُ: ﴿قَالُوا يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾ [الكهف: ٩٤].

حَلَّقَ بِأُصبُعَيْهِ: جَعَلَ السَّبَّابَةَ فِي أَصْلِ الإِبْهَامِ وَضَمَّهَا، حَتَّى لَمْ يَبْقَ بَيْنَهُمَا إِلَّا خَلَلٌ يَسِيرٌ. «أَنَهلِكُ وَفِينا الصَّالِحُونَ؟!»: أَي وَبِهِم يُدفَعُ البَلَاءُ، وَيُزَالُ العَنَاءُ. قَالَ ﷺ: «نَعَم»: أَي تَهلِكُونَ وَالحَالُ مَا ذُكِرَ. الخَبَثُ: «اسمٌ جَامِعٌ يَجْمَعُ الزِّنَى وَغَيْرَهُ، مِنَ الشَّرِّ والفَسَادِ وَالمُنكَرِ فِي الدِّينِ»[2].

وَمَعْنَى الحَدِيثِ: إِذَا كَثُرَ الشَّرُّ وَالفَسَادُ، وَانتَشَرَتِ المَعَاصِي وَالمُنكَرَاتُ،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠).
(٢) التمهيد (٢٤/ ٣٠٧).

هَلَكَ النَّاسُ جَمِيعًا: صَالِحُهُم وَطَالِحُهُم، وَأَحَاطَ بِهِمُ العَذَابُ. فَظُهُورُ المَعَاصِي مِن أَسْبَابِ الهَلَاكِ العَامِّ، الَّذِي لَا يَنجُو مِنْهُ صَالِحٌ وَلَا طَالِحٌ.

تَركُ الأمرِ بِالمَعْرُوفِ والنَّهيِ عَنِ المُنكَرِ

عَنِ النُّعمَانِ بنِ بَشِيرٍ رضي الله عنهما: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ القَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللهِ والوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قومٍ استَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعضُهُم أَعْلَاهَا وَبَعضُهُم أَسْفَلَهَا؛ فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ، مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوقَهُم فَقَالُوا: لَو أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤذِ مَنْ فَوْقَنَا؛ فَإِنْ يَتْرُكُوهُم وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِن أَخَذُوا عَلَى أيدِيهِم نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا»[1].

«مَثَلُ القَائِمِ فِي حُدُودِ اللهِ وَالوَاقِعِ فِيهَا» القَائِمُ فِيهَا: يَعْنِي الَّذِي استَقَامَ عَلَى دِينِ اللهِ فَقَامَ بِالوَاجِبِ، وَتَرَكَ المُحَرَّمَ، وَالوَاقِعُ فِيهَا: فِي حُدُودِ اللهِ، أَي: الفَاعِلُ لِلمُحَرَّمِ أَوِ التَّارِكُ لِلوَاجِبِ «كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ» يَعْنِي: ضَرَبُوا سَهمًا، وَهُوَ مَا يُسَمَّى بِالقُرعَةِ، أَيُّهُم يَكُونُ الأَعْلَى؟ «فَصَارَ بَعضُهُم أَعلَاهَا، وَبَعضُهُم أَسفَلَهَا، وَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ المَاءِ» يَعْنِي إِذَا طَلَبُوا المَاءَ لِيَشرَبُوا مِنْهُ «مَرُّوا عَلَى مَن فَوقَهُم» يَعْنِي الَّذِينَ فِي أَعلَاهَا؛ لِأَنَّ المَاءَ لَا يُقدَرُ عَلَيْهِ إِلَّا مِن فَوقٍ، «فَقَالُوا: لَو أَنَّا خَرَقنَا فِي نَصِيبِنَا» يَعْنِي: لَو نَخرِقُ خَرقًا فِي مَكَانِنَا نَستَقِي مِنْهُ، حَتَّى لَا نُؤذِيَ مَن فَوقَنَا، هَكَذَا قَدِرُوا وَأَرَادُوا.

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «فَإِن يَتْرُكُوهُم وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا»؛ لِأَنَّهُم إِذَا خَرَقُوا خَرقًا فِي أَسفَلِ السَّفِينَةِ دَخَلَ المَاءُ، ثُمَّ أَغرَقَ السَّفِينَةَ، «وَإِن أَخَذُوا عَلَى أَيدِيهِم» وَمَنَعُوهُم مِن ذَلِكَ «نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا» يَعْنِي نَجَا هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ.

وَهَذَا المَثَلُ الَّذِي ضَرَبَهُ النَّبِيُّ ﷺ هُوَ مِنَ الأَمْثَالِ الَّتِي لَهَا مَغزًى عَظِيمٌ وَمَعْنًى عَالٍ، فَالنَّاسُ فِي دِينِ اللهِ كَالَّذِينَ فِي سَفِينَةٍ فِي لُجَّةِ النَّهرِ، فَهُم تَتَقَاذَفُهُمُ الأَمْوَاجُ،

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٩٣).

وَلَا بُدَّ أَن يَكُونَ بَعْضُهُم ـ إِذَا كَانُوا كَثِيرِينَ ـ فِي الأَسفَلِ وَبَعضُهُم فِي الأعلَى، حَتَّى تَتَوازَنَ حُمُولَةُ السَّفِينَةِ، وَحَتَّى لَا يُضَيِّقَ بَعضُهُم عَلَى بَعضٍ؛ وَفِيهِ أَنَّ هَذِهِ السَّفِينَةَ المُشتَرَكَةَ بَينَ هَؤُلَاءِ القَوْمِ: إِذَا أَرَادَ أَحَدٌ مِنْهُم أَن يُخَرِّبَهَا، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ أَن يُمسِكُوا عَلَى يَدَيهِ، وَأَن يَأخُذُوا عَلَى يَدَيهِ، لِيَنجُوا جَمِيعًا، فَإِن لَمْ يَفْعَلُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، هَكَذَا دِينُ اللهِ، إِذَا أَخَذَ العُقَلَاءُ وَأَهلُ العِلمِ وَالدِّينِ عَلَى الجُهَّالِ وَالسُّفَهَاءِ نَجَوْا جَمِيعًا، وَإِن تَرَكُوهُم وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥][1].

الغِيبَةُ

عَن أُسَامَةَ بنِ شَرِيكٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنتُ عِندَ النَّبِيِّ ﷺ، وَجَاءَتِ الأَعْرَابُ ـ نَاسٌ كَثِيرٌ مِن هَاهُنَا وهَاهُنَا ـ، فَسَكَتَ النَّاسُ لَا يَتَكَلَّمُونَ غَيرُهُم، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَعَلَيْنَا حَرَجٌ فِي كَذَا وَكَذَا؟ فِي أَشْيَاءَ مِن أُمُورِ النَّاسِ لَا بَأْسَ بِهَا. فَقَالَ: «يَا عِبَادَ اللهِ! وَضَعَ اللهُ الحَرَجَ، إِلَّا امرَءًا اقْتَرَضَ امرَءًا ظُلمًا، فَذَاكَ الَّذِي حَرِجَ وَهَلَكَ»[2].

«الحَرَجُ»: فِي الأَصْلِ الضِّيقُ، وَيَقَعُ عَلَى الإِثْمِ وَالحَرَامِ. اقتَرَضَ: أَي وَقَعَ فِيهِ وَعَابَهُ وَنَالَ مِنْهُ بِالغِيبَةِ، وَأَصلُ الكَلِمَةِ مِنَ القَرضِ وَهُوَ القَطْعُ. وَقَوْلُهُ: «حَرِجَ»: أَي أَثِمَ وَاستَوجَبَ العُقُوبَةَ.

وَهَذِهِ الخَصْلَةُ مِنْ أَقْبَحِ القَبَائِحِ وَأَكْثَرِهَا انتِشَارًا فِي النَّاسِ، حَتَّى مَا يَسْلَمَ مِنْهَا إِلَّا القَلِيلُ مِنَ النَّاسِ، فَلَا يَخْلُو مَجْلِسٌ مِنَ المَجَالِسِ، إِلَّا وَالغِيبَةُ إِدَامُهُم وَحَلْوَاهُم، وَفَاكِهَتُهُم يَتَفَكَّهُونَ بِهَا. فَكَمْ أَفْسَدَتِ الغِيبَةُ مِنْ أَعمَالِ الصَّالِحِينَ، وَكَمْ أَحْبَطَتْ مِنْ أُجُورِ العَامِلِينَ، وَكَمْ جَلَبَتْ مِن سَخَطِ رَبِّ العَالَمِينَ.

إِنَّهَا فَاكِهَةٌ مَسْمُومَةٌ أَحْلَى فِي الأَلْسُنِ مِنَ الزُّلَالِ، تِلْكَ هِيَ فَاكِهَةُ المَجَالِسِ لَا

---

(١) شرح رياض الصالحين (١/ ٧٠٨ ـ ٧٠٩).

(٢) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٢٩١)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٢٢٣).

يَشْبَعُ طَاعِمُهَا، وَإِنَّ أَكْثَرَ المَجَالِسِ تُقَدَّمُ فِيها هَذِهِ الفَاكِهَةُ. فَلِعُمُومِ الحَاجَةِ إِلى التَّحْذِيرِ مِنْهَا، أَنْصَحُ القَارِىءَ الكَرِيمَ بِقِرَاءَةِ كُتَيِّبِ «الغِيبَةُ وَأَثَرُهَا السَّيِّىءُ فِي المُجْتَمَعِ» للشَّيخِ الفَاضِلِ: حُسَينِ العَوَايشَةَ حَفِظَهُ اللهُ تَعَالَى.

نسألُ اللهَ تَعَالَى أَن يجعلَنا وَإِيَّاكم بِمَا عَلِمْناهُ عامِلِينَ، ولوجهِهِ بِهِ مريدِينَ، وَأَن لَا يجعلَهُ وبَالاً عَلَيْنَا، وَأَن يضعَهُ فِي ميزانِ الصَّالحَاتِ إِذَا رُدَّت أَعمَالُنَا إلينَا، إِنَّه جَوَادٌ كَرِيمٌ.

وآخرُ دَعوَانَا أَنِ الحَمدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

آثار الذنوب
على
الأفراد والشعوب

تأليف
عبد الهادي بن حسن وهبي

تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

إِنَّ الحَمدَ لِلَّهِ نَحمَدُهُ وَنَستَعِينُهُ وَنَستَغفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِن شُرُورِ أَنفُسِنَا وَمِن سَيِّئَاتِ أَعمَالِنَا، مَن يَهدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَن يُضلِل فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشهَدُ أَن لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللهُ، وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ.

أَمَّا بَعدُ: فَإِنَّ خَيرَ الكَلامِ كَلَامُ اللهِ، وَخَيرَ الهَدي هَديُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحدَثَةٍ بِدعَةٌ، وَكُلَّ بِدعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلالَةٍ فِي النَّارِ.

وَبَعدُ: «اقشَعَرَّتِ الأَرضُ وَأَظلَمَتِ السَّمَاءُ، وَظَهَرَ الفَسَادُ فِي البَرِّ والبَحرِ مِن ظُلمِ الفَجَرَةِ، وَذَهَبَتِ البَرَكَاتُ، وَقَلَّتِ الخَيرَاتُ، وَتَكَدَّرَتِ الحَيَاةُ مِن فِسقِ الظَّلَمَةِ، وَبَكَى ضَوءُ النَّهَارِ وظُلمَةُ اللَّيلِ مِنَ الأَعمَالِ الخَبِيثَةِ وَالأَفعَالِ الفَظِيعَةِ، وَشَكَا الكِرَامُ الكَاتِبُونَ إِلَى رَبِّهِم مِن كَثرَةِ الفَوَاحِشِ وَغَلَبَةِ المُنكَرَاتِ وَالقَبَائِحِ! قَسَتِ القُلُوبُ وَكَثُرَتِ الذُّنُوبُ وَانصَرَفَ الخَلقُ عَمَّا خُلِقُوا لَهُ، فَعَظُمَ بِذَلِكَ المُصَابُ وَاستَحكَمَ الدَّاءُ وَعَزَّ الدَّوَاءُ. وَهَذَا ـ وَاللهِ ـ مُنذِرٌ بِسَيلِ عَذَابٍ قَدِ انعَقَدَ غَمَامُهُ، وَمُؤذِنٌ بِلَيلِ بَلَاءٍ قَدِ ادلَهَمَّ ظَلَامُهُ»[1] بِمَا كَسَبَتْ أَيدِي العِبَادِ.

«إِنَّ المَعَاصِي تُخَرِّبُ الدِّيَارَ العَامِرَةَ، وَتَسلُبُ النِّعَمَ البَاطِنَةَ والظَّاهِرَةَ. فَكَم لَهَا مِنَ العُقُوبَاتِ وَالعَوَاقِبِ الوَخِيمَةِ؟! وَكَم لَهَا مِنَ الآثَارِ وَالأَوصَافِ الذَّمِيمَةِ؟! وَكَم أَزَالَت مِن نِعمَةٍ وَأَحَلَّت مِن مِحنَةٍ وَنِقمَةٍ؟!»[2].

---

(١) الفوائد (ص٨٨ ـ ٨٩)، لابن قيِّم الجوزيَّة [مكتبة المؤيَّد ـ الرياض].

(٢) المجموعة الكاملة للعلَّامة السعدي (٦/١١٨).

وَهَل فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ شَرٌّ وَدَاءٌ إِلَّا وَسَبَبُهُ ارتِكَابُ القَبَائِحِ وَالمُوبِقَاتِ، وَاجتِرَاحُ المَعَاصِي وَالسَّيِّئَاتِ؟ فَالذُّنُوبُ هِيَ أَسَاسُ البَلَاءِ وَأَصلُ الوَبَاءِ.

«فَمَا الَّذِي أَخرَجَ الأَبَوَينِ مِنَ الجَنَّةِ، دَارِ اللَّذَّةِ وَالنَّعِيمِ وَالبَهجَةِ وَالسُّرُورِ، إِلَى دَارِ الآلَامِ وَالأَحزَانِ وَالمَصَائِبِ؟

وَمَا الَّذِي أَخرَجَ إِبلِيسَ مِن مَلَكُوتِ السَّمَاءِ وَطَرَدَهُ وَلَعَنَهُ وَمَسَخَ ظَاهِرَهُ وَبَاطِنَهُ فَجَعَلَ صُورَتَهُ أَقبَحَ صُورَةٍ وَأَشنَعَهَا، وَبَاطِنَهُ أَقبَحَ مِن صُورَتِهِ وَأَشنَعَ، وَبُدِّلَ بِالقُربِ بُعدًا، وَبِالرَّحمَةِ لَعنَةً، وَبِالجَمَالِ قُبحًا، وَبِالجَنَّةِ نَارًا تَلَظَّى، وَبِالإِيمَانِ كُفرًا؟

وَمَا الَّذِي أَغرَقَ أَهلَ الأَرضِ كُلَّهُم حَتَّى عَلَا المَاءُ فَوقَ رُؤُوسِ الجِبَالِ؟

وَمَا الَّذِي سَلَّطَ الرِّيحَ عَلَى قَومِ عَادٍ حَتَّى أَلقَتهُم مَوتَى عَلَى وَجهِ الأَرضِ كَأَنَّهُم أَعجَازُ نَخلٍ خَاوِيَةٍ، وَدَمَّرَت مَا مَرَّت عَلَيهِ مِن دِيَارِهِم وَحُرُوثِهِم وَزُرُوعِهِم وَدَوَابِّهِم حَتَّى صَارُوا عِبرَةً لِلأُمَمِ إِلَى يَومِ القِيَامَةِ؟

وَمَا الَّذِي أَرسَلَ عَلَى قَومِ ثَمُودَ الصَّيحَةَ حَتَّى قُطِّعَت قُلُوبُهُم فِي أَجوَافِهِم وَمَاتُوا عَن آخِرِهِم؟ وَمَا الَّذِي رَفَعَ قُرَى اللُّوطِيَّةِ حَتَّى سَمِعَتِ المَلَائِكَةُ نَبِيحَ كِلَابِهِم، ثُمَّ قَلَبَهَا عَلَيهِم، فَجَعَلَ عَالِيَهَا سَافِلَهَا، فَأَهلَكَهُم جَمِيعًا، ثُمَّ أَتبَعَهُم حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَمطَرَهَا عَلَيهِم، فَجَمَعَ عَلَيهِم مِنَ العُقُوبَاتِ مَا لَم يَجمَعهُ عَلَى أُمَّةٍ غَيرِهِم، وَلِإِخوَانِهِم أَمثَالُهَا، وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ؟

وَمَا الَّذِي أَرسَلَ عَلَى قَومِ شُعَيبٍ سَحَابَ العَذَابِ كَالظُّلَلِ، فَلَمَّا صَارَ فَوقَ رُؤُوسِهِم أَمطَرَ عَلَيهِم نَارًا تَلَظَّى؟ وَمَا الَّذِي أَغرَقَ فِرعَونَ وَقَومَهُ فِي البَحرِ ثُمَّ نُقِلَت أَروَاحُهُم إِلَى جَهَنَّمَ، وَالأَجسَادُ لِلغَرَقِ، وَالأَروَاحُ لِلحَرقِ؟ وَمَا الَّذِي خَسَفَ بِقَارُون وَدَارِهِ وَمَالِهِ وَأَهلِهِ؟ وَمَا الَّذِي أَهلَكَ القُرُونَ مِن بَعدِ نُوحٍ بِأَنوَاعِ العُقُوبَاتِ وَدَمَّرَهَا تَدمِيرًا؟»[1].

سُبحَانَ اللهِ وَبِحَمدِهِ، غَرَقٌ وَحَرِيقٌ وَرِيحٌ عَقِيمٌ، ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴿٤٢﴾﴾ [الذاريات: ٤٢]، وَصَيحَةٌ وَاحِدَةٌ تَجعَلُ العُصَاةَ كَالهَشِيمِ،

---

(١) الداء والدواء (ص٦٥ ـ ٦٧).

وَخَسفٌ مُرَوِّعٌ يَجعَلُ عَالِيَ الأَرضِ سَافِلَهَا، وَمَطَرٌ بِالحِجَارَةِ مِنَ السَّمَاءِ، وَسَحَابٌ يُمطِرُ نَارًا تَلَظَّى، أَفَلَا يَعتَبِرُ اللَّاحِقُونَ بِالمَاضِينَ؟!

مَا هِيَ آثَارُ الذُّنُوبِ عَلَى الأَفرَادِ وَالشُّعُوبِ؟ هَذَا أَوَانُ الحَدِيثِ عَنْهَا، فَأَلْقِ سَمْعَكَ وَأَحْضِر قَلْبَكَ، وَكُن مِنَ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ القَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ.

الراجي عفو ربه

عبد الهادي بن حسن وهبي

تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

آثار الذنوب
على الأفراد والشعوب

إِنَّ أَضرَارَ المَعَاصِي، وَشُؤمَ الذُّنُوبِ عَظِيمٌ وَخَطِيرٌ؛ وَلَهَا «مِنَ الآثَارِ القَبِيحَةِ المَذمُومَةِ، وَالمُضِرَّةِ بِالقَلبِ وَالبَدَنِ فِي الدُّنيَا والآخِرَةِ، مَا لَا يَعْلَمُهُ إِلَّا اللهُ»[1].

فَمِنهَا:

أَوَّلاً: حِرمَانُ العِلم: فَالعِلمُ نُورٌ يَقذِفُهُ اللهُ فِي القَلبِ، وَالمَعصِيَةُ تُطفِىءُ ذَلِكَ النُّورَ، فَكَم هِيَ المَعَارِفُ الَّتِي تَعَلَّمنَاهَا ثُمَّ تَاهَت فِي سَرَادِيبِ النِّسيَانِ، كَانَ سَبَبَ ذَلِكَ المَعَاصِي.

فَكَمْ مِنْ حَافِظٍ لِكِتَابِ اللهِ أُنسِيَهُ حِينَ تَعَلَّقَ قَلْبُهُ بِمَعصِيَةٍ، وَكَم مِن مُجِدٍّ فِي الدَّعوَةِ إِلَى اللهِ حُرِمَ بَرَكَةَ ذَلِكَ بِسَبَبِ الذُّنُوبِ.

شَكَوتُ إِلَى وَكِيعٍ سُوءَ حِفظِي ... فَأَرشَدَنِي إِلَى تَركِ المَعَاصِي

وَقَالَ اعلَم بِأَنَّ العِلمَ فَضلٌ ... وَفَضلُ اللهِ لاَ يُؤتَاهُ عَاصِ

قَالَ شَيخُ الإِسلَامِ رَحِمَهُ اللهُ: «وَاللهُ سُبحَانَهُ جَعَلَ مِمَّا يُعَاقَبُ بِهِ النَّاسَ عَلَى الذُّنُوبِ: سَلبَ الهُدَى وَالعِلمِ النَّافِعِ»[2].

وَلَمَّا كَانَ أَهلُ القُرُونِ المُفَضَّلَةِ أَتقَى لِلَّهِ، وَأَبعَدَ عَنِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّ مَن بَعدَهُم كَانَ دُونَهُم فِي تَحقِيقِ العِلمِ وَإِصَابَةِ الحَقِّ.

---

(١) الداء والدواء (ص٨٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٤/ ١٥٢).

قَالَ الضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاحِمٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَا مِنْ أَحَدٍ تَعَلَّمَ القُرْآنَ ثُمَّ نَسِيَهُ، إِلَّا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ؛ وَذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠]، وَنِسْيَانُ القُرْآنِ مِنْ أَعْظَمِ المَصَائِبِ»[1].

ثَانِيًا: حِرمَانُ الرِّزقِ: كَمَا أَنَّ التَّقوَى مَجلَبَةٌ لِلرِّزقِ، فَتَركُ التَّقوَى مَجلَبَةٌ لِلفَقرِ، فَمَا استُجلِبَ رِزقُ اللهِ بِمِثلِ تَركِ المَعَاصِي، وَأَمَّا مَا نَرَاهُ مِن وَاقِعِ الكُفَّارِ أَوِ الفَاسِقِينَ مِن سَعَةِ رِزقٍ فَإِنَّمَا هِيَ استِدرَاجٌ، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِذَا رَأَيتَ اللهَ يُعطِي العَبدَ مِنَ الدُّنيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ استِدرَاجٌ» ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤][2]. أَي: بِمَا أُعطُوا مِنَ الصِّحَّةِ، وَالعَافِيَةِ، وَالغِنَى، وَالأَموَالِ، وَالرَّاحَةِ، فَرِحَ بَطَرٍ وَأَشَرٍ، حَتَّى إِذَا حَصَلَ فِيهِم ذَلِكَ أَخَذَهُمُ اللهُ، وَهُوَ الآخِذُ بِقُوَّةٍ وَشِدَّةٍ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]. وَمَعنَى البَغتَةِ: الفَجأَةُ. وَذَلِكَ أَشَدُّ مَا يُؤخَذُ بِهِ الإِنسَانُ، لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ بِالعَذَابِ قَبلَ نُزُولِهِ يَكُونُ مُتَجَلِّدًا مُستَعِدًّا. أَمَّا إِذَا بَغَتَهُ قَبلَ استِعدَادٍ لَهُ فَهَذَا أَشَدُّ وَأَنكَى[3].

فَإِنَّ المَقصُودَ بِالرِّزقِ مَا قَلَّ وَكَفَى، لَا مَا كَثُرَ وَأَلهَى. كَمَا قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَإِنَّ مَا قَلَّ وَكَفَى، خَيرٌ مِمَّا كَثُرَ وَأَلهَى»[4]. فَكَم مِمَّن يَملِكُ الآلَافَ المُؤَلَّفَةَ وَهِيَ تُشقِيهِ وَلَا تُسعِدُهُ. فَهُوَ لَا يَنفَكُّ مِن ثَلَاثٍ:

هَمٌّ لَازِمٌ، وَتَعَبٌ دَائِمٌ، وَحَسرَةٌ لَا تَنقَضِي.

وَذَلِكَ أَنَّهُ لَا يَنَالُ شَيئًا مِنَ الدُّنيَا إِلَّا طَمَحَت نَفسُهُ إِلَى مَا فَوقَهُ؛ كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَو كَانَ لِابنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِن مَالٍ لَابتَغَى ثَالِثًا، وَلَا يَملَأُ جَوفَ ابنِ آدَمَ

---

(١) أخرجه ابن المبارك في «الزهد» (رقم: ٨٥)، وقال الشيخ أبو إسحاق الحويني في تعليقه على «فضائل القرآن» لابن كثير (ص٢٢٢): «سنده جيد».

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٥)، وصححه لغيره الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «الصحيحة» (٤١٣).

(٣) العَذب النَّمِير (١/ ٢٥٨ ـ ٢٥٩)، بتصرف يسير.

(٤) قطعة من حديث: أخرجه أحمد (٥/ ١٩٧)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٧٠٦).

إِلَّا التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللهُ عَلَى مَنْ تَابَ»[1].

وَكَم مِن رَجُلٍ أَحوَالُهُ مَستُورَةٌ هُوَ قَرِيرُ العَينِ، هَانِيءُ البَالِ.

عَن عُبَيد اللهِ بنِ مِحْصَنٍ الخَطْمِيِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَن أَصبَحَ مِنكُم آمِنًا فِي سِربِهِ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِندَهُ قُوتُ يَومِهِ؛ فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا»[2].

قَالَ الحُطَيْئَةُ:

وَلَستُ أَرَى السَّعَادَةَ جَمعَ مَالٍ ... وَلَكِنَّ التَّقِيَّ هُوَ السَّعِيدُ

وَتَقوَى اللهِ خَيرُ الزَّادِ ذُخرًا ... وَعِندَ اللهِ لِلأَتْقَى مَزِيدُ

ثَالِثًا: تَعسِيرُ الأُمُورِ عَلَى العَاصِي، فَلَا يَتَوَجَّهُ لِأَمْرٍ إِلَّا يَجِدَهُ مُغلقًا دُونَهُ أَو مُتَعَسِّرًا عَلَيْهِ، وَهَذَا كَمَا أَنَّ مَنِ اتَّقَى اللهَ جَعَلَ لَهُ مِن أَمرِهِ يُسرًا، فَمَن عَطَّلَ التَّقوَى جَعَلَ لَهُ مِن أَمرِهِ عُسرًا.

وَيَالِلَّهِ العَجَبُ! كَيْفَ يَجِدُ العَبْدُ أَبوَابَ الخَيرِ، وَأَبوَابَ المَصَالِحِ مَسدُودَةً عَنْهُ، وَطُرُقَهَا مُتَعَسِّرَةً عَلَيْهِ، وَهُوَ لَا يَعلَمُ مِن أَينَ أُتِيَ؟

فَيَا مُستَفتِحًا بَابَ المَعَاشِ بِغَيرِ مِفتَاحِ التَّقوَى! كَيْفَ تُوَسِّعُ طَرِيقَ الخَطَايَا، وَتَشكُو ضِيقَ الرِّزقِ؟!

قَالَ اللهُ سُبحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ﴾ [الطلاق: ٢ ـ ٣]. «فَقَد ضَمِنَ اللهُ لِلمُتَّقِينَ أَن يَجعَلَ لَهُم مَخرَجًا مِمَّا يُضَيِّقُ عَلَى النَّاسِ، وَأَن يَرزُقَهُم مِن حَيثُ لَا يَحتَسِبُونَ، فَإِذَا لَمْ يَحْصُل ذَلِكَ، دَلَّ عَلَى أَنَّ فِي التَّقوَى خَلَلًا، فَليَستَغفِرِ اللهَ، وَليَتُب إِلَيهِ»[3].

إِذَا كُنْتَ تَتَّقِي اللهَ فَثِق أَنَّ اللهَ سَيَجعَلُ لَكَ مَخرَجًا مِنْ كُلِّ ضِيقٍ، وَاعتَمِد ذَلِكَ لِأَنَّهُ قَولُ مَنْ يَقُولُ لِلشَّيءِ: كُن! فَيَكُونَ.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤٣٦)، ومسلم (١٠٤٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٤٦)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٥٤٣).

(٣) شرح العقيدة الطحاويّة (ص٢٦٩)، لابن أبي العز الحنفي، المكتب الإسلامي ـ بيروت.

بِتَقْوَى الإِلٰهِ نَجَا مَنْ نَجَا وَفَازَ وَصَارَ إِلَى مَا رَجَا
وَمَن يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ كَمَا قَالَ مِنْ أَمْرِهِ مَخْرَجَا

«فَشُهُودُ العَبدِ نَقْصَ حَالِهِ إِذَا عَصَى رَبَّهُ، وَانسِدَادَ الأَبوَابِ فِي وَجهِهِ، وَتَوَعُّرَ المَسَالِكِ عَلَيهِ، حَتَّى يَعلَمَ مِنْ أَينَ أُتِيَ؟ وَوُقُوعُهُ عَلَى السَّبَبِ المُوجِبِ لِذَلِكَ، مِمَّا يُقَوِّي إِيمَانَهُ»[1].

رَابِعًا: حِرمَانُ الطَّاعَةِ. فَإِنَّ شُؤمَ الذُّنُوبِ يُورِثُ الحِرمَانَ، وَيَعْقِبُ الخُذلَانَ. فَيَا عَجَبًا كَيفَ يُوَفَّقُ لِلطَّاعَةِ مَن هُوَ فِي شُؤمِ المَعصِيَةِ؟ وَكُلَّمَا ازدَادَ العَبْدُ طَاعَةً وَقُربًا كُلَّمَا يُسِّرَ لَهُ فِي عَمَلِ الصَّالِحَاتِ، وَأَضْحَت أَهْوَنَ عَلَيْهِ مِن كُلِّ شَيْءٍ، وَأَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ، حَتَّى يَعِزَّ عَلَى العَبْدِ مُفَارَقَتُهَا، فَلَوْ قِيلَ لِلعَبْدِ المُحسِنِ: صَلِّ الفَجْرَ فِي البَيْتِ مَا وَجَدَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلاً، وَلَضَاقَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ، وَضَاقَتْ عَلَيْهِ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ، وَأَحَسَّ مِنْ نَفْسِهِ كَأَنَّهُ الحُوتُ إِذَا فَارَقَ المَاءَ، حَتَّى يُعَاوِدَ الطَّاعَةَ فَتَسْكُنَ نَفْسُهُ وَتَقَرَّ عَينُهُ، وَلَو عَطَّلَ المُجْرِمُ المَعْصِيَةَ لَضَاقَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ، وَضَاقَ صَدْرُهُ، حَتَّى يُعَاوِدَهَا؛ حَتَّى تَصِيرَ المَعَاصِي هَيْئَاتٍ رَاسِخَةً، وَصِفَاتٍ لَازِمَةً، وَمَلَكَاتٍ ثَابِتَةً، حَتَّى إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الفُسَّاقِ لَيُوَاقِعُ المَعْصِيَةَ مِن غَيْرِ لَذَّةٍ يَجِدُهَا وَلَا دَاعِيَةٍ إِلَيْهَا، إِلَّا لِمَا يَجِدُ مِنَ الأَلَمِ بِمُفَارَقَتِهَا، كَمَا صَرَّحَ بِذَلِك شَيْخُ القَوْمِ الحَسَنُ بْنُ هَانِىءٍ حَيْثُ يَقُولُ:

وَكَأْسٍ شَرِبْتُ عَلَى لَذَّةٍ وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

عِندَمَا شَرِبَ الكَأْسَ الأُولَى وَجَدَ لَذَّةً، وَالآنَ هُوَ يَشْرَبُ لِيَدْفَعَ الأَلَمَ الَّذِي يُعَانِي مِنْهُ، فَهُوَ مُسْتَغْرِقٌ فِي بِحَارِ الهُمُومِ وَالغُمُومِ، وَالأَحْزَانِ وَالآلَامِ وَالحَسَرَاتِ.

وَقَالَ:

دَعْ عَنْكَ لَومِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءُ وَدَاوِنِي بِالَّتِي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ

وَقَالَ الآخَرُ:

وَكَانَتْ دَوَائِي وَهِيَ دَائِي بِعَيْنِهِ كَمَا يَتَدَاوَى شَارِبُ الخَمْرِ بِالخَمْرِ

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٢٣)، وتهذيب المدارج (١/ ٣٦٢) ـ بتصرُّف ـ.

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ لِلذَّنْبِ عُقُوبَةٌ إِلَّا أَنْ يَصُدَّ عَنِ الطَّاعَةِ، لَكَانَ فِي ذَلِكَ كِفَايَةٌ لِمَا فِيهِ مِنَ الحِرْمَانِ.

خَامِسًا: الذُّنُوبُ إِذَا تَكَاثَرَتْ طُبِعَ عَلَى قَلْبِ صَاحِبِهَا، فَكَانَ مِنَ الغَافِلِينَ. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ العَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً، نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ واسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبَهُ، وهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللهُ: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المطففين: ١٤]»[1].

صُقِلَ قَلْبُهُ: حَتَّى يَصِيرَ كَالمِرْآةِ المَصْقُولَةِ فِي جِلَائِهَا وَصَفَائِهَا، فَيَمْتَلِئَ نُورًا.

وَكَمْ رَانَ مِنْ ذَنْبٍ عَلَى قَلْبِ فَاجِرٍ ... فَتَابَ مِنَ الذَّنْبِ الَّذِي رَانَ وَانْجَلَى[2]

وَهَذَا مِثَالٌ لِأَحَدِ الذُّنُوبِ يَضْرِبُهُ الرَّسُولُ ﷺ لِنَحْذَرَ مِنَ التَّمَادِي فِي المَعْصِيَةِ، لِأَنَّهَا تُسَبِّبُ الغَفْلَةَ وَالخَتْمَ عَلَى القَلْبِ، فَيَقُولُ ﷺ: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الجُمُعَاتِ، أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الغَافِلِينَ»[3].

وَلَا رَيْبَ أَنَّ أَبْدَانَ الغَافِلِين قُبُورٌ لِقُلُوبِهِم، وَقُلُوبُهُم فِيهَا كَالأَمْوَاتِ فِي القُبُورِ، كَمَا قِيلَ:

فَنِسْيَانُ ذِكْرِ اللهِ مَوْتُ قُلُوبِهِمُ ... وَأَجْسَامُهُم قَبْلَ القُبُورِ قُبُورُ

سَادِسًا: وَمِنْ آثَارِ الذُّنُوبِ: مَا يَحِلُّ بِالأَرْضِ مِنَ الخَسْفِ وَالزَّلَازِلِ، وَاللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العنكبوت: ٤٠] أي: مَا يَنْبَغِي وَلَا يَلِيقُ بِهِ لِيَظْلِمَهُم لِكَمَالِ عَدْلِهِ، وَغِنَاهُ التَّامِّ عَنْ جَمِيعِ الخَلْقِ، وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُم يَظْلِمُونَ: مَنَعُوهَا حَقَّهَا الَّذِي هِيَ بِصَدَدِهِ، فَإِنَّهَا مَخْلُوقَةٌ لِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، فَهَؤُلَاءِ وَضَعُوهَا فِي

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٣٤)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (١٦٧٠).
(٢) تفسير القرطبي (١٩/ ٢٦٠).
(٣) أخرجه مسلم (٨٦٥).

غَيْرِ مَوْضِعِهَا وَشَغَلُوهَا بِالشَّهَوَاتِ وَالمَعَاصِي، فَضَرُّوهَا غَايَةَ الضَّرَرِ، مِنْ حَيْثُ ظَنُّوا أَنَّهُم يَنْفَعُونَهَا.

وَلَا شَكَّ أَنَّ مَا حَدَثَ لِلأُمَمِ السَّابِقَةِ: مِنَ الخَسْفِ وَالمَسْخِ وَالغَرَقِ، يُمْكِنُ أَن يَحدُثَ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ، إِذَا سَلَكُوا مَسَالِكَهُم وَانْتَهَجُوا مَنَاهِجَهُم.

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «فِي هَذِهِ الأُمَّةِ خَسْفٌ، وَمَسْخٌ، وَقَذْفٌ» فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَتَى ذَاكَ؟ قَالَ: «إِذَا ظَهَرَتِ القَيْنَاتُ وَالمَعَازِفُ، وَشُرِبَتِ الخُمُورُ»[1].

«وَلَقَدْ ظَهَرَتِ القَيْنَاتُ وَالمَعَازِفُ فِي زَمَنِنَا الحَاضِرِ ظُهُورًا فَاحِشًا، مَا ظَهَرَت مِثْلَهُ قَطُّ: ظُهُورًا مَسْمُوعًا بِالآذَانِ وَمَشْهُودًا بِالعَيَانِ، فِي كِلِّ وَقْتٍ وَفِي كُلِّ مَكَانٍ: فِي البَيْتِ وَالسُّوقِ وَالدُّكَّانِ»[2].

أَلَيْسَ مَا يُشَاهَدُ فِي الفَضَائِيَّاتِ وَغَيْرِهَا، مِنْ ظُهُورِ هَذِهِ الفَوَاحِشِ المَذْكُورَةِ وَالدَّعْوَةِ لَهَا وَتَزْيِينِهَا، تَصْدِيقًا لِهَذَا الحَدِيثِ العَظِيمِ؟! فَلْنَتَّقِ اللهَ وَلْنُطَهِّر بُيُوتَنَا مِنْ هَذِهِ القَنَوَاتِ المُنْحَرِفَةِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ بِنَا الخَسْفُ وَالمَسْخُ وَالقَذْفُ؟!

لَا نَدْرِي كَيْفَ يَأْمَنُ العُصَاةُ فِي عَصْرِنَا، مَعَ مَا يَقُومُونَ بِهِ مِنْ أَفْعَالٍ سَيِّئَةٍ؟! وَقَدْ أَخْبَرَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ عَنْ أَمْثَالِهِم فَقَالَ: ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ - أي القبيحات قبحًا شديدًا - ﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل: ٤٥].

فَلْيَسْتَحِ المُجْرِمُ مِنْ رَبِّهِ، أَنْ تَكُونَ نِعَمُ اللهِ عَلَيْهِ نَازِلَةً فِي جَمِيعِ اللَّحظَاتِ، وَمَعَاصِيهِ صَاعِدَةً إِلَى رَبِّهِ فِي كُلِّ الأَوْقَاتِ، وَلْيَعْلَم أَنَّ اللهَ يُمْهِلُ وَلَا يُهْمِلُ، وَأَنَّهُ إِذَا أَخَذَ العَاصِي، أَخَذَهُ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ، فَلْيَتُب إِلَى اللهِ، وَلْيَرْجِعْ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ إِلَيْهِ، فَإِنَّهُ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ.

سَابِعًا: الاخْتِلَافُ وَالتَّمَزُّقُ: عَنِ ابْنِ عُمَرَ ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَقُولُ:

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٢١٢)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٤٧٩).
(٢) الضياء اللامع من الخطب الجوامع للعلّامة العثيمين (ص٦٣٥).

«وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، مَا تَوَادَّ اثنانِ فَفُرِّقَ بَيْنَهُمَا، إِلَّا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا»[1].

وَلَمْ يَذْكُر رَسُولُ اللهِ ﷺ نَوْعَ الذَّنْبِ، بَلْ أَيُّ ذَنْبٍ يَكُونُ سَبَبًا فِي التَّفْرِيقِ بَيْنَ المُتَحَابِّينَ!! وَكَذَلِكَ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ وَالأَقَارِبِ وَغَيْرِهِمْ، وَهَذَا مِمَّا لَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ.

وَقَدْ يَظُنُّ بَعْضُ النَّاسِ أَنَّ بَعْضَ الجُزْئِيَّاتِ مِنَ العِبَادَةِ أَوِ السُّنَّةِ الوَاجِبَةِ أَوِ الشُّكْلِيَّاتِ ـ كَمَا يُسَمُّونَهَا ـ لَا تَسْتَوْجِبُ مِثْلَ هَذِهِ العُقُوبَةِ، وَلَكِنْ تَأَمَّلُوا الحَدِيثَ التَّالِيَ: عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ ﷺ يَقُولُ: أَقْبَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى النَّاسِ بِوَجْهِهِ، فَقَالَ: «أَقِيمُوا صُفُوفَكُم (ثلاثًا)، وَاللهِ لَتُقِيمُنَّ صُفُوفَكُم أَوْ لَيُخَالِفَنَّ اللهُ بَيْنَ قُلُوبِكُم» قَالَ: فَرَأَيْتُ الرَّجُلَ يُلْزِقُ مَنْكِبَهُ بِمَنْكِبِ صَاحِبِهِ، وَرُكْبَتَهُ بِرُكْبَةِ صَاحِبِهِ، وَكَعْبَهُ بِكَعْبِهِ[2].

فَهَذِهِ عُقُوبَةٌ شَدِيدَةٌ ـ وَهِيَ اخْتِلَافُ القُلُوبِ ـ يُحَذِّرُنَا الرَّسُولُ ﷺ وَيُخَوِّفُنَا مِنْهَا نَتِيجَةً لِعَدَمِ إِقَامَةِ الصَّفِّ فِي الصَّلَاةِ، فَكَيْفَ بِمَا هُوَ أَكْبَرُ وَأَعْظَمُ مِنَ الذُّنُوبِ؟!

وَالعَجَبُ مِمَّنْ يُهَوِّنُ مِنْ شَأْنِ هَذِهِ السُّنَّةِ العَمَلِيَّةِ الَّتِي جَرَى عَلَيْهَا الصَّحَابَةُ ﷺ، وَأَقَرَّهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْهَا.

ثَامِنًا: الهَزَائِمُ العَسْكَرِيَّةُ: فِي غَزْوَةِ أُحُدٍ كَانَتْ بِدَايَةُ المَعْرَكَةِ لِصَالِحِ المُسْلِمِينَ، وَلَمَّا رَأَى الرُّمَاةُ إِخْوَانَهُمْ يَتَقَاسَمُونَ الغَنَائِمَ تَرَكَ مُعْظَمُهُمُ الجَبَلَ، فَكَانَ مَا كَانَ وَحَصَلَ مَا حَصَلَ وَكَانَتِ الهَزِيمَةُ.

قَالَ تَعَالَى لِخِيَارِ خَلْقِهِ وَأَصْحَابِ نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ﴾ ـ حِينَ أَصَابَهُمْ مَا أَصَابَهُمْ يَوْمَ أُحُدٍ، وَقُتِلَ مِنْهُمْ نَحْوُ سَبْعِينَ ـ ﴿قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا﴾ ـ مِنَ المُشْرِكِينَ، فَقَتَلْتُمْ سَبْعِينَ مِنْ كِبَارِهِمْ، وَأَسَرْتُم سَبْعِينَ ـ ﴿قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ ـ أَيْ: مِنْ أَيْنَ أَصَابَنَا مَا أَصَابَنَا وَهُزِمْنَا؟ ـ ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾ ـ حِينَ تَنَازَعْتُم وَعَصَيْتُم ـ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٦٨ رقم ٥٣٥٧)، وصححه الألباني رحمه الله بمجموع طرقه في «الصحيحة» (٦٣٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٦٦٢)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (١/ ١٩٦).

تَبَيَّنَ لَنَا مِمَّا سَبَقَ: أَنَّ النَّصرَ قَدْ يَنْقَلِبُ إِلَى هَزِيمَةٍ إِذَا حَصَلَتِ المَعْصِيَةُ، وَمِمَّا هُوَ جَدِيرٌ بِالمُلَاحَظَةِ؛ أَنَّ صُفُوفَ المُسْلِمِينَ فِي ذَلِكَ الوَقْتِ كَانَتْ تَضُمُّ إِلَيْهَا الرَّسُولَ ﷺ وَخَيْرَ الأَنَامِ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ بَعْدَ الأَنْبِيَاءِ صَحَابَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ، إِلَّا أَنَّ هَذَا لَمْ يَمْنَعْ مِنْ نُزُولِ العُقُوبَةِ بِسَبَبِ وُقُوعِ بَعْضِهِم فِي المَعْصِيَةِ؛ فَكَيْفَ بِصُفُوفِ المُسْلِمِينَ اليَوْمَ، وَقَدْ كَثُرَ الخَبَثُ، وَظَهَرَتْ أَلْوَانُ الفَسَادِ فِي كَثِيرٍ مِنَ البِلَادِ؟!

«إِنَّ الطَّمَعَ فِي النَّصْرِ بِدُونِ وُجُودِ أَسْبَابِهِ، طَمَعٌ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ؛ إِنَّهُ كَالطَّمَعِ فِي الأَوْلَادِ بِدُونِ نِكَاحٍ، وَكَالطَّمَعِ فِي الأَشْجَارِ بِدُونِ غَرْسٍ، أَوْ فِي رِبْحِ التِّجَارَةِ بِدُونِ اتِّجَارٍ»[1].

عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَمَّا بَعْدُ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ! فَإِنَّكُمْ أَهْلُ هَذَا الأَمْرِ، مَا لَمْ تَعْصُوا اللهَ، فَإِذَا عَصَيْتُمُوهُ؛ بَعَثَ إِلَيْكُمْ مَنْ يَلْحَاكُمْ كَمَا يُلْحَى هَذَا القَضِيبُ» - لِقَضِيبٍ فِي يَدِهِ -، ثُمَّ لَحَا قَضِيبَهُ، فَإِذَا هُوَ أَبْيَضُ يَصْلِدُ[2].

يَلْحَى: أَي يَقْشُرُ، وَالصَّلْدُ: هُوَ الأَمْلَسُ.

وَهَذَا الحَدِيثُ عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ نُبُوَّتِهِ ﷺ، فَقَدِ اسْتَمَرَّتِ الخِلَافَةُ فِي قُرَيْشٍ عِدَّةَ قُرُونٍ، ثُمَّ دَالَتْ دَوْلَتُهُم، بِعِصْيَانِهِم لِرَبِّهِم، وَاتِّبَاعِهِم لِأَهْوَائِهِم، فَسَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِم مِنَ الأَعَاجِمِ مَنْ أَخَذَ الحُكْمَ مِنْ أَيْدِيهِم، وَذَلَّ المُسْلِمُونَ مِنْ بَعْدِهِم، إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ. وَلِذَلِكَ فَعَلَى المُسْلِمِينَ - إِذَا كَانُوا صَادِقِينَ فِي سَعْيِهِم لِإِعَادَةِ الدَّوْلَةِ الإِسْلَامِيَّةِ - أَنْ يَتُوبُوا إِلَى رَبِّهِم، وَيَرْجِعُوا إِلَى دِينِهِم، وَيَتَّبِعُوا أَحْكَامَ شَرِيعَتِهِم[3].

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ نُفَيرٍ قَالَ: لَمَّا فُتِحَتْ قُبْرُسُ، وَفُرِّقَ بَيْنَ أَهْلِهَا، فَبَكَى بَعْضُهُم إِلَى بَعْضٍ، رَأَيْتُ أَبَا الدَّرْدَاءِ جَالِسًا وَحْدَهُ يَبْكِي؛ فَقُلْتُ: يَا أَبَا الدَّرْدَاءِ، مَا يُبْكِيكَ فِي يَوْمٍ أَعَزَّ اللهُ فِيهِ الإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ؟! قَالَ: «وَيْحَكَ يَا جُبَيْرُ، مَا أَهْوَنَ الخَلْقَ عَلَى

---

(١) الضياء اللامع (ص٣٢٧).
(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٥٨ رقم: ٤٣٨٠)، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (١٥٥٢).
(٣) السلسلة الصحيحة (٤/ ٧٠).

اللهِ إِذَا هُمْ تَرَكُوا أَمْرَهُ؛ بَيْنَا هِيَ أُمَّةٌ قَاهِرَةٌ ظَاهِرَةٌ لَهُمُ الْمُلْكُ، تَرَكُوا أَمْرَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَصَارُوا إِلَى مَا تَرَى»[1].

وَحدِيثُ أَبِي الدَّرْدَاءِ هَذَا يُلْقِي الأَضْوَاءَ الكَاشِفَةَ عَلَى الأَسْبَابِ وَالخُطُوبِ الكَامِنَةِ وَرَاءَ نَكْبَةِ أُمَّتِنَا الإِسْلَامِيَّةِ، فَلَمَّا تَرَكْنَا أَمْرَ رَبِّنَا صُرْنَا إِلَى مَا صُرْنَا إِلَيْهِ مِنَ الفِرْقَةِ وَالشَّتَاتِ وَالذُّلِّ وَالهَوَانِ[2].

تَاسِعًا: المَعَاصِي سَبَبٌ لِهَوَانِ العَبْدِ عَلَى رَبِّهِ. وَمَتَى هَانَ العَبْدُ عَلَى اللهِ جَلَّ وَعَلَا لَمْ يُكْرِمْهُ أَحَدٌ، كما قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ﴾ [الحج: ١٨]؛ وَمَنْ ذَا يُكرِمُ مَنْ أَهَانَهُ اللهُ؟! وَإِذَا هَانَ العَبدُ عَلَى اللهِ، انقَطَعَت عَنهُ أَسبَابُ الخَيرِ، وَاتَّصَلَت بِهِ أَسبَابُ الشَّرِّ.

إِذَا كَانَ هَذا فِعلَ عَبدٍ بِنَفسِهِ ... فَمَن ذَا لهُ مِن بَعدِ ذَلِكَ يُكرِمُ[3]

«فَلَا إِكرَامَ أَعلَى مِنْ إِكرَامِ اللهِ العَبدَ عَلَى شُكرِهِ، وَلا إِهَانَةَ أَوضَعُ مِنْ إِهَانَتِهِ عَلَى كُفرِهِ»[4]

«فَإِذَا كُنتَ تُرِيدُ أَن تَكُونَ كَرِيمًا عِندَ اللهِ وَذَا مَنزِلَةٍ عِنْدَهُ، فَعَلَيْكَ بِالتَّقوَى. فَكُلَّمَا كَانَ الإِنسَانُ لِلَّهِ أَتقَى، كَانَ عِنْدَهُ أَكْرَمَ»[5].

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [الحجرات: ١٣].

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَالنَّاسُ رَجُلَانِ: بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللهِ»[6].

---

(١) أخرجه أحمد في «الزهد» (ص١٧٦)، بسند صحيح.
(٢) انظر: «أثر الذنوب في هدم الأمم والشعوب» (ص٦٢)، للصواف.
(٣) الداء وَالدواء (ص١٢٣).
(٤) فتح الحميد في شرح التوحيد (٤/ ١٨١٨).
(٥) شرح رياض الصالحين (١/ ٥٢٣)، للعلَّامة العثيمين رَحِمَهُ اللهُ [مدار الوطن للنشر ـ الرياض].
(٦) أخرجه الترمذي (٣٢٧٠)، وَصححه العلَّامة الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٣/ ٣٣٤).

أَسأَلُ اللهَ أَن يَجعَلَنِي وَإِيَّاكُم مِنَ المُتَّقِينَ.

عَاشِرًا: دَاءُ الأُمَمِ!! فَمَا دَاءُ الأُمَمِ؟!

عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ العَوَّامِ ﷺ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «دَبَّ إِلَيْكُم دَاءُ الأُمَمِ [قَبْلَكُم]، الحَسَدُ وَالبَغْضَاءُ؛ هِيَ الحَالِقَةُ، لَا أَقُولُ: تَحلِقُ الشَّعرَ؛ وَلَكِن تَحلِقُ الدِّينَ...»[1].

الحَالِقَةُ: الخَصْلَةُ الَّتِي مِنْ شَأْنِهَا أَنْ تَحْلِقَ: أَيْ: تُهْلِكَ وَتَسْتَأْصِلَ الدِّينَ، كَمَا يَسْتَأْصِلُ المُوسُ الشَّعْرَ.

عَنْ أَبِي بَكْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أَجْدَرَ أَنْ يُعَجِّلَ اللهُ تَعَالَى لِصَاحِبِهِ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، مَعَ مَا يَدَّخِرُ لَهُ فِي الآخِرَةِ، مثلُ البَغيِ، وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»[2].

«وَقَد سَبَقَتْ سُنَّةُ اللهِ: أَنَّهُ لَو بَغَى جَبَلٌ عَلَى جَبَلٍ، جَعَلَ البَاغِيَ مِنْهُمَا دَكًّا»[3].

فَلَوْ بَغَى جَبَلٌ يَوْمًا عَلَى جَبَلٍ ... لَانْدَكَّ مِنْهُ أَعَالِيهِ وَأَسْفَلُهُ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «سَيُصِيبُ أُمَّتِي دَاءُ الأُمَمِ» فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا دَاءُ الأُمَمِ؟ قَالَ: «الأَشَرُ والبَطَرُ، والتَّكَاثُرُ والتَّنَاجُشُ فِي الدُّنْيَا، وَالتَّبَاغُضُ وَالتَّحَاسُدُ، حَتَّى يَكُونَ البَغْيُ»[4].

الأَشَرُ: أَي كُفْرُ النِّعْمَةِ. والبَطَرُ: الطُّغْيَانُ عِنْدَ النِّعْمَةِ، وَشِدَّةُ المَرَحِ وَالفَرَحِ، وَطُولُ الغِنَى. وَالتَّكَاثُرُ: جَمْعُ المَالِ. والتَّبَاغُضُ وَالتَّحَاسُدُ: أَي تَمَنِّي زَوَالِ نِعْمَةِ الغَيْرِ. حَتَّى يَكُونَ البَغْيُ: أَي مُجَاوَزَةُ الحَدِّ؛ وَهُوَ تَحْذِيرٌ شَدِيدٌ مِنَ التَّنَافُسِ فِي الدُّنْيَا، لِأَنَّهَا أَسَاسُ الآفَاتِ، وَرَأْسُ الخَطِيئَاتِ، وَأَصْلُ الفِتَنِ، وَعَنْهُ تَنْشَأُ الشُّرُورُ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٠)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٢/ ٦٠٧).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٠٢)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٢٠٢).

(٣) بدائع الفوائد (٢/ ٧٦٦) [دار عالم الفوائد ـ مكة المكرمة].

(٤) أخرجه الحاكم (٤/ ١٦٨ رقم ٧٣١١)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «الصحيحة» (٦٨٠).

وَهَذِهِ الذُّنُوبُ وَالعُقُوبَاتُ السَّبْعَةُ - الَّتِي سَمَّاهَا الرَّسُولُ ﷺ: دَاءَ الأُمَمِ - مَوْجُودَةٌ عِنْدَ عَدَدٍ مِنَ النَّاسِ، حَتَّى وَصَلَ الأَمْرُ إِلَى المَحَاكِمِ بَيْنَ الأَخِ وَأَخِيهِ، وَالأَبِ مَعَ أَبْنَائِهِ بِسَبَبِهَا أَوْ غَيْرِهَا. وَاللهُ المُستَعَانُ.

«المَصَائِبُ تَتَفَاوَتُ، فَأَعْظَمُهَا المُصِيبَةُ فِي الدِّينِ، نَعُوذُ بِاللهِ مِنْ ذَلِكَ، فَإِنَّهَا أَعْظَمُ مِنْ كُلِّ مُصِيبَةٍ يُصَابُ بِهَا الإِنْسَانُ»[1].

اللَّهُمَّ لَا تَجْعَل مُصِيبَتَنَا فِي دِينِنَا.

الحَادِي عَشَرَ: المَعَاصِي مُمْحِقَةٌ بَرَكَةَ العُمُرِ، وَبَرَكَةَ الرِّزقِ، وَبَرَكَةَ العِلْمِ، وَبَرَكَةَ العَمَلِ، وَبَرَكَةَ الطَّاعَةِ.

وَبِالجُمْلَةِ تَمْحَقُ بَرَكَةَ الدِّينِ وَالدُّنيَا، فَلَا تَجِدُ أَقَلَّ بَرَكَةً فِي عُمُرِهِ وَدِينِهِ وَدُنْيَاهُ مِمَّنْ عَصَى اللهَ، وَمَا مُحِقَتِ البَرَكَةُ مِنَ الأَرْضِ إِلَّا بِمَعَاصِي الخَلْقِ. وَتَرْكُ المَعَاصِي وَالمُحَرَّمَاتِ سَبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ نُزُولِ البَرَكَاتِ: مِنَ الخَيْرَاتِ وَالأَنْعَامِ وَالأَرْزَاقِ، وَالأَمْنِ وَالسَّلَامَةِ مِنَ الآفَاتِ. قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [الأعراف: ٩٦]. فَأَرْسَلَ السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِدْرَارًا، وَأَنْبَتَ لَهُم مِنَ الأَرْضِ مَا بِهِ يَعِيشُونَ، وَتَعِيشُ بَهَائِمُهُم، فِي أَخْصَبِ عَيْشٍ، وَأَغْزَرِ رِزْقٍ، مِنْ غَيْرِ عَنَاءٍ وَلَا تَعَبٍ، وَلَا كَدٍّ وَلَا نَصَبٍ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾﴾ [الجن: ١٦]، أَي: مَاءً هَنِيئًا مَرِيئًا.

عَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ قَالَ: قَامَ النَّبِيُّ ﷺ فَدَعَا النَّاسَ، فَقَالَ: «هَلُمُّوا إِلَيَّ» فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ فَجَلَسُوا، فَقَالَ: «هَذَا رَسُولُ رَبِّ العَالَمِينَ جِبْرِيلُ عليه السلام نَفَثَ فِي رُوعِي: أَنَّهُ لَا تَمُوتُ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، وَإِنْ أَبْطَأَ عَلَيْهَا؛ فَاتَّقُوا اللهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلَا يَحْمِلَنَّكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ: أَنْ تَأْخُذُوهُ بِمَعْصِيَةِ اللهِ، فَإِنَّ اللهَ لَا يُنَالُ مَا عِنْدَهُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ»[2].

---

(١) تسلية أهل المصائب (ص٢٧)، بتصرُّف يسير.

(٢) أخرجه البزار «كشف الأستار» (١٢٥٣)، وقال الألباني رحمه الله في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٧٠٢): حسن صحيح.

وَلَيسَت سَعَةُ الرِّزْقِ وَالعَمَلِ بِكَثْرَتِهِ، وَلَكِنْ سَعَةُ الرِّزْقِ بِالبَرَكَةِ فِيهِ. وَلَا طُولُ العُمُر بِكَثْرَةِ الشُّهُورِ وَالأَعْوَامِ، وَلَكِن مَا كَانَ مِن وَقْتِهِ لِلَّهِ وَبِاللهِ فَهُوَ حَيَاتُهُ وَعُمُرُهُ، وَغَيْرُ ذَلِكَ لَيسَ مَحْسُوبًا فِي حَيَاتِهِ.

«وَإِنَّمَا كَانَتْ مَعْصِيَةُ اللهِ سَبَبًا لِمَحْقِ بَرَكَةِ الرِّزْقِ وَالأَجَلِ، لِأَنَّ الشَّيْطَانَ مُوَكَّلٌ بِهَا وَبِأَصْحَابِهَا؛ فَسُلْطَانُهُ عَلَيهِم، وَكُلُّ شَيءٍ يَتَّصِلُ بِهِ الشَّيطَانُ وَيُقَارِنُهُ فَبَرَكَتُهُ مَمْحُوقَةٌ، وَكُلُّ شَيءٍ لَا يَكُونُ لِلَّهِ فَبَرَكَتُهُ مَنْزُوعَةٌ»[1].

«فَكُلُّ زَمَانٍ شَغَلَهُ المُؤمِنُ بِطَاعَةِ اللهِ، فَهُوَ زَمَانٌ مُبَارَكٌ عَلَيهِ؛ وَكُلُّ زَمَانٍ شَغَلَهُ العَبْدُ بِمَعْصِيَةِ اللهِ تَعَالَى، فَهُوَ مَشْؤومٌ عَلَيهِ. فَالشُّؤمُ فِي الحَقِيقَةِ: هُوَ مَعْصِيَةُ اللهِ تَعَالَى»[2]. وَاليُمْنُ وَالبَرَكَةُ: هُوَ طَاعَةُ اللهِ وَتَقْوَاهُ.

وَفِي الجُمْلَةِ: فَلَا شُؤمَ إِلَّا المَعَاصِي وَالذُّنُوبُ؛ فَإِنَّهَا تُسْخِطُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ.

عَن مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ﷺ قَالَ: أَوْصَانِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِعَشْرِ كَلِمَاتٍ، وَذَكَرَ مِنهَا: «إِيَّاكَ وَالمَعْصِيَةَ؛ فَإِنَّ بِالمَعْصِيَةِ حَلَّ سَخَطُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ»[3].

فَإِذَا سَخِطَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عَلَى عَبْدِهِ شَقِيَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، كَمَا أَنَّهُ إِذَا رَضِيَ عَن عَبْدِهِ سَعِدَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

عِبَادَ اللهِ: احذَرُوا الذُّنُوبَ، فَإِنَّهَا مَشْؤُومَةٌ، عَوَاقِبُهَا ذَمِيمَةٌ، وَعُقُوبَاتُهَا أَلِيمَةٌ، وَالقُلُوبُ المُحِبَّةُ لَهَا سَقِيمَةٌ، وَالنُّفُوسُ المَائِلَةُ إِلَيْهَا غَيْرُ مُسْتَقِيمَةٍ، وَالسَّلَامَةُ مِنْهَا غَنِيمَةٌ، والعَافِيَةُ مِنْهَا مَحْمُودَةٌ، وَالبَلِيَّةُ بِهَا ـ لَا سِيَّمَا بَعْدَ نُزُولِ الشَّيْبِ ـ دَاهِيَةٌ عَظِيمَةٌ.

طَاعَةُ اللهِ خَيرُ مَا اكتَسَبَ العَبدُ ... فَكُن طَائِعًا لِلَّهِ لاَ تَعصِيَنَّهُ
مَا هَلَاكُ النُّفُوسِ إِلاَّ المَعَاصِي ... فَاجتَنِب مَا نَهَاكَ لاَ تَقرَبَنَّهُ

---

(١) الداء والدواء (ص١٣١ ـ ١٣٢).
(٢) لطائف المعارف (ص١٥١).
(٣) أخرجه أحمد (٥/٢٣٨)، وحسنه لغيره الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٧٠).

إِنَّ شَيْئًا هَلَاكَ نَفْسِكَ فِيهِ يَنبَغِي أَن تَصُونَ نَفْسَكَ عَنْهُ

عَنْ أُسَامَةَ بْنِ شَرِيكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا كَرِهَ اللهُ مِنكَ شَيئًا، فَلَا تَفْعَلْهُ إِذَا خَلَوْتَ»[1].

وَعَنْ ثَوْبَانَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «لَأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي يَأْتُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللهُ عَزَّ وَجَلَّ هَبَاءً مَنْثُورًا». قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللهِ! صِفْهُم لَنَا، جَلِّهِم لَنَا، أَنْ لَا نَكُونَ مِنْهُم وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ. قَالَ ﷺ: «أَمَا إِنَّهُم إِخْوَانُكُم وَمِنْ جِلْدَتِكُم، وَيَأْخُذُونَ مِنَ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُم أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللهِ انْتَهَكُوهَا»[2].

قَالَ القَحْطَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ:

وَإِذَا خَلَوتَ بِرِيبَةٍ فِي ظُلمَةٍ وَالنَّفسُ دَاعِيَةٌ إِلَى الطُّغيَانِ

فَاستَحْيِ مِن نَظرِ الإِلٰهِ وَقُلْ لَهَا إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الظَّلَامَ يَرَانِي[3]

الثَّانِي عَشَرَ: المَعْصِيَةُ تُورِثُ الذُّلَّ وَلَا بُدَّ؛ فَإِنَّ العِزَّ كُلَّ العِزِّ فِي طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]؛ «أَي: مَنْ كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ ويطلُبُهَا فَليَطلُبهَا مِنَ اللهِ، فَلِلَّهِ العِزَّةُ جَمِيعًا لَيسَ لِغَيرِهِ مِنْهَا شَيءٌ، فَتَشمَلُ الآيَةُ كُلَّ مَنْ طَلَبَ العِزَّةَ، وَيَكُونُ المقصُودُ بِهَا التَّنبِيهَ لِذَوِي الأَقدَارِ وَالهِمَمِ مِنْ أَينَ تُنَالُ العِزَّةُ وَتُستَحَقُّ، وَمِنْ أَيِّ جَهَةٍ تُطلَبُ؟»[4] فَمَن «كَانَ يُرِيدُ العِزَّةَ، فَليَطلُبهَا بِطَاعَةِ اللهِ وَذِكرِهِ، مِنَ الكَلِمِ الطَّيِّبِ وَالعَمَلِ الصَّالِحِ»[5].

«فَإِنَّ المُطِيعَ لِلَّهِ عَزِيزٌ، وَإِن كَانَ فَقِيرًا لَيسَ لَهُ أَعوَانٌ»[6]. وَكُلَّمَا كَانَت هَذِهِ الصِّفَةُ فِيهِ أَكْمَلَ، كَانَ أَشَدَّ عِزَّةً وَأَكمَلَ رِفعَةً.

---

(١) أخرجه ابن حبان (٤٠٣)، وحسنه لغيره الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «الصحيحة» (١٠٥٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٥)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٣٤٦).

(٣) نونية القحطاني (ص٩٠).

(٤) الداء وَالدواء (ص٢٧٧).

(٥) المجموعة الكاملة (٣/ ٢٥٨).

(٦) الداء والدواء (ص٢٧٧).

وَفِي هَذِهِ الأَيَّامِ! النَّاسُ يَتَعَرَّفُونَ إِلى مُلُوكِهِم وَكُبَرَائِهِم، وَيَتَقَرَّبُونَ إِلَيهِم لِيَنَالُوا بِهِمُ العِزَّةَ وَالرِّفعَةَ، فَتَعَرَّف أَنتَ إِلى اللهِ، وَتَوَدَّد إِلَيهِ: تَنَلْ بِذَلِكَ غَايَةَ العِزِّ وَالرِّفعَةِ.

وَفِي دُعَاءِ القُنُوتِ: «إِنَّهُ لَا يَذِلُّ مَن وَالَيتَ، وَلَا يَعِزُّ مَن عَادَيتَ»، وَمَن أَطَاعَ اللهَ فَقَد وَالَاهُ فِيمَا أَطَاعَهُ فِيهِ، وَلَهُ مِنَ العِزِّ بِحَسَبِ طَاعَتِهِ، وَمَن عَصَاهُ فَقَد عَادَاهُ فِيمَا عَصَاهُ فِيهِ، وَلَهُ مِنَ الذُّلِّ بِحَسَبِ مَعصِيَتِهِ[1].

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلأَنصَارِ: «يَا مَعشَرَ الأَنصَارِ! أَلَم تَكُونُوا أَذِلَّةً فَأَعَزَّكُمُ اللهُ؟» قَالُوا: صَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ[2].

وَقَالَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ لأَبِي عُبَيدَةَ بنِ الجَرَّاحِ رضي الله عنهما: «إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَومٍ فَأَعَزَّنَا اللهُ بِالإِسلَامِ، فَمَهمَا نَطلُبُ العِزَّ بِغَيرِ مَا أَعَزَّنَا اللهُ بِهِ، أَذَلَّنَا اللهُ»[3].

فَصَاحِبُ الطَّاعَةِ عَزِيزٌ بِعِزَّةِ اللهِ، قَوِيٌّ، وَلَو لَمْ يَكُن لَهُ أَنصَارٌ إِلَّا اللهُ، مَحمُودٌ فِي أُمُورِهِ، حَسَنُ العَاقِبَةِ. وَصَاحِبُ المَعصِيَةِ ذَلِيلٌ، فَلَا عِزَّ لَهُ، وَلَا قَائِمَةَ تَقُومُ لَهُ. وَلِذَلِكَ يَقُولُ عَلَيهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَن خَالَفَ أَمرِي»[4].

«وَمُخَالَفَةُ الرَّسُولِ ﷺ عَلَى قِسمَينِ: أَحَدُهُمَا مَنْ يُخَالِفُ أَمْرَهُ بِالمَعَاصِي، فَلَهُ نَصِيبٌ مِنَ الذِّلَّةِ وَالصَّغَارِ. وَأَهْلُ هَذَا النَّوْعِ خَالَفُوا الرَّسُولَ ﷺ، مِن أَجْلِ دَاعِي الشَّهَوَاتِ.

وَالنَّوعُ الثَّانِي: مَنْ خَالَفَ أَمْرَهُ مِنْ أَجْلِ الشُّبُهاتِ، وَهُم أَهْلُ الأَهْوَاءِ وَالبِدَعِ، فَكُلُّهُم لَهُم نَصِيبٌ مِنَ الذِّلَّةِ وَالصَّغَارِ، بِحَسَبِ مُخَالَفَتِهِم لِأَوَامِرِهِ»[5].

---

(١) الداء والدواء (ص٢٧٧).
(٢) أخرجه أحمد (٣/ ٥٧)، وإسناده صحيح.
(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٦١ ـ ٦٢)، بسند صحيح.
(٤) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٢/ ٥٠)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٢٨٣١).
(٥) انظر: الحكم الجديرة بالإذاعة لابن رجب (ص٣١ ـ ٣٢).

قَالَ الشَّاعِرُ:

رَأيتُ الذُّنُوبَ تُمِيتُ القُلُوبَ وَقَد يُورِثُ الذُّلَّ إدمَانُهَا
وَتَركُ الذُّنُوبِ حَيَاةُ القُلُوبِ وَخَيرٌ لِنَفسِكَ عِصيَانُهَا

حَيَاةُ الأَبْدَانِ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ، وَحَيَاةُ القُلُوبِ بِالذِّكْرِ وَتَرْكِ الذُّنُوبِ. وَالعَاقِلُ مِنَ النَّاسِ مَنْ عَرَفَ مَوَاطِنَ العِزَّةِ فَتَحَرَّاهَا، وَمَوَاطِنَ الذُّلِّ فَتَوَقَّاهَا.

قَالَ ابنُ القَيِّم رَحِمَهُ اللهُ:

وَهُوَ المُعِزُّ لِأَهْلِ طَاعَتِهِ وَذَا عِزٌّ حَقِيقِيٌّ بِلَا بُطلَانِ
وَهُوَ المُذِلُّ لِمَنْ يَشَاءُ بِذِلَّةِ الـ ـدَّارَينِ ذُلَّ شَقَا وَذُلَّ هَوَانِ[1]

وَهَذَا الذُّلُّ وَالهَوَانُ الَّذِي أَصَابَ أُمَّتَنَا، لَا يُرْفَعُ إِلَّا بِالرُّجُوعِ إِلَى اللهِ تَعَالَى.

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ البَقَرِ، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكْتُمُ الجِهَادَ؛ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلاً، لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»[2].

فَقَوْلِهِ ﷺ: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالعِينَةِ» إِشَارَةٌ إِلَى نَوْعٍ مِنَ المُعَامَلَاتِ الرِّبَوِيَّةِ، ذَاتِ التَّحَايُلِ عَلَى الشَّرْعِ. وَقَوْلُهُ ﷺ: «وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ البَقَرِ» إِشَارَةٌ إِلَى الاهْتِمَامِ بِأُمُورِ الدُّنْيَا وَالرُّكُونِ إِلَيْهَا، وَعَدَمِ الاهْتِمَامِ بِالشَّرِيعَةِ وَأَحْكَامِهَا. وَقَوْلُهُ ﷺ: «وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ» وَهَذَا مَحْمُولٌ عَلَى مَنْ شَغَلَهُ الحَرْثُ والزَّرْعُ عَنِ القِيَامِ بِالوَاجِبَاتِ، وَالتَّشَاغُلِ بِهَا عَنِ الدِّينِ.

عَنْ أَبِي أُمَامَةَ البَاهِلِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ ـ وَرَأَى سِكَّةً وَشَيْئًا مِنْ آلَةِ الحَرْثِ ـ فَقَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «لَا يَدْخُلُ هَذَا بَيْتَ قَوْمٍ؛ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللهُ الذُّلَّ»[3]. وَهَذَا الحَدِيثُ تَرْجَمَ لَهُ البُخَارِيُّ بِقَوْلِهِ: «بَابُ مَا يُحْذَرُ مِنْ عَوَاقِبِ الاشْتِغَالِ بِآلَةِ الزَّرْعِ، أَوْ مُجَاوَزَةِ الحَدِّ الَّذِي أُمِرَ بِهِ».

---

(١) الكافية الشافية (ص٢١٣) [دار ابن الجوزي ـ الدمّام].

(٢) أخرجه أبو داود (٣٤٦٢)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن أبي داود» (٢/ ٣٦٥).

(٣) أخرجه البخاري (٢٣٢١).

وَقَوْلُهُ ﷺ: «وَتَرَكْتُمُ الجِهَادَ» هُوَ ثَمَرَةُ الخُلُودِ إِلَى الدُّنْيَا، كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨]

وَقَوْلُهُ ﷺ: «سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلاً، لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوْا إِلَى دِيْنِكُمْ» فِيهِ إِشَارَةٌ صَرِيحَةٌ إِلَى أَنَّ الرُّجُوعَ إِلَى الدِّينِ طَرِيقُنَا إِلَى رَفْعِ الذُّلِّ، وَالدِّينُ الَّذِي يَرفَعُ الذُّلَّ هُوَ الأَمْرُ الأَوَّلُ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَصْحَابُهُ.

عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ ﷺ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ ـ وَنَحْنُ جُلُوسٌ عَلَى بِسَاطٍ ـ: «إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ». قَالُوا: كَيْفَ نَفْعَلُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: فَرَدَّ يَدَهُ إِلَى البِسَاطِ؛ فَأَمْسَكَ بِهِ، قَالَ: «تَفْعَلُونَ هَكَذَا»، وَذَكَرَ لَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ يَوْمًا: «أَنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ» فَلَم يَسْمَعْهُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَ مُعَاذٌ: تَسْمَعُونَ مَا يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالُوا: مَا قَالَ؟ قَالَ: يَقُولُ: «إِنَّهَا سَتَكُونُ فِتْنَةٌ». قَالُوا: فَكَيْفَ لَنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ أَوْ كَيْفَ نَصْنَعُ؟ قَالَ: «تَرْجِعُونَ إِلَى أَمْرِكُمُ الأَوَّلِ»[1].

فَالذُّلُّ قَد نَزَلَ بِنَا، وَالهَوَانُ قَد أَحَاطَ بِخِيَامِنَا، وَالعَذَابُ قَد أَحْدَقَ بِسَاحَتِنَا، فَلا يَرْفَعُ اللهُ كُلَّ ذَلِكَ عَنَّا حَتَّى نَعُودَ إِلَى دِينِنَا.

إِذًا لَا بُدَّ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ مِنَ العَوْدَةِ الصَّحِيحَةِ إِلَى الدِّينِ، كَمَا كَانَ عَلَيْهِ الرَّسُولُ ﷺ وَأَصْحَابُهُ: فِي العَقِيدَةِ وَفِي العِبَادَةِ، وَفِي السُّلُوكِ، وَفِي كُلِّ مَا يَتَعَلَّقُ بِأُمُورِ الشَّرِيعَةِ.

قَالَ الإِمَامُ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللهُ: «لَنْ يَصْلُحَ آخِرُ هَذِهِ الأُمَّةِ، إِلَّا بِمَا صَلَحَ بِهِ أَوَّلُهَا».

الثَّالِثُ عَشَرَ: ذَهَابُ الحَيَاءِ الَّذِي «هُوَ مِنْ أَفْضَلِ الأَخْلاقِ وَأَجَلِّهَا، وَأَعْظَمِهَا قَدْرًا، وَأَكْثَرِهَا نَفْعًا». قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَخُلُقُ الإِسْلَامِ الحَيَاءُ»[2].

---

(١) أخرجه الطحاوي في «شرح مشكل الآثار» (١١٨٤)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «الصحيحة» (٣١٦٥).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١٨١)، وصححه لغيره الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «الصحيحة» (٩٤٠).

«وهُوَ مَادَّةُ حَيَاةِ القَلْبِ، وَهُوَ أَصْلُ كُلِّ خَيْرٍ، وَذَهَابُهُ ذَهَابُ الخَيْرِ أَجْمَعِهِ»[1].

فَإِنَّ حَيَاةَ القَلْبِ هِيَ المَانِعَةُ مِنَ القَبَائِحِ الَّتِي تُفْسِدُ القَلْبَ. فَإِنَّ الحَيَّ يَظْهَرُ عَلَيْهِ التَّأَثُّرُ بِالقَبِيحِ، وَلَهُ إِرَادَةٌ تَمْنَعُهُ عَنْ فِعْلِ القَبِيحِ، بِخِلَافِ الوَقِحِ الَّذِي لَيْسَ بِحَيِيٍّ فَلَا حَيَاء مَعَهُ، وَلَا إِيمَانَ يَزْجُرُهُ عَنْ ذَلِكَ[2]. فَلَا يَحُسُّ بِمَا يُؤْلِمُهُ مِنَ القَبَائِحِ.

لِذَلِكَ تَرَاهُ يَرْضَى بِتَبرُّجِ زَوجَتِهِ وَابْنَتِهِ وَأُخْتِهِ، وَمُخَالَطَتِهَا لِلرِّجَالِ، وَدُخُولِهَا عَلَيْهِم وَدُخُولِهِم عَلَيْهَا، حَتَّى عَظُمَ الشَّرُّ وَعَظُمَ البَلَاءُ، وَمِنْ تِلْكَ البَلَايَا: الأَجْهِزَةُ الخَبِيثَةُ الَّتِي يُدْخِلُهَا المُسْلِمُ بَيْتَهُ، فَإِنَّهَا تُرَبِّي زَوجَتَهُ وَبَنَاتَهُ عَلَى ذَهَابِ الحَيَاءِ.

يَعْكُفُ عَلَيْهَا لَيْلًا وَنَهَارًا، عَلَى مُشَاهَدَةِ المَحَطَّاتِ المَاجِنَةِ، واسْتِمَاع الأَصْوَاتِ الفَاجِرَةِ، الَّتِي تَعْمَلُ فِي القُلُوبِ أَعْظَمَ مِنَ السُّمِّ فِي الأَبْدَانِ، دُونَ حَسِيبٍ أَو رَقِيبٍ. فَيَا لَهَا مِنْ مُصِيبَةٍ مَا أَعْظَمَهَا؟ وَخَسَارَةٍ مَا أَكْبَرَهَا؟ بُلِيَ بِهَا كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الإِسْلَامِ، وَصَادَ بِهَا الشَّيْطَانُ الخَلْقَ الكَثِيرَ، وَالجَمَّ الغَفِيرَ.

عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الأُولَى: إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِ، فَاصْنَع مَا شِئْتَ»[3].

وَالمَعْنَى: أَنَّ الرَّادِعَ عَنِ القَبِيحِ إِنَّمَا هُوَ الحَيَاءُ، فَمَنْ لَمْ يَسْتَحِ فَإِنَّهُ يَصْنَعُ مَا شَاءَ. فَالحَيَاءُ هُوَ الحَائِلُ بَيْنَ الإِقْدَامِ عَلَى المَعْصِيَةِ وَالإِمْسَاكِ عَنْهَا، وَأَنَّهُ كَالسَّدِّ إِذَا تَحَطَّمَ انْهَمَرَ المَاءُ يُغْرِقُ كُلَّ شَيْءٍ، فَالَّذِي لَا حَيَاءَ لَهُ لَا سَدَّ عِنْدَهُ، فَهَذَا لَا يَمْنَعُهُ مَانِعٌ مِنَ الإِقْدَامِ عَلَى المَعْصِيَةِ لِيَفْعَلَهَا، وَلَا يَرَى بِهَا بَأْسًا.

وَقَالَ القَائِلُ:

وَرُبَّ قَبِيحَةٍ مَا حَالَ بَيْنِي ... وَبَيْنَ رُكُوبِهَا إِلاَّ الحَيَاءُ

---

(١) الداء والدواء (ص١١٠).
(٢) مجموع الفتاوى (١٠/١٠٩ ـ ١١٠).
(٣) أخرجه البخاري (٦١٢٠).

فَكَانَ هُوَ الدَّوَاءَ لَهَا وَلَكِن ... إِذَا ذَهَبَ الحَيَاءُ فَلَا دَوَاءُ

وَلِلَّهِ دَرُّ القَائِلِ:

إِذَا لَمْ تَخْشَ عَاقِبَةَ اللَّيَالِي ... وَلَم تَسْتَحْيِ فَاصْنَعْ مَا تَشَاءُ

فَلَا وَاللهِ مَا فِي العَيْشِ خَيْرٌ ... وَلَا الدُّنيَا إِذَا ذَهَبَ الحَيَاءُ

يَعِيشُ المَرْءُ مَا اسْتَحْيَى بِخَيرٍ ... وَيَبْقَى العُودُ مَا بَقِيَ اللِّحَاءُ

يَبْقَى العُودُ غَضًّا طَرِيًّا مَا بَقِيَتِ القِشْرَةُ الخَضْرَاءُ، فَإِنْ سَقَطَتْ فَقَد آذَنَتْ حَيَاتُهُ بِالضُّمُورِ.

الرَّابِعُ عَشَرَ: وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تُزِيلُ النِّعَمَ الحَاضِرَةَ، وَتَقْطَعُ النِّعَمَ الوَاصِلَةَ، وَتُحِلُّ النِّقَمَ، فَتُزِيلُ الحَاصِلَ، وَتَمْنَعُ الوَاصِلَ؛ فَكَم أَزَالَتْ مِنْ نِعْمَةٍ، وَكَم جَلَبَتْ مِنْ نِقْمَةٍ، وَكَم أَحَلَّتْ مِنْ مَذَلَّةٍ وَبَلِيَّةٍ؟!

فَمَا زَالَت عَنِ العَبدِ نِعمَةٌ إِلَّا بِذَنبٍ، وَلَا حَلَّت بِهِ نِقمَةٌ إِلَّا بِذَنْبٍ، فَإِنَّ نِعَمَ اللهِ مَا حُفِظَ مَوْجُودُهَا بِمِثْلِ طَاعَتِهِ، وَلَا اسْتُجْلِبَ مَفْقُودُهَا بِمِثْلِ طَاعَتِهِ، فَإِنَّ مَا عِنْدَ اللهِ لَا يُنَالُ إِلَّا بِطَاعَتِهِ، وَقَدْ جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ لِكُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا وَآفَةً: سَبَبًا يَجْلِبُهُ، وَآفَةً تُبْطِلُهُ؛ فَجَعَلَ أَسْبَابَ نِعَمِهِ الجَالِبَةَ لَهَا طَاعَتَهُ، وَآفَاتِهَا المَانِعَةَ مِنْهَا مَعْصِيَتَهُ؛ فَإِذَا أَرَادَ اللهُ حِفْظَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ أَلْهَمَهُ رِعَايَتَهَا بِطَاعَتِهِ فِيهَا، وَإِذَا أَرَادَ زَوَالَهَا عَنْهُ خَذَلَهُ حَتَّى عَصَاهُ بِهَا. وَمِنَ العَجَبِ عِلْمُ العَبْدِ بِذَلِكَ مُشَاهَدَةً فِي نَفْسِهِ وَغَيْرِهِ، وَسَمَاعًا لِمَا غَابَ عَنْهُ مِنْ أَخْبَارِ مَنْ أُزِيلَتْ نِعَمُ اللهِ عَنْهُم بِمَعَاصِيهِ، وَهُوَ مُقِيمٌ عَلَى مَعْصِيَةِ اللهِ.

وَكَأَنَّ هَذَا أَمْرٌ جَارٍ عَلَى النَّاسِ لَا عَلَيْهِ، وَوَاصِلٌ إِلَى الخَلْقِ لَا إِلَيْهِ. فَأَيُّ جَهْلٍ أَبْلَغُ مِنْ هَذَا؟! وَأَيُّ ظُلْمٍ لِلنَّفْسِ فَوْقَ هَذَا؟!

«فَمَا حَصَلَ لِلعَبْدِ حَالٌ مَكْرُوهَةٌ قَطُّ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَمَا يَعْفُو اللهُ عَنْهُ أَكْثَرُ»[1].

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠]. يَعْنِي: مَا أَصَابَ العِبَادَ مِنْ مُصِيبَةٍ، فِي أَبْدَانِهِم، وَأَمْوَالِهِم،

---

(١) مدارج السالكين (١/ ٣٢١)، وتهذيب المدارج (١/ ٣٦٠).

وَأَوْلَادِهِم، وَفيمَا يُحِبُّونَ، وَيَكُونُ عَزِيزًا عَلَيْهِم، إِلَّا بِسَبَبِ مَا قَدَّمَتْهُ أَيْدِيهِم مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَأَنَّ مَا يَعْفُو اللهُ عَنْهُ أَكْثَرُ.

«فَمَا سُلِّطَ عَلَى العَبْدِ مَنْ يُؤْذِيهِ إِلَّا بِذَنْبٍ يَعْلَمُهُ أو لَا يَعْلَمُهُ، وَمَا لَا يَعْلَمُهُ العَبْدُ مِنْ ذُنُوبِهِ، أَضْعَافُ مَا يَعلَمُهُ مِنْهَا، وَمَا يَنْسَاهُ مِمَّا عَمِلَهُ وَعَلِمَهُ؛ أَضْعَافُ مَا يَذْكُرُهُ»[1].

وَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا اختَلَجَ عِرقٌ، وَلَا عَينٌ إِلَّا بِذَنبٍ، وَمَا يَدفَعُ اللهُ [عَنهُ] أَكثَرُ»[2]. فَيَعْفُو سُبْحَانَهُ عَن كَثِيرٍ مِنْ إِجْرَامِكُم، فَلَا يُعَاقِبُكُم بِهَا، فَإِنَّهُ تَعَالَى لَو عَاقَبَ عِبَادَهُ بِإِجْرَامِهِم، مَا بَقِيَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: ٤٥].

عَن أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَوْ أَنَّ اللهَ يُؤَاخِذُنِي وَعِيسَى بِذُنُوبِنَا، لَعَذَّبَنَا وَلَا يَظْلِمُنَا شَيْئًا» قَالَ: وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ وَالَّتِي تَلِيهَا[3].

وَأَعْظَمُ مَا تَقَعُ المصائِبُ، وَالقَحْطُ، وَمَنْعُ الغَيْثُ، وَتَسَلُّطُ العَدُوِّ، إِذَا وَقَعَ خَلَلٌ بِالتَّقْوَى، مِنْ تَرْكِ الطَّاعَاتِ، وَارْتِكَابِ المُحَرَّمَاتِ. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١]. وَقَالَ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٣٥]. أَخبَرَ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُ لَا يُغَيِّرُ نِعمَتَهُ الَّتِي أَنعَمَ بِهَا عَلَى قَوْمٍ مِنْ عَافِيَةٍ وَنِعْمَةٍ وَأَمْنٍ وَعِزَّةٍ وَرَخَاءٍ وَهَنَاءٍ، وَلَا يَسْلُبُهُم إِيَّاهَا إِلَّا إِذَا بَدَّلُوا أَحْوَالَهُمُ الجَمِيلَةَ بِأَحْوَالٍ قَبِيحَةٍ، حَتَّى يَكُونُوا هُمُ الَّذِينَ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِم، فَيُغَيِّرُوا طَاعَةَ اللهِ بِمَعصِيَتِهِ، وَشُكرَهُ بِكُفرِهِ، وَأَسبَابَ رِضَاهُ بِأَسبَابِ سَخَطِهِ، فَإِذَا غَيَّرُوا غُيِّرَ عَلَيهِم، جَزَاءً وِفَاقًا، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلعَبِيدِ.

«وَهَذِهِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ وَأَمثَالُهَا فِي القُرآنِ يَجِبُ الاِعتِبَارُ بِهَا، وَأَنَّ الإِنْسَانَ لَا يَتَسَبَّبُ فِي تَغْيِيرِ نِعْمَةِ اللهِ عَنْهُ بِتَغْيِيرِهِ مَا فِي نَفْسِهِ، بَل يَدُومُ عَلَى طَاعَةِ اللهِ وَتَقْوَاهُ

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٧٧٠).

(٢) أخرجه الطبراني في الصغير (١٠٥٣)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح الجامع» (٥٥٢١).

(٣) أخرجه ابن حبان (٦٥٩)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «الصحيحة» (٣٢٠٠).

لِأَنَّهُ إِذَا تَنَكَّرَ لِرَبِّهِ قَد يُغَيِّرُ نِعْمَتَهُ عَنْهُ، وَيَنْقُلُهُ مِنَ النِّعْمَةِ إِلَى النِّقْمَةِ، وَمِنَ السَّلَامَةِ إِلَى العَذَابِ»[1].

العَجَبُ مِمَّن يَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ مَا بِهِ مِنَ النِّعَمِ مِنَ اللهِ، ثُمَّ لَا يَستَحِي مِنَ الاسْتِعَانَةِ بِهَا عَلَى ارْتِكَابِ مَا نَهَاهُ!

وَلَقَدْ أَحْسَنَ القَائِلُ:

أَنَالَكَ رِزقَهُ لِتَقُومَ فِيهِ ... بِطَاعَتِهِ وَتَشكُرَ بَعضَ حَقِّهِ
فَلَم تَشكُر لِنِعمَتِهِ وَلَكِن ... قَوِيتَ عَلَى مَعَاصِيهِ بِرِزقِهِ

وَمَنْ كَثُرَت عَلَيهِ النِّعَمُ فَليُقَيِّدهَا بِالشُّكرِ، وَإِلَّا ذَهَبَت. والمُسْتَعِينُ بِالنِّعَمِ عَلَى المَعَاصِي مُسْتَوْجِبٌ السَّلْبَ. وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ اللهَ عَلَى نِعَمِهِ، فَقَدِ اسْتَدْعَى زَوَالَهَا.

«فَمَا حُفِظَتْ نِعْمَةُ اللهِ بِشَيْءٍ قَطُّ مِثْلِ طَاعَتِهِ، وَلَا حَصَلَتْ فِيهَا الزِّيَادَةُ بِمِثْلِ شُكْرِهِ، وَلَا زَالَتْ عَنِ العَبْدِ بِمِثْلِ مَعْصِيَتِهِ لِرَبِّهِ، فَإِنَّهَا نَارُ النِّعَمِ الَّتِي تَعْمَلُ فِيهَا، كَمَا تَعْمَلُ النَّارُ فِي الحَطَبِ اليَابِسِ»[2].

إِذَا كُنتَ فِي نِعمَةٍ فَارعَهَا ... فَإِنَّ المَعَاصِي تُزِيلُ النِّعَم
وَحَافِظ عَلَيهَا بِشُكرِ الإِلَه ... فَشُكرُ الإِلَهِ يُزِيلُ النِّقَم

وَلَو لَم يَكُن مِن فَضلِ الشُّكرِ إِلَّا أَنَّ النِّعَمَ بِهِ مَوصُولَةٌ، وَالمَزِيدَ لَهَا مُرتَبِطٌ بِهِ؛ لَكَانَ كَافِيًا، فَهُوَ حَافِظٌ لِلْمَوجُودِ مِنَ النِّعَمِ، جَالِبٌ لِلمَفْقُودِ مِنْهَا بِالمَزِيدِ. فَهُوَ قَيدٌ لِلمَوْجُودِ وَصَيْدٌ لِلمَفْقُودِ، يَعْنِي: تُقَيَّدُ بِهِ النِّعَمُ الحَاضِرَةُ، وتُستَجْلَبُ بِهِ النِّعَمُ المَرْجُوَّةُ. فَإِنَّ النِّعَمَ إِذَا شُكِرَتْ دَرَّتْ وَتَزَايَدَتْ وَقَرَّتْ، وَإِذَا كُفِرَتْ تَنَاقَصَتْ وَانْمَحَقَتْ وَفَرَّتْ، قَالَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: ٧]، نِعمَةً إِلى نِعمَةٍ تَفَضُّلًا مِنَ الكَرِيمِ المَنَّانِ.

فَالشُّكرُ جَلَّابٌ لِلنِّعَمِ، دَافِعٌ لِلنِّقَمِ، وَمُوجِبٌ المَزِيدَ.

---

(١) العذب النمير (٥/ ١٢٢ ـ ١٢٣).
(٢) بدائع الفوائد (٢/ ٧١٢).

فَلَنْ يَنْقَطِعَ المَزِيدُ مِنَ اللهِ تَعَالَى، حَتَّى يَنْقَطِعَ الشُّكرُ مِنَ العَبدِ.

فَاحذَرُوا المَعَاصِي كُلَّهَا، فَإِنَّ ارتِكَابَهَا سَبَبٌ لِزَوَالِ النِّعَم، وَلِحُلُولِ المَصَائِبِ وَالنِّقَم، وَعَلَيْكُم بِالاجْتِهَادِ فِي طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى، فَإِنَّ الطَّاعَةَ سَبَبٌ لِحُصُولِ البَرَكَاتِ، وَتَفْرِيجِ الكُرُبَاتِ، وَرِفْعَةِ الدَّرَجَاتِ، وَدَفْعِ النِّقَمَاتِ، وَإِجَابَةِ الدَّعَوَاتِ، وَإِعْطَاءِ الطَّلَبَاتِ، وَقَضَاءِ الحَاجَاتِ، فَمَا اسْتُجْلِبَت نِعْمَةٌ، ولَا اسْتُدْفِعَت نِقْمَةٌ، بِمِثْلِ طَاعَةِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ زَوَالِ نِعْمَتِكَ، وَتَحَوُّلِ عَافِيَتِكَ، وَفُجَاءَةِ نِقْمَتِكَ، وَجَمِيعِ سَخَطِكَ.

الخَامِسُ عَشَرَ: وَمِنْ آثَارِ الذُّنُوبِ وَالمَعَاصِي: أَنَّهَا تُحْدِثُ فِي الأَرْضِ أَنْوَاعًا مِنَ الفَسَادِ فِي المِيَاهِ وَالهَوَاءِ، وَالزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ وَالمَسَاكِنِ. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [الروم: ٤١]، وَالفَسَادُ: المَعَاصِي وَآثَارُهَا فِي الأَرْضِ.

«وَأَنْتُم تَسْمَعُونَ عَمَّا يَحِلُّ بِأَرْجَاءِ العَالَمِ اليَوْمَ: مِنَ الزَّلَازِلِ وَالفَيَضَانَاتِ، وَالأَعَاصِيرِ المُدَمِّرَةِ الَّتِي تَجْتَاحُ الأُلُوفَ مِنَ السُّكَّانِ، وَتُهلِكُ المَبَالِغَ الطَّائِلَةَ مِنَ الأَموَالِ، وَتُدَمِّرُ الكَثِيرَ وَالكَثِيرَ مِنَ المَسَاكِنِ. وَمِنْ آثَارِ الذُّنُوبِ فِي الثِّمَارِ: مَا يَظْهَرُ فِيهَا مِنَ الآفَاتِ الَّتِي تَقْضِي عَلَيْهَا، أَوْ تُنْقِصُ مَحَاصِيلَهَا»[1].

وَأَنْتُم تَرَوْنَ كَثْرَةَ حُدُوثِ الآفَاتِ فِي الزُّرُوعِ وَالثِّمَارِ، آفَاتٌ مُتَلَازِمَاتٌ، آخِذٌ بَعْضُهَا بِرِقَابِ بَعْضٍ، يُتْبِعُ بَعْضُهَا بَعْضًا، فَكُلَّمَا أَحْدَثَ النَّاسُ ظُلْمًا وَشَرًّا وَفُجُورًا وَإِعْرَاضًا ـ عَمَّا أَوْجَبَ اللهُ عَلَيْهِم وَتَعَبَّدَهُم بِهِ ـ أَحْدَثَ لَهُم رَبُّهُم تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنَ الآفَاتِ وَالعِلَلِ: فِي أَغْذِيَتِهِم وَأَهْوِيَتِهِم، وَفَوَاكِهِهِم وَمِيَاهِهِم، وَأَبْدَانِهِم وَخُلُقِهِم وَصُوَرِهِم، وَتَتَابُعِ الأَمْرَاضِ وَالعُقُوبَاتِ. كُلُّ ذَلِكَ كَانَ جَزَاءً لِلنَّاسِ لِمَا ارْتَكَبُوهُ: مِنْ خَبَائِثَ وَسَيِّئَاتٍ، وَمَظَالِمَ وَمُحَرَّمَاتٍ وَبِدَعٍ، وَنَشْرِ الرَّذِيلَةِ وَأَكْلِ الحَرَامِ، وَعَمَلِ الزِّنَا وَالخَبَائِثِ، وَتَرْوِيجِ الفَسَادِ وَرَفْضِ أَوَامِرِ اللهِ جَلَّ جَلَالُهُ، وَالاسْتِهْزَاءِ بِالدِّينِ

---

(١) مختارات من الخطب المنبرية للعلَّامَة الفوزان (ص٢٥٣).

وَأَهْلِهِ. ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ عَنْ أَعْمَالِهِمُ الَّتِي أَثَّرَتْ لَهُم مِنَ الفَسَادِ مَا أَثَّرَتْ، فَتَصْلُحُ أَحْوَالُهُم، وَيَسْتَقِيمُ أَمْرُهُم. فَسُبْحَانَ مَنْ أَنْعَمَ بِبَلَائِهِ، وَتَفَضَّلَ بِعُقُوبَتِهِ، وَإِلاَّ فَلَو أَذَاقَهُم جَمِيعَ مَا كَسَبُوا، مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ.

السَّادِسُ عَشَرَ: زَوَالُ الأَمْنِ وَالاِطْمِئْنَانِ عَنِ الأَفْرَادِ وَالمُجْتَمَعَاتِ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [النحل: ١١٢].

هَذَا مَثَلٌ ضَرَبَهُ اللهُ لِكُلِّ قَرْيَةٍ أَوْ بَلْدَةٍ، كَانَتِ الخَيْرَاتُ تَأْتِيهَا مِنْ جَمِيعِ الأَمَاكِنِ: فِي رَغْدَةٍ مِنَ العَيْشِ، وَسَعَةٍ وَمَعَ أَمْنٍ؛ وَلَكِنَّهَا لَمَّا تَنَكَّرَت لِنِعَمِ اللهِ وَآلَائِهِ، وَخَالَفَتْ أَمْرَهُ وَاقْتَرَفَتِ المَعَاصِي، فَحَلَّ بِهَا مِنَ الجُوعِ وَالخَوْفِ: مَا اللهُ بِهِ عَلِيمٌ، وَهَذَا مُشَاهَدٌ فِي كُلِّ مَكَانٍ وَفِي كُلِّ زَمَانٍ، وَمِنْهَا زَمَنُنَا هَذَا: مَا حَلَّ وَيَحِلُّ بِبُلْدَانٍ كَثِيرَةٍ، والَّتِي حَصَلَ لَهَا مِنَ العِصْيَانِ وَالطُّغْيَانِ مَا حَصَلَ، فَحَلَّ بِدَارِهِم مَا حَلَّ، وَهَذِهِ سُنَّةُ اللهِ فِي خَلْقِهِ ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

فَنُحَذِّرُكُم وَأَنْفُسَنَا، عِقَابَ اللهِ وَسَطْوَتَهُ، فَإِنَّ أَخْذَهُ لِمَنْ ضَيَّعَ أَمْرَهُ ثَقِيلٌ، وَعَذَابَهُ الدُّنْيَوِيَّ وَالأُخْرَوِيَّ لِمَنْ عَصَاهُ وَبِيلٌ، فَإِنَّ الخَلْقَ أَهْوَنُ شَيْءٍ عَلَى اللهِ، إِذَا أَضَاعُوا أَمْرَهُ.

وَقَدْ فَصَّلَ اللهُ فِي كِتَابِهِ، مِمَّا أَوْقَعَ لِمَنْ ضَيَّعَ أَمْرَهُ: مَا فِيهِ عِبْرَةٌ لِأُولِي الاِعْتِبَارِ، وَتَبْصِرَةٌ لِذَوِي الأَبْصَارِ.

السَّابِعُ عَشَرَ: أَنَّهَا تُوْجِبُ القَطِيعَةَ بَيْنَ العَبْدِ وَبَيْنَ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَإِذَا وَقَعَتِ القَطِيعَةُ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَسْبَابُ الخَيْرِ، وَاتَّصَلَتْ بِهِ أَسْبَابُ الشَّرِّ، فَأَيُّ فَلَاحٍ وَأَيُّ رَخَاءٍ، وَأَيُّ عَيْشٍ لِمَنِ انْقَطَعَتْ عَنْهُ أَسْبَابُ الخَيْرِ، وَقُطِعَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ وَلِيِّهِ وَمَوْلَاهُ؟! الَّذِي لَا غِنَى لَهُ عَنْهُ طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَلَا بُدَّ لَهُ مِنْهُ، وَاتَّصَلَتْ بِهِ أَسْبَابُ الشَّرِّ، وَوَصَلَ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَعْدَى عَدُوٍّ لَهُ: فَتَوَلَّاهُ عَدُوُّهُ، وَتَخَلَّى عَنْهُ وَلِيُّهُ؟! فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا فِي هَذَا الانْقِطَاعِ وَالاِتِّصَالِ: مِنْ أَنْوَاعِ الآلَامِ وَأَنْوَاعِ العَذَابِ.

وَالعَجَبُ أَنَّ العَبْدَ يَعْلَمُ أَنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ مِنَ اللهِ، وَهُوَ أَحْوَجُ شَيْءٍ إِلَيْهِ، بَلْ هُوَ

مُضْطَرٌّ إِلَيْهِ عَلَى مَدَى الأَنْفَاسِ فِي كُلِّ ذَرَّةٍ مِنْ ذَرَّاتِهِ بَاطِنًا وَظَاهِرًا، فَاقَتُهُ تَامَّةٌ إِلَيْهِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَهُوَ مُتَخَلِّفٌ عَنْهُ مُعْرِضٌ عَنْهُ، وَفِيمَا يُبْعِدُهُ عَنْهُ رَاغِبٌ. يَتَبَغَّضُ إِلَيْهِ بِمَعْصِيَتِهِ، مَعَ شِدَّةِ الضَّرُورَةِ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ وَجْهٍ، هَذَا وَإِلَيْهِ مَرْجِعُهُ، وَبَيْنَ يَدَيْهِ مَوْقِفُهُ!!

الثَّامِنُ عَشَرَ: وَمِنْ عُقُوبَاتِ المَعَاصِي وَالآثَامِ: أَنَّهَا تُؤَثِّرُ فِي القُلُوبِ، كَتَأْثِيرِ الأَمْرَاضِ فِي الأَبْدَانِ، كَالحُمَّى وَالأَوْجَاعِ، بَلِ الذُّنُوبُ أَمْرَاضُ القُلُوبِ وَدَاؤُهَا، بِمَنْزِلَةِ الحَطَبِ الَّذِي يُمِدُّ النَّارَ وَيُوقِدُهَا، وَلَا دَوَاءَ لِأَمْرَاضِ القُلُوبِ إِلَّا بِتَرْكِ الذُّنُوبِ. وَقَدْ أَجْمَعَ السَّائِرُونَ إِلَى اللهِ أَنَّ القُلُوبَ لَا تُعْطَى مُنَاهَا حَتَّى تَصِلَ إِلَى مَوْلَاهَا، وَلَا تَصِلُ إِلَى مَوْلَاهَا حَتَّى تَكُونَ بِمُخَالَفَةِ هَوَاهَا، وَهَوَاهَا: مَرَضُهَا، وَشِفَاؤُهَا: مُخَالَفَتُهُ. وَمَتَى اسْتَحْكَمَتْ قَتَلَتْ، وَلَا بُدَّ. فَهِيَ كَطَعَامٍ لَذِيذٍ شَهِيٍّ لَكِنَّهُ مَسْمُومٌ، إِذَا تَنَاوَلَهُ الآكِلُ لَذَّ لَهُ أَكْلُهُ وَطَابَ لَهُ مَسَاغُهُ، وَبَعْدَ قَلِيلٍ يَفْعَلُ بِهِ مَا يَفْعَلُ، يَتَمَتَّعُ بِهِ صَاحِبُهُ لَحَظَاتٍ وَفِيهِ الهَلَاكُ. فَهَكَذَا المَعَاصِي وَالذُّنُوبُ، وَلَا بُدَّ. فَالذُّنُوبُ جِرَاحَاتٌ وَرُبَّ جَرْحٍ وَقَعَ فِي مَقْتَلٍ.

وَلَا تَقْرَبِ الأَمْرَ الحَرَامَ فَإِنَّمَا ... حَلَاوَتُهُ تَفْنَى وَيَبْقَى مَرِيرُهَا[1]

وَانْظُرُوا بِعَيْنِ التَّفَكُّرِ وَالاِعْتِبَارِ: لَو أَنَّ طَبِيبًا مُشْرِكًا، عَفَاكَ عَن تَنَاوُلِ الفَاكِهَةِ، لِأَجْلِ مَرَضٍ مِنْ أَمْرَاضِ الجَسَدِ، لَأَطَعْتَهُ، فَتَعْتَزِمُ عَزْمًا جَازِمًا أَن لَا تَتَنَاوَلَ شَيْئًا مِنَ الفَاكِهَةِ مَا دُمتَ فِي مَرَضِكَ، فَتَلجَأُ إِلَى الحِمْيَةِ، فَمَا بَالُكَ لَا تَتْرُكُ مَا نَهَاكَ عَنْهُ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ وَأَصْدَقُ القَائِلِينَ؟! لِأَجْلِ مَرَضِ القَلْبِ: الَّذِي إِذَا لَمْ تُشْفَ مِنْهُ، فَأَنْتَ مِنَ الهَالِكِينَ.

وَلِلَّهِ دَرُّ القَائِلِ:

جِسْمُكَ بِالحِمْيَةِ حَصَّنْتَهُ ... مَخَافَةً مِن أَلَمٍ طَارِي

وَكَانَ أَولَى بِكَ أَن تَحْتَمِيَ ... مِنَ المَعَاصِي خَشْيَةَ النَّارِ

فَكَيْفَ تَسْلُكُ سَبِيلَ المَعَاصِي، وَكُلُّهَا مَعَاطِبُ وَمَهَالِكُ، وَآفَاتٌ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَلَا تَحْتَمِي مِنْهَا؟!

---

(١) روضة المحبين (ص٤٤٠).

فَيَا مَنْ خَلَطَ فِي مَرَضِهِ وَمَا احْتَمَى، وَلَا صَبَر عَلَى مَرَارَةِ الدَّوَاءِ! أَلَا تَنْكِرُ قُرْبَ الهَلَاكِ؟! فَالدَّاءُ مُتَرَامٍ إِلَى الفَسَادِ. فَإِنَّمَا يَنْتَفِعُ المَرِيضُ بِشُرْبِ الدَّوَاءِ بَعْدَ الحِمْيَةِ مِنْ أَسْبَابِ الدَّاءِ.

فَمَنِ امْتَثَلَ الأَوَامِرَ، وَاسْتَعْمَلَ الحِمْيَةَ بِاجْتِنَابِ النَّوَاهِي، وَاسْتَفْرَغَ التَّخْلِيطَ بِالتَّوْبَةِ النَّصُوحِ، لَمْ يَدَعْ لِلْخَيْرِ مَطْلَبًا، وَلَا مِنَ الشَّرِّ مَهْرَبًا. «وَلَوْ تَفَطَّنَ العَاقِلُ اللَّبِيبُ لِهَذَا حَقَّ التَّفَطُّنِ، لَأَعْطَاهُ حَقَّهُ مِنَ الحَذَرِ وَالجِدِّ فِي الهَرَبِ»[1].

التَّاسِعُ عَشَرَ: أَنَّ العَاصِي دَائِمًا فِي أَسْرِ شَيْطَانِهِ، وَسَجْنِ شَهَوَاتِهِ، وَقُيُودِ هَوَاهُ، فَهُوَ أَسِيرٌ مَسْجُونٌ مُقَيَّدٌ، وَلَا أَسِيرَ أَسْوَأُ مِنْ أَسِيرِ أَسَرَهُ أَعْدَى عَدُوٍّ لَهُ، وَلَا سِجْنَ أَضْيَقُ مِنْ سِجْنِ الهَوَى، وَلَا قَيْدَ أَصْعَبُ مِنْ قَيْدِ الشَّهْوَةِ. وَالمَحْبُوسُ مَنْ حَبَسَ قَلْبَهُ عَنْ رَبِّهِ، وَالمَأْسُورُ مَنْ أَسَرَهُ هَوَاهُ. فَكَيْفَ يَسِيرُ إِلَى اللهِ وَالدَّارِ الآخِرَةِ: قَلْبٌ مَأْسُورٌ مَسْجُونٌ مُقَيَّدٌ؟! وَكَيْفَ يَخْطُو خُطْوَةً وَاحِدَةً؟!

العِشْرُونَ: ظُلْمَةٌ فِي القَلْبِ. «فَالقَبَائِحُ تُسَوِّدُ القَلْبَ، وَتُطْفِئُ نُورَهُ»[2]. وَ«إِذَا أَظْلَمَ القَلْبُ، أَقْبَلَتْ سَحَائِبُ البَلَاءِ والشَّرِّ عَلَيْهِ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ»[3]، فَلَا يَجِدُ لَذَّةً لِطَاعَةٍ وَلَا حَلَاوَةً. فَإِنَّ الطَّاعَةَ نُورٌ، وَالمَعْصِيَةَ ظُلْمَةٌ، ثُمَّ تَقْوَى هَذِهِ الظُّلْمَةُ حَتَّى تَظْهَرَ فِي العَيْنِ، ثُمَّ تَقْوَى حَتَّى تَعْلُوَ الوَجْهَ، وَتَصِيرَ سَوَادًا فِي الوَجْهِ، حَتَّى يَرَاهُ كُلُّ أَحَدٍ. فَإِذَا كَانَتْ عِنْدَ المَوْتِ، ظَهَرَتْ فِي البَرْزَخِ، فَامْتَلَأَ القَبْرُ ظُلْمَةً، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ هَذِهِ القُبُورَ مَمْلُوءَةٌ ظُلْمَةً عَلَى أَهْلِهَا، وَإِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنَوِّرُهَا لَهُم بِصَلَاتِي عَلَيْهِم»[4]؛ فَإِذَا كَانَ يَوْمُ المعادِ، وَحُشِرَ العِبَادُ، عَلَتِ الظُّلْمَةُ الوُجُوهَ عُلُوًّا ظَاهِرًا يَرَاهُ كُلُّ أَحَدٍ، حَتَّى يَصِيرَ الوَجْهُ أَسْوَدَ مِثْلَ الحُمَمَةِ (أي: الفَحْمَةِ).

فَتَتَابُعُ الذُّنُوبِ عَظِيمُ التَّأْثِيرِ فِي سَوَادِ القَلْبِ وَهُوَ كَتَتَابُعِ قَطَرَاتِ المَاءِ عَلَى الحَجَرِ، فَإِنَّهُ يُحْدِثُ فِيهِ حُفْرَةً لَا مَحَالَةَ، مَعَ لِينِ المَاءِ وَصَلَابَةِ الحَجَرِ.

---

(١) بدائع الفوائد (٢/ ٧١٢).
(٢) تهذيب المدارج (١/ ٤٦٥).
(٣) الجواب الكافي (ص٢٦٠)، بتصرف يسير.
(٤) أخرجه مسلم (٩٥٦).

وَتَأَمَّلِ الحَدِيثَ التَّالِيَ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَزَلَ الحَجَرُ الأَسْوَدُ مِنَ الجَنَّةِ، وَهُوَ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، فَسَوَّدَتْهُ خَطَايَا بَنِي آدَمَ»[1].

لِتَأْثِيرِ شُؤْمِ المَعْصِيَةِ فِي الحَجَرِ، وَكَذَلِكَ تَأْثِيرُ شُؤْمِ الذُّنُوبِ فِي القُلُوبِ.

وَمَنْ أَرَادَ تَنْوِيرَ القَلْبِ، فَلْيَلْزَمِ التَّوْبَةَ إِلَى الرَّبِّ، فَمَا اسْتَنَارَتِ القُلُوبُ، بِمِثْلِ تَرْكِ المَعَاصِي وَالذُّنُوبِ.

الحَادِي وَالعِشْرُونَ: وَمِنْ آثَارِ الذُّنُوبِ: مَا قَالَهُ ابنُ عُمَرَ ﷺ: أَقْبَلَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ المُهَاجِرِينَ خَمْسٌ إِذَا ابْتُلِيتُم بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَم تَظهَرِ الفَاحِشَةُ فِي قَومٍ قَطُّ حَتَّى يُعلِنُوا بِهَا، إِلَّا فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوْجَاعُ الَّتِي لَم تَكُن مَضَت فِي أَسْلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوْا؛ وَلَم يَنقُصُوا المِكيَالَ وَالمِيزَانَ، إِلَّا أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ المَؤُونَةِ وَجَورِ السُّلطَانِ عَلَيهِم؛ وَلَم يَمنَعُوا زَكَاةَ أَموَالِهِم، إِلَّا مُنِعُوا القَطرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَولَا البَهَائِمُ لَم يُمطَرُوا؛ وَلَم يَنقُضُوا عَهدَ اللهِ وَعَهدَ رَسُولِهِ، إِلَّا سَلَّطَ اللهُ عَلَيهِم عَدُوًّا مِن غَيرِهِم، فَأَخَذُوا بَعضَ مَا فِي أَيدِيهِم؛ وَمَا لَم تَحكُم أَئِمَّتُهُم بِكِتَابِ اللهِ، وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ، إِلَّا جَعَلَ اللهُ بَأْسَهُم بَينَهُم»[2].

وَالبَصِيرُ العَاقِلُ يَرَى مَا أَخْبَرَ بِهِ ﷺ مِنْ هَذِهِ العُقُوبَاتِ فِي هَذَا الحَدِيثِ عَيَانًا، لِأَنَّ مُوجِبَاتِهَا قَدْ وَقَعَتْ، فَإِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ.

فَظُهُورُ الفَاحِشَةِ يُوجِبُ الأَوْبِئَةَ وَالأَمْرَاضَ الفَتَّاكَةَ، وَالآفَاتِ القَاتِلَةَ، الَّتِي لَمْ تَكُنْ مَعْرُوفَةً: كَمَرَضِ نَقْصِ المَنَاعَةِ المُكْتَسَبَةِ «الإيدز»، وَالزُّهْرِي، والسَّرَطَانِ، وَالكُولِيرَا، وَالسِّلِّ، والسَّكْتَةِ القَلْبِيَّةِ.

فَالطَّاعُونُ قَد فَشَا، بِمَا لَمْ يُسْمَعْ بِمِثْلِهِ مِنْ قَبْلُ. وَفِي الجَدْبِ، وَشِدَّةُ المَؤُونَةِ وَجَوْرُ السُّلْطَانِ، مِنْ نَقْصِ الأَمْوَالِ مَا يَعْرِفُهُ كُلُّ أَحَدٍ، جَزَاءً لِبَخْسِهِمُ النَّاسَ حُقُوقَهُم وَأَمْوَالَهُم، بِنَقْصِ المِكْيَالِ وَالمِيزَانِ، جَزَاءً وِفَاقًا، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ.

---

(١) أخرجه الترمذي (٨٧٧)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن الترمذي» (١/ ٤٥٢).
(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٩)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٢٦٢).

وَقَدْ جَاءَ فِي هَذَا الذَّنْبِ مِنَ الوَعِيدِ، وَالإِخْبَارِ بِمَا أَحَلَّ اللهُ بِفَاعِلِيهِ، مِنْ سَالِفِ الأُمَمِ، مَا هُوَ مَعْلُومٌ؛ وَإِنَّمَا حُرِّمَ ذَلِكَ وَغَلُظَ تَحْرِيمُهُ، لِأَنَّهُ مِن أَعْظَمِ الظُّلْمِ، وَأَكْلِ المَالِ.

وَمَنْعُ الزَّكَاةِ لَهَا خُصُوصِيَّةٌ فِي مَنْعِ القَطْرِ مِنَ السَّمَاءِ، فَإِنَّ مَنْعَهَا مِنْ أَعْظَمِ الذُّنُوبِ، لِأَنَّ الزَّكَاةَ أَحَدُ أَرْكَانِ الإِسْلَامِ، وَهِيَ قَرِينَةُ الصَّلَاةِ فِي كِتَابِ اللهِ. وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ لَا يُؤَدِّي الزَّكَاةَ المَفْرُوضَةَ، مِنَ الأَمْوَالِ الخَفِيَّةِ: إِمَّا بُخْلًا ـ وَالعِيَاذُ بِاللهِ ـ، أَو جَهْلًا بِبَعْضِ تَفَاصِيلِ الوَاجِبِ مِنَ الشُّرُوطِ، كَالنِّصَابِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَقَوْلُهُ: «وَلَوْلَا البَهَائِمُ لَم يُمْطَرُوا» يَدُلُّ عَلَى أَنَّ مَا يُنْزِلُهُ اللهُ تَعَالَى مِنَ المَطَرِ فِي بَعْضِ الأَحْيَانِ، رَحْمَةً لِلْبَهَائِمِ الَّتِي لَا جُرْمَ لَهَا.

وَأَمَّا تَسْلِيطُ الأَعْدَاءِ: فَحَدِّث وَلَا حَرَجَ. وَالتَّنَازُعُ وَالشِّقَاقُ وَالبَغْضَاءُ، وَالبَأْسُ الشَّدِيدُ بَيْنَ المُسْلِمِينَ: أَصْبَحَ هُوَ القَاعِدَةَ فِي التَّعَامُلِ. وَفِي ذَلِكَ كُلِّهِ تَحْذِيرٌ لِلأَئِمَّةِ مِنْ تَرْكِ العَمَلِ بِمَا فِي كِتَابِ اللهِ، وَهُوَ دِينُهُ الَّذِي دَلَّ عَلَيْهِ الكِتَابُ وَالسُّنَّةُ، فَإِنَّ هَذِهِ العُقُوبَةَ، وَهِيَ: إِغْرَاءُ اللهِ بَيْنَهُمُ، العَدَاوَةَ وَالبَغْضَاءَ، وَجَعْلُهُ تَعَالَى بَأْسَهُمْ بَيْنَهُم، بِهَا انْثِلَالُ عَرْشِ الدِّيَانَاتِ، وَانْحِلَالُ نِظَامِ الوِلَايَاتِ، وَتَفَرُّقُ الجَمَاعَاتِ، وَانْتِهَاكُ المُحَرَّمَاتِ، وَتَسْلِيطُ أَهْلِ الكُفْرِ وَالضَّلَالَاتِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المائدة: ١٤].

وَمِنَ المُؤْسِفِ جِدًّا؛ أَنْ يَكُونَ كُلُّ مَا فِي هَذَا الحَدِيثِ مُتَحَقِّقًا فِينَا تَمَامًا، ظَاهِرًا فِي مُجْتَمَعِنَا بِأَجْلَى المَظَاهِرِ. فَلَعَلَّ المُسْلِمِينَ يَتَفَطَّنُونَ لِمَا نَزَلَ بِهِم، فَيَرْعَوُوا عَمَّا هُمْ فِيهِ مِنْ أَسْبَابِ عَذَابِهِم وَذُلِّهِم وَخِزْيِهِم، وَيَتَأَدَّبُوا وَيَرْجِعُوا إِلَى دِينِهِمُ الحَقِّ وَالتَّمَسُّكِ بِهِ، حَتَّى يَرْفَعَ اللهُ عَنْهُم عِقَابَهُ وَخِزْيَهُ.

الثَّانِي وَالعِشْرُونَ: تَدَاعِي الأُمَمِ عَلَيْنَا: عَنْ ثَوْبَانَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يُوشِكُ الأُمَمُ أَن تَدَاعَى عَلَيْكُم، كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصعَتِهَا» فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِن قِلَّةٍ نَحْنُ يَومَئِذٍ؟ قَالَ: «بَلْ أَنْتُم يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُم غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ؛

وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ المَهَابَةَ مِنْكُم، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الوَهْنَ» فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَا الوَهَنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ المَوتِ»[1].

قَدْ تَجلَّى هَذَا الحَدِيثُ النَّبَوِيُّ الشَّرِيفُ - بِأَقْوَى مَظَاهِرِهِ وَأَجْلَى صُوَرِهِ -: فِي الفِتْنَةِ العُظْمَى الَّتِي ضَرَبَتِ المُسْلِمِينَ؛ فَفَرَّقَتْ كَلِمَتَهُم، وَأَوْهَنَتْ عَزْمَهُم، وَشَتَّتَتْ صُفُوفَهُم. فَقَدْ تَدَاعَتْ عَلَيْنَا الأُمَمُ: بِأَنْ يَدْعُوَ بَعْضُهُم بَعْضًا لِمُقَاتَلَتِكُم وَكَسْرِ شَوْكَتِكُم، وَسَلْبِ مَا مَلَكْتُمُوهُ مِنَ الدِّيَارِ وَالأَمْوَالِ. كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا الَّتِي يَتَنَاوَلُونَ مِنْهَا: بِلَا مَانِعٍ وَلَا مُنَازِعٍ، فَيَأْكُلُونَهَا عَفْوًا وَصَفْوًا؛ كَذَلِكَ يَأْخُذُونَ مَا فِي أَيْدِيكُم: بِلَا تَعَبٍ يَنَالُهُم، أَو ضَرَرٍ يَلْحَقُهُم، أَوْ بَأْسٍ يَمْنَعُهُم. وَلَيْسَ ذَلِكَ التَّدَاعِي لِأَجْلِ قِلَّةٍ؛ نَحْنُ عَلَيْهَا يَوْمَئِذٍ، بَل نَحْنُ أَكْثَرُ عَدَدًا. «وَلَكِنَّكُم غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيلِ»: مَا يَحْمِلُهُ السَّيْلُ مِنْ زَبَدٍ وَوَسَخٍ، شَبَّهَهُم بِهِ لِقِلَّةِ شَجَاعَتِهِم وَدَنَاءَةِ قَدْرِهِم، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً فَبُعْدًا لِّلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [المؤمنون: ٤١].

لِمَاذَا تَدَاعَت عَلَيْنَا الأُمَمُ؟ وَلِمَاذَا لَا يُلْقُونَ لَنَا وَزْنًا وَلَا قِيمَةً؟! لِأَنَّهُ اسْتَوْلَى عَلَى قُلُوبِنَا: حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ المَوْتِ.

أَيُّهَا الأَحِبَّةُ: لِمَاذَا لَا نُصلِّي الفَجْرَ فِي المَسْجِدِ؟ رَكَنَّا إِلَى الدُّنْيَا، وَخَلَدْنَا إِلَى النَّوْمِ وَالكَسَلِ. وَمَنْ لَازَمَ المَنَامَ، لَمْ يَرَ إِلَّا الأَحْلَامَ؛ وَمَنْ لَازَمَ الرُّقَادَ، فَاتَهُ المُرَادُ.

الثَّالِثُ وَالعِشْرُونَ: وَمِنْ عُقُوبَاتِهَا: أَنَّهَا تُنْسِي العَبْدَ نَفْسَهُ، فَإِذَا نَسِيَ نَفْسَهُ أَهْمَلَهَا وَأَفْسَدَهَا وَأَهْلَكَهَا. وَهَذَا أَهْلَكُ الهَلَاكِ، الَّذِي لَا يُرْجَى مَعَهُ نَجَاةٌ. قَالَ اللهُ العَظِيمُ: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١٩﴾﴾ [الحشر: ١٩]، ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۚ﴾ [التوبة: ٦٧].

فَمَنْ نَسِيَ رَبَّهُ، عَاقَبَهُ عُقُوبَتَيْنِ؛ أَحَدُهُمَا: أَنَّهُ سُبْحَانَهُ نَسِيَهُ، وَالثَّانِيَةُ: أَنَّهُ أَنْسَاهُ نَفْسَهُ.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٢٩٧)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «صحيح سنن أبي داود» (٣/ ٢٥).

وَنِسْيَانُهُ سُبْحَانَهُ لِلْعَبْدِ: هُوَ إِهْمَالُهُ وَتَرْكُهُ، وَتَخْلِيهِ عَنْهُ وَإِضَاعَتُهُ، وَهُوَ سَبَبُ شَقَاءِ العَبْدِ فِي مَعَاشِهِ وَمَعَادِهِ. وَأَمَّا إِنْسَاؤُهُ نَفْسَهُ: فَهُوَ إِعْرَاضُهُ عَنْ مَصَالِحِهَا وَأَسْبَابِ سَعَادَتِهَا وَفَلَاحِهَا وَصَلَاحِهَا، كَمَن لَهُ زَرْعٌ أَوْ بُسْتَانٌ أَوْ مَاشِيَةٌ أَو مَالٌ أَو غَيْرُ ذَلِكَ، مِمَّا صَلَاحُهُ وَفَلَاحُهُ بِتَعَاهُدِهِ وَالقِيَامِ عَلَيْهِ، فَأَهْمَلَهُ وَنَسِيَهُ، وَاشْتَغَلَ عَنْهُ بِغَيْرِهِ، وَضَيَّعَ مَصَالِحَهُ؛ فَإِنَّهُ يَفْسُدُ وَلَا بُدَّ.

وَأَيْضًا فَيُنْسِيهِ أَمْرَاضَ نَفْسِهِ وَقَلْبِهِ وَآلَامَهَا، فَلَا يَخْطُرُ بِقَلْبِهِ مُدَاوَاتُهَا، وَلَا السَّعْيُ فِي إِزَالَةِ عِلَلِهَا وَأَمْرَاضِهَا الَّتِي تَؤُولُ بِهِ إِلَى الفَسَادِ وَالهَلَاكِ، فَهُوَ مَرِيضٌ مُثْخَنٌ بِالمَرَضِ، وَمَرَضُهُ مُتَرَامٍ بِهِ إِلَى التَّلَفِ، وَلَا يَشْعُرُ بِمَرَضِهِ، وَلَا يَخْطُرُ بِبَالِهِ مُدَاوَاتُهُ: وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ العُقُوبَةِ؛ فَأَيُّ عُقُوبَةٍ أَعْظَمُ مِنْ عُقُوبَةِ مَنْ أَهْمَلَ نَفْسَه وضَيَّعَهَا، وَنَسِيَ مَصَالِحَهَا وَدَاءَهَا وَدَوَاءَهَا، وَأَسْبَابَ سَعَادَتِهَا وَصَلَاحِهَا وَفَلَاحِهَا، وَحَيَاتِهَا الأَبَدِيَّةِ فِي النَّعِيمِ المُقِيمِ؟!

وَمَنْ تَأَمَّلَ هَذَا المَوْضِعَ، تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ أَكْثَرَ هَذَا الخَلْقِ قَدْ نَسُوا أَنْفُسَهُم حَقِيقَةً، وَضَيَّعُوهَا وَأَضَاعُوا حَظَّهَا مِنَ اللهِ. نَسُوا حَظَّهُم مِنَ التِّجَارَةِ الرَّابِحَةِ، وَاشْتَغَلُوا بِأَسْبَابِ التِّجَارَةِ الخَاسِرَةِ.

الخَاتِمَة

الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى خَاتِمِ الأَنْبِيَاءِ وَالمُرْسَلِينَ.

هَذِهِ هِيَ الذُّنُوبُ، سُمٌّ يَسْرِي فِي الأَبْدَانِ فَيُهْلِكُهَا، وَفِي البُلْدَانِ فَيُفْسِدُهَا، أَضْرَارُهَا عَظِيمَةٌ، وَعَوَاقِبُهَا وَخِيمَةٌ. فَلَا شَيْءَ أَفْسَدُ لِلدِّينِ، وَأَشَدُّ تَقْوِيضًا لِبُنْيَانِهِ مِنْهَا، فَهِيَ تَفْتِكُ بِهِ فَتْكَ الذِّئْبِ بِالغَنَمِ، وَتَنْخُرُ فِيهِ نَخْرَ السُّوسِ فِي الحَبِّ، وَتَسْرِي فِي كَيَانِهِ سَرَيَانَ السَّرَطَانِ فِي الدَّمِ، أَوِ النَّارِ فِي الهَشِيمِ.

هَذِهِ آثَارُهَا فِي الدُّنْيَا، أَمَّا فِي الآخِرَةِ فَيَكْفِي قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ١٢٧]، نَسْأَلُ اللهَ السَّلَامَةَ وَالعَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا والآخِرَةِ.

فَالوَاجِبُ عَلَيْنَا وَعَلَيْكُم: الإِقْبَالُ عَلَى اللهِ، بِالتَّوْبَةِ إِلَى رَبِّنَا تَوْبَةً نَصُوحًا. قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]. بِنَدَمٍ خَالِصٍ صَحِيحٍ، وَعَزْمٍ أَكِيدٍ، وَعَمَلٍ رَشِيدٍ، بِأَنْ نُغَيِّرَ حَيَاتَنَا الآثِمَةَ إِلَى الحَيَاةِ الصَّالِحَةِ فِي زَمَنِ الإِمْكَانِ، وَعَلَى كُلِّ حَالٍ: فِي القَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَالسِّرِّ وَالجَهْرِ.

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يُوَفِّقَنَا لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ: مِنَ الأَقْوَالِ والأَفْعَالِ وَالنِّيَّاتِ، وَأَنْ يَرْزُقَنَا الثَّبَاتَ عَلَى الإِسْلَامِ إِلَى المَمَاتِ، وَأَنْ لَا يُزِيغَ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا. إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

وَآخِرُ دَعْوَانَا أَنِ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ.

تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

التوبة
طريق إلى الجنة

تأليف
عبد الهادي بن حسن وهبي

تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إنَّ الحَمدَ للَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِن شُرُورِ أَنفُسِنَا وَمِن سَيِّئَاتِ أَعمَالِنَا، مَن يَهدِهِ اللَّهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِل فَلا هَادِيَ لَهُ، وَأَشهَدُ أَن لا إِلٰهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آلِ عِمرَان: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النِّسَاء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزَاب: ٧٠ ـ ٧١].

أَمَّا بَعدُ: فَإِنَّ خَيرَ الكَلامِ كَلَامُ اللَّهِ، وَخَيرَ الهَدي هَديُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الأُمُورِ مُحدَثَاتُهَا وَكُلَّ مُحدَثَةٍ بِدعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلالَةٌ، وَكُلَّ ضَلالَةٍ فِي النَّارِ.

أَمَّا بَعدُ: فَإِنَّ «المَعَاصِي سَبَبُ كُلِّ عَنَاءٍ، وَطَرِيقُ كُلِّ تَعَاسَةٍ وَشَقَاءٍ، مَا حَلَّت فِي دِيَارٍ إِلَّا أَهلَكَتهَا، وَلا فَشَت فِي مُجتَمَعَاتٍ إِلَّا دَمَّرَتهَا وَأَزَالَتهَا، وَمَا أَهلَكَ اللَّهُ تَعَالَى أُمَّةً مِنَ الأُمَمِ إِلَّا بِذَنبٍ، وَمَا نَجَا وَفَازَ مَن فَازَ إِلَّا بِتَوبَةٍ وَطَاعَةٍ، فَإِنَّ مَا أَصَابَ النَّاسَ مِن ضُرٍّ وَضِيقٍ فِي كُلِّ مَجَالٍ مِن المَجَالاتِ، فَرْدِيًّا كَانَ أَو جَمَاعِيًّا، هُوَ بِسَبَبِ مَعَاصِيهِم وَإِهمَالِهِم لأَوَامِرِ اللَّهِ ﷻ، وَنِسيانِهِم شَرِيعَتَهُ.

وَكِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى خَيرُ شَاهِدٍ، فَقَد عَمَّ قَومَ نُوحٍ الغَرَقُ، وَأَهلَكَت عَادًا الرِّيحُ العَقِيمُ، وَأَخَذَت ثَمُودَ الصَّيحَةُ، وَقُلِبَت قُرَى قَومِ لُوطٍ عَلَيهِم، قَالَ ﷻ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [العَنكَبُوت: ٤٠]»[1].

إنَّ أَضرَارَ المَعَاصِي وَشُؤمَ الذُّنُوبِ عَظِيمٌ وَخَطِيرٌ؛ فَهِيَ مُوجِبَةٌ لِلذُّلِّ وَالحِرمَانِ، جَالِبَةٌ لِلصَّدِّ عَن سَبِيلِ الرَّحمٰنِ، تُورِثُ الهَوَانَ[2].

عَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، قَالَ: أقبَلَ عَلَينَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ: «يَا مَعشَرَ المُهَاجِرِينَ خَمسٌ إِذَا ابتُلِيتُم بِهِنَّ، وَأَعُوذُ بِاللَّهِ أَن تُدرِكُوهُنَّ: لَم تَظهَرِ الفَاحِشَةُ فِي قَومٍ قَطُّ حَتَّى يُعلِنُوا بِهَا إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالأَوجَاعُ الَّتِي لَم تَكُن مَضَت فِي أَسلَافِهِمُ الَّذِينَ مَضَوا، وَلَم يَنقُصُوا المِكيَالَ والمِيزَانَ إِلاَّ أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ المَؤُونَةِ وَجَورِ السُّلطَانِ عَلَيهِم، وَلَم يَمنَعُوا زَكَاةَ أَموَالِهِم إِلاَّ مُنِعُوا القَطرَ مِنَ السَّمَاءِ، وَلَولا البَهَائِمُ لَم يُمطَرُوا، وَلَم يَنقُضُوا عَهدَ اللَّهِ وَعَهدَ رَسُولِهِ إِلاَّ سَلَّطَ اللَّهُ عَلَيهِم عَدُوًّا مِن غَيرِهِم، فَأَخَذُوا بَعضَ مَا فِي أَيدِيهِم، وَمَا لَم تَحكُم أَئِمَّتُهُم بِكِتَابِ اللَّهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنزَلَ اللَّهُ إِلاَّ جَعَلَ اللَّهُ بَأسَهُم بَينَهُم»[3].

وَعَنِ البَرَاءِ بنِ عَازِبٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا اختَلَجَ عِرقٌ وَلاَ عَينٌ إِلاَّ بِذَنبٍ، وَمَا يَدفَعُ اللَّهُ عَنهُ أَكثَرَ»[4].

المعصية تُورِثُ الذُّلَّ وَلا بُدَّ؛ فَإِنَّ العِزَّ كُلَّ العِزِّ فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالى. قَالَ ﷻ: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فَاطِر: ١٠]؛ أَي: فَليَطلُبهَا بِطَاعَةِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ لا يَجِدُهَا إِلَّا فِي طَاعَتِهِ.

المعصية تُزِيلُ النِّعَمَ وَتُحِلُّ النِّقَمَ. فَمَا زَالَت عَنِ العَبدِ نِعمَةٌ إِلَّا بِذَنبٍ، وَلا

---

(١) المجموعة الذهبية في الخطب المنبرية (١/ ٢٩١).
(٢) المجموعة الذهبية في الخطب المنبرية (١/ ٢٩١ ـ ٢٩٣).
(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٠١٩)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٢٤٦).
(٤) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» (رقم: ١٠٥٣)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٥٥٢١).

حَلَّت بِهِ نِقمَةٌ إِلَّا بِذَنبٍ. قَالَ ﷻ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشورى: ٣٠]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرَّعد: ١١]. وَقَالَ ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

فَأَخبَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّهُ لا يُغَيِّرُ نِعمَتَهُ التِي أَنعَمَ بِهَا عَلَى أَحَدٍ حَتَّى يَكُونَ هُوَ الَّذِي يُغَيِّرُ مَا بِنَفسِهِ، فَيُغَيِّرُ طَاعَةَ اللَّهِ بِمَعصِيَتِهِ، وَشُكرَهُ بِكُفرِهِ، وَأَسبَابَ رِضَاهُ بِأَسبَابِ سَخَطِهِ، فَإِذَا غَيَّرَ غُيِّرَ عَلَيهِ، جَزَاءً وِفَاقًا، وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلعَبِيدِ.

وَلَقَد أَحسَنَ القَائِلُ:

إِذَا كُنتَ فِي نِعمَةٍ فَارعَهَا ... فَإِنَّ المَعَاصِي تُزِيلُ النِّعَمْ
وَحَافِظ عَلَيهَا بِشُكرِ الإِلَه ... فَشُكرُ الإِلَهِ يُزِيلُ النِّقَمْ

المعصية سَبَبٌ لِهَوَانِ العَبدِ عَلَى رَبِّهِ، وَإِذَا هَانَ العَبدُ عَلَى اللَّهِ لَم يُكرِمهُ أَحَدٌ، كَمَا قَالَ ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ ۗ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿١٨﴾﴾ [الحجّ: ١٨].

وَإِذَا هَانَ العَبدُ عَلَى اللَّهِ انقَطَعَت عَنهُ أَسبَابُ الخَيرِ وَاتَّصَلَت بِهِ أَسبَابُ الشَّرِّ.

وَلِذَلِكَ فَقَد حَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ مِنَ المَعصِيَةِ؛ لِمَا لَهَا مِن آثَارٍ سَيِّئَةٍ عَلَى الأَفرَادِ وَالمُجتَمَعَاتِ.

عَن مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ ﷺ قَالَ: أَوصَانِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِعَشرِ كَلِمَاتٍ، وَذَكَرَ مِنهَا: «إِيَّاكَ وَالمَعصِيَةَ؛ فَإِنَّ بِالمَعصِيَةِ حَلَّ سَخَطُ اللَّهِ ﷻ»[1].

إِنَّ حَالَنَا الأَلِيمَ الَّذِي نُعَانِيهِ سَبَبُهُ البُعدُ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، فَهَل من تَوبَةٍ وَإِنَابَةٍ؟!

وَلَقَد وَفَّقَنِي اللَّهُ ﷻ وَجَمَعتُ هَذَا البَحثَ تَذكِيرًا بِالتَّوبَةِ وَحَثًّا عَلَى التَّحَقُّقِ

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٥/٢٣٨) (٢٢١٧٤)، وأفاد الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٧٠) بأنه: «حسن لغيره».

بِهَا سَائِلاً المَولَى الكَرِيمَ أَن يَنفَعَنِي بِهَا فِي حَيَاتِي، وَيُثَقِّلَ بِهَا فِي القِيَامَةِ مِيزَانَ حَسَنَاتِي، وَيُكَفِّرَ بِهَا عَنِّي سَيِّئَاتِي، وَيَرفَعَ دَرَجَاتِي، وَأَن يَنفَعَ بِهَا أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ أَجمَعِينَ، إِنَّهُ سَمِيعٌ مُجِيبٌ.

واللَّهُ المُوَفِّقُ لِلصَّوَابِ، وَعَلَيهِ تَوَكَّلتُ وَإِلَيهِ مَتَاب.

الراجي عفو ربّه

عبد الهادي بن حسن وهبي

فضائلُ التوبة
من الكتاب والسنَّة

لَقَد حَثَّ اللَّهُ تعَالَى فِي كِتَابِهِ، وَحَثَّ النَّبِيُّ ﷺ فِي خِطَابِهِ عَلَى استِغفَارِ اللَّهِ تَعَالَى وَالتَوبَةِ إِلَيهِ. «لأنَّ حَاجَةَ الخَلقِ إِلَيهَا شَدِيدَةٌ، وَكُلُّ أَحَدٍ يَحتَاجُ إِلَى مَعرِفَتِهَا، ثُمَّ إِلَى العَمَلِ بِمُقتَضَاهَا»[1].

قَالَ ﷻ: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ [هود: ٣].

هذه الآيَةُ الكَرِيمَة تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الاستِغفَارَ وَالتَوبَةَ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى مِنَ الذُنُوبِ سَبَبٌ لأَن يُمَتِّعَ اللَّهُ مَن فَعَلَ ذَلِكَ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى... وَالظَاهِرُ أَنَّ المُرَادَ بِالمَتَاعِ الحَسَنِ: سَعَةُ الرِّزقِ، وَرَغَدُ العَيشِ، وَالعَافِيَةُ فِي الدُّنيَا[2].

وَقَالَ ﷻ: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النُّور: ٣١]. فَلا يَرجُو الفَلاحَ إِلَّا التَّائِبُونَ جَعَلَنَا اللَّهُ مِنهُم.

وَقَالَ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البَقَرَة: ٢٢٢]. التَّوَّابُ: كَثِيرُ التَّوبَةِ. وَمَعلُومٌ أَنَّ كَثرَةَ التَّوبَةِ تَستَلزِمَ كَثرَةَ الذَّنبِ، وَمِن هُنَا نَفهَمُ بِأَنَّ الإِنسَانَ مَهمَا كَثُرَ ذَنبُهُ، إِذَا أَحدَثَ لِكُلِّ ذَنبٍ تَوبَةٌ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّهُ. وَهَذَا أَمرٌ عَظِيمٌ إِلَى الغَايَةِ، «لأَنَّ مَحَبَّةَ اللَّهِ لِلعَبدِ هِيَ أَعلَى مَا تَمَنَّاهُ المُؤمِنُونَ، وَأَفضَلُ مَا

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (١/ ٤٥١).
(٢) انظر: أضواء البيان (٣/ ٧).

سَأَلَهُ السَّائِلُونَ»[1]. وَإِذَا كَانَتِ التَّوبَةُ بِهَذِهِ المَنزِلَةِ، فَالآتِي بِهَا آتٍ بِمَا هُوَ مِن أَفضَلِ القُرُبَاتِ، وَأَحَبِّ الطَّاعَاتِ إِلَى اللَّهِ ﷻ.

وَقَالَ ﷻ: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفُرقان: ٧٠]. وَهَذَا مِن أَعظَمِ البِشَارَةِ لِلتَّائِبِينَ. وَهَذَا «التَّبدِيلُ فِي حَقِّ مَن نَدِمَ عَلَى سَيِّئَاتِهِ، وَجَعَلَهَا نُصبَ عَينَيهِ، فَكُلَّمَا ذَكَرَهَا ازدَادَ خَوفًا، وَوَجَلًا، وَحَيَاءً مِنَ اللَّهِ، وَمُسَارَعَةً إِلَى الأَعمَالِ الصَّالِحَةِ. وَمَن كَانَت هَذِهِ حَالُهُ، فَإِنَّهُ يَتَجَرَّعُ مِن مَرَارَةِ النَّدَمِ والأَسَفِ عَلَى ذُنُوبِهِ أَضعَافَ مَا ذَاقَ مِن حَلَاوَتِهَا عِندَ فِعلِهَا، وَيَصِيرُ كُلُّ ذَنبٍ مِن ذُنُوبِهِ سَبَبًا لأَعمَالٍ صَالِحَةٍ مَاحِيَةٍ لَهُ»[2].

وَقَالَ ﷻ: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [المَائِدَة: ٧٤]. هَذِهِ دَعوَةٌ مِنَ الرَّحمٰنِ لِلتَوبَةِ، فَهُوَ «يَغفِرُ الذُّنُوبَ لِلتَّائِبِينَ، وَلَو بَلَغَت عَنَانَ السَّمَاءِ، وَيَرحَمُهُم بِقَبُولِ تَوبَتِهِم، وَتَبدِيلِ سَيِّئَاتِهِم حَسَنَاتٍ. وَصَدَّرَ دَعوَتَهُم إِلَى التَّوبَةِ بِالعَرضِ الَّذِي هُوَ غَايَةُ اللُّطفِ وَاللِّينِ فِي قَولِهِ: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [المَائِدَة: ٧٤]»[3]. لِعِظَمِ أَجرِهَا وَكَثرَةِ الانتِفَاعِ بِهَا.

وَقَالَ ﷻ: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾﴾ [طٰه: ٨٢]. فَأَخبَرَ أَنَّهُ غَفَّارٌ لِمَن تَابَ مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَآمَنَ بِوَحدَانِيَّةِ اللَّهِ وَمَا لَهُ مِن عَظِيمِ الصِّفَاتِ، وَسَارَعَ إِلَى مَرضَاةِ رَبِّهِ بِالأَعمَالِ الصَّالِحَاتِ، ثُمَّ اهتَدَى وَدَاوَمَ عَلَى الإِنَابَةِ إِلَى المَمَاتِ[4].

وَقَالَ ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التَّحرِيم: ٨]. فِي هَذِهِ الآيَةِ الكَرِيمَةِ خَاطَبَ اللَّهُ تَعَالَى «عِبَادَهُ المُؤمِنِينَ؛ آمِرًا إِيَّاهُم بِالتَّوبَةِ وَالأَوبِ وَالرُّجُوعِ إِلَى اللَّهِ تَوبَةً نَاصِحَةً خَالِصَةً صَادِقَةً، تَمحُو مَا قَبلَهَا مِنَ السَّيِّئَاتِ، وَتَلُمُّ

---

(١) مجموع الفوائد للعلامة السعدي (ص٢١٥).
(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٣٠٠).
(٣) تيسير الكريم الرحمٰن (ص٣٠٨).
(٤) المجموعة الكاملة لمؤلفات العلامة السعدي (٦/ ١٧٨ ـ ١٧٩).

شَعَثَ التَّائِبِ وَتَجمَعُهُ، وَتَكُفُّهُ عَمَّا كَانَ يَتَعَاطَاهُ مِنَ الدَّنَاءَاتِ»[1].

وَالتَّوبَةُ النَّصُوحُ: أَن يَتُوبَ مِنَ الذَّنبِ ثُمَّ لا يَعُودُ إِلَيهِ.

وأما الأحاديث: عَن أَنَس بن مالكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ ابنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وخَيرُ الخطَّائينَ التَّوَّابُونَ»[2].

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ ﷺ قَالَ: سَمِعتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «لَو كَانَ لابنِ آدمَ وَادِيَانِ مِن مال لابتَغَى ثَالِثًا، وَلا يَملأُ جَوفَ ابنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَن تَابَ»[3]

وعَنِ الأَغَرِّ بنِ يَسَارٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! تُوبُوا إِلَى اللَّهِ، فَإِنِّي أَتُوبُ فِي اليَومِ إِلَيهِ مِئَةَ مَرَّةٍ»[4].

وَعَن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوبَةِ عَبْدِهِ، حِينَ يَتُوبُ إِلَيهِ، مِن أَحَدِكُم كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرضٍ فَلاةٍ، فَانفَلَتَت مِنهُ وَعَلَيهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنهَا، فَأَتَى شَجَرَةً، فَاضطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَد أَيِسَ مِن رَاحِلَتِهِ، فَبَينَمَا هُوَ كَذَلِكَ، إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِندَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِن شِدَّةِ الفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنتَ عَبدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخطَأَ مِن شِدَّةِ الفَرَحِ»[5].

وَهَذَا أَعظَمُ مَا يَكُونُ مِنَ الفَرَحِ وَأَكمَله... وَلَو كَانَ فِي الوجُودِ فَرَحٌ أَعظَمُ مِن هَذَا لَمَثَّلَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ، وَمَعَ هَذَا فَفَرَحُ اللَّهِ بِتَوبَةِ عَبدِهِ إِذَا تَابَ إِلَيهِ أَعظَمُ مِن فَرَحِ هَذَا بِرَاحِلَتِهِ[6]. فَلِلَّهِ الحَمدُ والثَّنَاءُ، مَا أعظَمَ بِرَّهُ وَأَكثَرَ خَيرَهُ، وَأَغزَرَ إِحسَانَهُ، وَأَوسَعَ امتِنَانَهُ!!

---

(١) تمييز المحظوظين عن المحرومين للمعصومي (ص٣١٦).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٤٩٩)، وحسنه العلامة الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢٠٢٩).
(٣) أخرجه البخاري (٦٤٣٦) واللفظ له، ومسلم (١٠٤٩).
(٤) أخرجه مسلم (٢٧٠٢).
(٥) أخرجه مسلم (٢٧٤٧).
(٦) طريق الهجرتين (ص٤٣٩).

وَ«هَذَا الفَرَحُ مِنَ اللَّهِ بِتَوبَةِ عَبدِهِ ـ مَعَ أَنَّهُ لَم يَأتِ نَظِيرُهُ فِي غَيرِهَا مِنَ الطَّاعَاتِ ـ دَلِيلٌ عَلَى عِظَمِ قَدرِ التَّوبَةِ وَفَضلِهَا عِندَ اللَّهِ، وَأَنَّ التَّعَبُّدَ لَهُ بِهَا مِن أَشرَفِ التَّعَبُّدَاتِ»[1].

ويُستفاد من هذا الحديث مَعَ إثبَاتِ الفَرَحِ للَّهِ ﷻ: كَمَالُ رَحمَتِهِ جَلَّ وَعَلا وَرَأفَتِهِ بِعِبَادِهِ؛ حَيثُ يُحِبُّ رُجُوعَ العَاصِي إِلَيهِ هَذِهِ المَحَبَّةَ العَظِيمَةَ، هَارِبٌ مِنَ اللَّهِ، ثُمَّ وَقَفَ وَرَجَعَ إِلَى اللَّهِ، يَفرَحُ اللَّهُ بِهِ هَذَا الفَرَحَ العَظِيمَ.

ومن الناحية المَسلَكِيَّة: يُفِيدُنَا أَن نَحرِصَ عَلَى التَّوبَةِ غَايَةَ الحِرصِ، كُلَّمَا فَعَلنَا ذَنبًا؛ تُبنَا إِلَى اللَّهِ.

فَأَنتَ إِذَا عَلِمتَ أَنَّ اللَّهَ يَفرَحُ بِتَوبَتِكَ هَذَا الفَرَحَ الَّذِي لا نَظِيرَ لَهُ؛ لا شَكَّ أَنَّكَ سَوفَ تَحرِصُ غَايَةَ الحِرصِ عَلَى التَّوبَةِ[2].

وَعَن ابن مَسعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «التَّائِبُ من الذَّنبِ، كَمَن لا ذَنبَ لَهُ»[3].

وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَو أَخطأتُم حَتَّى تَبلُغَ خَطَايَاكُمُ السَّمَاءَ، ثُمَّ تُبتُم، لَتَابَ عَلَيكُم»[4].

فَقَد دَلَّت هَذِهِ الأَحَادِيثُ «عَلَى أَنَّ اللَّهَ ﷻ يَقبَلُ استِغفَارَ مَن عَادَ إِلى الذَّنبِ غَيرَ مَرَّةٍ إِذَ عَاوَدَ الاستِغفَارَ، وَهَذِهِ بِشَارَةٌ جَلِيلَةٌ يَنبَغِي أَن يَفرَحَ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ وَيَحمَدُوا اللَّهَ عَلَيهَا، عَلَى سَعَةِ رَحمَتِهِ وَلُطفِهِ بِعِبَادِهِ»[5].

---

(١) المرجع السابق (ص٤٢٣ ـ ٤٢٤).
(٢) شرح العقيدة الواسطية (ص٤٠٥).
(٣) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٠)، وحسّنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٢٧).
(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٨)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٢٦).
(٥) تحفة الذاكرين (ص٢٥٧).

ما هي التوبةُ؟

إنَّ حَقِيقَةَ التَّوبَةِ الرُّجُوعُ إِلَى اللَّهِ بِالتِزَامِ فِعْلِ مَا أَمَرَ بِهِ، وَتَركِ مَا نَهَى عَنهُ، رُجُوعٌ عَنِ المَعصِيَةِ إِلَى الطَّاعَةِ، وَعَنِ السَّيِّئَاتِ إِلَى الحَسَنَاتِ، رُجُوعٌ مِن طَرِيقِ الشَّيطَانِ إِلَى طَرِيقِ الرَّحمٰنِ. وَلَيسَتِ التَّوبَةُ مِن فِعلِ السَّيِّئاتِ فَقَط؛ كَمَا يَظُنُّ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ؛ لا يَتَصَوَّرُونَ التَّوبَةَ إِلاَّ عَمَّا يَفعَلهُ العَبدُ مِنَ القَبَائِحِ؛ كَالزِّنَا وَشُربِ الخَمرِ، وَنَحوِ ذَلِكَ، بَلِ التَّوبَةُ مِن تَركِ الحَسَنَاتِ المَأمُورِ بِهَا؛ أَهَمُّ مِنَ التَّوبَةِ مِن فِعلِ السَّيِّئَاتِ المَنهِيِّ عَنهَا، فَإِنَّ الإِخلاصَ للَّهِ وَالتَّوَكُّلَ عَلَيهِ، وَالمَحَبَّةَ لَهُ وَرَجَاءَ رَحمَتِهِ، وَالخَوفَ مِن عَذَابِهِ، وَالصَّبرَ عَلَى فِعلِ مَا أَمَرَ بِهِ وَعَمَّا نَهَى عَنهُ، وَالتَّسلِيمَ لأَمرِهِ، وَأَمثَالَ ذَلِكَ مِنَ الأعمَالِ البَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ، كُلُّ هَذَا مِنَ الوَاجِبَاتِ. وَلِهَذَا عَلَّقَ سُبحَانَهُ الفَلاحَ المُطلَقَ عَلَى فِعلِ المَأمُورِ وَتَركِ المَحظُورِ بِهَا، فَقَالَ: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النُّورُ: ٣١]، فَكُلُّ تَائِبٍ مُفلِحٌ، ولا يَكُونُ مُفلِحًا إِلَّا مَن فَعَلَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَتَرَكَ مَا نَهَى عَنهُ، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحُجُرَاتُ: ١١]، وَتَارِكُ المَأمُورِ ظَالِمٌ، كَمَا أَنَّ فَاعِلَ المَحظُورِ ظَالِمٌ، وَزَوَالُ اسمِ «الظُّلمِ» عَنهُ إِنَّمَا يَكُونُ بِالتَّوبَةِ الجَامِعَةِ لِلأَمرَينِ، فَالنَّاسُ قِسمَانِ: تَائِبٌ وَظَالِمٌ لَيسَ إِلَّا.

فالتوبةُ إِذًا: «هِيَ الرُّجُوعُ مِن مَعصِيَةِ اللَّهِ إِلَى طَاعَتِهِ؛ لأَنَّهُ سُبحَانَهُ هُوَ المَعبُودُ حَقًّا، وَحَقِيقَةُ العُبُودِيَّةِ: هِيَ التَّذَلُّلُ وَالخُضُوعُ لِلمَعبُودِ مَحَبَّةً وَتَعظِيمًا، فَإِذَا حَصَلَ مِنَ العَبدِ شُرُودٌ عَن طَاعَةِ رَبِّهِ، فَتَوبَتُهُ أَن يَرجِعَ إِلَيهِ وَيَقِفَ بِبَابِهِ مَوقِفَ الفَقِيرِ الذَّلِيلِ الخَائِفِ المنكَسِرِ بَينَ يَدَيهِ»[1].

---

(١) مجالس شهر رمضان للعلامة ابن عثيمين (ص٣٣٨).

وجوبُ التوبة

والتوبةُ واجبةٌ عَلَى الفَورِ لا يَجُوزُ تَأخِيرُهَا، وَلا التَّسوِيفُ بِهَا، وَذَلِكَ لِعِدَّةِ أُمُورٍ:

أحدُها: لأَنَّ العَبدَ لا يَدرِي مَاذَا يَحصُلُ لَهُ بِالتَّأخِيرِ، فَلَعَلَّهُ أَن يَفجَأَهُ المَوتُ فَلا يَستَطِيعُ التَّوبَةَ.

الثاني: وَلأَنَّ تَأخِيرَ التَّوبَةِ يُوجِبُ قَسوَةَ القَلبِ وبُعدَهُ عَنِ اللَّهِ ﷻ وَضَعفَ إِيمَانِهِ.

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ العَبدَ إِذَا أَخطَأَ خَطِيئَةً، نُكِتَت فِي قَلبِهِ نُكتَةٌ سَودَاءُ، فَإِذَا نزعَ وَاستَغفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلبُهُ، وَإِن عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعلُوَ قَلبَهُ، وَهُوَ الرَّانُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [المُطَفِّفِينَ: ١٤]»[1].

الثالث: وَلأَنَّ الإِصرَارَ عَلَى المَعصِيةِ يُوجِبُ إِلفَهَا وَالتَّعَلُّقَ بِهَا، فَإِنَّ النَّفسَ إِذَا اعتَادَت عَلَى شَيءٍ صَعُبَ عَلَيهَا فِرَاقُهُ - كَالتَّدخِينِ وَمُشَاهَدَةِ التِّلفَازِ وَسَمَاعِ الأَغَانِي - وَحِينَئِذٍ يَعسُرُ عَلَيهِ التَّخَلُّصُ مِن مَعصِيَتِهِ.

وَلِهَذَا فَإِنَّ اللَّهَ ﷻ عَلَّقَ قَبُولَ التَّوبَةِ بِالاستِغفَارِ، وَعَدَمِ الإِصرَارِ، دُونَ المُعَاوَدَةِ، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آلِ عِمرَان: ١٣٥].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥٦٩)، وحسنه الألباني في «صحيح سنن الترمذي» (٢٦٥٤).

فَدَلَّت هَذِهِ الآيَةُ الكَرِيمَةُ «عَلَى أَنَّ المُتَّقِينَ قَد يَقَعُ مِنهُم أَحيَانًا كَبَائِرُ وَهِيَ الفَوَاحِشُ، وَصَغَائِرُ وَهِيَ ظُلمُ النَّفسِ، لَكِنَّهُم لا يُصِرُّونَ عَلَيهَا، بَل يَذكُرُونَ اللَّهَ عَقِبَ وقُوعِهَا، فَيَستَغفِرُونَهُ وَيَتُوبُونَ إِلَيهِ مِنهَا، وَالتَّوبَةُ: هِيَ تَركُ الإِصرَارِ»[1].

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيمَا يَحكِي عَن رَبِّهِ ﷻ قَالَ: «أَذنَبَ عَبدٌ ذَنبًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغفِر لِي ذَنبِي، فَقَالَ تبارك وتعالى: أَذنَبَ عَبدِي ذَنبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفِرُ الذَّنبَ وَيَأخُذُ بِالذَّنبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذنَبَ فَقَالَ: أَي رَبِّ اغفِر لِي ذَنبِي، فَقَالَ تبارك وتعالى: عَبدِي أَذنَبَ ذَنبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفِرُ الذَّنبَ، وَيَأخُذُ بِالذَّنبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذنَبَ، فَقَالَ: أَي رَبِّ اغفِر لِي ذَنبِي، فَقَالَ تبارك وتعالى: أَذنَبَ عَبدِي ذَنبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفِرُ الذَّنبَ، وَيَأخُذُ بِالذَّنبِ. اعمَل مَا شِئتَ فَقَد غَفَرتُ لَكَ»[2].

يَعنِي: مَا دَامَ عَلَى هذِهِ الحَالِ كُلَّمَا أَذنَبَ استَغفَرَ مِنهُ، وَلَيسَ «فِي هَذَا إِطلاقٌ وَإِذنٌ مِنهُ سُبحَانَهُ لَهُ فِي المُحَرَّمَاتِ وَالجَرَائِمِ، وَإِنَّمَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ يَغفِرُ لَهُ مَا دَامَ كَذَلِكَ إِذَا أَذنَبَ تَابَ.

وَاختِصَاصُ هَذَا العَبدِ بِهَذَا لأَنَّهُ قَد عَلِمَ أَنَّهُ لا يُصِرُّ عَلَى ذَنبٍ، وَأَنَّهُ كُلَّمَا أَذنَبَ تَابَ»[3]. فَمَن «أَلَمَّ بِذَنبٍ فَليَستَغفِرِ اللَّهَ وَليَتُب، فَإِن عَادَ، فَليَستَغفِرِ اللَّهَ وَليَتُب، فَإِن عَادَ فَليَستَغفِرِ اللَّهَ وَليَتُب، فَمَن فَعَلَ ذَلِكَ فَقَد تَخَلَّصَ مِن شَرِّ الذَّنبِ، وَإِن أَصَرَّ عَلَى الذَّنبِ هَلَكَ»[4].

عَن عَبدِ اللَّهِ بنِ عَمرِو بنِ العَاصِ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «... وَيلٌ لِلمُصِرِّينَ الَّذِينَ يُصِرُّونَ عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُم يَعلَمُونَ»[5].

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/ ٤١٢ ـ ٤١٣).
(٢) أخرجه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨) واللفظ له.
(٣) الفوائد (ص٣٦ ـ ٣٧).
(٤) جامع العلوم والحكم (١/ ٤١٥).
(٥) قطعة من حديث: أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٣٨٠)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٢٩٣).

وَفِي هَذا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الإصرَارَ مَعَ العِلمِ أَمرُهُ عَظِيمٌ، حَتَّى فِي صَغَائِرِ الذُّنُوبِ[1].

فَإِيَّاكُم وَالإصرَارَ، فَإِنَّمَا هَلَكَ المُصِرُّونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ عَلَى الذُّنُوبِ وَيَستَمِرُّونَ عَلَى المَعصِيَةِ، وَلا يُقلِعُونَ عَنهَا، وَلَم يَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَلَم يَستَغفِرُوهُ مِن سُوءِ صَنِيعِهِم، حَتَّى أَتَاهُمُ المَوتُ وَهُم عَلَى ذَلِكَ.

فَيَا مُصِرًّا عَلَى الذُّنُوبِ، أَمَا آنَ لَكَ أَن تَتُوب، وَإِلَى رَبِّكَ تَعُود. اجتَهِد أَن تَتُوب قَبلَ أَن تَمُوت، فَمَا أَعسَرَ خَلاصَ مَن لَقِيَ اللَّهَ مُصِرًّا عَلَى ذَنبِهِ.

---

(١) شرح رياض الصالحين للعلامة ابن عثيمين (١/ ٤١٦).

شروط التوبة

وَالتَّوبَةُ الَّتِي أَمَرَ اللَّهِ بِهَا هِيَ «التَّوبَةُ النَّصُوحُ» الَّتِي تَشتَمِلُ عَلَى شُرُوطٍ خَمسَةٍ:

الأولُ: الإخلاصُ للَّه ﷻ:

بأَن يَكُونَ الإِنسَانُ مُخلِصًا فِيهَا للَّهِ ﷻ لا يَحمِلُهُ عَلَى التَّوبَةِ مُرَاءَاةُ النَّاسِ، وَلا تَسمِيعُهُم، وَلا أَن يَتَقَرَّبَ إِلَيهِم بِشَيءٍ، وَإِنَّمَا يَقصُدُ بِالتَّوبَةِ الرُّجُوعَ إِلَى اللَّهِ حَقِيقَةً، وَالإِخلاصُ شَرطٌ فِي كُلِّ عَمَلٍ، وَمِن جُملَةِ الأَعمَالِ الصَّالِحَةِ التَّوبَةُ إِلَى اللَّهِ ﷻ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النُّورُ: ٣١][1].

الثاني: الندم:

يَعنِي أَن يَندَمَ الإِنسَانُ وَيَحزَنَ وَيَتَأَسَّفَ عَلَى مَا وَقَعَ مِنهُ مِنَ الذَّنبِ، يَتَمَنَّى أَنَّهُ لَم يَحصَل مِنهُ، وَيَرَاهُ أَمرًا كَبِيرًا يَجِبُ عَلَيهِ أَن يَتَخَلَّصَ مِنهُ.

عَن عَبدِ اللَّهِ بنِ مَسعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «النَّدَمُ تَوبَةٌ»[2].

وَعَلامَةُ صِحَّةِ النَّدَمِ: رِقَّةُ القَلبِ، وَغَزَارَةُ الدَّمعِ، وَاعتِرَافٌ بِالذَّنبِ؛ فَإِذَا جَرَتِ العُيُونُ وَرَقَّتِ القُلُوبُ، مُحِيَت الذُّنُوبُ، وَبَلَغتَ المُنَى وَالمَرغُوبَ، وَيَسَّرَ حِسَابَكَ عَلَّامُ الغُيُوبِ.

---

(١) شرح رياض الصالحين للعلامة ابن عثيمين (١/٤٩٨).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٢)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه (٣٤٢٩).

وَأَمَّا اعتِرَافُ المُذنِبِ بِذَنبِهِ مَعَ النَّدَمِ عَلَيهِ فَهُوَ تَوبَةٌ مَقبُولَةٌ. قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٠٢﴾ [التوبة: ١٠٢].

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِعَائِشَةَ رضي الله عنها في قِصَّةِ الإِفكِ: «يَا عَائِشَةُ فَإِنَّهُ بَلَغَنِي عَنكِ كَذَا وَكَذَا، فَإِن كُنتِ بَرِيئَةً فَسَيُبَرِّئُكِ اللَّهُ، وَإِن كُنتِ أَلمَمتِ بِذَنبٍ فَاستَغفِرِي اللَّهَ وَتُوبِي إِلَيهِ، فَإِنَّ العَبدَ إِذَا اعتَرَفَ بِذَنبِهِ ثُمَّ تَابَ تَابَ اللَّهُ عَلَيهِ»[1].

فَدَلَّ هَذَا الحَدِيثُ عَلَى عَظِيمِ فَائِدَةِ الاعتِرَافِ بِالذَّنبِ وَالاستِغفَارِ مِنهُ.

وَفِي حَدِيثِ شَدَّادِ بنِ أَوسٍ رضي الله عنه: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «سَيِّدُ الاستِغفَارِ أَن يَقُولَ: اللَّهُمَّ أَنتَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ، خَلَقتَنِي وَأَنَا عَبدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهدِكَ وَوَعدِكَ مَا استَطَعتُ، أَعُوذُ بِكَ مِن شَرِّ مَا صَنَعتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنبِي، فَاغفِر لِي، فَإِنَّهُ لاَ يَغفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنتَ. مَن قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا فَمَاتَ مِن يَومِهِ قَبلَ أَن يُمسِيَ فَهُوَ مِن أَهلِ الجَنَّةِ، وَمَن قَالَهَا مِنَ اللَّيلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا فَمَاتَ مِن يَومِهِ قَبلَ أَن يُمسِيَ فَهُوَ مِن أَهلِ الجَنَّةِ»[2].

وَالاعتِرَافُ يَمحُو الاقتِرَافَ كَمَا قِيلَ:

فَإِنَّ اعتِرَافَ المَرءِ يَمحُو اقتِرَافَهُ ... كَمَا أَنَّ إِنكَارَ الذُّنُوبِ ذُنُوبُ[3]

وَلِلَّهِ دَرُّ القَائِلِ:

يَستَوجِبُ العَفوَ الفَتَى إِذَا اعتَرَفَ ... بِمَا جَنَى مِنَ الذُّنُوبِ وَاقتَرَفَ

وَقَالَ القَائِلُ:

فَهَل لَكَ أَن تَمحُو الذُّنُوبَ بِعَبرَةٍ ... وَتَبكِي عَلَيهَا حَسرَةً وَتَنَدُّمَا

فَالوَاجِبُ عَلَى كُلِّ مُسلِمٍ عَلِمَ مِن نَفسِهِ ذَنبًا أَن يَندَمَ عَلَيهِ عَسَاهُ يَمحُوهُ مِن

---

(١) أخرجه البخاري (٢٦٦١)، ومسلم (٢٧٧٠).
(٢) أخرجه البخاري (٦٣٠٦ و٦٣٢٣).
(٣) لطائف المعارف (ص١١٦).

كِتَابِهِ مَولاهُ، وَيَتَفَضَّلُ عَلَيهِ وَيَغفِرُ لَهُ مَا قَد جَنَاه، فَهُو المَنَّانُ الكَرِيمُ، المُتَفَضِّلُ العَظِيمُ.

«نَسأَل اللَّهَ العَظِيمَ الكَرِيمَ أَن يُلهِمَنَا النَّدَم الَّذِي هُوَ أَعظَمُ أَركَانِ التَّوبَةِ، وَأَن يَمحُوَ ذُنُوبَنَا، وَيُلهِمَنَا الاستِغفَارَ المُوجِبَ لِذَلِكَ»[1].

الثالثُ: الإقلاع عن المعصية:

فَإِن كَانَتِ المَعصِيَةُ بِفِعلٍ مُحَرَّمٍ: تَرَكَهُ فِي الحَالِ.

وَإِن كَانَتِ المَعصِيَةُ بِتَركِ وَاجِب: فَعَلَهُ فِي الحَالِ، أَمَّا الإِنسَانُ الَّذِي يَتُوبُ بِلِسَانِهِ وَقَلبُهُ مُنطَوٍ عَلَى فِعلِ المَعصِيَة أو عَلَى تَركِ الوَاجِب، فَإِنَّ تَوبَتَهُ لا تَنفَعُهُ.

فلا تَصِحُّ التَّوبةُ معَ الإصرارِ عَلَى المعصيةِ.

فَلَو قَالَ: إِنَّهُ تَابَ مِنَ «الرِّبَا» مَثَلاً، وَهُوَ مُستَمِرٌّ عَلَى التَّعَامُلِ بِهِ، لَم تَصِحَّ تَوبَتُهُ.

وَلَو قَالَ: أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مِن «الغِيبَةِ»[2]، وَلَكِنَّهُ كُلَّمَا جَلَسَ مَجلِسًا اغتَابَ عِبَادَ اللَّه، فَإِنَّهُ كَاذِبٌ فِي تَوبَتِهِ.

وَلَو قَالَ: أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مِن «استِمَاعِ الأَغَانِي»[3]، وَلَكِنَّهُ مُصِرٌّ عَلَى ذَلِكَ، فَهُوَ كَاذِبٌ فِي تَوبَتِهِ.

وَلَو قَالَ: أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مِن «حَلقِ اللحية» وَكَانَ يَحلِقُهَا وَهُوَ يَقُولُ: أَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مِن حَلقِهَا، فَإِنَّهُ كَاذِبٌ.

وَهَكَذَا جَمِيعُ المَعَاصِي إِذَا كَانَ الإِنسَانُ مُصِرًّا عَلَيهَا فَإِنَّ دَعوَاهُ التَّوبَةَ كَذِبٌ.

وإذا كانتِ المعصيةُ فِيما يَتَعَلَّقُ بِحُقُوقِ الخَلقِ، لَم تَصِحَّ التَّوبةُ مِنهَا حَتَّى يَتَخَلَّصَ مِن تِلكَ الحُقُوقِ.

---

(١) المفهم لِما أَشكل من تلخيص كتاب مسلم (٧/ ٤٣٧).

(٢) أنصح بقراءة كتاب «الغيبة»، للشيخ الفاضل حسين العوايشة حفظه الله.

(٣) أنصح بقراءة كتاب «تحريم آلات الطرب»، للمحدث الفاضل محمد ناصر الدين الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ.

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَن كَانَت عِندَهُ مَظْلَمَةٌ لأَخِيهِ فَليَتَحَلَّلَهُ مِنهَا، فَإِنَّهُ لَيسَ ثَمَّ دِينَارٌ وَلا دِرهَمٌ، مِن قَبلِ أَن يُؤخَذَ لأَخِيهِ من حَسَنَاتِهِ، فَإِن لَم يَكُن لَهُ حَسَنَاتٌ، أُخِذَ مِن سَيِّئَاتِ أَخِيهِ، فَطُرِحَت عَلَيهِ»[1].

فَإِذَا كَانَت مَعصِيَتُهُ «بِأَخذِ مَالٍ لِلغَيرِ أَو جَحدِهِ»: لَم تَصِحَّ تَوبَتُهُ حَتَّى يُؤَدِّيَ المَالَ إِلَى صَاحِبِهِ إِن كَانَ حيًّا أَو إِلَى وَرَثَتِهِ إِن كَانَ مَيِّتًا، وَإِن كَانَ لا يَدرِي مَن صَاحِبُ المَالِ، تَصَدَّقَ بِهِ لَهُ، واللَّه ﷻ يَعلَمُ بِهِ.

وَإِن كَانَت مَعصِيَتُهُ «بِغِيبَةِ مُسلِمٍ»: وَجَبَ أَن يَستَحِلَّهُ مِن ذَلِكَ إِن كَانَ قَد عَلِمَ بِغِيبَتِهِ إِيَّاهُ أَوْ خَافَ أَنْ يَعلَمَ بِهَا، وَإِلاَّ استَغْفَرَ لَهُ وَأَثْنَى عَلَيْهِ بِصِفَاتِهِ المَحمُودَةِ فِي المَجلِسِ الَّذِي اغتَابَه فِيهِ، فَإِنَّ الحَسَنَاتِ يُذهِبنَ السَّيِّئَاتِ.

وَتَصِحُّ التَّوبَةُ مِن ذَنبٍ مَعَ الإِصرَارِ عَلَى غَيرِهِ؛ لَكِن لا يَستَحِقُّ الوَصفَ المُطلَقَ لِلتَّوبَةِ مَا يَستَحِقُّهُ التَّائِبُونَ عَلَى الإِطلاقِ مِنَ الأَوصَافِ الحَمِيدَةِ وَالمَنَازِلِ العَالِيَةِ حَتَّى يَتُوبَ إِلَى اللَّهِ مِن جَمِيعِ الذُّنُوبِ.

فَلَو كَانَ أَحَدٌ يَشرَبُ الخَمرَ وَيَأكُلُ الرِّبَا، فَتَابَ مِن شُربِ الخَمرِ؛ صَحَّت تَوبَتُهُ مِنَ الخَمرِ، وَبَقِيَ إِثمُهُ فِي أَكلِ الرِّبَا، وَلا يَنَالُ مَنزِلَةَ التَّائِبِينَ عَلَى الإِطلاقِ؛ لأَنَّهُ مُصِرٌّ عَلَى بَعضِ المَعَاصِي؛ فَيُقَالُ: تَابَ تَوبَةً مُقَيَّدَةً، لا مُطلَقَةً.

الشرطُ الرابعُ: العزمُ على عدم العودِ:

وذَلِكَ بِأَن يَكُونَ فِي قَلبِهِ عَزمٌ مُؤَكَّدٌ أَلَّا يَعُودَ إِلَى المَعصِيَةِ الَّتِي تَابَ مِنهَا.

فَإِن تَابَ وأَقلَعَ عَنِ الذَّنبِ وَهُوَ يَحِنُّ إِلَى المَعصِيَةِ، وَلَا يَزَالُ فِي قَلبِهِ تَعَلُّقٌ بِهَا، وَلا يَزَالُ عَقلُهُ يُفَكِّرُ فِيهَا، حَتَّى إِذَا حَانَتِ الفُرصَةُ عَادَ إِلَى ذَنبِهِ، «فَإِنَّ التَّوبَةَ لا تَصِحُّ مِثلَ: رَجُلٍ كَانَ - وَالعِيَاذُ بِاللَّه - يَستَعِينُ بِالمَالِ عَلَى مَعصِيَةِ اللَّهِ: يَشتَرِي بِهِ المُسكِرَاتِ، يَذهَبُ إِلَى البُلدَانِ مِن أَجلِ الزِّنَى - وَالعِيَاذُ بِاللَّه - وَالسُّكرِ!! فَأُصِيبَ بِفَقرٍ وَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي تُبتُ إِلَيكَ، وَهُوَ كَاذِبٌ، وَهُوَ فِي نِيَّتِهِ أَنَّهُ إِذَا عَادَتِ الأُمُورُ

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٤٩ و٦٥٣٤)، واللفظ للرواية الثانية.

إِلَى مَجَارِيهَا الأُولَى فَعَلَ فِعلَهُ الأَوَّلَ. فَهَذِهِ تَوبَةٌ عَاجِزٍ»[1] وَهِيَ غَيرُ مَقبُولَةٍ.

والمقصودُ: أَنَّهُ لا بُدَّ أَن يَعزِمَ، لا بُدَّ أَن يَكُونَ عِندَهُ سَاعَةَ التَّوبَةِ عَزمٌ أَكِيدٌ... عَزمٌ حَازِمٌ... عَزمٌ مُصَمِّمٌ... إِرَادَةٌ قَوِيَّةٌ أَلَّا يَعُودَ إِلَى المَعصِيَةِ، كَمَا لا يَعُودُ اللَّبَنُ إِلَى الضَّرعِ إِذَا خَرَجَ مِنهُ.

«مِثَالُ ذَلِكَ المَرِيضُ الذي يَعلَمُ أَنَّ الفَاكِهَةَ تضرُّهُ في مَرَضِهِ، فَيَعزِمُ عَزمًا جازِمًا أَن لا يَتَنَاوَلَ شَيئًا مِنَ الفَاكِهَةِ مَا دَامَ في مَرَضِهِ ذَلِكَ»[2].

وَلِلَّهِ دَرُّ القَائِلِ:

جِسمُكَ بالحِميَةِ حَصَّنتَهُ ... مَخَافَةً مِن أَلَمٍ طَارِي

وَكَانَ أَولَى بِكَ أَن تَحتَمِي ... مِنَ المَعَاصِي خَشيَةَ النَّارِ[3]

فَإِذَا عَزَمَ ثُمَّ سَوَّلَت لَهُ نَفسُهُ بَعدَ ذَلِكَ وَفَعَلَ المَعصِيَةَ، فَإِنَّ ذَلِكَ لا يَنقُضُ التَّوبَةَ السَّابِقَةَ، لَكِن يَحتَاجُ إِلَى تَوبَةٍ جَدِيدَةٍ مِنَ الذَّنبِ مَرَّةً ثَانِيَة، وَهَكَذَا؛ كُلَّمَا أَذنَبَ يَتُوبُ، وَفَضلُ اللَّهِ وَاسِعٌ.

«وَلِهَذَا يَجِبُ عَلَينَا إِذَا كُنَّا صَادِقِينَ مَعَ اللَّهِ ﷻ فِي التَّوبَةِ، أَن نُقلِعَ عَنِ الذُّنُوبِ وَالمَعَاصِي إِقلاعًا حَقِيقِيًّا، وَنَكرَهَهَا وَنَندَمَ عَلَى فِعلِهَا حَتَّى تَكُونَ التَّوبَةُ نَصُوحًا»[4].

الشرطُ الخامسُ: أن تكونَ وقتَ قبولِ التوبة:

فَإِن كَانَت بَعدَ انتِهَاءِ وَقتِ القَبُولِ لَم تُقبَل.

وَانتِهَاءُ وَقتِ القَبُولِ نَوعَانِ: عَامٌّ لِكُلِّ أَحَدٍ، وَخَاصٌّ لِكُلِّ شَخصٍ بِنَفسِهِ.

فأما العامُّ: فَهُوَ طُلوعُ الشَّمسِ مِن مَغرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَتِ الشَّمسُ مِن مَغرِبِهَا لَم تَنفَعِ التَّوبَةُ.

---

(١) شرح رياض الصالحين للعلامة ابن عثيمين (١/ ٦٠).
(٢) مختصر منهاج القاصدين (ص٣٣٤).
(٣) الجواب الكافي (ص١١٥).
(٤) شرح رياض الصالحين للعلامة ابن عثيمين (١/ ٦٦).

قال ﷻ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وَالمُرَادُ بِبَعضِ الآيَات: طُلُوعُ الشَّمسِ مِن مَغرِبِهَا؛ فَسَّرَهَا بِذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ(١).

عَن عَبد اللَّه بنِ عَمرو رضي الله عنهما: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «... وَلا تَزَالُ التَّوبَةُ مَقبُولَةً حَتَّى تَطلُعَ الشَّمسُ مِن مَغرِبِهَا، فَإِذَا طَلَعَت طُبِعَ عَلَى كُلِّ قَلبٍ بِمَا فِيهِ، وَكُفِيَ النَّاسُ العَمَلَ»(٢).

وَعَن أَبِي مُوسَى رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَبسطُ يَدَهُ باللَّيلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ، وَيَبسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيلِ، حَتَّى تَطلُعَ الشَّمسُ مِن مَغرِبِهَا»(٣).

وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَن تَابَ قَبلَ أَن تَطلُعَ الشَّمسُ مِن مَغرِبِهَا، تَابَ اللَّهُ عَلَيهِ»(٤).

سُبحَانَ اللَّه! مَا أَطوَلَ مُدَّةَ قَبُولِ التَّوبَة! «وَمَا أَعظَمَ غَفلَةَ النَّاسِ عَنِ التَّوبَةِ: إِلَى طُلُوعِ الشَّمسِ مِنَ المَغرِبِ، وَلَم يُقَيِّدهُ بِوَقتٍ دُونَ وَقتٍ مِن لَيلٍ وَنَهَارٍ، بَل كُلُّ وَقتٍ يَتُوبُ فِيهِ: اللَّهُ يَتُوبُ عَلَيهِ، بِفَضلِهِ وَمَنِّهِ وَكَرَمِهِ»(٥).

وأما الخاصُّ: فَهُوَ عِندَ حُضُورِ الأَجَلِ، فَمَتَى حَضَرَ أَجَلُ الإِنسَانِ وَعَايَنَ المَوتَ لَم تَنفَعهُ التَّوبَةُ وَلَم تُقبَل مِنهُ.

عَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ يَقبَلُ تَوبَةَ العَبدِ مَا لَم يُغَرغِر»(٦).

---

(١) راجع: البخاري (٧١٢١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) أخرجه أحمد (١/ ١٩٢) (١٦٧١)، وصححه الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (٤/ ٢٤٠).
(٣) أخرجه مسلم (٢٧٥٩).
(٤) أخرجه مسلم (٢٧٠٣).
(٥) السراج الوهاج (١١/ ٥٧).
(٦) أخرجه الترمذي (٣٥٣٧)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢٨٠٢).

دَلَّ هَذَا الحَدِيثُ عَلَى قَبُولِ تَوبَةِ اللَّهِ ﷻ لِعَبدِهِ مَا دَامَت رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ لَم تَبلُغِ الحُلقُومَ وَالتَّرَاقِيَ. وَهَذَا مِن كَرَمِ اللَّهِ تَعَالى بِعَبدِهِ المُؤمِنِ أَنَّهُ إِذَا تَابَ قَبلَ مَوتِهِ قَبِلَ تَوبَتَهُ. وَقَد دَلَّ القُرآنُ عَلَى ذَلِكَ؛ قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا ١٧﴾ [النساء: ١٧].

وَعَمَلُ السُّوءِ يَدْخُلُ فِيهِ جَمِيعُ السَّيِّئَاتِ، صَغِيرُهَا وَكَبِيرُهَا. وَالمُرَادُ بِالجَهَالَةِ الإِقدَامُ عَلَى عَمَلِ السُّوءِ، وَإِن عَلِمَ صَاحِبُهُ أَنَّهُ سُوء، فَإِنَّ كُلَّ مَن عَصَى اللَّه فَهُوَ جَاهِلٌ، وَكُلَّ مَن أَطَاعَهُ فَهُوَ عَالِمٌ.

وَأَمَّا التَّوبَةُ مِن قَرِيبٍ، فَالمُرَادُ بِهَا التَّوبَةُ قَبلَ المَوتِ، فَقَد تَابَ مِن قَرِيبٍ، وَمَن لَم يَتُب فَقَد بَعُدَ كُلَّ البُعدِ.

فَالحَيُّ قَرِيبٌ، وَالمَيِّتُ بَعِيدٌ مِنَ الدُّنيَا عَلَى قُربِهِ مِنهَا، فَإِنَّ جِسمَهُ فِي الأَرضِ يَبلَى، وَرُوحَهُ عِندَ اللَّهِ تُنعَّمُ أو تُعَذَّبُ.

فَمَن تَابَ قَبلَ أَن يُغَرغِرَ، فَقَد تَابَ مِن قَرِيبٍ، فَتُقبَلُ تَوبَتُهُ.

وَقَالَ ﷻ: ﴿وَلَيۡسَتِ ٱلتَّوۡبَةُ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ إِنِّي تُبۡتُ ٱلۡـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمۡ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡتَدۡنَا لَهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا ١٨﴾ [النساء: ١٨].

فَسَوَّى بَينَ مَن تَابَ عِندَ المَوتِ وَمَن مَاتَ مِن غَيرِ تَوبَةٍ. وَالمُرَادُ بِالتَّوبَةِ عِندَ المَوتِ التَّوبَةُ عِندَ انكِشَافِ الغِطَاء، وَمُعَايَنَةُ المُحتَضِرِ أُمُورَ الآخِرَةِ، وَمُشَاهَدَةُ المَلائِكَةِ؛ فَإِنَّ الإِيمَانَ وَالتَّوبَةَ وَسَائِرَ الأَعمَالِ إِنَّمَا تَنفَعُ بِالغَيبِ، فَإِذَا كُشِفَ الغِطَاءُ وَصَارَ الغَيبُ شَهَادَةً، لَم يَنفَعِ الإِيمَانُ وَلا التَّوبَةُ فِي تِلكَ الحَالِ؛ لأَنَّ تَوبَتَهُ تَوبَةُ اضطِرَارٍ، لَيسَ فِيهَا اختِيَارٌ[1].

وَلِهَذَا لَمَّا أُغرِقَ فِرعَونُ قَالَ: آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَت بِهِ بَنُو إِسرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ المُسلِمِينَ، فَقِيلَ لَهُ: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ﴾ يَعنِي: أَتَقُولُ هَذَا الآنَ. ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ

---

(١) انظر: لطائف المعارف (ص٥٦٩ ـ ٥٧٣).

قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ [يُونُس: ٩١] فَاتَ الأَوَانُ.

إِذَا إِذَا حَضَرَ المَوتُ فَإِنَّ التَّوبَةَ لا تُقبَلُ، فَلا بُدَّ مِنَ المبادرةِ بالتَّوبَةِ، لأَنَّكَ لا تَدرِي فِي أَيِّ وَقْتٍ يَحضُرُكَ المَوْتُ.

كَمْ مِنْ إِنْسَانٍ نَامَ عَلَى فِرَاشِهِ فِي صِحَّةٍ وَعَافِيَةٍ، ثُمَّ حُمِلَ مِن فِرَاشِهِ إِلَى سَرِيرِ تَغْسِيلِهِ.

وكَم مِن إِنسَانٍ جَلَسَ عَلَى كُرسِيِّ العَمَلِ يَعْمَلُ، ثُمَّ حُمِلَ مِن كُرسيِّ العَمَلِ إلى سَريرِ الغسلِ[1]. وَكَم مِن إِنْسَانٍ خَرَجَ يَقُودُ سَيَّارَتَهُ، وَرُجِعَ بِهِ مَحمُولاً عَلَى الأَكْتَافِ. وَكَم مِن إِنْسَانٍ دَخَلَ بَيْتَهُ، وَقَالَ لأَهلِهِ: هَيِّئوا لي طَعَامَ الغَدَاءِ أَوِ العَشَاءِ، ولكن لم يأكُلهُ. وَكَم مِن إِنْسَانٍ لَبِسَ قَميصَهُ وَزَرَّ أُزْرَتَهُ، وَلَم يَفُكَّهَا إِلَّا الغَاسِلُ يُغَسِّلُهُ[2].

وَلهذَا يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ أَنْ يُبَادِرَ بِالتَّوْبَةِ، لأَنَّهُ لا يَدرِي مَتَى يَفجَؤُهُ المَوتُ، كَم مِن إِنسَانٍ مَاتَ بَغْتَةً وَمُفَاجَأَةً، فَلْيَتُبْ إِلَى اللَّهِ قَبْلَ أَنْ يَفُوتَ الأَوَانُ[3].

أخي الكريم: مَثِّل لِنَفْسِكَ سَاعَةَ المَوتِ، وَمَا قَدْ عَزَمْتَ أَنْ تَفْعَلَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَافْعَلْهُ فِي أَوَانِ العافِيَة.

وَبَـادِرًا بِـالـتَّـوبَـةِ الـنَّـصُـوح ... قَـبْـلَ احـتِـضَـارٍ وَانـتِـزَاعِ الـرُّوح

وَلِلَّهِ دَرُّ القَائِلِ:

وَتُـقْـبَـلُ الـتَّـوْبَـةُ قَـبْـلَ الـغَـرْغَـرَهْ ... كَـمَـا أَتَـى فِـي الـشَّـرْعَـةِ الـمُـطَـهَّـرَهْ

هَذِهِ خَمْسَةُ شُرُوطٍ إِذَا تَمَّت صَحَّتِ التَّوبَةُ.

وَمَتَى صَحَّتِ التَّوبَةُ بِاجتِمَاعَ شُرُوطِهَا وَقُبِلَت، مَحَا اللَّهُ بِهَا ذَلِكَ الذَّنبَ الَّذِي تَابَ مِنْهُ وَإِن عَظُمَ، وَإِنْ كَثُرَ وَكَانَ مِثْلَ زَبَدِ البَحرِ.

---

(١) انظر: تفسير جزء عم للعلامة ابن عثيمين (ص١٣٢ ـ ١٣٣).
(٢) المصدر السابق (ص٥٧).
(٣) شرح رياض الصالحين للعلامة ابن عثيمين (١/ ٥٠٠).

قَالَ اللَّهُ ﷻ : ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزُّمر: ٥٣].

وَهَذِهِ الآيَةُ فِي التَّائِبِينَ المُنِيبِينَ إِلَى رَبِّهِم المُسلِمِينَ لَهُ.

وَقَالَ ﷻ : ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النِّساء: ١١٠].

وَقَالَ ﷻ : ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [التَّوبَة: ١٠٤].

«فَبَادِرُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ أَعْمَارَكُم بِالتَّوْبَةِ النَّصُوح إِلَى رَبُّكُم قَبْلَ أَنْ يَفْجَأَكُمُ المَوتُ فَلا تَسْتَطِيعُونَ الخَلاصَ»[1].

---

(١) مجالس شهر رمضان (ص٣٤٣).

نصائحُ
على طريق التوبةِ

كلما أذنبتَ ذنبًا أحدِث تَوبَةً:

عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِن عَبدٍ مُؤمِنٍ إلاَّ وَلَهُ ذَنبٌ يَعتَادُهُ الفَينَةَ بَعدَ الفَينَةِ، أَو ذَنبٌ هُوَ مُقِيمٌ عَلَيهِ لا يُفَارِقُهُ حَتَّى يُفَارِقَ الدُّنيَا، إِنَّ المُؤمِنَ خُلِقَ مُفَتَّنًا تَوَّابًا نَسَّاءً، إِذَا ذُكِّرَ ذَكَرَ»[1].

«الفينة بعد الفينة؛ أي الوقت بعدَ الوقت، والساعة بعدَ الساعة».

والمفتَّنُ: هو الممتَحَنُ الذي فتن كثيرًا، والمرادُ: ممتحنًا يمتحنُه اللَّه بالبلاء والذنوب مرَّة بعد أخرى.

و«التوَّاب النَّسيُّ» هو الذي «يتوبُ ثم ينسى ثمَّ يتذكَّر فيتوب»[2].

«إذا ذكِّر ذكر»: إذا ذكِّر بالطاعة تاب إليها. وإذا ذكِّر بالمعصية تاب منها.

وَعَن أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الشَّيطَانَ قَالَ: وَعِزَّتِكَ يَا رَبْ لا أَبرَحُ أُغوِي عِبَادَكَ مَا دَامَت أَروَاحُهُم فِي أَجسَادِهِم. فَقَالَ الرَّبُّ: وَعِزَّتِي وَجَلالِي لا أَزَالُ أَغفِرُ لَهُم مَا استَغفَرُونِي»[3].

---

(١) أخرجه الطبراني في «الكبير» (١١٨١٠ و١٢٤٥٧)، وصححه المحدّث الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (١٦٥٠).

(٢) فيض القدير (٥/ ٤٩١).

(٣) أخرجه الحاكم (٤/ ٢٦١) (٧٦٧٢)، وحسنه المحدث الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (١٦٥٠).

وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ﴾ [النجم: ٣٢]، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

«إن تَـغـفِـرِ الـلَّـهُـمَّ تَـغـفِـر جَـمًّـا وأَيُّ عَـبـدٍ لَـكَ لا أَلَـمَّـا»[١]

والجمُّ: بمعنى الكثير العظيم. أي: من شأنكَ غفران الذُّنوبِ الكبيرة الكثيرة فضلاً عَنِ الصغائرِ؛ لأنَّها لا يخلو عنها أحدٌ، وأنها مكفِّرةٌ بالحسنات[٢].

احذر محقِّرات الذنوب:

أَوَ تَدرِي مَا مُحَقِّرَاتُ الذُّنُوبِ؟! إِنَّهَا الذُّنُوبُ الَّتِي يَستَصغِرُهَا العَبدُ وَلا يُبَالِي فَيَقَعُ فِيهَا بِغَيرِ حِسَابٍ، وَلا يَزَالُ الشَّيطَانُ يُهَوِّنُ عَلَيهِ أَمرَهَا حَتَّى يُصِرَّ عَلَيهَا؛ لأَنَّ الإِصرَارَ عَلَى الذَّنبِ إِذَا تَمَكَّنَ مِنَ القَلبِ، فَإِنَّهُ يَعِزُّ عَلَيهِ التَّخَلُّصُ مِنهُ كَمَا لا يَخفَى.

فَكَم مِن إِنسَانٍ تَسَاهَلَ فِي صَغِيرةٍ فَعَظُمَت، فَلَم يَستَطِعِ الخُرُوجَ مِنهَا.

عَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الشَّيطَانَ قَد أَيِسَ أَن يُعبَدَ بِأَرضِكُم هَذِهِ، وَلَكِن قَد رَضِيَ مِنكُم بِمَا تُحَقِّرُونَ»[٣].

وَعَن عَائِشَة رضي الله عنها قَالَت: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا عَائِشَةُ! إِيَّاكِ وَمُحَقِّرَاتِ الأَعمَالِ، فَإِنَّ لَهَا مِنَ اللَّهِ طَالِبًا»[٤].

وَعَن سَهلِ بنِ سَعدٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ: «إِيَّاكُم وَمُحَقِّرَاتِ الذُّنوبِ، كقوم نَزَلُوا فِي بَطنِ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعودٍ، وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، حَتَّى أَنضَجُوا خُبزَتَهُم، وإِنَّ مُحَقِّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤخَذ بِهَا صَاحِبُها تُهلِكهُ»[٥].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٥١٥)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢٦١٨).
(٢) مشكاة المصابيح (٢/ ٩٢٥) النسخة الهندية.
(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٣٦٨) (٨٧٩٦) بسند صحيح على شرط الشيخين.
(٤) أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٣)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٤٢١).
(٥) أخرجه أحمد (٥/ ٢٣١) (٢٢٩١٦) بسند صحيح على شرط الشيخين.

وَمَعنَى الحَدِيثِ: أَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ مِنهُم جَاءَ بِعُودِ حَطَبٍ حَتَّى أَوقَدُوا نَارًا عَظِيمَةً فَطَبَخُوا وَاشتَووا، وَكَذَلِكَ فَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ تَجتَمِعُ عَلَى العَبدِ وَهُوَ يَستَهِينُ بِشَأنِهَا حَتَّى تُهلِكَهُ.

وَوَاحِدَةٌ مِن عِيدَانِ الحَطَبِ لا تَخبِزُ خُبزًا، وَلا تُنضِجُ طَبخًا، وَلَكِن إِذَا اجتَمَعَتِ العِيدَانُ إِلَى بَعضِهَا وَأُوقِدَت: أَشعَلَت نَارًا عَظِيمَةً.

وَالتَّهَاوُنُ فِي صَغَائِرِ الذُّنُوبِ بِمَنزِلَةِ الشَّرَارَةِ مِنَ النَّارِ تُرمَى فِي الحَشِيشِ اليَابِسِ، فَأَحدَثَت حَرِيقًا هَائِلًا، كَمَا قِيلَ:

ومُعظَمُ النَّارِ مِن مُستَصغَرِ الشَّرَرِ

فَتَكُونُ نَظرَةً، ثُمَّ خَطرَةً، ثُمَّ خَطوَةً، ثُمَّ خَطِيئَةً.

وَقَالَ أَبُو عَبد الرَّحمٰنِ الحُبُلِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: مَثَلُ الَّذِي يَجتَنِبُ الكَبَائِرَ وَيَقَعُ فِي المُحَقَّرَات، كَرَجُلٍ لَقِيَهُ سَبُعٌ فَاتَّقَاهُ حَتَّى نَجَا مِنهُ، ثُمَّ لَقِيَه فَحلُ إِبلٍ فَاتَّقَاهُ فَنَجَا مِنهُ، فَلَدَغَتهُ نَملَةٌ فَأَوجَعَتهُ، ثُمَّ أُخرَى، ثُمَّ أُخرَى حَتَّى اجتَمَعنَ عَلَيهِ فَصَرَعنَهُ، وَكَذَلِكَ الَّذِي يَجتَنِبُ الكَبَائِرَ وَيَقَعُ فِي المُحَقَّرَات[1].

وَقَالَ ابنُ المُعتَزِّ رَحِمَهُ اللَّهُ:

خَلِّ الذُّنُوبَ صَغِيرَهَا ... وَكَبِيرَهَا ذَاكَ التُّقَى

واصنَع كَمَاشٍ فَوقَ أَر ... ضِ الشَّوكِ يَحذَرُ مَا يَرَى

لا تَحقِرَنَّ صَغِيرَةً ... إِنَّ الجِبَالَ مِنَ الحَصَى

فَوَاحِدَةٌ مِنَ الحَصَى لا تُشَكِّلُ تَلًّا، وَلا جَبَلًا، وَلَكِن إِذَا كَثُرَت صَارَت تلًّا، وَإِذَا تَرَاكَمَت شَكَّلَت جَبَلًا.

وَهَكَذَا العَبدُ يَتَسَاهَلُ فِي صَغَائِرِ الذُّنُوب، حَتَّى تَغمِرَهُ ذُنُوبُهُ وَتُحِيطَ بِهِ خَطِيئَتُهُ، فَيَستَحكِمُ الهَلاكُ.

طَاعَةُ اللَّهِ خَيرُ مَا اكتَسَبَ العَبدُ ... فَكُن طَائِعًا لِلَّهِ لا تَعصِيَنَّهُ

---

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال (١٠/٢٠٣).

مَا هَلاكُ النُّفوسِ إلاَّ المَعَاصِي فَاجتَنِب مَا نَهَاكَ لا تَقرَبَنَّه
إنَّ شَيئًا هَلاكَ نَفسِكَ فِيه يَنبَغِي أن تَصُونَ نَفسَكَ عَنه

وَاعلَم ـ بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ ـ بِأَنَّهُ لا يَفُوزُ غَدًا إلَّا المُخِفُّونَ مِنَ الذُّنُوبِ.

عَن أَبِي الدَّردَاءِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إنَّ بَينَ أَيدِيكُم عَقَبَةً كَؤُودًا، لا يَنجُو مِنهَا إلاَّ كُلُّ مُخِفٍّ»[1].

وَتِلكَ العَقَبَةُ المَوتُ وَمَا بَعدَهُ مِنَ الشَّدَائِدِ مِنَ القَبرِ وَالحَشرِ والوقُوفِ بَينَ يَدَي اللَّهِ تَعَالَى فِي المَحشَرِ وَالْحِسَابِ وَالصِّرَاطِ وَالمِيزَانِ. وَمَن عَلِمَ يَقِينًا بِوقُوعِ هَذِهِ الأَشيَاءِ، يُخَفِّف أَثقَالَهُ بِامتِثَالِ أَوَامِرِ اللَّهِ وَاجتِنَابِ نَوَاهِيهِ.

اهجُر أهلَ المعاصي:

ابتَعِد عَن رُفَقَاءِ السُّوءِ وَمَن لا يُعِينكَ عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ ﷻ، «فَإنَّكَ لا تَجنِي مِن هَذَا الصِّنفِ إلاَّ السُّوءَ وَالفُسُوقَ وَالعِصيَانَ»[2] وَذَلِكَ لأَنَّ الصَّاحِبَ سَاحِبٌ، وَلأَنَّ النَّفسَ تَقتَبِسُ الخَيرَ أَوِ الشَّرَّ مِن الجُلَسَاءِ. فَكَم مِن إنسَانٍ أَرَادَ سُلُوكَ طَرِيقِ الخَيرِ وَلَكِنَّهُ عَادَ وَانتَكَسَ، وَأَصبَحَ شَرًّا مِمَّا كَانَ بِسَبَبِ قُرَنَاءِ السُّوءِ وَجُلَسَاءِ الشَّرِّ.

وَلِذَلِكَ أَخبَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي قِصَّةِ تَوبَةِ القَاتِلِ لِتِسعَةٍ وَتِسعِينَ نَفسًا[3] وَالَّتِي رَوَاهَا البُخَارِيُّ: أَنَّهُ ـ أَي القَاتِلَ ـ لَمَّا سَأَلَ عَالِمًا، أَخبَرَهُ أَن يَذهَبَ إِلَى مَكَانٍ فِيهِ قَومٌ صَالِحُونَ يَعبُدُونَ اللَّهَ تَعَالَى.

وَلِهَذَا حَثَّ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى مُجَالَسَةِ الصَّالِحِينَ فِي أَحَادِيثَ كَثِيرةٍ نَذكُرُ مِنهَا:

عَن أَبِي سَعِيدٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لا تُصَاحِب إلاَّ مُؤمِنًا، وَلا يَأكُل طَعَامَكَ إلاَّ تَقِيٌّ»[4].

---

(١) أخرجه البزار في «مسنده» (٣٦٩٦ ـ زوائده)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٤٨٠).
(٢) حصائد الألسن (ص٣٠).
(٣) أخرجه البخاري (٣٤٧٠)، ومسلم (٢٧٦٦) من حديث أبي سعيدٍ الخدري ﷺ.
(٤) أخرجه أبو داود (٤٨٣٢)، وحسنه الألباني ﷺ في «صحيح سنن أبي داود» (٤٠٤٥).

وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنظُر أَحَدُكُم مَن يُخَالِلُ»(١).

وَعَن أَبِي مُوسَى ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا مَثَلُ الجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالجَلِيسِ السُّوءِ، كَحَامِلِ المِسكِ وَنَافِخِ الكِيرِ، فَحَامِلِ المِسكِ: إِمَّا أَن يُحذِيَكَ، وَإِمَّا أَن تَبتَاعَ مِنهُ، وَإِمَّا أَن تَجِدَ مِنهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الكِيرِ: إِمَّا أَن يُحرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَن تَجِدَ مِنهُ رِيحًا خَبِيثَةً»(٢).

فَقَد شَبَّهَ النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذَا الحَدِيثِ جَلِيسَ السُّوءِ بِالحَدَّادِ، الَّذِي يَنفُخُ النَّارَ عَلَى الحَدِيدِ حَتَّى يَحمَرَّ فَيَستَعمِلُهُ، فَأَنتَ مَعَهُ فِي خَسَارَةٍ دَائِمَةٍ. فَإِن لَم يُحرِقك بِنَارِهِ، أَحرَقَكَ بِشَرَارِهِ، فَصُحبَتُهُ هَمٌّ دَائِمٌ، وَحُزنٌ لازِمٌ.

وَرَحِمَ اللَّهُ القَائِلَ:

وَصَاحِب أُولِي التَّقوَى تَنَل مِن تُقَاهُم ... وَلا تَصحَب الأَردَى فَتَردَى مَعَ الرَّدِي

أكثر من الاستغفار:

الاستِغفَارُ مِنَ الذُّنُوبِ هُوَ طَلَبُ المَغفِرَةِ، وَالمَغفِرَةُ: هِيَ وِقَايَةُ شَرِّ الذُّنُوبِ مَعَ سَترِهَا. وَالعَبدُ أَحوَجُ شَيءٍ إِلَيهِ لأَنَّهُ يُخطِئُ بِاللَّيلِ والنَّهَارِ. كَمَا جَاءَ فِي الحَدِيثِ القُدسِيِّ: «يَا عِبَادِي إِنَّكُم تُخطِئُونَ بِاللَّيلِ والنَّهَارِ وَأَنَا أَغفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاستَغفِرُونِي أَغفِر لَكُم»(٣).

وَمَن غَفَرَ اللَّهُ ذُنُوبَهُ فَقَد فَازَ، وَعَلَى الصِّرَاطِ جَازَ.

وَلِيَتَدَبَّرِ القَارِئُ اللَّبِيبُ الأَحَادِيثَ التَّالِيَةَ:

عَن عَائِشَةَ ﷺ قَالَت: صَلَّى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الضُّحَى ثُمَّ قَالَ: «اللَّهمَّ اغفِر لِي، وَتُب عَلَيَّ، إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» حَتَّى قَالَهَا مِئَةَ مَرَّةٍ(٤).

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٨٣٣)، وحسنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود (٤٠٤٦).
(٢) أخرجه البخاري (٥٢١٤)، ومسلم (٢٦٢٨).
(٣) قطعة من حديث أخرجه مسلم (٢٥٧٧) عن أبي ذر ﷺ.
(٤) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٦١٩)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٤٨٢).

وَعَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ: إِنَّا كُنَّا لَنَعُدُّ فِي المَجلِسِ الوَاحِدِ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «رَبِّ اغفِر لِي، وَتُب عَلَيَّ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ» مِئَةَ مَرَّةٍ[1].

وعَن عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَت: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكثِرُ مِن قَولِ: «سُبحَانَ اللَّهِ وَبِحَمدِهِ، أَستَغفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيهِ»[2].

وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: مَا رَأَيتُ أَحَدًا أَكثَرَ أَن يَقُولَ: «أَستَغفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيهِ» مِن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ[3].

وَعَن عَبدِ اللَّهِ بنِ بُسرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «طُوبَى لِمَن وَجَدَ فِي صَحِيفَتِهِ استِغفَارًا كَثِيرًا»[4].

وَعَنِ الأَغَرِّ بنِ يَسَارٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُ لَيُغَانُ عَلَى قَلبِي، وَإِنِّي لأَستَغفِرُ اللَّهَ فِي اليَومِ، مِئَةَ مَرَّةٍ»[5].

وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفسِي بِيَدِهِ! لَو لَم تُذنِبُوا، لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُم، ولَجَاءَ بِقَومٍ يُذنِبُونَ فَيَستَغفِرُونَ اللَّهَ فَيَغفِرُ لَهُم»[6].

وَلَيسَ المَقصُودُ مِن هَذَا الحَدِيثِ ـ بَدَاهَةً ـ الحَضَّ عَلَى الإِكثَارِ مِنَ الذُّنُوبِ وَالمَعَاصِي، وَلا الإِخبَارَ فَقَط بِأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ، وَإِنَّمَا الحَضُّ عَلَى الإِكثَارِ مِنَ الاستِغفَارِ، لِيَغفِرَ اللَّهُ[7] لِلعَبدِ ذُنُوبَهُ، وَذَلِكَ لأَنَّ بَنِي آدَمَ مِن شَأنِهِم أَن تَكثُرَ مِنهُمُ الذُّنُوبُ، لِمَا جُبِلُوا عَلَيهِ مِنَ المَيلِ إِلَى الشَّهَوَاتِ، وَأَنَّ مَن حَاوَلَ مِنهُم أَلَّا يَقَعَ مِنهُ

---

(١) أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٦١٨)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الأدب المفرد» (٤٨١).

(٢) أخرجه مسلم (٤٨٤).

(٣) أخرجه ابن حبان «الإحسان» (٩٢٨)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح موارد الظمآن» (٢٠٨٣).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٣٨١٨)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٠٧٨).

(٥) أخرجه مسلم (٢٧٠٢).

(٦) أخرجه مسلم (٢٧٤٩).

(٧) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٤/ ٦٠٥).

ذَنبٌ أَلبَتَّةَ فَقَد حَاوَلَ مَا لا يَكُونُ، لأَنَّ العِصمَةَ لا تَكُونُ إِلَّا لِلأَنبِيَاءِ. فَلَو رَامُوا أَنَّهُم لا يُذنِبُونَ أَصلًا، رَامُوا مَا لَيسَ لَهُم[1].

وَعَن عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنِ استَغفَرَ لِلمُؤمِنِينَ وَالمُؤمِنَاتِ، كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِكُلِّ مُؤمِنٍ حَسَنَةً»[2].

وَعَن ابنِ مَسعُودٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَن قَالَ: أَستَغفِرُ اللَّهَ الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيُّومُ وَأَتُوبُ إِلَيهِ ثَلاثًا، غُفِرَت لَهُ ذُنُوبُهُ وَإِن كَانَ فَارًّا مِنَ الزَّحفِ»[3].

وَعَن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابنَ آدَمَ لَو بَلَغَت ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ استَغفَرتَنِي، غَفَرتُ لَكَ وَلا أُبَالِي»[4].

وَعَن أَبِي هُرَيرَةَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فيما يَحكِي عَن رَبِّهِ ﷻ قَالَ: «أَذنَبَ عَبدِي ذَنبًا فَقَالَ: اللَّهُمَّ اغفِر لِي ذَنبِي! فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَذنَبَ عَبدِي ذَنبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفِرُ الذَّنبَ وَيَأخُذُ بِالذَّنبِ. ثُمَّ عَادَ فَأَذنَبَ فَقَالَ: أَي رَبِّ! اغفِر لِي ذَنبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبدِي أَذنَبَ ذَنبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفِرُ الذَّنبَ، وَيَأخُذُ بِالذَّنبِ، ثُمَّ عَادَ فَأَذنَبَ فَقَالَ: أَي رَبِّ! اغفِر لِي ذَنبِي، فَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: عَبدِي أَذنَبَ ذَنبًا فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغفِرُ الذَّنبَ، وَيَأخُذُ بِالذَّنبِ. اعمَل مَا شِئتَ فَقَد غَفَرتُ لَكَ»[5].

وَهَذَا الحَدِيثُ «يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ فَائِدَةِ الاستِغفَارِ، وَعَلَى عَظِيمِ فَضلِ اللَّهِ وَسَعَةِ رَحمَتِهِ، وَحِلمِهِ وَكَرَمِهِ، وَلاَ شَكَّ فِي أَنَّ هَذَا الاستِغفَارَ لَيسَ هُوَ الَّذِي يَنطِقُهُ اللِّسَانُ، بَلِ»[6] الاستِغفَارُ المُوجِبُ لِلمَغفِرَةِ: هُوَ مَا قَارَنَ عَدَمَ الإِصرَارِ، كَمَا مَدَحَ اللَّهُ أَهلَهُ، وَوَعَدَهُمُ المَغفِرَةَ، قَالَ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ

---

(١) نثر الجوهر على حديث أبي ذر ﷺ للشوكاني (ص١٥٢).
(٢) أخرجه الطبراني في «الكبير»، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٠٢٦).
(٣) أخرجه الحاكم (١/ ٥١١) (١٨٨٤) بسند صحيح.
(٤) أخرجه الترمذي (٣٥٤٠)، وصححه الألباني ﷺ في «صحيح سنن الترمذي» (٢٨٠٥).
(٥) أخرجه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨) واللفظ له.
(٦) المفهم (٧/ ٨).

ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ [آل عمران: ١٣٥]، فَهُوَ حِينَئِذٍ يُعَدُّ تَوبَةً نَصُوحًا تَجُبُّ مَا قَبلَهَا. وَهَذَا الاستِغْفَارُ هُوَ المَانِعُ مِنَ العُقُوبَةِ كَمَا قَالَ ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وَقَد ذَكَرَ أَهلُ العِلمِ أَنَّ القَائِلَ: أَستَغفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيهِ، لَهُ حَالَتَانِ:

الأولى: أَن يَكُونَ مُصِرًّا بِقَلبِهِ عَلَى المَعصِيَةِ، فَهَذَا كَاذِبٌ فِي قَولِهِ: «وَأَتُوبُ إِلَيهِ»، لأَنَّهُ غَيرُ تَائِبٍ، فَلا يَجُوزُ لَهُ أَن يُخبِرَ عَن نَفسِهِ بِأَنَّه تَائِبٌ وَهُوَ غَيرُ تَائِبٍ.

الثانية: أَن يَقُولَ ذَلِكَ وَهُوَ مُقلِعٌ بِقَلبِهِ وَعَزمِهِ وَنِيَّتِهِ عَنِ المَعصِيَةِ، فَإِن صَحَّ مِنهُ العَزمُ عَلَى ذَلِكَ قُبِلَت تَوبَتُهُ، فَإِن عَادَ إِلَى الذَّنبِ مَرَّةً ثَانِيَةً احتَاجَ إِلَى تَوبَةٍ أُخرَى لِيُغفَرَ لَهُ ذَنبُهُ، وَلِهَذَا فَإِنَّ العَبدَ مَا دَامَ كَذَلِكَ، كُلَّمَا أَذنَبَ تَابَ وَكُلَّمَا أَخطَأَ استَغفَرَ، فَهُوَ حَرِيٌّ بِالمَغفِرَةِ وَإِن تَكَرَّرَ الذَّنبُ[1].

أَستَغفِرُ اللَّهَ مِمَّا يَعلَمُ اللَّهُ ... إِنَّ الشَّقِيَّ لَمَن لا يَرحَمُ اللَّهُ
مَا أَحلَمَ اللَّهَ عَمَّن لا يُرَاقِبُهُ ... كُلٌّ مُسِيءٌ وَلَكِن يَحلَمُ اللَّهُ
أَستَغفِرُ اللَّهَ مِمَّا كَانَ مِن زَلَلٍ ... طُوبَى لِمَن كَفَّ عَمَّا يَكرَهُ اللَّهُ
طُوبَى لِمَن حَسُنَت سَرِيرَتُهُ ... طُوبَى لِمَن يَنتَهِي عَمَّا نَهَى اللَّهُ[2]

استكثر من الخصال المكفِّرة للذنوب:

عَن مُعَاذٍ رضي الله عنه قَالَ: قُلتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوصِنِي قَالَ: «اعبُدِ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، واعدُد نَفسَكَ فِي المَوتَى، واذكُرِ اللَّهَ عِندَ كُلِّ حَجَرٍ وشَجَرٍ، وإِذَا عَمِلتَ سَيِّئَةً فَاعمَل بِجَنبِهَا حَسَنَةً، السِّرُّ بِالسِّرِّ، والعَلانِيَةُ بِالعَلانِيَةِ»[3].

وَعَن أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قُلتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَوصِنِي، قَالَ: «إِذَا عَمِلتَ سَيِّئَةً فَأَتبِعهَا حَسَنَةً تَمحُهَا». قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَمِنَ الحَسَنَاتِ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ؟ قَالَ:

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (٢/ ٤١٠ ـ ٤١١).
(٢) شرح حديث شداد بن أوس للعلامة ابن رجب الحنبلي (ص٥٩).
(٣) أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٠/رقم ٣٧٤)، وحسَّنه العلامة الألباني رحمه الله في «الصحيحة» (١٤٧٥).

«هِيَ أَفضَلُ الحَسَنَاتِ»[1].

وَعَن عَقبَةَ بنِ عَامِرٍ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مَثَلَ الَّذِي يَعمَلُ السَّيِّئَاتِ، ثُمَّ يَعمَلُ الحسَنَاتِ، كَمَثَلِ رَجُلٍ كَانَت عَلَيهِ دِرعٌ ضَيِّقَةٌ قَد خَنَقَتهُ، ثُمَّ عَمِلَ حَسَنَةً فَانفَكَّت حَلَقَةٌ، ثُمَّ عَمِلَ حَسَنَةً أُخرَى، فَانفَكَّت حَلَقَةٌ أُخرَى حَتَّى يَخرُجَ إِلَى الأَرضِ»[2].

وَعَن أَبِي ذَرٍّ ﷺ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اتَّقِ اللَّهَ حَيثُمَا كُنتَ، وَأَتبِعِ السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمحُهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»[3].

أَيُّهَا الأخ المبارك: استَكثِر مِنَ الخِصَالِ المُكَفِّرَةِ لِلذُّنُوبِ لَعَلَّكَ تَطهُرُ مِنهَا قَبلَ المَوتِ فَتَلقَى اللَّهَ طَاهِرًا، فَتَصلُحُ لِمُجَاوَرَتِهِ فِي دَارِ السَّلامِ.

«أَمَا عَلِمتَ أَنَّهُ لاَ يَصلُحُ لِقُربِ اللَّهِ إِلاَّ طَاهِرٌ؟ فَإِن أَرَدتَ قُربَهُ وَمُنَاجَاتَهُ اليَومَ فَطَهِّر ظَاهِرَكَ وَبَاطِنَكَ لِتَصلُحَ لِذَلِكَ، وَإِن أَرَدتَ قُربَهُ وَمُنَاجَاتَهُ غَدًا فَطَهِّر قَلبَكَ مِن سِوَاهُ لِتَصلُحَ لِمُجَاوَرَتِهِ ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨ ـ ٨٩]»[4].

وَاعلَم بِأَنَّ مَن مَاتَ عَلَى خَبَثِ الذُّنُوبِ فَيَحتَاجُ إِلَى تَطهِيرِهَا فِي كِيرِ جَهَنَّمَ. وَمَن دَخَلَ النَّارَ وَلَو سَاعَةً مِن نَهَارٍ فَقَد ذَاقَ العَذَابَ الأَلِيمَ. وَلْيُجَرِّبِ العَاصِي بِنَارِ الدُّنيَا، فَهِي جُزءٌ مِن سَبعِينَ جُزءًا مِن نَارِ جَهَنَّم: هَل لَهُ طَاقَةٌ أَن يَضَعَ فِيهَا أُصبَعَهُ لَحظَةً وَاحِدَةً؟!

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٦٩) (٢١٥٦٨)، وهو حديث صحيحٌ بمجموع طرقه كما بيَّن العلامة الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «الصحيحة» (١٣٧٣).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٤٥) (١٧٣٥٥)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١٥٧).

(٣) أخرجه الترمذي (١٩٨٧)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن الترمذي» (١٦١٨).

(٤) انظر: اختيار الأولى لابن رجب الحنبلي (ص٦٧).

خَطَرُ التسويف بالتوبة

التَّسويفُ بِالتَّوبَةِ مِن أَخطَرِ الأَمرَاضِ الَّتِي يَقَعُ فِيهَا الإِنسَانُ، وَذَلِكَ أَنَّ مَرَضَ الغَفلَةِ يُبعِدُهُ عَنِ المَصِيرِ المَحتُومِ، وَعَمَّا يُرَادُ بِهِ، وَمَا يَؤُولُ إِلَيهِ مِن المَوتِ وَالقَبرِ وَالبَعثِ، وَمَا خَلَفَهُ مِنَ النَّعِيمِ أَوِ الجَحِيمِ. لِهَذَا تَرَى كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ يَفعَلُونَ المَعَاصِي وَيُؤَمِّلُونَ خَيرًا بِأَنَّهُم حِينَمَا يَحصُلُ لَهُم كَذَا وَكَذَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَرجِعُونَ. فَهُنَاكَ مَن يَقُولُ: إِذَا حَجَجتُ تُبتُ وَأَنَبتُ، ثُمَّ إِنَّهُ حَجَّ وَمَا تَابَ. وَهُنَاكَ مَنْ يَقُولُ: إِذَا بَلَغْتُ الأَرْبَعِينَ تُبْتُ فَبَلَغَهَا وَمَا تَابَ، وَجَاوَزَ السِّتِّينَ وَمَا تَابَ، وَشَابَ وَمَا تَابَ، يُسَوِّفُ وَيَظُنُّ أَنَّ فِي الأَجَلِ فَسحَةً، يَحسبُ أَنَّ العُمُرَ طَوِيلٌ. وَلِهَذَا فَإِنَّ المُسَوِّفَ بِالتَّوبَةِ بَيْنَ خَطَرَيْنِ عَظِيمَيْنِ:

أَحَدُهُمَا: أَن تَتَرَاكَمَ الظُّلمَةُ عَلَى قَلبِهِ مِنَ المَعَاصِي حَتَّى يَصِيرَ رَينًا وَطَبعًا فَلا يَقبَلُ المَحوَ.

الثاني: أَن يُعَاجِلَهُ المَرَضُ أَوِ المَوتُ، فَلاَ يَجِدُ مُهلَةً لِلاشتِغَالِ بِالمَحوِ، فَيَأتِي اللَّهَ بِقَلبٍ غَيرِ سَلِيمٍ. وَلا يَنجُو إِلاَّ مَن أَتَى اللَّهَ بِقَلبٍ سَلِيمٍ[1].

فَيَا «مَن شَابَ وَلا تَابَ! وَلا عَزَمَ عَلَى الرُّشدِ وَلَا أَنَابَ! لَقَد أَفرَحتَ الشَّيطَانَ وَأَسخَطتَ الرَّحمٰنَ!»[2]. أَمَا عَلِمتَ أَنَّ المَوتَ أَقرَبُ إِلَيكَ مِن شِرَاكِ نَعْلِكَ.

كُلُّ امرِئٍ مُصَبَّحٌ فِي أَهلِهِ ... وَالمَوْتُ أَدْنَى مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ

أَمَا عَلِمتَ بِأَنَّ غَايَةَ أُمنِيَةِ المَوتَى فِي قُبُورِهِم حَيَاةُ سَاعَةٍ لِيَتُوبُوا فِيهَا وَيَجتَهِدُوا

---

(١) تهذيب موعظة المؤمنين (ص٣٥٦).

(٢) شرح حديث شداد بن أوس لابن رجب الحنبلي (ص٣٣).

فِي الطَّاعَةِ، وَلَا سَبِيلَ لَهُم إِلَى ذَلِكَ.

لَو قِيلَ لِلقَومِ مَا مُنَاكُمُ طَلَبُوا ... حَيَاةَ يَومٍ لِيَتُوبُوا فَاعلَمِ

وَيحَكِ يَا نَفسُ أَلا تَيَقَّظِ ... يَنفَعُ قَبلَ أَن تَزِلَّ قَدَمِي

مَضَى الزَّمَانُ فِي تَوَانٍ وَهَوًى ... فَاستَدرِكِي مَا قَد بَقِيَ وَاغتَنِمِي

وَقَد أَخبَرَنَا اللَّهُ تَعَالَى، نُصحًا لَنَا وَتَحذِيرًا بِنَدَمِ النَّادِمِينَ عِندَ المَوتِ، لِئَلَّا نَكُونَ نَحنُ النَّادِمِينَ عَلَى مَا فَرَّطنَا، السَّائِلِينَ عِندَ المَوتِ المَرجِعَ لِلإِنَابَةِ وَالتَّوبَةِ، وَالرُّجُوعَ عَمَّا كَرِهَ اللَّهُ ﷻ، فَلا نُجَابُ إِلَى ذَلِكَ فَنُترَكَ بِحَسرَاتِنَا، وَلا يُقبَلُ مِنَّا النَّدَمُ، وَلا يُجَابُ مِنَّا النِّدَاءُ. قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٠٠﴾ [المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠]. لَيتَنَا نَتَدَبَّرُ هَذِهِ الآيَةَ. فَإِنَّ فِيهَا بَلاغًا لِمَن تَذَكَّرَ، وَزَجرًا لِمَنِ اعتَبَرَ، وَتَخوِيفًا لِمَن تَدَبَّرَ، وَنَهيًا لِمَن تَفَكَّرَ. وَقَالَ ﷻ: ﴿وَأَنفِقُواْ مِن مَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوۡلَآ أَخَّرۡتَنِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ قَرِيبٖ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١٠ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَاۚ وَٱللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١١﴾ [المنافقون: ١٠ ـ ١١].

فَانتَهِز يَا أَخِي فُرصَةَ الزَّمَانِ، قَبلَ تَعذُّرِ الإِمكَانِ، قَبلَ أَن يَأتِيَ يَومٌ يَدُومُ فِيهِ النَّدَمُ لِمَن زَلَّت بِهِ القَدَمُ، قَبلَ أَن يَقُولَ المُذنِبُ: رَبِّ ارجِعُونِ. فَيُقَالُ لَهُ: هَيهَاتَ، فَاتَ مَا فَاتَ، وَكَانَ مَا كَانَ، وَأَتَى مَا هُوَ آتٍ، وَقَد بَعُدَت بَينَكَ وَبَينَ التَّوبَةِ المَسَافَاتُ.

فَلْتَتُب إِلَى اللَّهِ تَعَالَى تَوبَةً صَحِيحَةً قَبلَ الفَوَاتِ، قَبلَ أَن يَفجَأَ أَحَدَنَا المَوتُ، وَيَطلُبَ التَّأخِيرَ وَلا تَأخِيرٌ، وَالإِمهَالَ وَلا إِمهَالٌ: ﴿إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۘ لَوۡ كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [نوح: ٤].

قَدِّم لِنَفسِكَ تَوبَةً مَرجُوَّةً ... قَبلَ المَمَاتِ وَقَبلَ حَبسِ الأَلسُنِ

بَادِر بِهَا غَلَقَ النُّفُوسِ فَإِنَّهَا ... ذُخرٌ وَغُنمٌ لِلمُنِيبِ المُحسِنِ[1]

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٦/٥).

أسئلة وأجوبتها

السؤال الأول: ما هي نصيحتكم لمن يدخِّن؟

الجواب: الواجب على من نصحَ نفسَهُ، وصار لها عنده قدرٌ وقيمةٌ، أن يتوبَ إلى اللَّه عنْ شربه، ويعزم عزمًا جازمًا، مقرونًا بالاستعانة باللَّه، لا تردَدَ فيه ولا ضعفَ عزيمةٍ، فإنَّ من فعلَ ذلك أعانهُ اللَّه على تركه، وهوَّن عليه ذلك.

ومما يهوِّن عليه الأمر، أن يعرفَ: أنَّ من تركَ شيئًا للَّه، عوَّضه اللَّه خيرًا منه، وكما أنَّ ثوابَ الطاعةِ الشَّاقَّة، أعظمُ ممَّا لا مشقَّة فيه، فكذلك ثوابُ تارك المعصية إذا شقَّ عليه الأمر وصعبَ، أعظم أجرًا، وأعظم ثوابًا، فمن وفقه اللَّه وأعانه على تركِ الدخان، فإنَّه يجدُ المشقَّة في أوَّل الأمرِ، ثمَّ لا يزالُ يسلو شيئًا فشيئًا، حتى يتمَّ اللَّه عليه نعمته، فيغتبط بفضل اللَّه عليه، وحفظه وإعانته، وينصح إخوانه بما ينصح به نفسه، والتوفيق بيد اللَّه.

ومن علم اللَّه من قلبه صدق النيَّة، في طلب ما عنده ، بفعل المأمورات، وترك المحظورات، يسَّره لليسرى، وجنَّبه العسرى، وسهَّل له طرق الخير كلها.

فنسأل اللَّه الذي بيده أزمَّة الأمور: أن يأخذ بنواصينا، ونواصي إخواننا إلى الخير، وأن يحفظنا وإياهم من الشر، إنَّه جواد كريم، رؤوف رحيم[1].

السؤال الثاني: ما العلاج لمن يعصي ويتوب ثم يرجع إلى المعصية؟

الجواب: لا بدَّ من جهاد النفس في لزوم الحق والثبات على التوبة؛ لأنَّ

---

(١) الدرر السنية (١٥/ ٧٥).

النفس تحتاج إلى جهاد، يقول الله ﷻ: ﴿وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ﴾ [العنكبوت: ٦]، ويقول ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾ [العنكبوت: ٦٩]، معنى قوله ﷺ: ﴿جَٰهَدُوا۟ فِينَا﴾ أي: جاهدوا أنفسهم، وجاهدوا الكفَّار، وجاهدوا المنافقين، وجاهدوا العصاة، وجاهدوا الشَّيطان، فالآية عامَّة تشمل أنواع الجهاد، ومن ذلك جهاد النَّفس؛ لأنَّه سبحانه حذف المفعول ولم ينص عليه في الآية، حتَّى تعمَّ جميع أنواع الجهاد، فالنَّفس تحتاج إلى تربية وعناية وصبر وجهاد، كما يقول الشاعر:

وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى ... فإن أطعمت تاقت وإلا تسلت

ويقول الآخر:

والنفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا ترد إلى قليل تقنع

وقال الآخر:

والنفس كالطفل إن تهمله شب على ... حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

هذه ثلاثة أبيات جيِّدة مطابقة لأحوال النَّفس. فالمؤمن الحازم هو الَّذي يجاهد نفسه لله، حتَّى تستقيم على الطريق، وتقف عند الحدود، وبذلك يهديه الله سبيله القويم، وصراطه المستقيم، ويكون المؤمن بذلك من المحسنين، الذين قال فيهم سبحانه: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال فيهم ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [النحل: ١٢٨][1].

---

(١) مجموع فتاوى ومقالات متنوعة (٦/ ٣٥٢ ـ ٣٥٣).

الخاتمة

الحَمدُ للَّهِ، ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ذِي ٱلطَّوۡلِۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ إِلَيۡهِ ٱلۡمَصِيرُ ۝٣﴾ [غافر: ٣]، عليه توكلت وإليه متاب.

أَيُّهَا الأَخُ العَانِي المُتعَبُ، الَّذي أَثقَلَت ظَهرَهُ الخَطَايَا وَالذُّنُوبُ، إِيَّاكَ أَعنِي وَإِلَيكَ أُوَجِّهُ القَولَ، إِنَّ بَابَ التَّوبَة مَفتُوح.

جَلسَةٌ من جَلَسَاتِ المُنَاجَاةِ فِي السَّحَرِ، وَقَطرَةٌ مِن دُمُوعِ الأَسَفِ وَالنَّدَمِ، وَكَلِمَةُ الاستِغفَارِ وَالإِنَابَةِ يَمحُو اللَّهُ بِهَا زَلَّتَكَ، وَيُعلِي دَرَجَتَكَ، وَيَقبَلُ بِفَضلِهِ تَوبَتَكَ، وَتَكُونُ عِندَهُ مِنَ المُقَرَّبِين. ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢].

مَا أَقرَبَ رَبَّكَ إِلَيكَ وَأَنتَ لا تُدرِكُ قُربَهُ!

وَمَا أَحَبَّكَ إِلَى مَولاكَ وَأَنتَ لا تُقَدِّرُ حُبَّهُ!

وَمَا أَعظَمَ رَحمَتَهُ بِكَ، وَأَنتَ مَعَ ذَلِكَ مِنَ الغَافِلِينَ!

أَيُّهَا الأَخُ العزيزُ: إِذَا كَانَ الحَقُّ ﷻ أَرحَمَ بِالعَبدِ مِن أُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَهُوَ أَرحَمُ الرَّاحِمِينَ، فَكَيفَ لا يُقبِلُ العَبدُ عَلَى طَاعَتِهِ، وَيُقلِعُ عَن مَعصِيَتِهِ، وَيُقَدِّمُ بَينَ يَدَيهِ مَا يَعُودُ نَفعُهُ عَلَيهِ؟! وَقَد قَالَ ﷻ فِي كِتَابِهِ العَزِيزِ: ﴿وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِۗ﴾ [البقرة: ١١٠].

مَا أَحوَجَنَا فِي هَذِهِ اللَّحظَةِ، أَن نُحَاسِبَ أَنفُسَنَا عَلَى المَاضِي وَعَلَى المُستَقبَلِ، مِن قَبلِ أَن تَأتِيَ سَاعَةُ الحِسَابِ، وَإِنَّهَا لآتِيَةٌ.

نُحَاسِبُ أَنفُسَنَا عَلَى المَاضِي، فَنَندَمُ عَلَى الأَخطَاءِ، وَنَستَقِيلُ العَثَرَاتِ، وَنُقَوِّمُ

المُعوَجَّ، وَنَستَدرِكُ مَا فَاتَ، وَفِي الأَجَلِ بَقِيَّةٌ، وَفِي الوَقتِ فُسحَةٌ لِهَذَا الاستِدرَاكِ.

وَنُحَاسِبُ أَنفُسَنَا عَلَى المُستَقبَلِ، فَنُعِدُّ لَهُ عُدَّتَهُ مِنَ القَلبِ النَّقِيِّ، وَالسَّرِيرَةِ الطَّيِّبَةِ، وَالعَمَلِ الصَّالِحِ، وَالعَزِيمَةِ المَاضِيَةِ السَّبَّاقَةِ إِلَى الخَيرَاتِ.

وأخيرًا اجتَهِد ـ بَارَكَ اللَّهُ فِيكَ ـ عَلَى أَن تَنَامَ عَلَى تَوبَةٍ نَصُوحٍ، فَإِن مِتَّ مِن لَيلَتِكَ مِتَّ عَلَى تَوبَةٍ، وَإِنِ استَيقَظتَ استَيقَظتَ مُستَقبِلًا لِلعَمَلِ مَسرُورًا بِتَأخِيرِ الأَجَلِ، وَلَيسَ لَكَ أَنفَعُ مِن هَذِهِ النَّومَةِ، لا سِيَّمَا إِذَا عَقَّبتَ ذَلِكَ بِذِكرِ اللَّهِ تَعَالَى وَاستِعمَالِ السُّنَنِ الَّتِي وَرَدَت عَن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عِندَ النَّومِ.

اللَّهمَّ وَفِّقنَا لِلتَوبَةِ النَّصُوحِ الَّتِي تَمحُو بِهَا مَا سَلَفَ مِن ذُنُوبِنَا، وَيَسِّرنَا لِليُسرَى، وَجَنِّبنَا العُسرَى، واجعلنا ممَّن ذُكِّرَ فانتَفَعَ بِالذِكرَى، وَاغفِر لَنَا وَلِوَالِدَينَا وَلِجَمِيعِ المُسلِمِينَ فِي الآخِرَةِ وَالأُولَى، بِرَحمَتِكَ يَا أَرحَمَ الرَّاحِمِينَ.

وقفات
قبل الفوات

تأليف
عبد الهادي بن حسن وهبي

تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدمة

إنَّ الحمد للَّه نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، منْ يهدِهِ الله فلا مضلَّ له، ومنْ يضلل فلا هادي له. وأشهد أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله.

أمَّا بعد: فإنَّ خير الكلام كلام اللَّه، وأحسن الهدي هدي محمَّد ﷺ، وشرَّ الأمور محدثاتها، وكلَّ محدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النار.

أمَّا بعد: فإنَّ الْعَبْدَ ضَعِيفٌ، وَالزَّمَانَ صَعْبٌ، والمُعينَ قَلِيلٌ، وَالشُّغْلَ كَثِيرٌ، وَالْعُمْرَ قَصِيرٌ، وَفي الْعَمَلِ تَقْصِيرٌ، وَالأَجَلُ قَرِيبٌ، وَالسَّفَرُ بَعِيدٌ، وَالطَّاعَةُ هِيَ الزَّادُ فَلا بدَّ منها؛ فَمَنْ ظَفِرَ بِهَا فَقَدْ فَازَ وَسَعِدَ أَبَدَ الآبِدِينَ، وَمَنْ فَاتَهُ ذَلِكَ فقد خَسِرَ مَعَ الْخَاسِرِينَ، وَهَلَكَ مَعَ الْهالِكِينَ.

ولقد وفَّقني الله تعالى لجمع هذه الرسالة لتكونَ باعثًا على اغتنام الأوقات بالباقيات الصَّالحات.

أسألُ اللهَ الحيَّ القيُّوم ذا الجلال والإكرام أنْ ينفع بها، إنَّه سميعٌ مجيبٌ.

الراجي عفو ربِّه

عبد الهادي بن حسن وهبي

تحميل كتب و رسائل علمية
قناة عامة
معلومات
t.me/tahmilkutubwarosaililmiyah
رابط الدعوة
الإشعارات
معطّلة

وقفات قبل الفوات

احذر طول الأمل

اعلمْ رحمكَ اللَّه بأنَّ طولَ الأمَلِ عائقٌ عنْ كلِّ خيرٍ وطاعةٍ، جالبٌ لكلِّ شَرٍّ وفتنةٍ، داءٌ عضالٌ يوقعُ الخلقَ في أنواعِ البَلِيَّاتِ. وَاعْلَمْ أنَّكَ إذَا طَالَ أمَلُكَ هَاجَ لَكَ مِنْهُ أرْبَعَةُ أَشْيَاءَ:

أَحَدُها: تَرْكُ الطَّاعَةِ وَالكَسَلُ فِيها، تَقُولُ: سَوْفَ أَفْعَلُ وَالأيَّامُ بَيْنَ يَدَيَّ، وَلا يَفُوتُنِي ذلِكَ.

الثَّاني: تَرْكُ التَّوْبَةِ وَتَسْوِيفُها، تَقُولُ: سَوْفَ أتُوبُ، وَفي الأيَّامِ السَّعَةُ وَأنا شابٌّ، وَالتَّوْبَةُ بَينَ يَدَيَّ، وَأنا قَادرٌ عَلَيها مَتَى رُمْتُها، وَرُبَّمَا اغتَالَهُ الْحِمامُ عَلى الإصْرَارِ، وَاخْتَطَفَهُ الأَجَلُ قَبْلَ إصْلاحِ الْعَمَلِ.

الثَّالثُ: الْحِرصُ عَلَى الْجَمْعِ وَالاشْتِغَالِ بِالدُّنيا عَنِ الآخِرَةِ.

الرَّابعُ: الْقَسْوَةُ في الْقَلْبِ والنِّسْيَانُ لِلآخِرَةِ، لأَنَّكَ إذَا أَمَّلْتَ الْعَيْشَ الطويلَ، لا تَذْكُرُ المَوْتَ والْقَبْرَ، وإنَّما رِقَّةُ الْقَلْبِ وَصَفْوَتُهُ بِذِكْرِ المَوْتِ وِالقَبْرِ، وَالثَّوَابِ وَالْعِقَابِ وَأَحْوَالِ الآخِرَةِ.

عن أنسٍ ﷺ قال: قال رسولُ اللَّه ﷺ: «كنتُ نهيتُكم عن زيارةِ القبورِ ألا فزُورُوها فإنَّها تُرِقُّ القلبَ، وتُدمِعُ العينَ، وتذكِّرُ الآخرةَ»[1].

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (١/ ٣٧٦) (١٣٩٣)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح الجامع» (٤٥٨٤).

وَإِذا لَمْ يَكُنْ شَيءٌ مِنْ ذلِكَ فَمِنْ أَيْنَ يَكُونُ لِقَلْبِكَ رِقَّةٌ وَصَفْوَةٌ؟! قالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحديد: ١٦].

فإِذَا أَنْتَ إِذَا طَوَّلْتَ أَمَلَكَ، قَلَّتْ طَاعَتُكَ، وَتَأَخَّرَتْ تَوْبَتُكَ، وَكَثُرَتْ مَعْصِيتُكَ، وَاشْتَدَّ حِرْصُكَ، وَقَسَا قَلْبُكَ، وَعَظُمَتْ غَفْلَتُكَ عَنِ العَاقِبَةِ، فَذَهَبَتْ - وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ إِنْ لَمْ يَرْحَمِ اللَّهُ - آخِرَتُكَ؛ فَأَيُّ حالٍ أَسْوَأُ مِنْ هذهِ؟ وَأَيُّ آفَةٍ أَعْظَمُ مِنْ هذِهِ؟ وَكُلُّ هذَا بِسَبَبِ طُولِ الأَمَلِ.

واعْلَمْ أَنَّ ذِكْرَ المَوتِ، أعظمُ دواءٍ في إزالةِ الداءِ العضالِ الذي هو طولُ الأملِ. كفانا اللَّه والمؤمنين شرَّهُ. فَاحْتفِظْ بِهذِه الجُمْلَةِ، وَحَصِّلْهَا مُوَفَّقًا، فَإِنَّ الحَاجَةَ إِلَيهَا مَاسَّةٌ، وَدَعْ عَنْكَ تَضييعَ الْوقْتِ في القِيلِ والقَالِ،واللَّهو واللعب. وَاللَّهُ المُوَفِّق بفَضْلِهِ.

كن غريبا أو عابر سبيل

عن ابنِ عمرَ ﷺ قال: أخذ رسول اللَّه ﷺ ببعض جسدي وقال: «كنْ في الدنيا كأنَّكَ غريبٌ أو عابرُ سبيلٍ، وعدَّ نفسكَ منْ أهلِ القبورِ»(١).

وكان النَّبيُّ ﷺ يقول: «ما لي وما للدنيا، ما أنا في الدنيا إلَّا كراكبٍ استظلَّ تحتَ شجرةٍ ثمَّ راحَ وتركها»(٢).

وقال عليُّ بن أبي طالب ﷺ: «ارتحلت الدنيا مدبرةً، وارتحلت الآخرةُ مقبلةً، ولكلٍّ واحدةٍ منهما بنون، فكونوا منْ أبناءِ الآخرة، ولا تكونوا منْ أبناءِ الدنيا، فإنَّ اليوم عملٌ ولا حسابٌ، وغدًا حسابٌ ولا عملٌ»(٣).

أيُّها الغافلُ في ظلِّ نعيمٍ وسرورِ ... كنْ غريبًا واجعل الدنيا سبيلًا للعبور

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٣٣)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (١٩٠٢).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٧٧) وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (١٩٣٦).
(٣) أخرجه البخاري (١١/ ٢٣٩) معلقاً مجزوماً به. وانظر الكلام على هذا الأثر في الفتح (١١/ ٢٤٠ - ٢٤١).

واعدد النفس طوال الدهر من أهل القبور وارفض الدنيا ولا تركن إلى دار الغرور

وكيفَ لا يكونُ العبدُ في هذه الدارِ غريبًا، وهو على جناحِ سفرٍ، لا يحلُّ عنْ راحلتهِ إلَّا بينَ أهلِ القبورِ؟ فهوَ مسافرٌ في صورةِ قاعد، وقد قيل:

وما هذهِ الأيامُ إلَّا مراحلُ يحثُّ بها داعٍ إلى الموتِ قاصدُ
وأعجبُ شيءٍ لو تأمَّلتَ أنَّها منازلُ تُطوى والمسافرُ قاعدُ

وقالَ القائلُ:

وما المرءُ إلَّا راكبٌ ظهرَ عُمُرهِ على سفرٍ يطويهِ باليومِ والشهرِ
يبيتُ ويصبحُ كلَّ يومٍ وليلةٍ بعيدًا عنِ الدنيا قريبًا مِنَ القبرِ

وللَّه درُّ القائل:

نسيرُ إلى الآجالِ في كلِّ لحظةٍ وأيَّامنا تُطوى وهنَّ مراحلُ
ترحَّل من الدُّنيا بزادٍ مِنَ التُّقى فعمُرُكَ أيَّامٌ وهنَّ قلائلُ

وقال القائل:

حتَّى متى نحنُ والأيام نحسِبُها وإنَّما نحنُ فيها بينَ يومينِ
يومٌ تولَّى ويومٌ أنت تأملُهُ لعلَّهُ أجلبُ الأيامِ للحينِ

فالكيِّسُ الفطنُ هو الذي يجعل كلَّ مرحلةٍ نصبَ عينيهِ فيهتمُّ بقطعهَا سالمًا من السيئات والخطيئات غانمًا من الباقياتِ الصالحات، فإذا قطعها استقبلَ المرحلةَ الأخرى منْ عمره كذلك. فلا يزالُ هذا دأبهُ حتى يطوي مراحلَ عمره كلّها.

اغتنم الصحة والفراغ

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «نعمتانِ مغبونٌ فيهما كثيرٌ مِنَ النَّاسِ: الصحةُ والفراغُ»[1]. أي: ذو خسرانٍ فيهما كثيرٌ مِنَ النَّاسِ.

فمن استعملَ فراغَهُ وصحَّتهُ في طاعةِ اللَّه فهو المغبوط، ومن استعملَهُما في

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٢).

معصيةِ اللَّه فهو المغبونُ، لأنَّ الفراغَ يعْقُبُهُ الشُّغلُ، والصحةَ يَعْقُبُهَا السَّقم، ولو لم يكنْ إلَّا الهرمُ لكفى.

قال القائلُ:

يسرُّ الفتى طولَ السلامةِ والبقا ... فكيفَ ترى طولَ السلامةِ يفعلُ

يردُّ الفتى بعدَ اعتدالٍ وصحةٍ ... ينوء إذا رامَ القيامَ ويُحْمَلُ

وللَّه درُّ القائلِ:

إنَّ في الموتِ والمعادِ لشغْلاً ... وادِّكارًا لذي النُّهى وبلاغا

فاغتنم نعمتينِ قبلَ المنايا ... صحةَ الجسمِ يا أخي والفراغا[1]

وقالَ القائلُ:

اغتنم في الفراغِ فضلَ ركوعٍ ... فعسى أن يكونَ موتُكَ بغتهْ

كمْ صحيحٍ ماتَ منْ غيرِ سُقمٍ ... ذَهبتْ نفسُهُ الصَّحيحةُ فلتهْ[2]

عن ابن عباس ﷺ قالَ: قالَ رسولُ اللَّه ﷺ لرجلٍ وهو يعظهُ: «اغتنمْ خمسًا قبلَ خمسٍ: شبابَكَ قبلَ هرمكَ، وصحتكَ قبلَ سقمكَ، وغناكَ قبلَ فقركَ، وفراغكَ قبلَ شغلكَ، وحياتكَ قبلَ موتكَ»[3].

انظر أيُّها المتأمِّلُ في هذهِ الموعظةِ البليغةِ، المستقلَّة بالمعاني الجمَّةِ الجليلةِ، واغتنم أوقاتكَ النفيسة بطاعة ربِّ البرية ﷻ.

وللَّه درّ القائل:

تفكَّر قبلَ أنْ تندمْ ... فإنَّكَ ميِّتٌ فاعلَمْ

ولا تغترَّ بالدّنيا ... فإنَّ صحيحها يَسْقَمْ

وإنَّ جديدَهَا يبلى ... وإنَّ شبابَهَا يهرَمْ

---

(١) العاقبة (ص٧٩).

(٢) اقتضاء العلم العمل (ص١٥٦).

(٣) أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٠٢٤٨)، وصححه الألباني ﷺ في «صحيح الجامع» (١٠٧٧).

وقال القائل:

وما حالاتنا إلَّا ثلاثٌ ... شبابٌ ثمَّ شيبٌ ثمَّ موتُ

وآخرُ ما يُسمَّى المرءُ شيخًا ... ويتلوه مِنَ الأسماءِ مَيْتُ[1]

فينبغي للعاقلِ في حالِ الصحةِ أنْ يغتنمَ الفُرصَةَ، حَتَّى إِذَا مَرِضَ كُتِبَ لهُ عَمَلُهُ في الصحَّةِ، وأنْ يَحْرِصَ مَا دَامَ مُقِيمًا عَلَى كَثْرَةِ الأعْمَالِ الصَّالِحةِ، حَتَّى إِذَا سَافَرَ كُتِبَ لَهُ مَا كَانَ يَعْمَل في الإقَامَةِ[2].

عَنْ أبي مُوسَى الأشعَريِّ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسول اللَّه ﷺ: «إِذَا مَرِضَ العَبْدُ أَوْ سَافَرَ، كُتِبَ لَهُ مِثْلُ مَا كَانَ يَعْمَلُ مُقِيمًا صَحِيحًا»[3].

القبر صندوق العمل

عن البراء ببن عازب ﷺ قال: كنا مع رسول اللَّه ﷺ في جنازة، فجلس على شفير القبر، فبكى حتى بلَّ الثرى ثم قال: «يا إخواني لمثل هذا فأعدُّوا»[4].

وعن أنسٍ ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «يتبع الميِّت ثلاثةٌ؛ فيرجعُ اثنانِ ويبقى معهُ واحدٌ: يتبعهُ أهلهُ ومالهُ وعملهُ، فيرجعُ أهلهُ ومالهُ، ويبقى عملهُ»[5].

تزوَّد قرينًا منْ فعالكَ إنَّما ... قرينُ الفتى في القبرِ ما كانَ يفعلُ

وإنْ كُنتَ مشغولاً بشيءٍ فلا تكنْ ... بغيرِ الذي يرضى بهِ اللَّهُ تُشْغَلُ

فلَن يصحَبَ الإنسانُ منْ بعدِ موتهِ ... إلى قبرهِ إلَّا الذي كانَ يعملُ

ألا إنَّما الإنسانُ ضيفٌ لأهلهِ ... يقيمُ قليلاً عندهم ثمَّ يرحلُ[6]

وللَّه درُّ القائل:

---

(١) لطائف المعارف (ص٥٣٩).

(٢) شرح رياض الصالحين للعلامة ابن عثيمين (٣/ ٢٢٧).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٩٦).

(٤) أخرجه ابن ماجه (٤١٩٥) وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيح الترغيب والترهيب (٣٣٣٨).

(٥) أخرجه البخاري (٦٥١٤)، ومسلم (٢٩٦٠).

(٦) جزء فيه الكلام على حديث: «يتبع الميِّت ثلاث» لابن رجب (ص٤٥).

يـا مـنْ بـدنـيـاه اشـتـغـل ... وغـرّه طـولُ الأمـل
الـمـوتُ يـأتـي بـغـتـةً ... والـقـبـرُ صـنـدوقُ الـعـمـل

وقال الشَّاعِرُ:

الـمـوتُ بـحـرٌ طـافـحٌ مـوجـهُ ... تـذهـبُ فـيـه حـيـلةُ الـسَّـابـحِ
يـا نـفـسُ إنـي قـائـلٌ فـاسـمـعِـيْ ... مَـقَـالَةً مِـنْ مُـشْـفِـقٍ نَـاصِـحِ
لا يَـصْـحَـبُ الإنـسـانَ فـي قَـبْـرِهِ ... غـيـرُ الـتُّـقَـى وَالـعـمـلِ الـصَّـالـحِ

اغتنم حياتك قبل موتك

اعلمْ ـ رحمكَ اللَّهُ ـ أنَّ الشيءَ الممكنَ وجودهُ لا يعرَفُ مقدارهُ على الحقيقةِ إلَّا إذا عدمَ وفقدَ، وطُلِبَ فلمْ يوجدْ، كما قالَ القائلُ:

مـرَّ الـشـبـابُ ولـمْ أقـدرْ أراجـعـه ... ولـم أحـيـيـه إلَّا بـعـدمـا انـصـرفـا
والمرءُ يجهلُ قدرَ الشيءِ يمكنهُ ... حـتَّـى إذا فـاتـهُ إمـكـانـهُ عـرفَـا

ألا ترى رحمكَ اللَّه أنَّ الصحة لا يعرف مقدارها على الحقيقة إلَّا المرضى، والعافية لا يعرفُ مقدارها إلَّا المبتلى، فكذلك الحياةُ لا يعرفُ مقدارها إلَّا الموتى، لأنَّهم قد ظهرت لهم الأمورُ، وانكشفت لهم الحقائقُ، وتبدت لهم المنازلُ، وعلموا مقدارَ الأعمال الصَّالحة، إذْ ليسَ ينفع هناك إلَّا عملٌ صالحٌ زكيٌّ، ولا يرتفعُ هناكَ إلَّا عبدٌ تقيٌّ، وكلَّما ازدادَ في الدنيا فضيلةً كانَ أقربَ إلى اللَّه وسيلةً.

فلمَّا استبانَ لهم ذلك، وعلموا مقدارَ ما ضيَّعوا، وقيمةَ ما فيه فرَّطوا ندموا وأسفوا، وودُّوا لو أنَّهم إلى الدنيا رجعوا[1] ليتوبوا ويجتهدوا في الطَّاعةِ، ولا سبيلَ لهم إلى ذلك. كمَا قالَ القائلُ:

لـو قـيـلَ لـلـقـومِ مـا مـنـاكـم طـلـبـوا ... حـيـاةَ يـومٍ لـيـتـوبـوا فـاعـلـمِ
ويـحـك يـا نـفـسُ ألا تـيـقـظُ ... يـنـفـعُ قـبـلَ أنْ تـزلَّ قـدمـي

(١) العاقبة (ص٢٠٢).

مضى الزمانُ في توانٍ وهوًى فاستدركي ما قدْ بقي واغتنمي

فلو وجدتْ ذرَّةٌ منْ تلكِ الأحوالِ في أوانِ العافيةِ، حصلَ كلُّ مقصودٍ مِنَ العملِ بالتقوى.

فانتهز يا أخي فرصةَ الزمانِ، قبلَ تعذُّرِ الإمكانِ، قبلَ أنْ تنقلَ من اسمِ ما زالَ إلى خبر كانَ، قبلَ أنْ يأتيَ يومٌ يدومُ فيهِ النَّدمُ لمنْ زلتْ بهِ القدمُ، قبلَ أنْ يقولَ المذنبُ: ربِّ ارجعون. فيقال: فات. كانَ ما كانَ وأتى ما هو آت.

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ [المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠٠].

وقال ﷻ: ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠﴾ وَلَن يُؤَخِّرَ ٱللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَآءَ أَجَلُهَا ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾﴾ [المنافقون: ١٠ ـ ١١].

البدارَ البدارَ قبلَ الفواتِ، والحذارَ الحذارَ قبلَ الموتِ، ما في المقابرِ من دفينٍ إلَّا وهوَ متألمٌ منْ سوفَ.

الدنيا مزرعة الآخرة

إنَّ الإنسانَ يزرعُ بقوله وعملهِ الحسناتِ والسَّيِّئاتِ، ثمَّ يحصُدُ يومَ القيامةِ ما زرعَ، فمن زرعَ خيرًا من قولٍ أو عملٍ، حصدَ الكرامةَ، ومن زرع شرًا من قولٍ أو عملٍ، حصدَ غدًا النَّدامةَ[1].

وللَّه درُّ القائل:

غدًا توفَّى النفوسُ ما كسبتْ ويحصُدُ الزَّارعونَ ما زرعوا

إن أحسنوا أحسنوا لأنفسهم وإنْ أساؤوا فبئسَ ما صنعُوا[2]

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/ ١٤٧).

(٢) لطائف المعارف (ص٣٧٥).

وقال القائل:

منْ فاتهُ الزرعُ في وقتِ البذارِ فما ... تراهُ يحصُدُ إلَّا الهمَّ و النَّدما[1]

عن جابرٍ ﷺ: عن النَّبيِّ ﷺ قال: «منْ قالَ سبحان اللَّه العظيم وبحمده، غرستْ لهُ نخلةٌ في الجنَّة»[2].

فكم يضيِّع الآدميُّ منْ ساعاتٍ يفوتهُ فيها الثوابُ الجزيلُ! وهذهِ الأيامُ مثل المزرعةِ، فهلْ يجوزُ للعاقلِ أنْ يتوقف في البذرِ ويتوانى؟!

وعن ابنِ مَسْعُودٍ ﷺ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّه ﷺ: «لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي فقالَ يا مُحَمَّدُ: أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلامَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الْجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ، عَذْبَةُ المَاءِ، وَأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللَّهِ، والْحَمْدُ للهِ، وَلاَ إِلهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاللَّهُ أَكْبَرُ»[3].

أوَ ما سمعتَ بأنها القيعانُ فاغـ ... ـرسْ ما تشاءُ بذا الزمانِ الفاني

وغِراسُها التسبيحُ والتكبيرُ والتـ ... ـحميدُ والتوحيدُ للرحمنِ

تَبًّا لتاركِ غرسِه ماذا الذي ... فاتَهُ مِنْ مُدَّةِ الإمْكَانِ

يا منْ يُقِرُّ بذا ولا يَسْعَى لهُ ... باللَّهِ قُلْ لي كيفَ يجتمعانِ

أرأيتَ لو عَطَّلْتَ أَرْضَكَ من غِرا ... سٍ ما الذي تَجْنِي من البُسْتَانِ

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: السنَةُ شجرةٌ، والشُّهورُ فروعُها، والأَيَّامُ أَغصانُها، والساعاتُ أَوراقُها، والأَنفاسُ ثمرُها؛ فمن كانتْ أَنفاسُه في طاعةٍ: فثمرةُ شجرتِهِ طيِّبةٌ، ومَنْ كانت في معصيةٍ: فثمرتُهُ حنظلٌ، وإِنَّما يكونُ الجَدَادُ[4] يومَ المعادِ، فعندَ الجَدادِ يتبيَّنُ حلوُ الثمارِ من مُرِّها.

فنافسوا في اقتناءِ النفائسِ، فإنَّما يجني أحدكم ما هو اليومَ غارسٌ.

---

(١) لطائف المعارف (ص٣٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٤٦٤)، وابن حبان (٨٢٦)، والحاكم (١/ ٥٠١ ـ ٥٠٢) وصححه ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه الترمذي (٣٤٦٢)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن الترمذي» (٢٧٥٥).

(٤) قطف الثمر.

الأعمال بالخواتيم

عنْ سهلِ بنِ سعدٍ ﷺ، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «...إنَّما الأعمالُ بخواتيمها»[1].

عنْ معاويةَ ﷺ قال: سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول: «إنَّما الأعمالُ كالوعاءِ، إذا طابَ أسفله طابَ أعلاهُ، وإذا فسدَ أسفلهُ فسدَ أعلاهُ»[2].

العمرُ بآخرهِ، والعملُ بخاتمتهِ.

منْ أحدثَ قبلَ السَّلامِ بَطلَ ما مضى منْ صلاتهِ، ومنْ أفطرَ قبلَ غروبِ الشمسِ ذهبَ صيامُهُ ضائعًا، ومنْ أساءَ في آخرِ عمرهِ لقيَ ربَّهُ بذلكَ الوجه.

ما أصعبَ الانتقالَ منَ البصرِ إلى العمى، وأصعبُ منهُ الضلالةُ بعدَ الهدى، والمعصيةُ بعدَ التُّقى. كمْ منْ شارفَ مركبهُ ساحلَ النَّجاةِ، فلمَّا همَّ أنْ يرتقيَ لَعِبَ بهِ موجُ الهوى فغرِق. الخلقُ كلُّهم تحتَ هذا الخطر . قلوبُ العبادِ بينَ أصبعينَ من أصابعِ الرحمن يقلِّبها كيفَ يشاء.

ليسَ العجبُ ممَّنْ هلكَ كيفَ هلك إنَّما العجبُ ممَّنْ نجا كيفَ نجا

فكمْ رأينا وكم سمعنا ممَّن إذا لاحَ فجرُ أحدهم فجرَ، وإذا أوشكتْ على المغيبِ شمسُ صيامهِ أفطر. نسألكَ اللَّهمَّ العافية.

نسأل اللَّه الحي القيّوم ذا الجلال والإكرام، أن يوفِّقنا لما يحبُّ ويرضى، ويختم لنا بخير في عافيةٍ؛ فإنَّه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين، آمين.

عبر وعظات

★ عنْ هانئ مولى عثمان قال: كان عثمانُ إذا وقفَ على قبرٍ بكى، حتَّى

---

(١) قطعة من حديث أخرجه البخاري (٦٤٩٣، ٦٦٠٧).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٤١٩٩)، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٣٨٥).

يَبُلَّ لحيتَهُ، فقيلَ لهُ: تذكرُ الجنَّةَ والنَّارَ، فلا تبكي وتبكي منْ هذا؟ فقال: إنَّ رسولَ اللَّهَ ﷺ قال: «إنَّ القبرَ أوَّلُ منزلٍ منْ منازلِ الآخرةِ، فإنْ نجا منهُ فما بعدهُ أيسرُ منهُ، وإنْ لمْ ينجُ منهُ فما بعدهُ أشدُّ منهُ». قال: وقال رسول اللَّه ﷺ: «ما رأيتُ منظرًا قطُّ إلاَّ والقبرُ أفظعُ منهُ»[1].

بكى عثمانُ وغيرُ عثمان، لأنَّهُ الأمرُ الذي يُبْكى عليهِ، ويُصْرَفُ الاهتمامُ كلُّهُ إليهِ. وهذا هو الذي قطعَ قلوبَ الخائفينَ، وأسالَ عبراتِ التائبينَ، وأسهرَ ليالي العابدين. ونحنُ في غفلةٍ عنْ هذا الأمرِ العظيم.

فإنْ تنجُ منها تنجُ منْ ذي عظيمةٍ ... وإلَّا فإنِّي لا إخالكَ ناجيًا

★ عن أبي بَكرَةَ عن أبيه: أنَّ رجلاً قال: يا رسول اللَّه أيُّ النَّاسِ خير؟ قال: «منْ طالَ عُمُرُهُ وحسنُ عملهُ» قال: فأيُّ النَّاسِ شرٌّ؟ قال: «منْ طالَ عمرهُ وساءَ عملهُ»[2].

إنَّ العبدَ على جناحِ سفرٍ؛ إمَّا إلى الجنَّةِ وإمَّا إلى النَّارِ، فإذا طالَ عمرُه وحَسُنَ عملُه كانَ طولُ سفرِه زيادةً له في حصولِ النَّعيم واللَّذةِ، وإذا طالُ عمرُهُ وساءَ عملُه كانَ طولُ سفرِه زيادةً في ألمِه وعذابِه، ونزولاً له إلى أسفلَ، فالمسافرُ إمَّا صاعدٌ وإمَّا نازلٌ.

فينبغي للمؤمنِ أنْ يكونَ طولُ عمرهِ زيادةً في عملهِ، كما قالَ النبي ﷺ: «... واجعل الحياةَ زيادةً لي في كلِّ خير ...»[3].

★ عن ابنِ مسعودٍ ﷺ قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «الجنَّةُ أقْربُ إلى أحدكمْ منْ شراكِ نعلهِ، والنَّارُ مثلُ ذلك»[4].

والمعنى: أنَّ الطاعةَ موصلةٌ إلى الجنَّةِ، والمعصيةَ مقرِّبةٌ إلى النَّارِ، وأنَّ الطاعةَ والمعصيةَ قدْ تكون في أيسرِ الأشياءِ. فينبغي للمرءِ أنْ لا يزهدَ في قليلٍ من

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٤٢٤)، وحسنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن الترمذي» (١٨٧٨).
(٢) أخرجه الترمذي (٢٣٣٠)، وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في «صحيح سنن الترمذي» (١٨٩٩).
(٣) قطعة من حديث: أخرجه مسلم (٢٧٢٠)، عن أبي هريرة ﷺ.
(٤) أخرجه البخاري (٦٤٨٨).

الخيرِ أنْ يأتيهُ، ولا في قليلٍ من الشَّر أنْ يجتنبَهُ، فإنَّهُ لا يعلمُ الحسنةَ التي يرحمهُ اللَّهُ بها، ولا السيئةَ التي يسخطُ عليهِ بها[1].

★ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «ما رأيتُ مثلَ النَّارِ نامَ هاربها، ولا مثلَ الجنَّةِ نامَ طالبها»[2].

يعني: النارُ شديدةٌ والخائفونَ منها نائمونَ غافلونَ. وليسَ هذا طريقُ الهاربِ، بلْ طريقهُ أن يهرول مِنَ المعاصي إلى الطاعات. والجنَّةُ فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ، والعاملونَ لها نائمونَ غافلونَ.

★ عنْ سهلِ بن سعدٍ ﷺ قال: جاءَ جبريلُ عليه السلام إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: «يا محمَّد عشْ ما شئتَ فإنَّكَ ميِّتٌ، واحببْ منْ أحببت فإنَّكَ مفارقهُ، واعملْ ما شئتَ فإنَّكَ مجزيٌّ بهِ. ثمَّ قال: يا محمَّد شرفُ المؤمنِ قيامُ الليلِ، وعزُّهُ استغناؤهُ عن النَّاس»[3].

انظر أيها المتأمِّلُ في هذا الكلام الجامع، وانتهز الفرصةَ كيلا تندم. ونِعْمَ ما قالَ منْ قال:

إذا هبتْ رياحكَ فاغتنمها ... فإنَّ لكلِّ خافقةٍ سكونُ

ولا تغفل عَنِ الإحسانِ فيها ... فما تدري السكون متى يكون[4]

ومن أخَّر الفرصةَ عنْ وقتها، فليكنْ على ثقةٍ منْ فوتها.

فالبِدَارَ البِدَارَ قبلَ فواتِ الأوانِ وضياعِ الفُرَصِ.

قال الشاعرُ:

بَادِرْ بخيرٍ إذا ما كُنتَ مُقْتَدِرًا ... فليسَ في كُلِّ وقتٍ أنتَ مُقْتَدِرُ

★ اعلم أنَّك في ميدان سباقٍ، والفرصُ تمرُّ مرَّ السَّحابِ، ولا تخلد إلى

---

(١) فتح الباري (١١/ ٣٢٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٢٦٠١)، وحسَّنه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن الترمذي» (٢٠٩٧).

(٣) أخرجه الحاكم (٤/ ٣٢٤ ـ ٣٢٥) (٧٩٢١)، وحسَّنه الألبانيُّ رحمه الله في «صحيح الجامع» (٧٣).

(٤) الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٢٤٦).

كسلٍ. فما فاتَ ما فاتَ إلاَّ بالكسلِ، ولا نَال منْ نَال إلاَّ بالجدِّ والعزم.

عن أبي هريرة ﷺ قال: كانَ رسولُ اللَّه ﷺ يسيرُ في طريقِ مكةَ، فمرَّ على جبلٍ يقال له: جُمْدان، فقال: «سيروا هذا جُمْدَانُ سبقَ المفرِّدون» قالوا: وما المفرِّدون يا رسول اللَّه! قال: «الذَّاكرونَ اللَّه كثيرًا والذَّاكرات»(١).

★ الموفَّقُ منْ إذا تلمَّحَ قصرَ الموسمِ المعمولِ فيهِ، وامتدادَ زمانِ الجزاءِ الذي لا آخرَ لهُ؛ أورثهُ ذلكَ الجدَّ والاجتهادَ، وانتهبَ حتَّى اللحظة، وزاحمَ كلَّ فضيلةٍ، فإنَّها إذا فاتتْ فلا وجهَ لاستدراكها، أوَ ليسَ في الحديث: «يُقالُ لصاحبِ القرآنِ: اقْرأْ وارْتقِ ورتِّلْ كما كنتَ ترتِّلُ في الدّنيا، فإنَّ منزلَكَ عندَ آخرِ آيةٍ تقرؤها»(٢)؟! فلو أنَّ الفكرَ عَمِلَ في هذا حقَّ العملِ، حفظَ القرآنَ عاجلاً.

★ الدنيا كلُّها قليلٌ، والذي بقيَ منها قليلٌ، والذي لكَ مِنَ الباقي قليلٌ، ولم يبق منْ قليلكَ إلاَّ القليل، وقدْ أصبحتَ في دارِ العزاءِ، وغدًا تصيرُ إلى دارِ الجزاءِ، فاشترِ نفسكَ لعلك تنجو.

★ أنتَ مطلوب، ولكَ ذنوب وما تتوب، وشمسُ الحياةِ قدْ تدلَّتْ للغروب، فما أقسى قلبكَ منْ بينِ القلوب، وقد أتاك ما يصدعُ الحديد: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾ [ق: ٣٠].

★ أيُّهَا المغرورُ بالدنيا انتبه ... إنَّها حالٌ ستفنى وتحولُ
واجتهد في نيلِ مُلكٍ دائم ... أيُّ خيرٍ في نعيمٍ سيزولُ
لو عقلنا ما ضحكنا لحظةً ... غير أنَّا فقدت مِنَّا العقول

★ وجدَّ وسارعْ واغتنم زمن الصِّبا ... ففي زمنِ الإمكانِ تسعى وتغنمُ
وسرْ مسْرعًا فالسَّير خلفكَ مسرعًا ... وهيهاتَ ما منهُ مفرٌّ ومهزَمُ
فهنَّ المنايا أيَّ وادٍ نَزَلتهُ ... عليها القدومُ أو عليكَ ستقدُمُ

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٦).

(٢) أخرجه أبو داود (١٤٦٤) من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ، وصححه الألباني رحمه الله في «صحيح سنن أبي داود» (١٣٠٠).

★ قدْ بلغَ مركبكَ ساحلَ الأجلِ، وقاربتْ شمسُ عمركَ مِنَ الغروبِ، وبقيَ منْ ضوءِ الأجلِ شفقٌ، فاستدركْ باقي الشعاعِ قبلَ غروبِ الشمسِ.

فكيف قرَّت لأهل العلم أعينهم ... أو استلذوا لذيذَ النَّومِ أو هجعوا
والموتُ جهرًا علانيةً ينذرهم ... لو كانَ للقومِ أسماعٌ لقدْ سمعوا
والنَّار ضاحيةٌ لا بدَّ موردها ... وليسَ يدرونَ منْ ينجو ومنْ يقعُ

ومنْ تأمَّلَ هذا حقَّ التأمُّلِ أوجبَ لهُ القلق. فإنَّ ابن آدمَ متعرِّضٌ لأهوالٍ عظيمةٍ من الموتِ والقبرِ وأهوالِ البرزخِ وأهوالِ الموقفِ، كالصراطِ والميزانِ. وأعظمُ منْ ذلكَ الوقوفُ بينَ يدي اللَّه ﷻ ودخول النَّار، ويخشى على نفسهِ الخلودَ فيها بأنْ يُسْلَبَ إيمانهُ عندَ الموت، ولمْ يأمن المؤمنُ شيئًا من هذه الأمور ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]. فتحقُّقُ هذه الأمور يمنعُ ابن آدم القرار[1].

★ يا غافلاً تتمادى ... غدًا عليكَ ينادى
هذا الذي لم يقدِّم ... قبلَ الترحُّلِ زادا

★ أخي المسلم: اذكرْ ساعةً ضاعتْ منكَ فكفى بها عظة، ذهبتْ لذَّةُ الكسلِ فيها، وفاتتْ مراتبُ الفضائلِ.

يا غافلاً عمَّا خُلِقتَ لهُ انتبه ... جدَّ الرَّحيلُ فلستَ باليقظانِ

★ عجبًا لقومٍ أمروا بالزادِ، ونوديَ فيهم بالرحيلِ، وحبسَ أولهم على آخرهم، وهم قعودٌ يلعبون.

★ كيفُ يفرحُ بالدنيا: منْ يومهُ يهدمُ شهرَهُ، وشهرهُ يهدمُ سنتهُ، وسنتهُ تهدمُ عمرهُ. كيفَ يفرحُ: منْ يقودهُ عمرهُ إلى أجلهِ، وحياتهُ إلى موتهِ؟![2]

إني خرجت مِنَ الدنيا وليس معي ... منْ كلِّ ما ملكتْ كفِّي سوى كفني
★ تزوَّد مِنَ التقوى فإنَّكَ لا تدري ... إذا جنَّ ليلٌ هلْ تعيشُ إلى الفجرِ

---

(١) المحجة في سير الدلجة لابن رجب (ص٩٩ ـ ١٠٠).
(٢) لطائف المعارف (ص٣٤٦).

فكم منْ فتًى يمسي ويصبحُ لاهيًا وقدْ نسجت أكفانهُ وهوَ لا يدري
وكم منْ صحيحٍ ماتَ منْ غيرِ علّةٍ وكمْ منْ سقيمٍ عاشَ حينًا منَ الدهرِ
وكمْ منْ صغارٍ يرتجى طولُ عمرهم وقدْ أدخلت أجسادهم ظلمةَ القبرِ

الدنيا دارُ الأشغالِ، والآخرةُ دارُ الأهوالِ، ولا يزالُ العبدُ متردِّدًا بينَ الأشغالِ والأهوالِ حتى يستقرَّ بهِ القرارُ؛ إمَّا إلى جنَّةٍ وإمَّا إلى نارٍ.

★ هذا الطائرُ إذا علمَ أنَّ الأنثى قدْ حملتْ أخذَ ينقلُ العيدان لبناءِ العشِّ قبلَ الوضعِ، أفتراكَ ما علمتَ قربَ رحيلكَ إلى القبرِ؟ فهلاَّ بعثتَ فراش: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم: ٤٤]؟![1]

★ عجبًا لعينٍ أمستْ باللّيلِ هاجعةً، ونسيتْ أهوالَ يوم الواقعة.

★ إذا كانَ العمرُ في إدبارٍ، والموتُ في إقبالٍ، فما أسرعَ الملتقى.

★ يا نائمًا في ليلِ الغفلةِ تيقظ، فقد لاحَ فجرُ الرحيلِ.

ألا لـلـمـوتِ كـأسٌ أيَّ كـأسِ وأنـتَ لـكـأسـهِ لا بـدَّ حـاسـي
إلـى كـمْ والـمـمـاتُ إلـى قـريـبٍ تُـذَكِّـرُ بـالـمـمـاتِ وأنـتَ نـاسـي
★ يا غافلَ القلبِ عنْ ذكرِ المنيَّاتِ عـمَّـا قـلـيـلٍ سـتـلـقـى بـيـنَ أمـواتِ
فـاذكـرْ محلَّكَ منْ قبلِ الحلولِ بهِ وتـبْ إلـى الـلّه مـنْ لـهـوٍ ولـذَّاتِ
إنَّ الـحِـمـامَ لـهُ وقـتٌ إلـى أجـلٍ فـاذكـرْ مـصـائـبَ أيَّـام وسـاعـاتِ
لا تـطـمـئـنَّ إلـى الـدنـيـا وزيـنـتـهـا قدْ آنَ للموتِ يـا ذا الـلُّـبِّ أنْ يأتي
اذكُـرِ الـمـوتَ هـادِمَ الّلذَّاتِ وتـهـيَّـأ لـمـصـرعٍ سـوفَ يـأتـي

★ يا هذا: الشيبُ أذانٌ، والموتُ إقامةٌ، ولستَ على طهارةٍ.

كـفـى مـؤذنًـا بـاقـتـرابِ الأجـل شـبـابٌ تـولَّى وشـيـبٌ نـزل

يا منْ كلَّما طالَ عمرهُ زادَ ذنبهُ. يا منْ كلَّما ابيضَّ شعرهُ بمرورِ الأيامِ، اسودَّ بالآثام قلبه.

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٣٢٧).

شيخٌ كبيرٌ لـه ذنوب تعجز عن حملها المطايا
قد بيَّضت شعره الليالي وسوَّدت قلبه الخطايا

منْ نزلَ بهِ الشَّيبُ فهو بمنزلةِ الحاملِ التي تمَّت شهورُ حملهَا، فما تنتظرُ إلَّا الولادة، كذلكَ صاحبُ الشيبِ لا ينتظرُ غيرَ الموتِ، فقبيحٌ منهُ الإصرارُ على الذنبِ.

★ أعظمُ الربحِ في الدُّنيا: أَنْ تَشغَلَ نفسَكَ كلَّ وقتٍ بما هو أَوْلى بها، وأَنفعُ لها في معادِها.

★ إذا أَنتَ لم ترحلْ بزادٍ مِنَ التُّقى وأبْصَرْتَ يومَ الحشرِ مَن قد تزوَّدا
ندمتَ على أَنْ لا تكونَ كمثلِه وأَنَّكَ لم تُرْصِدْ كما كانَ أرصدا

★ يا هذا عليكَ بالجدِّ والاجتهاد، وخلِّ الكسلَ والرُّقاد، فطريقكَ لا بدَّ لها منْ زاد.

جِدُّوا فإنَّ الأمرَ جِدُّ ولهُ أعِدُّوا واستعِدُّوا

★ ما مضى مِنَ الدنيا أحلامٌ، وما بقي منها أماني، والوقتُ ضائعٌ بينهما.

تولَّى العمرُ في سهوٍ وفي لهوٍ وفي خسرِ[1]

★ المبادرةَ المبادرةَ إلى اغتنامِ العملِ فيما بقيَ مِنَ العمر، فعسى أن يُستدركَ بهِ ما فاتَ منْ ضياعِ العمر.

★ أليس من الخسران أنَّ لياليًا تمرُّ بلا نفعٍ وَتحسَبُ من عُمري[2]

★ كمْ جاءَ الثوابُ يَسعى إليكَ فوقفَ بالبابِ، فردَّه بوَّابُ (سوفَ) و(لعلَّ) و(عسى)!

وساعةُ الذِّكرِ فاعلم ثروةٌ وغنى وساعةُ اللَّهوِ إفلاسٌ وفاقاتُ

★ يا طويلَ الأملِ في قصيرِ الأجلِ ! يا كثيرَ الزَّللِ في يسيرِ العملِ! خلا لكَ الزمانُ وما سددتَ الخللَ ! أفما عندكَ وجلٌ منْ هجومِ الأجلِ؟!

---

(١) لطائف المعارف (ص٣٥١).
(٢) لطائف المعارف (ص٥١٧).

★ إنَّا لنفرحُ بالأيّامِ نقطعهَا ... وكلُّ يومٍ مضى يُدني مِنَ الأجلِ
فاعملْ لنفسكَ قبلَ الموتِ مجتهدًا ... فإنَّما الرِّبحُ والخسرانُ في العملِ
★ إذا كنتُ أعلمُ عِلمًا يقينًا ... بأنَّ جميع حياتي كساعهْ
فَلِمَ لا أكونُ ضَنينًا بها ... وأجعلُهَا في صلاحٍ وطاعهْ
★ مضى أمسُكَ الماضي شهيدًا معدَّلاً ... وأعقبهُ يومٌ عليكَ جديدُ
فإنْ كنتَ بالأمسِ اقترفتَ إساءةً ... فثنِّ بإحسانٍ وأنتَ حميدُ
فيومُكَ إن أعقبتهُ عادَ نفعهُ ... عليكَ وماضي الأمسِ ليسَ يعودُ
ولا تُرْجِ فعلَ الخيرِ يومًا إلى غدٍ ... لعلَّ غدًا يأتي وأنتَ فقيدُ
★ يا مَنْ يعدُّ غدًا لتوبتهِ ... أعلى يقينٍ منْ بلوغِ غدِ
المرءُ في ذلكَ على أملٍ ... ومنيَّةُ الإنسانِ بالرصدِ
أيامُ عمركَ كلُّها عدد ... ولعلَّ يومَكَ آخرُ العددِ

★ ليسَ العجبُ مِنْ نائمٍ لمْ يعرِفْ قدْرَ ما مرَّ منْ يومِهِ، وإنَّما العجبُ مِنْ نائمٍ في يقظةِ عمرِهِ.

★ يا هذا مثِّلْ لنفسكَ صرعةَ الموتِ. ومَا قدْ عزمتَ أنْ تفعلَ وقتَ الأسرِ، فافعلهُ وقتَ الإطْلاقِ.

★ حاسبْ نفسكَ فالعمرُ محسوبٌ، وامحُ قبيحَكَ فالقبيحُ مكتوبٌ، واعجبًا لنائمٍ وهوَ مطلوبٌ، ولضاحكٍ وعليهِ ذنوبٌ.

★ يا مَنْ يذنبُ ولا يتوبُ، كم قد كتبتْ عَليكَ ذنوب؟! خلِّ الأمَل الكذوبَ، فربَّ شُروقٍ بلا غُروبٍ.

★ يا ثقيلَ النَّومِ أمَا تنبِّهكَ المزعجاتُ ! الجنَّةُ فوقك تزخرفُ، والنَّارُ تَحتَكَ تُوقَدُ، والقبرُ إلى جَانِبِكَ يُحْفَرُ، ورُبَّما يَكونُ الكفنُ قدْ غُزِلَ، أيقظانٌ أنتَ اليومَ أم أنك حالمٌ؟! يا حاضرًا يرى التائبينَ، وهوَ في عدادِ الغائبينَ.

واقفٌ في الماءِ عطشان ... ولكنْ ليسَ يسقي
يا ساهيًا لاهيًا عمَّا يرادُ بهِ ... آنَ الرحيلُ وما قدَّمْتَ منْ زادِ

ترجو البقاءَ صحيحًا سالمًا أبدًا هيهاتَ أنتَ غدًا فيمنْ غدا غادِ

★ ابكِ على نفسكَ قبلَ أنْ يُبكى عليكَ، وتفكَّر في سهم قد صُوِّبَ إليكَ، وإذا رأيتَ جِنازةً فاحسِبهَا أنتَ، وإذا عاينتَ قبرًا فتوهَّمْهُ قبركَ، وعدَّ باقي الحياةِ ربحًا.

ذهبَ العمرُ وفاتَ يا أسيرَ الشهواتِ
ومضى وقتكَ في لهوٍ وسهوٍ وسُباتِ
بينما أنتَ على غَيِّكَ حتَى قيلَ ماتَ

★ يا عبدَ اللَّه لا تؤخِّرِ التوبةَ؛ فإنَّ الموتَ يأتي بغتة.

قدِّم لنفسكَ توبةً مرجوَّةً قبلَ الممات وقبلَ حبسِ الألْسُنِ
بادرْ بهَا غلقَ النُّفوسِ فإنَّها ذخْرٌ وغنمٌ للمنيب المحسنِ[1]

أيامُ العافيةِ غنيمةٌ باردةٌ، وأوقاتُ السَّلامةِ لا تشبهُهَا فائدة، فتناولْ ما دامتْ لديكَ المائدةُ، فليستِ السَّاعاتُ الذاهباتُ بعائدةٍ.

قدْ كانَ عمركَ ميلًا فأصبحَ الميلُ شبرًا
وأصبحَ الشبرُ عقدًا فاحفرْ لنفسكَ قبرًا

★ يا مَنْ أنفاسُهُ محفوظة، وأعمالُهُ ملحوظة، أينفَقُ العُمرُ النفيسُ في نيلِ الهوى الخسيس؟!

جدَّ الزمانُ وأنتَ تلعبُ والعمرُ لا في شيءٍ يذهبُ
كمْ كمْ تقولُ غدًا أتوبُ غدًا غدًا والموتُ أقربُ

★ يا مغرورًا بطول الأمل! يا مسرورًا بسوءِ العمل! كنْ مِنَ الموتِ على وجل، فما تدري متى يهجُمُ الأجل؟![2]

كلُّ امرئٍ مصبَّحٌ في أهلهِ والموتُ أدنى منْ شراكِ نعلهِ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٦/٥).
(٢) لطائف المعارف (ص٢٦٨).

★ كمْ منْ مستقبلٍ يومًا لا يستكملهُ، ومنْ مؤَملٍ غدًا لا يدركهُ[1].

★ كم ممنْ راحَ في طلبِ الدنيا أو غدا أصبحَ منْ سكانِ القبورِ غدًا[2].

★ عجبًا لمن أيقن بالموتِ كيف يفرحُ ! عجبًا لمنْ أيقن بالنَّارِ كيفَ يضحكُ!

★ العجبُ كلُّ العجبِ منْ غفلةِ منْ تُعَدُّ عليهِ لحظاتهُ، وتُحصى عليه أنفاسهُ، ومطايا الليلِ والنَّهارِ تسرعُ بهِ، ولا يتفكرُ إلى أينَ يحمل، ولا إلى أيِّ منزلٍ يُنقل؟

وكيفَ تنامُ العينُ وهي قريرةٌ ... ولمْ تدرِ في أيِّ المحلينِ تنزلُ؟

★ أُؤَمِّلُ أن أخلَّدَ والمنايا ... تدورُ عليَّ منْ كلِّ النَّواحي

وما أدري وإنْ أمسيتُ يومًا ... لعلِّي لا أعيشُ إلى الصَّباحِ

★ إنَّ للَّه عبادًا فُطَنا ... طلَّقوا الدنيا وخافوا الفتنا

نَظَرُوا فيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا ... أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحيٍّ وَطَنَا

جَعَلُوهَا لُجَّةً وَاتَّخَذُوا ... صَالِحَ الأَعْمَالِ فيها سُفُنا

★ السعيدُ منْ وُعِظَ بغيرهِ، وإنَّما هي ساعةٌ واحدةٌ وإنْ طالَ المدى وامتدَّ العمر واتَّصلت الأيامُ، كمَا قالَ القائل:

وإنَّما عمركَ المرجى ... هذا الذي نلتهُ كساعة[3]

★ انتبه يا مسكينُ قبلَ المماتِ، وحسِّنِ القولَ والعملَ، فقد قربَ الأجلُ[4]، للَّهِ الأمرُ منْ قبلُ ومنْ بعدُ، ولا حولَ ولا قوة إلاَّ باللَّه العلي العظيم.

---

(١) لطائف المعارف (ص٢٦٨).

(٢) لطائف المعارف (ص٢٦٨).

(٣) العاقبة (ص٢٠٤).

(٤) الذيل على طبقات الحنابلة (٤/ ٢١٠ ـ ٢١١).

الخاتمة

الحمد للّه الذي هدانا لهذا وما كنّا لنهتديَ لولا أنْ هدانا اللّه، والصّلاةُ والسّلامُ على خاتمِ الأنبياءِ والمرسلين.

أيقظنا اللّه وإيّاكم من رقدة الغافلين، ووفّقنا اللّه وإيّاكم للتزوُّدِ قبل النقلة، وألهمنا اغتنام الزمان بما يقربُ مِنَ الرّحْمن.

هذا ما تيسرَ جمعُهُ، ونستغفر اللّه من كلّ ما زلّ بهِ القدمُ، أو طغى بهِ القلمُ، ونستغفرهُ منْ أقاويلنا التي لا توافق أعمالنا، ونستغفره ممّا ادّعيناه وأظهرناه من العلم بدين اللّه تعالى مع التقصير فيه، ونستغفره من كلّ خطرةٍ دعتنا إلى تصنُّعٍ وتزيُّنٍ، في كتابٍ سطّرناهُ أو كلامٍ نظمناهُ، أو علمٍ أفدناه.

ونسألهُ أن يجعلنا وإيّاكم، بما علمناه عاملين، ولوجهه به مريدين، وأن لا يجعله وبالاً علينا، وأن يضعه في ميزان الصّالحات إذا ردّت أعمالنا إلينا، إنّه جواد كريم.

وآخر دعوانا أنِ الحمدُ للّه ربّ العالمين.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة الناشر	٥
الوسيلة الكافية في تحصيل العافية	٧
الخصال المنجية في الدنيا والآخرة	٢٩
إصلاح القلوب	٥٧
المقدمة	٥٩
أصول نفيسة في إصلاح القلوب	٦١
علامات القلب السليم	٧٥
علاج القلوب	٨٢
صور مشرقة لأصحاب القلوب السليمة	٨٨
نصائح على الطريق	٩٢
نصيحة لمشاهدي الأفلام الماجنة	٩٧
عبر وعظات	١٠٥
الخاتمة	١٠٩
تذكير الإنسان بعداوة الشيطان	١١١
المقدمة	١١٣
التحذير من شرور الشيطان	١١٥

الحصن الحصين من الشيطان الرجيم ١٢٦
الخاتمة ١٥١
تحذير السالك من المهالك ١٥٣
المقدمة ١٥٥
التنافس في الدنيا ١٥٧
ثلاث خصال مهلكات ١٦٠
الاختلاف ١٦٢
البخل وطول الأمل ١٦٩
محقرات الذنوب ١٧٠
الغلو في الدين ١٧٣
التنطع ١٧٥
كثرة الخبث ١٧٧
ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ١٧٨
الغيبة ١٧٩
آثار الذنوب على الأفراد والشعوب ١٨١
التوبة طريق إلى الجنة ٢١٧
مقدمة ٢١٩
فضائل التوبة من الكتاب والسنة ٢٢٣
ما هي التوبة؟ ٢٢٧
وجوب التوبة ٢٢٨
شروط التوبة ٢٣١
نصائح على طريق التوبة ٢٤٠
خطر التسويف بالتوبة ٢٤٩

أسئلة وأجوبتها ٢٥١
الخاتمة ٢٥٣
وقفات قبل الفوات ٢٥٥
المقدمة ٢٥٧
احذر طول الأمل ٢٥٩
كن غريباً أو عابر سبيل ٢٦٠
اغتنم الصحة والفراغ ٢٦١
القبر صندوق العمل ٢٦٣
اغتنم حياتك قبل موتك ٢٦٤
الدنيا مزرعة الآخرة ٢٦٥
الأعمال بالخواتيم ٢٦٧
عبر وعظات ٢٦٧
الخاتمة ٢٧٧